
المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة طيبة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية



التَّشْبِيهُ بِالحَيَوانِ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ

دِرَاسةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ وَصفِيَّةٌ

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في البلاغة

إعداد

عفاف بنت أحمد العبدلي

إشراف:

أ.د. نجاح بنت أحمد الظهار

أستاذ البلاغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة طيبة

١٤٣١هـ / ٢٠١٠ م




بسم الله الرحمن الرحيم

قرار توصية اللجنة

☐ قبول الرسالة والتوصية بمنح الدرجة[١].

☐ قبول الرسالة مع إجراء بعض التعديلات دون مناقشتها مرة أخرى[٢].

☐ استكمال درجة النقص في الرسالة وإعادة مناقشتها.

☐ عدم قبول الرسالة.

تعليمات أخرى:

....

....

....

التوقيعات[٠]

	مقرر اللجنة	عضو	عضو	عضو	عضو
الاسم:	....	....	....	....	....
التوقيع:	....	....	....	....	....

---

[١] في حال الأخذ بهذه التوصية، يفوض أحد لجنة المناقشة بالتوصية بمنح الدرجة بعد التأكُّد من الأخذ بهذه التعديلات في مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر من تاريخ المناقشة. ولمجلس الجامعة، الاستثناء من ذلك بناءً على توصية لجنة الحكم ومجلس عمادة الدراسات العليا.

[٢] في حال الأخذ بهذه التوصية، يحدد مجلس عمادة الدراسات العليا، بناء على توصية مجلس القسم المختص موعد إعادة المناقشة، على أن لا يزيد ذلك على سنة واحدة من تاريخ المناقشة الأولى.

[٠] في حال الاختلاف في الرأي، لكل عضو من الأعضاء لجنة الحكم على الرسالة، حق تقديم ما له من مرئيات مغايرة أو تحفظات، في تقرير مفصل إلى كل من رئيس القسم، وعميد الدراسات العليا، في مدة لا تتجاوز أسبوعين من تاريخ المناقشة.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[1]﴾

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ[2]﴾

---

(1) **سورة الحشر، الآية:٢١.**

(2) **سورة العنكبوت، الآية:٤٣.**

إهداء

إلى سيد البشرية

وهادي الإنسانية

اعترافًا بفضله

ودفاعًا عن سننه

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ..، وبعد:

يقول الله عزَّ وجلَّ:﴿ **رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**[١] ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: "**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ**[٢]".

قد لا تفي كلمات الشكر والجزاء التي أقدمها إلى والديَّ حفظهما الله تعالى لما قدَّماه من دعمٍ نفسيٍّ متمثِّلًا في دعائهما لي والثَّناء عليَّ، كما أخصُّ بالشكر زوجي الذي ساندني منذ اللحظات الأولى لاختيار الموضوع، ولم يبخل بوقته أو جهده أو مكتبته في سبيل إخراج هذا البحث.

والشكر موصول إلى المشرفة على هذا البحث الأستاذ الدُّكتور: نجاح الظهَّار على ما قدَّمته لي من عونٍ في سبيل إخراج هذا البحث من خلال النصح والتوجيه والإرشاد، وبذلت لي وقتها وجهدها، وفتحت لي أبواب مكتبتها للإفادة مما فيها من كتبٍ.

كما أتقدم بالشكر إلى جامعة طيبة متمثلة بمدير الجامعة الأستاذ الدكتور: منصور النُّزهة، وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية الأستاذ الدكتور: سليمان الرحيلي، ووكيل الكلية الدكتورة: الجوهرة الزاحم، وعميد الدراسات العليا الدكتور: حاسن الشهري، كما أتقدم بالشكر إلى وكيلات الدراسات العليا السابقات والحاليات.

---

[١] سورة النمل، الآية:١٩.

[٢] سنن الترمذي، أبي عيسى محمَّد بن عيسى بن سورة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر،ج٤،كتاب البر والصلة،باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليه، حديث رقم:١٩٥٥، (لبنان–بيروت: دار الكتب العلمية)، :٣٣٩.

والشكر موصول إلى مكتبة الملك فهد الوطنية، وإلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وجامعة أم القرى، والجامعة الإسلامية، لتزويدي بالمراجع و الدراسات التي استعنت بها على إتمام هذا البحث وإخراجه إلى النُّور.

وبعد، فأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه سبحانه وتعالى، هو ولي التوفيق والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحثة

مُلْخَّصُ

"التَّشبِيهُ بِالحَيَوانِ فِي الحديثِ النَّبوِيِّ، دراسةٌ تحلِيليَّةٌ وَصفيَّةٌ"

تكمن أهمية هذا البحث في بيان أهميَّة التشبيه في الدرس البلاغيِّ والنَّقدي، والاعتماد في ذلك على الأحاديث الواردة في التشبيه بالحيوان في كتب الصِّحاح الستة، معتمداً في ذلك على المنهج التحليلي والوصفي.

وقد قُسِّم البحث إلى بابين، اهتمَّ الفصل الأول من الباب الأول بتتبع حياة الحيوان في البيئة العربية والديانات؛ وذلك لبيان أهمية الحيوان في حياة الإنسان وشدة ارتباطه به، ويتَّضح من الفصل الثاني كيف تمحور هذا الاهتمام وتجلى وبدا واضحًا في أدب وشعر العرب، ومن خلال الفصل الثالث يظهر بوضوحٍ كيف برزت وتشكَّلت في هذا الشعر والأدب أدقُّ سمات الحيوان وصفاته وخصائصه.

وتناول الباب الثاني تحليل أحاديث التشبيه بالحيوان في أحاديثه ﷺ، وذلك في أربعة فصول، مرتكزًا على ما ذُكر في الفصل الأول من أهمية للحيوان، وبيان لأهمِّ صفاته وخصائصه وسماته التي ميَّزته، وذلك عن طريق التشبيه الذي من خلاله تبلورت المعاني وتجسدت في صورةٍ حيَّةٍ ناطقة، ثم ختم هذا الباب بالفصل الخامس الذي يوضح ما بين القرآن الكريم والسنَّة النَّبوية من موضوعات وعناصر مشتركة في التشبيه بالحيوان.

أبرز نتائج البحث: ظهر واضحًا جليًّا من خلال هذا البحث أهمية الحيوان في حياة الإنسان وارتباطه الوثيق به منذ الأزل، كما اتضح أنَّ للتشبيه دورًا مهمًّا في بناء النَّص، وأنَّه يتآزر مع باقي الأساليب البلاغية في بناء النصوص المختلفة، ويظهر ذلك من خلال تشبيهاته ﷺ بالحيوان، التي اعتمد فيها على صفاته وخصائصه التي من خلالها اتخذت الصورة التشبيهية أشكالها البلاغية المختلفة والمتميزة التي تستطيع عبرها تصوير الحقائق الفكرية.

وفي ضوء ما توصل إليه البحث من نتائج تمَّ تقديم عددٍ من التوصيات، أهمُّها:أولًا: تشجيع الطالبات وحثُّهنَّ على حفظ الحديث النَّبوي؛ مما يعين على فهم البلاغة النَّبوية، وتدريس مادة البلاغة النَّبوية في الجامعات السعودية لتنمية ذوق الطلاب والطالبات في الدرس البلاغي. ثانيًا: اقترح البحث بعض الدراسات المستقبلية منها: دراسة التشبيه بالحيوان في القرآن الكريم، ودراسة الموضوعات والعناصر المشتركة بين التشبيه بالحيوان في القرآن الكريم والحديث النبوي، بالإضافة إلى دراسة أحاديث التشبيه بالحيوان في الحديث النَّبوي التي اعتمدت على الجملة الشرطية، وتنبع أهمية مثل هذه الدراسة في ظهور الجملة الشرطية في الحديث النبوي، كما اقترح البحث دراسة أحاديث التشبيه بالحيوان في الحديث النَّبوي التي اعتمدت على القصر، ودراسة أحاديث التشبيه بالحيوان في الحديث النَّبوي التي اهتمت بإيضاح الأحكام الفقهية والتعبدية.

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين، نبيِّنا محمدٍ هادي البشريَّة ومعلِّم الإنسانيَّة وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلا ينقطعُ الثناء والشكر على من أسدى النِّعم والمنن، ولا ينقطع التوقِير والتَّبجيل في النّفس ومشاعرِها تجاه محمّدٍ ﷺ. هذا النَّبيُّ الكريم الأميُّ الذي أتى بالنُّور معه، والناس أحوج ما يكونون إليه، أتى بالهدى والناس أشدُّ ما يكونون في الضَّلالة، أتى بالإيمان والنّاس أشدُّ ما يكونون في الكفر، أخرجهم من عبوديَّة أهوائهم إلى عبوديَّة رب العالمين، أعاد النُّفوس والفطرة إلى وضعها الصحيح الذي خُلِقت له ومن أجله.

فإذا كان رسول الله ﷺ هو صاحب هذا الفضل العظيم على أمَّته، كان لازمًا على هذه الأمة الاقتداء به في أقواله وأفعاله، التي هي منهاج يسيرون عليه في هذه الحياة.

فأقوال رسول اللهِ وأفعاله ليست كأقوال البشرِ وأفعالهم، فهو لا ينطقُ عن الهوى **{إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى}**[١]، فقد أُوتي ﷺ جوامع الكَلم لأنَّه كُلِّف بحملِ الرسالة وتبليغ الأمة أوامر ربها ونواهيه، "فرسولُ اللهِ ﷺ قد اختصَّ بالعصمة من الزلل في استعمالات اللُّغة، فلا يَعرِضُ لبيانِه ما يَعرض لبيان غيره من الجموحِ في العبارة، أو الإسفَاف في الدَّلالَة، أو النَّقصِ في التَّشبيه، أو العِوجِ في التَّمثيلِ، أو التَّطويل المجمل أو الإيجاز المخل، إلى غير ذلك من أوجُه القصور، فإنَّ ذلك يكون عند كذب العاطفة أو نقص الشُّعور أو التباسِ المعاني أو الجهلِ باللُّغة، ورسولُ الله ﷺ معصومٌ من كلِّ ذلك، لأنَّ هذه النَّقائص تُؤثِر في البلاغ وتعوقه عن أداء الرسالة"[٢] .

ولهذا فقد حَظِي حديث رسول الله ﷺ باهتمامٍ بالغٍ من العلماء على اختلاف تخصُّصاتهم، فأحاديثه ﷺ إنَّما هي توجيهٌ لصحابته خاصةً وأمته عامةً، حرص من خلالها رسول الله ﷺ على كَسبِهِم بقلبٍ رحيمٍ، ولسانٍ فصيحٍ بليغٍ، فكان من جملة ما استخدم رسول الله ﷺ في دعوته لأصحابه وتعليمه إيَّاهم، ذكره لبعض التشبيهات في أحاديثه؛ تلك التشبيهات التي كانت تجعل

---

[١] **سورة النجم، الآية: ٤.**

[٢] **أضواء على البلاغة النبوية، إبراهيم طه الجعلي، ط١،(مكتبة الرشد): ١٤.**

المعاني واضحةً بارزةً أمامَ أعيُنهم، فتشبيهاته ﷺ "لم تُقيَّد بظرف الزَّمان ولا بظرف المكان، فلم ينظر فيها إلى العرب وحدَهم ولا إلى النَّاس في زمن النُّبوة فحسب؛ ولا إلى جزيرة العرب وحدها، ولا إلى طبقةٍ دون طبقةٍ ؛ وإنَّما كانت تنظر إلى الإنسان من حيث هو إنسانٌ "[١]

"ولم يخفَ على العرب فضل التَّشبيه وقد أوتوا ما أوتوا من القدرة البيانية على انتقاء خير الأساليب في التعبير، وألطف الطُّرق للإبانة، فغمروا تعابيرهم بالتشبيه غمرًا، وكان غزيرًا لدقة إدراك العين المبصرة، والعقل الثاقب، والحسّ المرهف، والخيال الواسع عندهم، فطرز التَّشبيه أساليب بيانهم، وكان عندهم كثيرًا"[٢]

وكان ابن قتيبَة قد جعله أوَّل سببٍ من أسباب "اختيار الشعر وحفظه والاهتمام به"[٣]

ويقول أبو هلالِ العسكري عنه: "وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيلٍ ما يُستدلُّ به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسانٍ"[٤]

فالتَّشبيه كان ومازال فاشيًا في كلام العرب على وجه العموم، وفي كلامِ الشُّعراءِ والخطباءِ على وجه الخصوص، فهو الرِّيشة السحرية التي ترسم لنا المعاني، وتجسِّدها في لوحةٍ جميلةٍ خلابةٍ، نبصرها بأعيننا، ونسمعها بآذاننا، ونتذوَّق حلاوتها في نفوسنا .

يقول الزمخشري: "والتَّشبيهات إنَّما هي الطَّريق إلى المعاني المحتجبة في الأشياء حتَّى تبرزها وتكشف عنها وتصورها للأفهام "[٥]

ويفصل عبد القاهر الجرجاني في تباين مكانته، فيقُول: "إنَّهُ يعمل عمل السحر في تأليف المتبايِنَيْنِ حتَّى يختصر ما بين المشرِق والمغرِب، ويجمع ما بين المشْأَم والمعرِق، وهو يريك في المعاني الممثّلة للأوهام شبهًا للأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، ويُنطقُ لك الأخرس،

---

[١] **التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد الصباغ، ط.١،(١٤٠٩هـ،المكتب الإسلامي):٢٤.**

[٢] **التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي، رسالة ماجستير،(منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية،١٤٠٩هـ):٣٤.**

[٣] **الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ج١، (تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط٢):٨٤.**

[٤] **الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، (تحقيق: د.مفيد قمحة، دار الكتب العلمية):٢٦٥.**

[٥] **الكشاف، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ج٣، (بيروت– لبنان: دار المعرفة):٢٠٧.**

ويُعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، ويأتيك بالحياة والموت، والماء والنَّار مُجتمعين"[١]

لذا كان التشبيه من أهم الموضوعات التي أكثر النقاد من بحثها والاهتمام بها، لكثرة دورانها على ألسنة العامة والخاصة من الناس.

فلا غرابة أن يكون محلّ اهتمام البلاغيّين قديمًا وحديثًا، فكيف ببلاغة أبلغ البلغاء وأفصح الفُصحاء محمَّد بن عبد الله الذي أُعطي جوامع الكَلِم. تقول عائشة رضي الله عنها: "**مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْرُدُ كَسَرْدِكُم هَذَا ولكن كانَ يتكلَّمُ بكلامٍ بَيِّنٍ فصْلٍ يحفَظُهُ من جَلَس إليهِ**"[٢].

ولهذا فإنَّ الدِّراسة سوف تكون بإذن الله في التَّشبيه بالحيوان في الحديث النبويِّ، الذي يتَّسمُ بالبلاغة والفصاحة بعد كتابِ الله عزَّ وجلَّ، والذي أجمع علماءُ الأمَّة قديمًا وحديثًا على بلاغته وإعجازِه. يقول الجاحظ: "هو الكلامُ الذي قلَّ عدد حروفه وكثرت معانيه وجلَّ عن الصنعة ونزِّه عن التَّكلُّف... فلم ينطق إلاَّ عن ميراثِ حكمةٍ، ولم يتكلَّم إلاَّ بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتَّأييد ويُسِّر بالتَّوفيق، وهو الكلامُ الذي ألقى الله عليه المحبَّة ..."[٣].

فكيف لا يكون لرسول الله ﷺ هذه البلاغة، وهو المكلَّف بتبليغِ الرسالة، وما تحويه من تشريعاتٍ، وأحكامٍ عظيمةٍ لهذه الأمَّة ، فهو مُعدٌّ من قبل الله عزَّ وجلَّ لحمل هذه الأمانة العظيمة. يقول العقاد: "كان محمَّدٌ ﷺ مُستكملًا للصِّفات التي لا غنًى عنها في نجاح كلِّ رسالةٍ عظيمةٍ من رسالات التاريخ ، كانت له فصاحة اللِّسان واللُّغة ، وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمعِ الثِّقة ، وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على إنجاحها"[٤].

---

[١] **أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني،ط.٣(تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢١هـ،٢٠٠١م):٩٩.**

[٢] **سنن الترمذي، أبو عيسى محمَّد بن عيسى بن سورة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ج٥، (لبنان–بيروت: دار الكتب العلمية)،:٥٦٠.**

[٣] **البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ط.١(دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ)ج٢، :١٠-١١.**

[٤] **عبقرية محمد، عباس محمود العقاد، (المكتبة العصرية):٢٤.**

لقد حفل البيان النَّبوي بالصور البلاغية المتعددة التي كان لها أثرٌ واضحٌ في إيصال المعاني المختلفة للمتلقِّي، ويعدُّ التشبيه من تلك الصور التي كثيرًا ما شاعت في أحاديثه ﷺ وفي سياقات مختلفة وموضوعات متعددة ما يجعلها جديرة بالبحث والتحليل إثراءً للدَّرس البلاغيِّ العربيِّ.

❖ تقسيمات البحث:

قُسِّمت الرسالة إلى : مقدمة، وتمهيد، و بابين، وخاتمة .

- **المقدمة**.
- **التمهيد:** ويشتمل على: مكانة التَّشبيه في الحديث النَّبويِّ، صوره، وأسراره البلاغية.
- الباب الأول: أهميَّة الحيوان وخصائصه في البيئة والأدب، وفيه ثلاثة فصول:

▪ الفصل الأول: الحيوان في البِيئة العربيَّة والدِّيانات.

▪ الفصل الثاني: التشبيه بالحيوان في الأدب والشعر العربيِّ.

▪ الفصل الثالث: خصائص الحيوانات التي وردت في التَّشبيه النَّبويِّ.

- الباب الثاني: التَّشبيه بالحيوان في الحديث النَّبويِّ، خصائصه وأسراره البلاغيَّة، وفيه خمسة فصول:

▪ الفصل الأول: التَّشبيه بالدَّواب في الحديث النبويِّ، خصائصه وأسراره البلاغيَّة.

▪ الفصل الثاني: التَّشبيه بالزَّواحف في الحديث النَّبويِّ، خصائصه وأسراره البلاغيَّة.

▪ الفصل الثالث: التَّشبيه بالطَّير في الحديث النَّبويِّ، خصائصه وأسراره البلاغيَّة.

▪ الفصل الرابع: التَّشبيه بالحشرات في الحديث النَّبويِّ، خصائصه وأسراره البلاغيَّة.

▪ الفصل الخامس: الموضوعات والعناصر المشتركة بين التَّشبيه بالحيوان في القرآن الكريم، وبين التَّشبيه بالحيوان في الحديث النَّبويِّ.

- **الخاتمة:** وتتضمَّن ما يلي :

- خلاصة النتائج.
- التّوصيات.
- المقترحات.

- وقد ذُيِّل البحث بالعديد من الفهارس؛ استكمالًا للفائدة.

❖ مشكلة البحث:

إنَّ الحيوان وما يندرج تحته من أنعام و دواب وسباع..، وغير ذلك قد ورد ذكره في جملة مواضعَ من القرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة، للإشارة إلى قدرة الله الخارقة، وحكمته البالغة، وتدبيره العظيم الذي يَسَعُ كلَّ شيءٍ في الوجود بفضله ورحمته.

ولتنبيه الأذهان لتتدبَّر في خلق السَّماوات والأرض فتزداد إيمانًا ويقينًا، وتدرك أنَّ هذا الكون الواسع الذي يعجُّ بالمتضادَّات من قويٍّ وضعيفٍ، وصغير وكبير، إنَّما نظمه الخالق بقدرته، قال تعالى:"**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُون**"[(١)]

فكثيرٌ من الحيوانات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة، قد وردت في سياق التَّمثيل في النَّظم القرآنيِّ والنَّبويِّ، لرسم صورةٍ معيَّنة، أو توضيح هيئةٍ خاصَّةٍ، أو لكشف حقيقةٍ غائبةٍ، وقد تميَّزت هذه الصُّور التمثيليَّة بدقائق وأسرارٍ بلاغيَّةٍ تركيبيَّة، وصور بيَانيَّة، إلَّا أنَّ الأبحاث التي تناولت التَّشبيه بالحيوان في القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة تعدُّ نزرًا يسيرًا، مقارنةً بالمواطن التي ذُكر فيها الحيوان في القرآن الكريم والسنة النبويَّة.

فعمدت الباحثة إلى دراسة التَّشبيه بالحيوان، للكشف عن الأسرار الخفيَّة في أسباب وروده في الحديث النَّبويِّ في مقامه وسياقه وضرب المثل به، وأبرز الخصائص البلاغيَّة الجُزئيَّة والكُليَّة للأحاديث التي تعرضت لذكر الحيوان في الحديث النَّبويِّ، وربطها بما اكتشفه العلم الحديث من إنجازاتٍ علميَّةٍ مختلفةٍ، ذكرها ﷺ قبل ألفٍ وأربعمائة عامٍ.

ولعل ما سبق هو أهمّ ما يميِّز هذا البحث، ويظهر مواطن الجِدَّة فيه.

---

(١) **سورة الأنعام، الآية:٣٨.**

❖ أسئلة البحث:

١. ما أهمُّ الخصائص والسمات البلاغيَّة للتشبيهات النَّبويَّة التي ورد فيها الحيوان؟

٢. هل سيكشف تحليل أحاديث صور التشبيه بالحيوان في الحديث النبوي عن جديدٍ في هذا الدرس؟ وهل ستتفق هذه الصور شكلًا ومضمونًا مع صور التشبيه في الدرس البلاغيِّ القرآنيِّ؟

٣. ما أهميَّة "صور التشبيه بالحيوان" كأسلوب تربويٍّ في البيان النبويِّ؟

٤. ما أهمُّ خصائص الحيوانات وصفاتها التي وردت في التَّشبيه النَّبويِّ ودورها في رسم الصورة التشبيهية؟

٥. لماذا تباينت الصورة التشبيهيَّة بالحيوان في الحديث النبويِّ؟

٦. ما أهمُّ المضامين التي وردت بها أحاديث "صور التشبيه بالحيوان"؟

٧. ما أبرز الروابط بين التشبيهات القرآنيَّة بالحيوان والتشبيهات النبويَّة؟

٨. ما أهمُّ المقترحات التي يمكن تقديمها لتفعيل دراسة البيان النبويِّ؟

❖ أهمية البحث:

١ تظهر أهمية الدراسة في خدمتها لسنَّةِ رسول الله ﷺ، التي هي بيانٌ لشريعة الله، والدفاع عنها بتوضيحها وبيانها لمن جهلها من المعادين لها وغيرهم.
٢ تكمن أهميَّة هذه الدِّراسة في كونها تخوضُ مجالًا قلَّ الباحثون فيه، على الرَّغم من كثرة ذكر الحيوان في القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة.
٣ إنَّ دراسة التَّشبيه بالحيوان دراسة تحليليَّة وصفيَّة، توضح مكانة التَّشبيه النَّبويِّ، حيث إنَّ له قدرةً كبيرةً في إيصال المعاني في صورةٍ جماليَّةٍ خلابةٍ، تستأنس بها النفس، وتتقبَّلها على عكس لو جُرِّدت من التَّشبيه فإنَّها ستكون جافَّة ثقيلة على النَّفس.
٤ إنَّ كثيرًا من الأسرار البلاغيَّة في الحديث النبويِّ، تعدُّ نموذجًا يقتدي به المربُّون على اختلاف مستوياتهم، سواءً أكانت تشبيهًا ، أم استعارةً ، أم كنايةً ، أم مقابلةً، أم توريةً ... وغيرها.

٥ التشبيه فرعٌ جليٌّ من فروع علم البيان، استخدمه الرَّسول ﷺ كأسلوبٍ من أساليب الدَّعوة، ما يدعونا إلى دراسته، وكشف أسراره، ومعرفة دقائقه، لما له من قدرةٍ على التَّأثير والإقناع، وإيصال المعنى في أوضح صورة وأجملها.

٦ تربط هذه الدِّراسة بلاغة الرسول ﷺ وإعجازها بمعطيات العلم الحديث، ما يجعل كثيرًا ممَّن يحملون العداء له ﷺ يقفون وقفةَ إجلالٍ وإكبارٍ لهذا النبيِّ الأميِّ.

٧ تكشف هذه الدراسة كثيرًا من الأسرار البلاغيَّة في الحديث النبويِّ، ما يدفعنا إلى التأثُّر بها، لنستضيء بها في حياتنا، إذ إنَّ الرسول ﷺ قدوةٌ لكلِّ مسلمٍ في أقواله وأفعاله.

❖ أهداف البحث:

١ - إظهار أهمِّ الخصائص والسمات البلاغيَّة للتَّشبيهات النَّبويَّة التي ورد فيها الحيوان، وما تحويه من دقائقَ تعبيريَّةٍ، وخصائصَ تركيبيَّةٍ، وصورٍ بيانيَّةٍ.

٢ - الكشف عن صورٍ جديدةٍ في التَّشبيه بالحيوان في الحديث النَّبويِّ، تتَّفق هذه الصور شكلًا ومضمونًا مع صور التشبيه في الدَّرس البلاغيِّ القرآنيِّ.

٣ - إبراز أهمِّ "صور التشبيه بالحيوان" كأسلوبٍ تربويٍّ في البيان النبويِّ.

٤ - إبراز أهميَّة تباين "الصُّورة التَّشبيهيَّة بالحيوان" في الحديث النَّبويِّ، وما تكتنفه من أسرارٍ بلاغيَّةٍ.

٥ - بيان أهمِّ المضامين التي وردت بها أحاديث "صور التَّشبيه بالحيوان".

٦ - بيان أبرز الرَّوابط بين التَّشبيهات القرآنيَّة بالحيوان والتَّشبيهات النَّبويَّة.

❖مصطلحات البحث:

١/ الحيوان:

الحيوان: "اسمٌ يَقَعُ على كلِّ شيءٍ حيٍّ، وسمَّى الله عزَّ وجلَّ الآخرة حيوانًا، فقال: {**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**}[1]. وكلُّ ذي روحٍ حيوانٌ، والجمعُ والواحدُ فيه سواءٌ، والحيوانُ:

[1] سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

ماءٌ في الجنَّة لا يصيب شيئًا إلاَّ حَييَ بإذن الله عزَّ وجلَّ، وفي حديث القيامة: "**يُصبُّ عليه ماءُ الحيَاة**[١]"[٢].

"والحيوان على أربعة أقسامٍ: شيءٌ يمشي، وشيءٌ يطير، وشيءٌ ينْساحُ، إلاَّ أنَّ كُلَّ طائرٍ يمشي، وليس الذي يمشي ولا يطير يسمَّى طائرًا، والنَّوع الذِي يمشي على أربعة أقسامٍ: ناسٌ، وبهائمُ، وسباعٌ، وحشرات"[٢].

"والحيَوانُ: جنس الحيِّ، والحيوان الحياةُ، وفي بناء الحيوان زيادةُ معنى، ليس في بناء الحياة، وهو ما في بناء فَعَلاَنَ من الحركات ومعنى الاضطِّراب، والحياةُ حركةٌ كما أنَّ الموت سكونٌ، فمجيئه على ذلك مبالغةٌ في معنى الحياةِ. والحيوانُ والحياةُ بمعنى واحدٍ"[٣].

"والحيوانُ: هو ذو الأربعة أرجلٍ، وهِي الفَقَّاريَّاتُ ذوات الأربعة أقدام، وهي الأربعةُ طوائف الباقية من الفقَّاريَّات، أي البرمَائيَّاتُ، والزَّواحِفُ، والطُّيورُ، والثَّدييَّاتُ، وعلى الرغم من أنَّ أفراد هذه الطَّائفة تظهر فيما بينها الكثير من الاختلافات الشكليَّة والتَّشريحيَّة؛ إلَّا أنَّها تتفق في أنَّ لها زوجين من الأطراف، هياكلها مبنيَّة بنظامٍ موحَّدٍ، يُعرفُ بهيكل الطَّرف الخُماسيِّ الأصابع، وحزاميها الصَّدريُّ والحوضيُّ مبنيَّان أيضًا بنظامٍ واحدٍ."[٤]

"والحشراتُ: هي ذواتُ الأَجنحة، يظهر في دورة حياتها تحوُّلٌ كاملٌ تدريجيٌّ، إذ تفقِسُ بُويضَاتُها عن طورٍ يختلِفُ كلية عن الطَّور اليافع، ويسمى باليَرَقَانَة، ثم تتحوَّلُ هذهِ اليَرَقَانَةُ إلى

---

(١) **صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ج١، (لبنان–بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ)،:١٦٣–١٦٦. كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم١٨٢.**

(٢) **لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري،ج١٤،(باب الياء،فصل الحاء)،ط١،(بيروت–لبنان:، دار صادر):٢١٤.**

(٢) **الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج١،(مصر: مطبعة مصطفى البابي، ١٩٣٨م):٢٧.**

(٣) **حياة الحيوان الكبرى،كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدُّميري،ط١، ج١،(بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ)،:٤٠١.**

(٤) **علم الحيوان، محمود أحمد البنهاوي، عبد العظيم عبد الله شلوي، إميل شنودة دميان، محمد أمين رشدي، فتحي عبد الفتاح سعود، ط.١٠، (دار المعارف):٤٦٧.**

عذراءَ، ثمَّ إلى حشرةٍ يافعةٍ، وتُعرف مثل هذه الحشَراتُ بتامَّة التَّحوُّل. ومن أمثلتها: الخَنَافسُ، والنَّملُ، والدَّبَابيرُ، والنَّحلُ، والفراشاتُ، وآباءُدقيقٍ، والذُّبابُ المنزِليُّ، والبعوضُ، والبراغِيثُ."[١]

والحيوان الذي سوف يتناوله البحث هو الحيوان الذي ورد به التشبيه في الحديث النبويِّ، وهو ما كان يمشي على أربعٍ، نحو: الإبل، الخيل، الكلب، الجدي، الشاة، الغنم، الكبش، الأرنب، الخنزير، البقر، الثور، الحمار، الأسد، الذئب، الفهد. أو يزحف، نحو: الحيَّة. أو الطير، نحو: الطير، الدجاج، الديك، الحمام، والحشرات، نحو: النحل، الجراد، الذباب، الفراش، البعوض.

٢/ الدَّابة:

"الدابة: اسم لما دب من الحيوان، مميزة وغير مميزة، وفي التنزيل العزيز: **{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}**[٢]، ولما كان لما يعقل وما لا يعقل قيل: (فمنهم)، ولو كان لما لا يعقل قيل: (فمنها)، أو (فمنهن)، ثم قال: من يمشي على بطنه وإن كان أصلها لما لا يعقل، لأنه لما خلط الجماعة فقال: (فمنهم)، جعلت العبارة بمن، والمعنى: كل نفس دائبة.

وقوله عز وجل: **{ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ}**[٣] قيل: من دابة من الإنس والجن، وكل ما يعقل؛ وقيل: إنما أراد العموم؛ يدل على ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: كاد الجعل يهلك في جحره، بذنب ابن آدم. والدَّابة: التي تُركب؛ وقد غلب هذا الاسم على ما يركب من الدواب، وهو يقع على المذكر والمؤنث، وحقيقته الصفة."[٤] و "دَ بَ بَ- (دَبَّ) يَدِبُّ بالكسر (دبًّا) و(دَبِيبًا) وكلُّ ماشٍ على الأَرضِ (دَابَّةٌ)"[٥]

---

[١] **المصدر السابق،:٤١٣-٤١٤.**

[٢] **سورة النور، الآية ٤٥.**

[٣] **سورة فاطر، الآية ٤٥.**

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق،ج١،(باب الباء، فصل الدال)،:٣٦٩-٣٧٠.**

[٥] **مختار الصحاح، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق وضبط: حمزة فتح الله، ترتيب: محمود خاطر، مادة (دبب)، (دمشق: دار البصائر، بيروت: مؤسسة الرسالة، المدينة المنورة: مكتبة طيبة، ١٤٠٧هـ) :١٩٧.**

والدابة التي سوف يتناولها البحث هي التي تمشي على أربع، والتي ورد التشبيه بها في الحديث النبوي.

٣/ الحديث النبويُّ:

سوف تتناول الباحثة أحاديث التَّشبيه الواردة في كتب الصحاح الستَّة، وهي:

أ- صحيح الإمام البخاريِّ:

هو الإمام أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرةِ بن بَرْدزبَه، ولد يوم الجمعة بعد الصِّلاة لثلاث عشرة ليلةٍ خلت من شوَّال سنة أربعٍ وتسعينَ ومائة، وهو صاحب كتاب: الجامعُ المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيَّامه المشهور بـ"صحيحُ البخاريِّ"[1].

ب- صحيح الإمام مسلم:

هو أبو الحسين مُسلم بن الحجَّاج القُشَيْرِيِّ النَّيْسَابُوريِّ، وُلِد بمدينة نَيْسابُور سنة٢٠٦هـ، وتوفي بها سنة ٢٦١هـ. رحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق في طلب الحديث، وكان أحدَ أئِمَّة الحديث وحفَّاظِهِ، اعترف علماء عصره ومن بعدهم له بالتقدُّم والإتقان في هذا العلم.

صنَّف الإمام مسلم كتباً كثيرةً، أشهرها: صحيحه(المسند الصَّحيح)، وكتاب العِلل، وكتاب التَّمييز.[2]

ج - سنن أبي داود:

اسمه: سُليمان بن الأَشْعثِ بن شدَّاد بن عمرو بن عامر. وُلد سنة اثنتينِ ومائتينِ للهجرة، ورحل وجمع وصنَّف وبرع في هذا الشأن، قال الخطيب أبو بكر: يقال إنَّه صنَّف كتابه السُّنن

---

[1] **سير أعلام النبلاء، محمد أحمد الذهبي، تحقيق:شعيب الأرناؤوط، ج١٢،ط٦(بيروت:مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ،١٩٨٩م):٣٩١-٣٩٢-٤٠٠.**

[2] **المصدر السابق:ج١٢، ٥٥٧-٥٨٠.**

قديماً وعُرِضَت على أحمد بن حنبل فاستجاده واستحسنه، توفي أبو داود في السادس عشر من شوَّال سنة خمسٍ وسبعينَ ومائتين.[١]

د- سنن الترمذيِّ:

التِّرْمِذِيُّ: محمَّد بن عيسى بن ثَورَةَ بن مُوسَى الضَّحَّاك، مُصنِّف: الجامع وكتاب العلل، اختُلِفَ فيه فقيل: وُلِد أعمى، والصَّحيحُ أنه أَضَرَّ في كِبَرِه بعد رحلته وكتابته للعلم. وُلد في حدود سنة عشرٍ ومائتين، قال غِنْجَار وغيره: مات أبو عيسى في الثالث عشر من رجب سنة تسعٍ وسبعينَ ومائتين بترْمِذ.[٢]

هـ - سنن النَّسائيِّ:

النَّسائِيُّ: اسمه الإمام الحافظ الثَّبتُ شيخ الإسلام ناقد الحديث أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخُراسانيُّ النَّسائيُّ صاحب السُّنن، ولد بِنَسَا في سنة خمس عشرةَ ومائتين، وطلب العلم في صِغَره، جال في طلب العلم في خُراسان والحجاز والشام والثُّغور، ثم استوطن مصر ورحل الحُفَّاظ إليه ولم يبقَ له نظيرٌ في هذا الشأن. مات بِجُرجَان في رجب سنة خمسٍ وثلاثمائةٍ وهو في عَشر المائة[٣].

و - سنن ابن ماجة:

ابن ماجة: محمَّد بن يزيد الحافظ الكبير الحُجَّة المفَسِّر أبو عبد الله بن ماجة القَزْوِينيُّ مصنِّف السُّننِ والتاريخ والتفسير وحافظُ قَزوين في عصره، وُلد سنة تسعٍ ومائتين للهجرة، قال أبو يَعْلَى الخليليُّ: "هو ثِقَةٌ كبيرٌ متفقٌ عليه محتجٌّ به له معرفةٌ بالحديث وحِفْظٌ" . ارتحل إلى العِراقَين ومكَّة والشَّام ومصر والريَّ لِكَتْبِ الحديث. قلتُ: مات في رمضان سنة ثلاثٍ وسبعينَ ومائتين، وقيل سنة خمسٍ والأول أصح. وعاش أربعاً وستِّين سنةً[٤].

٤/ مُعطيات العلم الحديث:

---

[١] **المصدر السابق:ج١٣،:٢٠٣-٢٠٩-٢٢١.**

[٢] **المصدر السابق:ج١٣،: ٢٧٠-٢٧١-٢٧٧.**

[٣] **المصدر السابق:ج١٤،:١٢٥-١٢٧.**

[٤] **المصدر السابق:٢٧٧-٢٧٩.**

ونقصد بمُعطَيات العلم الحديث هو ما اكتشفه العلم الحديث من اكتشافاتٍ في مجالاتٍ علميَّةٍ مختلِفةٍ تختَصُّ بالحيوان، تحدَّث عنها الرَّسول ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا.

٥/ دلالة الأحجام والأشكال والحركات:

هو توظيف الرَّسول ﷺ لمفهوم الحجم أو الشَّكل أو الحركة في أحاديثه لإيصال المعنى الذي يريده لأصحابه، مثل: حديث التَّبكير لصلاة الجمعة.

٦/ دلالة الألوان:

هو ما استخدمه الرَّسول ﷺ في التَّشبيه من اختيارٍ لبعض الألوان دون غيرها لإبراز معنًى من المعاني، كحديث الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود.

٧/ الدَّلالة النفسيَّة:

هي اعتماد الرسول ﷺ على استثارة المشاعر النَّفسيَّة للصحابة في تشبيهاته بإبراز معنًى يريد إيصاله لهم، كحديث فرح الله بتوبة عبده.

❖ منهج البحث:

تعتمد الدراسة على المنهجين التاليين: المنهج التَّحليلِيُّ، والمنهج الوصفيُّ.

١/ المنهج التحليلي:

"هو منهج يقوم على دراسة الإشكالات العلميَّة، المختلفة، تفكيكًا، أو تركيبًا، أو تقويمًا"[١].

٢/ المنهج الوصفي:

هو منهج "يقوم على استقراء المواد العلمية، التي تخدم إشكالاً مَّا، أو قضيَّةً مَّا، وعرضِها عرضًا مرتَّبًا ترتيبًا منهجيًّا"[٢]

---

[١] **أبجديات البحث في العلوم الشرعية، فريد الأنصاري، ط١(منشورات الفرقان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء):٩٦.**

[٢] **المرجع السابق،:٦٦.**

وتتطلب دراسة التَّشبيه دراسة نظريَّة رصدَ التَّشبيه في الحديث النَّبويِّ ووصفَه، وتحليلَه، ومناقشتَه في ضوءِ أبعادٍ متعددةٍ، كموقعه من الغرضِ الذي سِيقَ من أجلِه، ومدى مناسبة المشبه به للمشبه، وأهميةُ تباين الصورة التشبيهيَّة، كما تتطلب دراستُها تحليل أحاديث التشبيه تحليلًا بلاغيًّا يكشف عن أهمِّ موضوعاته، وأغراضه، وسياقاته، وتلاؤمه مع الأغراض، ووصف الدرس كما جاء في الحديث، والكشف عن كلِّ الملابسات المحيطة به: الألفاظ، والمعاني، والأسلوب، وحدود اتفاقه واختلافه مع الأسلوب التشبيهي في القرآن.

والأنسب للوقوف على تلك الأبعاد والقضايا استخدام المنهج الوصفيِّ والتَّحلِيليِّ؛ إذ إنَّه "يقوم على رصد ومتابعة دقيقة لظاهرة أو حدث معين، من أجل التعرف على الظاهرة أو الحدث من حيث المحتوى والمضمون والوصول إلى نتائج وتعميمات تساعد على فهم الواقع وتطويره".[١]

❖حدود البحث:

سوف يتَّخذ البحث من أحاديث التَّشبيه الصحيحة في كتب الصحاح الستَّة مادَّتهُ العلميَّة، ومن التَّشبيه بالحيوانات الواردة في أحاديث رسول الله ﷺ ميدانًا للبحث والتَّحليلِ، وتَخُصُّ الباحثة الحيوانات التي شَبَّه بها والتي وردت صريحةً على لسانهِ ﷺ ، ويبلغ عددها ستةً وثلاثين حديثًا، وسوف يكون التركيز فيها على المشبه به وهو (الحيوان) لأنَّه الشيء الذي جاء به الرسول ﷺ ليقرن به المشبه ، وستحاول الباحثة الكشف عن براعته وبلاغته ﷺ في اختيار المشبه به وما تميز به هذا التشبيه من إيحاءاتٍ ومن معانٍ وأسرارٍ ودقائق، من خلال الربط بين هذا التشبيه ومعطيات العلم الحديث علَّه يساعد على كشف نزرٍ يسيرٍ من بلاغته ﷺ.

❖ الدراسات السابقة:

لم يحظَ التشبيه بالحيوان في الحديث النبويِّ –كتب الصحاح الستَّة– بدراسة وبحث مستقل من قبل الباحثين، وإن وُجِدت بعضُ الدراسات التي جمعت تشبيهات مختلفة بالحيوان وغيره في بعض كتب الحديث مثل صحيح البخاريِّ ومسلم ، غير أنَّ التشبيه بالحيوان قد دُرِس

---

[١] **البحث العلمي أسسه ومناهجه وأساليبه وإجراءاته، ربحي مصطفى، ط.د(عمان: بيت الأفكار الدولية، ت.د) :٤٨.**

بشكل عام في التشبيه وغيرِه من علوم البيان الأخرى كالمجاز والاستعارة والكناية في القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة. ومن هذه الدراسات:

١. دراسة: محمَّد لُطفِي الصَّبَّاغ(١٤٠٠هـ) "التصوير الفنيُّ في الحديث النبويِّ"[1]

أهداف الدراسة:

الكشف عن العناصر الجماليَّة والصور الفنيَّة في الحديث النبويِّ، ومناقشة قضيَّة جواز رواية الحديث النبويِّ بالمعنى.

منهج الدراسة:

المنهج الأدبيُّ النَّقديُّ التحلِيليُّ.

فصول الدراسة:

جاءت الدراسة في تمهيدٍ وثلاثةِ أبوابٍ ، تحدث في الباب الأخير عن الصورة التشبيهية، وتناول عددًا من الأحاديث التي وردت على هيئة صورةٍ تشبيهيَّةٍ، وكانت في الغيبِيَّات والإنسان والحيوان.

أبرز نتائج الدراسة:

- البيان النبويُّ يُجَسِّم المعاني في صورةٍ حسيَّةٍ رائعةٍ.
- البيان النبويُّ يرتفع إلى أعلى درجات البيان البشريِّ.
- للتصوير في الحديث النبويِّ وسائل مختلفة، كان (التشبيه) إحدى هذه الوسائل.

ويمكن لدراسةِ الباحثة أن تفيد من هذه الدِّراسة من جهة النظر إليها كوسيلة من وسائل تكوين الصورة الفنية في التشبيه .

وتختلف دراسة الباحثة في أنها تركز على التشبيه بشكل خاص دون غيره من الفنون البلاغية، والاقتصار على التشبيه بالحيوان.

---

[1] التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد لطفي الصباغ، رسالة دكتوراه منشورة (بيروت:المكتب الإسلامي، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م).

٢. دراسة: فوزيَّة يوسف البغدادي(١٤٠٥هـ) "الحيوانُ في القرآن، دراسة بلاغيَّة"[١]

أهداف الدراسة:

- الكشف عن أهمية الحيوان في حياة الإنسان قديمًا وحديثًا.
- اهتمام العرب الجاهليين بالحيوان وانعكاس ذلك على أشعارهم.
- توضيح أهم الأهداف البيانية والتربوية من ذكر الحيوان في القرآن الكريم.
- قيام كثير من الدراسات قديمًا وحديثًا حول الحيوان بفضل اهتمام القرآن به.

منهج الدراسة:

المنهج التحليليُّ الوصفيّ.

فصول الدراسة:

جاءت الدراسة مكونة من تمهيد وأربعة فصول، تحدثت الباحثة في التمهيد عن معنى كلمة حيوان في كتب اللغة، وما المقصود من كلمة (حيوان) المستخدمة في البحث، كما تحدثت عن اختلاف الحيوانات من حيث الغذاء والدفاع عن النفس، وفي الفصل الرابع من الدراسة قسَّمت الباحثة هذا الفصل إلى أربعة أقسام، تحدثَّت في القسم الثالث عن بعض الآيات التي ورد فيها تشبيه بالحيوان موضحة أهم الأغراض التربوية التي وردت في هذه الآيات الكريمة.

أبرز نتائج الدراسة:

- الحيوان من عجائب خلق الله ومن أروع آيات الله الدالة على قدرته سبحانه وتعالى.
- لم تقتصر أهمية الحيوان على الجانب النَّفعي، بل تعدَّته إلى الجانب الجمالي والشعوري.

---

[١] **الحيوان في القرآن، دراسة بلاغية،فوزية يوسف البغدادي، رسالة ماجستير غير منشورة، (قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٥هـ.)**

- تحدث القرآن عن الحيوان كعلامة من علامات قدرة الله في الكون في أكثر من خمسٍ وخمسِينَ سورةً.
- إحالة الحيوان في القرآن إلى موضوع تأمُّل وتدبُّر واعتبار.
- كان لورود الحيوان في القرآن أغراض ومقاصد تربوية.
- تشابه الحيوانات التي وردت في القرآن الكريم مع التي وردت في الحديث الشَّريف مع الاختلاف في الغرض الذي سِيقت من أجله.

وتفيد دراسة الباحثة من هذه الدراسة في كونها تناولت الحيوان في جميع الفنون البلاغية، إلا أنَّ دراسة الباحثة تختلف عنها في كونها تتناول فنَّ التشبيه في الحديث النَّبويِّ الشريف، وتتخذ من التشبيه بالحيوان مجَالًا للبحث والتحليل.

٣. دراسة:فائزة سالم(١٤٠٥هـ،١٤٠٦هـ) " التشبيه التمثيليُّ في الصَّحيحينِ"[١]

أهداف الدراسة:

- الكشف عن أصول "فنِّ التَّشبيه" عند العلماء الذين سبقوا عبد القاهر الجُرجَانِي.
- الوقف على أهم أسرار الصياغة في التَّمثيل النبويِّ.
- الكشف عن أبرز العلاقات بين التَّمثيل القرآنيِّ والنبويِّ.

منهج الدراسة:

المنهج التحليليُّ ، والمنهج التاريخيُّ.

فصول الدراسة:

جاءت الدراسة في بابين ، درست في الباب الثاني التشبيه التمثيلي، وأبرزت من خلاله أهمَّ المعاني التي جاءت في التمثيل النبويِّ، بالإضافة إلى أهمِّ المصادر التي استخدم فيها البيان النبويُّ عناصر التَّمثيل.

---

[١] **التشبيه التمثيلي في الصحيحين، فائزة سالم صالح، رسالة ماجستير غير منشورة، (قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة،١٤٠٥هـ،١٤٠٦هـ،١٩٨٥م،١٩٨٦م).**

أبرز نتائج الدراسة:

- التشبيه التمثيليُّ من أبرز التشبيهات التي استخدمها الرسول ﷺ في حديثه.
- تشابه عناصر التَّمثيل في القرآن الكريم والحديث الشَّريف مع اختلاف الغرض الذي سِيقت له.
- تكثر الألفاظ والتَّراكيب في بعض الأحاديث القرآنيَّة.

ويمكن للباحثة أن تفيد من هذه الدراسة في كونها تناولت نوعًا من أنواع التشبيه وهو التشبيه التمثيلي في الصحيحين، غير أنَّها تناولت التشبيه بالحيوان وبغيره، وتختلف عنها دراسة الباحثة في كونها ستتناول التشبيه بالحيوان في الكتب الستة، وتَحلِيلها تحلِيلًا شاملًا متكاملًا من الناحية البلاغية.

٤. دراسة: وَاجدة مجِيد الأطْرَقْجِيُّ (١٤٠٩هـ) "التَّشبيهاتُ القرآنيَّة والبيئة العربيَّة"[١]

أهداف الدراسة:

- الكشف عن إعجاز القرآن الكريم في ربط الصورة التشبيهية بالبيئة العربية.

منهج الدراسة:

المنهج التاريخيُّ، والمنهج الوصفيُّ.

فصول الدراسة:

جاءت الدراسة في مقدمة وثمانية فصول: تحدثت الباحثة في المقدمة عن تناول العلماءِ القدامى والمحدثين لكثيرٍ من أنواع التشبيهات القرآنية، وتفسيرهم وشرحهم لها وتأكِيدِهم على أَنَّ هذه التَّشبِيهات مصدرُها البيئة العربية.

---

[١] **التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي، رسالة ماجستير،(منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية،١٤٠٩هـ).**

ثمَّ تحدَّثت عن القرآنِ الكريمِ وأنَّه يَعرِضُ في تشبيهاته المعقولات عن طريق تَشبِيهِهَا في الحياة من نبات ومياه وحيوان وبحار وجبال، وفي الفصل الخامس درست الحيوان في تشبيهاتِ القرآن مِمَّا يؤكد ما ذهبت إليه الباحثةُ من أن التَّشبيه بالحيوان لم يتناول كدراسةٍ شاملةٍ مستقلَةٍ.

أبرز نتائج الدراسة:

- تشبيهات القرآن مستمدة من عناصر الطبيعة.
- يعدُّ التَّشبيه إِحدى الأَساليب التي استخدمها القرآن الكريم لتقريب المعاني والصور.
- تتشابه عناصر التَّشبيه في القرآن والحديث، مع اختلاف الغرض الذي سيقت له.
- يوجد في بعض الأحاديثِ كثير من الألفاظ والتراكيب القرآنية.

وتفيد دراسة الباحثة من هذه الدراسة من خلال طرحها الذي عد الحيوان عنصرًا اعتمد عليه القرآن الكريم في تشبيهاته، إلاَّ أنَّ دراسة الباحثة تختلف عنها في كون دراستها ستختصُّ بالتشبيه بالحيوان في الحديث النَّبويِّ الشَّريف، وتعتمد على العمق في الدِّراسة والتَّحلِيل لأنَّ موضوعها أكثر تحديدًا.

٥. دراسة: أحمد الثَّقفيُّ (١٤٢٣هـ) "التَّشبيه في صحيح مسلم"[١]

أهداف الدراسة:

- الكشف عن تَنَوُّع أسلوب التَّشبيه في حديث النبيِّ ﷺ من حيث أنواعه، وموضوعاته.
- الوقوف على العناصر والموضوعات المشتركة بين التَّشبيه في القرآن الكريم والحديث النبويِّ.

منهج الدراسة:

المنهج التحليليُّ.

فصول الدراسة:

---

[١] **التشبيه في صحيح مسلم، أحمد الثقفي، رسالة ماجستير غير منشورة، (قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤٢٣هـ).**

جاءت الدراسة في مقدمة وثلاثة أبواب، في الباب الثاني درس التشبيه التمثيليَّ في موضوعات متنوعة، وفي الباب الثالث درس الموضوعات والعناصر المشتركة بين التشبيه في القرآن الكريم والحديث النبويِّ.

أبرز نتائج الدراسة:

تأثير القرآن الكريم على الأسلوب النبويِّ من حيث الموضوعات، والعناصر التي تكونت منها الصورة التشبيهية المتعلقة بالجماد، والنبات، والحيوان.

وتفيد دراسة الباحثة من هذه الدِّراسة في أنَّها تتناول التَّشبيه في صحيح مسلم وهو أحد الكتب التي ستتناول الباحثة موضوع التَّشبيه من خلاله، كما أَنَّها ستفيد الباحثة من جهة الوقوف على أبرز أوجه الاتفاق والاختلاف بين الأسلوبين في التَّشبيهات القرآنيَّة والتَّشبيهات النَّبويَّة.

وتختلف دراسة الباحثة عن هذه الدراسة في أَنَّها تتناول التشبيه بالحيوان في الحديث النَّبويِّ -كتب الصحاح الستَّة- .

❖ خطوات منهج الدراسة:

ستنتهج الباحثة في هذه الدراسة المنهج التحليليَّ الوصفيَّ ، وستقوم الدراسة وفق ما يلي:

١ - اختيار الأحاديث موضع الدراسة وفق الضوابط الآتية:

- استخراج المادة العلمية من كتب الصحاح الستة.
- اختيار الأحاديث التي ورد فيها التشبيه بالحيوان صريحًا على لسان الرَّسول ﷺ، إذ إنَّ هناك عددًا كبيرًا من الأحاديثِ ورد فيها التَّشبيه على لسان أحدِ الصَّحابة ضمن حديثٍ لصحابيٍّ مع الرَّسول ﷺ.
- تخريج الأحاديث وتوثِيقِها كما وردت في كتب الصِّحاح والسُّنن.

٢ - شرح الأحاديث موضع الدراسة بالاعتماد على كتب الشروح مع مراعاة الضوابط الآتية:

- الاعتماد في شرح الأحاديث على كتب الشُّروح للمتقدِّمين والمتأخِّرين من عُلماء الأحاديث .
- الاعتماد على الكتب التي تناول فيها العلماء شرحًا لأحاديث معينة، مثل كتاب: جامع العلوم والحكم لابن رجب، وكتاب مدارج السَّالكين لابن قيم الجوزيَّة، ورسائلَ صغيرةٍ في شرح أحاديثَ معيَّنة، مثل رسائل الدكتور فالح بن محمَّد الصَّغير في شرح بعض الأحاديث وغيرها؛ لما له من أهمية في فهم معنى الحديث.
- الاعتماد على الكتب التي تناولت الأحاديث من الوُجهة الفقهية، أو الأصولية، أو العقَدية؛ لأنَّ هذا ممَّا يعين على فهم الحديث فهمًا دقيقًا.
- الاعتماد على الكتب التي تناولت الشروح بالدرس والنقد، لفهم الأحاديث ببصيرة ووعي، بعيدًا عن آراء الفرق المنحرفة.
- الاعتماد على الكتب العلميَّة القديمة والحديثة، التي تشرح وتحلل وتصف حياة الحيوان، مثل بعض الموسوعات كموسوعة الإبل لفلاح خليل العانِي، ورحلة في حياة الحيوان لهارون يحيى، والحيوان في القرآن لزَغْلُول النَّجَّار، والمخصَّص لابن سيدَه، والحيوان للجاحظ، وحياةُ الحيوانِ للدُّميرِي.
- إبراز أوجه الإعجاز العلمي في الأحاديث إن وجدت، وبيان أثر ذلك في الصورة التشبيهيَّة.
- الاعتماد على الكتب والمختارات الشِّعريَّة التي ورد فيها وصفٌ للحيوانِ، وربطُ ذلك بالتَّشبيه، مما يُثْرِي المعنى في الحديث، مثل ديوان الهُذَلِيِّين، والمعلَّقات، والأصمعيَّات، والمفضَّليَّات، وغيرها.
- توضيحُ أهمِّية أسلوب التَّشبيه في حديث النَّبيِّ ﷺ وقيمته في توكيد الفكرة التي قام عليها الحديث.

٣ - تحليل الأحاديث موضع الدراسة تحليلًا بلاغيًّا وفق الخطوات التالية:

- تحليل أحاديث النَّبيِّ ﷺ التي ورد فيها التشبيه بالحيوان تحليلًا بلاغيًّا يكشف تشكيل أبنية الأحاديث، وعن المعاني التي تضمَّنتها، وعن المقامات التي كانت سببًا في قول تلك الأحاديث.

- التَّركيز على دلالة الألوان والأشكال والأحجام في الحديث لما لها من أهمِّية في إيصال المعنى واضحًا.
- الوقوف على الحالة النَّفسيَّة والحركيَّة في الحديث.
- دراسة بعض الألفاظ من جهة: صيغها، جرسها، إيحاءاتها، وأثر ذلك في الصورة التَّشبيهيَّة.
- دراسة موضوعات التشبيه المشتركة بين القرآن والحديث، ودراسة تراكيبها وصورها، وإبراز أوجه الاتِّفاق والاختلاف .

٤ – نسبة الأشعار إلى قائلِيها والتَّعريف بهم.

٥ – التعريف ببعض الأعلام، ورواة الحديث، والشعراء، والمدن.

٦ – التعريف ببعض المصطلحات البلاغيَّة التي لها صلة بموضوع الدراسة إن وُجد.

وأخيرًا..

إنَّ خروج هذه الرسالة بهذه الصورة لم يكن مقتصرًا على مجهودي المتواضع، بل كان ورائي من يرشدني ويدلني على الصواب، ويساندني بالمشورة بعد الله عز وجل.

فأخص بالشكر والتقدير من بين هؤلاء: المشرفة على الرسالة: أ.د. نجاح أحمد الظهار. على ما قدمته من توجيه في سبيل إخراج هذه الرسالة، كما أتوجه بشكري وتقديري إلى عضوي لجنة المناقشة: الدكتور: بدر عبد العال حسين أستاذ البلاغة المشارك بجامعة طيبة، والدكتورة: سميرة عدلي رزق الأستاذ المشارك بجامعة الملك عبد العزيز، لتفضلهما بإبداء ملاحظاتهما التي سيكون لها الفضل بعد الله عزَّ وجلَّ في إكمال ما قد يكون اعترى هذا البحث من نقص أو خلل. سائلة المولى عز وجل أن يجزيهم خير الجزاء.

تَمْهِيد

مَكَانةُ التَّشبِيهِ فِي الحدِيثِ النَّبَوِيِّ

صُورُه وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

أرسل الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ من خير العرب نسبًا، وأكرمهم حسبًا، وأعلاهم بيتًا، وكانت قبيلة بني هاشم إحدى قبائل قريش، وقريش أفصح القبائل العربية، وأعذبها منطقًا، وأصفاها لفظًا.

وقد تهيَّأ للغة قريش قبل الإسلام من عوامل الصفاء والنقاء، وأسباب الفصاحة والبلاغة ما جعلها جديرةً بأن يُنزَّل بها كتاب {**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**}[1].

فقد كان العرب يفدون على مكة للحج، ويقصدون الأسواق القريبة منها للتجارة، والمُنافرة، والمُفاخرة، ولعرض ما تجود به قرائح الشعراء من شعر، وكان القرشيون يمرون بالقبائل العربية قاصدين اليمن في رحلة الشتاء، أو عائدين من الشام في رحلة الصيف، فتهيَّأت لهم من هذه المخالطة المستمرة خبرة لاختيار أحسن الألفاظ، وأفصح التراكيب، وأبرع الأساليب.

ولم يكد يقترب ميلاد الرسول ﷺ حتى كانت لغة قريش هي اللغة السائدة في الجزيرة العربية، وأيسرها على الألسنة، وأعظمها فصاحة وبلاغة.

وفي هذه القبائل النَّازلة ببطحاء مكة، ومن بين هؤلاء الرجال الذين عرفوا بالفصاحة نشأ محمَّد بن عبد الله، ورضع الفصاحة والبلاغة من أفصح القبائل، قبيلة بني سعد بن بكر، وشبَّ وترعرع على لغة فصيحة، وزاده الله إلهاماً وحكمة، وعلَّمه من فضله ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا[2].

"هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ توفيقًا وتوقيفًا، إذ ابتعثه للعرب كافةً وهم قوم يُقادون من ألسنتهم، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة، ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات وآداب العرب، فمنهم الفصيح والأفصح، ومنهم الجَافِي والمضطَرِب، ومنهم ذو اللُّوثَةِ والخالص في منطقه، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم، وتخصص

---

(١) **سورة فصلت، الآية:٤٢.**

(٢) **من بلاغة الحديث الشريف، عبد الفتاح لاشين، (دار عكاظ للطباعة والنشر،جدة)،:٨٢٧.**

بعض القبائل بأوضاعٍ وصورٍ مقصورة عليهم، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب، إلا من خالطهم أو دنا منهم دنوّ المأخذ"[(١)].

وقد روي أنَّ أبا بكرٍ ﷺ[(٢)] قال للنَّبي ﷺ: لقد طفت في العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت الذي هو أفصح منك، فمن أدَّبك؟ فقال ﷺ: "**أدَّبنِي ربِّي فأحسنَ تأْدِيبِي**"[(٣)].

"والمعروف أنَّ النبيَّ ﷺ لم يعرف الرحلة أو التنقل بين قبائل العرب حتى يتعلم منها اللغات، ولو كان الأمر أمر تنقلٍ في القبائل لكان أبو بكر على علمٍ بها، فقد ذكر الرُّواة أنَّه كان على علم بالأنساب"[(٤)].

فقد حاز النبيُّ ﷺ فنون البلاغة وطرائقها المختلفة، فلم تقتصر البلاغة عنده على فنِّ القول فقط؛ إنَّما كان النبيُّ ﷺ بليغًا في إشاراته والتفاتاته وحركاته، وقد جمع النبيُّ ﷺ صفات البليغ المختلفة التي تعتمد في البداية على الشخصية ذات السمات المهيبة، وهذه الصفات قد جعلت من شخصية النبي ﷺ شخصية ذا مهابة، تجذب كل من تحدث إليه وتلفت انتباهه، وقد كان صحابته رضوان الله عليهم حينما يتحدث إليهم يظهرون ردَّ الفعل المناسب تجاه هذه المهابة، فقد كان كلامه بمثابة إشعار صمتٍ للجميع.

وقد كان النبيُّ ﷺ يستثمر هذه الصفات الشخصية التي منحها الله إيَّاه، ويحسن توظيفها في حديثه، فكان ﷺ إذا تكلم يستعمل جميع فمه، ولم يكتف بتحريك شفتيه، كما أنَّه ﷺ إذا حادث شخصًا أقبل عليه بكل وجهه ليلفت انتباهه، ويجذبه إليه، فما يكون من المستمع إلاَّ

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، (دار الكتاب العربي)،:١٩٥.

(٢) عبد الله بن عثمان بن عامر التيمي، أبو بكر بن أبي قحافة الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ ، مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة. (انظر:الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج١٢، ط١، (القاهرة،١٤٢٩هـ)،:٨١.)

(٣) العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق:خليل موسى، ج١، ط١، (بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية،١٤٠٣هـ)،:١٧٨.قال ابن تيمية في مجموع الرسائل الكبرى/٢،:٣٣٦:معناه صحيح ولكن لا يعرف له إسناد ثابت.

(٤) من بلاغة الحديث الشريف،مرجع سابق،:١٩.

أن يقبل عليه بكل جوارحه، وقد ساعد النبيَّ ﷺ ما تميَّز به من سعة شدقه، الذي كان يُعدُّ مفخرةً عند العرب[١].

ومن ثمَّ فقد كان النبيُّ ﷺ متميِّزاً في حديثه بسبب هذا الحضور الذي تتسم به شخصيته، وما فيها من هيبةٍ وجلالٍ وصفاتٍ جسميَّة تميز صاحبها وتعطيه قدرة لو وظَّفها لنجح في لفت انتباه المُتلقِّي إليه والإقبال عليه بجوارحه كلها، وهذا ما تفوَّق فيه النبيُّ ﷺ[٢].

كما استخدم النبيُّ ﷺ وسائل بيانيَّة متنوعة تعينه على إيصال ما يريد ببلاغة وفصاحة، فقد كان النبي ﷺ رأس الفصاحة ومجمع البلاغة، وذروة البيان، ومن هذه الفنون البلاغية التي استخدمها النبي ﷺ بوصفها وسائل معينة على إيصال الرسالة التي يريد النبيُّ ﷺ إبلاغها، فنُّ التشبيه الذي يُعدُّ مرتكزًا أساسيًّا من مرتكزات البلاغة عند النبيِّ ﷺ، فقد وظَّف النبي ﷺ التشبيه توظيفًا أساسيًّا في أحاديثه، وأفاد من القيمة الجمالية التي يقدمها التشبيه للعبارة، حيث وظَّفه على اختلاف أشكاله وأنواعه وصفاته التي تحدث عنها العلماء، فنجد في حديث النبيِّ ﷺ أشكالاً متنوعة ومتعددة للتشبيه جاءت لأغراضٍ وأهداف عند النبيِّﷺ، ولم تأتِ هكذا هباءً من دون وظيفة مهمة تؤديها، ولا دورٍ تقوم به، بل كانت ذا تأثيرٍ واضحٍ في العبارة، وكان لها دورها الكبير في إظهار مدى بلاغة النبيِّ ﷺ وفصاحته.

"ومحاسن هذا اللون من فنون البيان تتحقق بمهارة في حديث الرسول ﷺ، فصورته التشبيهية تعتمد على الخيال المُبدع في التصوير، حيث إنَّ عباراته ﷺ في هذا اللون من الكلام تأتي حاويةً للصور المعبِّرة المستوحاة من التشبيه، لأنَّ في كل صورة من صور حديثه الشريف ميزة يقوى بها المعنى بما يستدعيه الموقف استجابة لصدق عاطفته وغيرته على من يخاطب"[٣].

ويحسن في هذا المقام ذكر بعض من أحاديثه الشريفة، وإنَّما نشير إلى بعض الجماليات التي تُظهر أنَّه ﷺ قد بلغ شأوًا بعيدًا في هذا البيان المحكم البليغ. من ذلك قوله ﷺ: "**الحَلاَلُ**

---

[١] **الأنوار الجليَّة في البلاغة النبوية، وليد سعيد عيسى علي شيمي، ط١، (حائل–المملكة العربية السعودية: دار الأندلس للنشر و التوزيع، ١٤٢٨هـ)، :٧٧.**

[٢] **المرجع السابق، :٧٩.**

[٣] **الخصائص الفنية في الأدب النبوي، محمد سعد الدبل، (أشرفت على طباعته ونشره دار الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)،:١٩٣.**

بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبِّهَات اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىً، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمَهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ"[1]. رواه النعمان بن بشير[2]

بدأ الحديث بقاعدة الحلال والحرام، لأنَّ غايته من ذلك صلاح قلب الإنسان، وهي الغاية التي كانت لها النُّبوات والتكاليف والكتب والرسل، كلُّ ذلك غايته الإنسان والمضغة التي صلاحه بصلاحها وفساده بفسادها.

فالجملتان: "**الحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ**"، بمثابة جملةٍ واحدةٍ لأنَّ المعطوف والمعطوف عليه كالشيء الواحد، فالجملة الأم هي الأولى "**الحَلاَلُ بَيِّنٌ**"، والجملة الثانية "**الحَرَامُ بَيِّنٌ**" كأنَّها الوجه الآخر للجملة الأولى هي الوجه الخلفي لأنَّ الحلال هو الباب الأوسع والأصل في الأشياء الحِلُّ، وهو مجالات حركة الإنسان، وفعله، وانطلاقه، وأخذه وانتفاعه، وفيها أحلامه وآماله، هي مسرح الحياة للإنسان الحيِّ، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ**" جملةٌ ثالثةٌ معطوفة على جملة "**الحَلاَلُ بَيِّنٌ**" وما عطف عليها، لأنَّها كأنَّها استخرجت مِمَّا بينهما، وقوله ﷺ: "**لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**" جملةٌ رابعةٌ، داخلة في حيِّز الجملة الثالثة لأنَّها وصفٌ للمشبهات.

وقوله ﷺ: "**فَمَنِ اتَّقَى المُشَبِّهَات**" جملة شرطية جوابها ظاهرٌ وهو قوله عليه الصلاة والسلام: "**اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**" أي نجا بهما من الوقوع في الحرام.

وقوله عليه الصلاة والسلام: "**وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ**" فيه إشارةٌ إلى أنَّ المسلم حين يسمح لقدمه بأنَّ تتزحزح قليلًا عن الحلال البواح إلى ما فيه شبهة، فقد تهيَّأ إلى خطواتٍ تاليةٍ تقود حتماً إلى الحرام البواح، والشبهة هي التي لا يترجح دخولها في باب الحلال ولا في باب

---

(1) **صحيح البخاري، أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بَرْدزبَه،ج١،(كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه)، (اسطنبول–تركيا: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر)،:١٩.**

(2) **النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، له ولأبويه صحبة، سكن الشام، ثم ولي إمرة الكوفة، ثم قتل بحمص سنة خمس وستين، وله أربع وستون سنة. (الإصابة،ج٦،:٢٩٠).**

الحرام، وقوله ﷺ: "**كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ**" فيها معنىً جليل وهو مثلٌ حيٌّ لأنَّ الراعي الذي يرعى حول الحمى لن يقع هو نفسه في الحمى، وإنَّما يقع ما يرعاه من شاةٍ أو إبلٍ أو غيرها، وكل منها له نزواتٌ تنزو به حتى يسقط في الحمى، وهو لا يدري أنَّه حِمًى، الذي يقتحم الحمى في هذا المثل هو السائمة التي لا تعرف حدودًا ولا ضوابط، وإنَّما تنقاد بالشهوة والرغبة، والشبه بينها وبين الأهواء والغرائز والشهوات التي تدفع الإنسان إلى أن يتعدى حدود الله أو يقاربها شبهٌ واضحٌ.

وقوله ﷺ: "**أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىً، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمَهُ**"، تأمل تسلسل الكلام وتذوّق نسقه وبناءه، وكأنَّه قريب منك جدًّا ولكنه شاسع، فالحمى: المحمي، أطلق المصدر على اسم المفعول، وفي اختصاص التمثيل بذلك نكتة وهي أنَّ ملوك العرب كانوا يحمون لمراعي مواشيهم أماكن مختلفة يتوعدون من يرعى فيها، بغير إذنهم بالعقوبة الشديدة، فمثَّل لهم النبي ﷺ بما هو مشهود عندهم، فالخائف من العقوبة المراقب لرضا الملك يبعد عن ذلك الحمى خشية أن تقع مواشيه في شيءٍ منه، فبُعده أسْلَمُ له ولو اشتد حذره، وغير الخائف المراقب يقرب منه ويرعى من جوانبه، فلا يأمن أن تنفر فتقع فيه بغير اختياره أو يمحل المكان الذي هو فيه ويقع الخصب في الحمى فلا يملك نفسه أن يقع فيه، فالله سبحانه وتعالى هو الملك وحماه محارمه، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**"، وينتقل الكلام من الحديث عن الحلال والحرام والتكاليف الشرعية إلى الإنسان المكلف بهذه التكاليف، وهذه الانتقالة أكبر من سوابقها، واحتفظ الكلام بخصوصية البناء، فذكر "ألا" "الواو" و"إنَّ" وطريقة بناء الجملة من تقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ النكرة،في كلٍّ من: لكل ملكٍ حِمىً، في الجسد مضغة، وكأنَّ هذا التشابه في بناء الكلام للإيذان بأنَّ الكلام كلامٌ واحدٌ، وأنَّ هذا الانتقال إنَّما هو انتقالٌ من مقطعٍ من مقاطع المعاني إلى مقطعٍ آخر، والحديث عن الشريعة والإنسان حديثٌ واحدٌ.

فقوله عليه الصلاة والسلام: "**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُهُ**" نجد أنَّ الكلام كأنَّه يقصد إلى الإثارة والإيقاظ والتشويق، وذلك بإضفاء هذا القدر من الغموض على حقيقة المضغة، والمضغة قدر ما يمضغ وهو حجمٌ

صغيرٌ، ولم يبين الكلام ما هي وإنَّما ذكر أنَّ صلاح الجسد بصلاحها وفساد الجسد بفسادها، ثم إنَّ كلمة "جسد" وإيثارها ها هنا على كلمة "الإنسان" مثلًا وأن يُقال إنَّ في الإنسان مضغةً، إن صلحت صلَح وإن فسدت فسَد، للإشارة إلى أنَّ هذا الإنسان بدون هذه المضغة جسد لا غير، وهذه المضغة هي إنسانيته، هي مناط حياته وتكليفه وتمييزه ومناط صلاحه وفساده، والصلاح والفساد الموصوف بهما المضغة ليس صلاح الجسد صلاحًا ماديًّا فحسب، لأنَّ القلب قد يصلح ويفسد الجسد، لأسباب أخرى وإنَّما المراد الصلاح الذي يشمل ما به يكون الإنسان إنسانًا.

ففي هذا المثل إشارة إلى صعوبة الأمر في ضبط المسلم لأهوائه وغرائزه وشهواته التي تسكن في نفسه وكأنَّها قوًى عمياء أسكنها الله سبحانه وتعالى هذه النفس يوم سوَّاها، والمسلم مُطالَب بمجاهدة ذلك وترويض نفسه على صراط الله المستقيم لتنجو وينجو.

فانظر إلى إحكام الصنعة في كلام سيد الأولين والآخرين، إنَّها ليست وليدة تثقيف وتعمُّل؛ وإنَّما هي وليدة تعمق في الفكرة ونضوج في الطبع والسجية، لأنَّ حديثه ﷺ هو القرآن الكريم الذي لا ينطق عن الهوى، وأكثر أحاديثه ﷺ في هذا اللون من التعبير يُرى عليها رواء الطبع وطيب السجيَّة وسرعة البديهة[١].

ولنأخذ هذا الحديث الشريف الذي يتضح فيه إحكام الصورة ومطابقتها للمعنى مع صدق العاطفة وذلك في قوله ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما[٢] حيث قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي وقال: **"كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابرُ سَبِيل"**[٣].

في هذا الحديث الشريف شبَّه رسول الله ﷺ بصورتين الأولى: صورة الغريب، والثانية: عابر السبيل، فالأول يعيش في دار الغربة على الزهد والتقشف والمتاع القليل الخفيف أملًا في العودة إلى وطنه الأم. فالدنيا دار غربة، والآخرة هي الوطن الحقيقي والمقام الدائم ، فالرسول ﷺ يريد أن تبقى عقولنا وقلوبنا متعلقة بالآخرة وبالتفكير فيها والشوق إليها، لا تلهينا الدنيا بما

---

[١] **الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مرجع سابق،:١٩٣-١٩٦.**

[٢] **عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولد بعد البعث بيسير،كان من أشد الناس اتباعاً للأثر، مات سنة ثلاث وسبعين. (الإصابة، ج٦،:٢٩).**

[٣] **صحيح البخاري، مصدر سابق،ج٥، كتاب (الرقاق)،:٢٣٥٨.**

فيها من زينة وملذات وملهيات عن التفكير في الدار الآخرة وما أعد الله فيها للمؤمنين من جنات النعيم.

أما الصورة الثانية فهي صورة عابر السبيل الذي لا يحمل معه إلا ما يحتاجه لطريقه، لأنَّه في حالة سفر وعدم استقرار، والمسافر في أي زمان ومكان قد يتعرض للمخاطر بأنواعها، فالرسول ﷺ أراد من ابن عمر ومنَّا أن نكون مثل عابر السبيل في التخفف من متاع الدنيا، وفي الصبر على ما يواجهنا فيها من المشاق والمتاعب في سبيل الوصول إلى الدار الآخرة والفوز بالجنان.

وفي كلتا الصورتين نلاحظ الدقة في اختيار المشبه به، فالمشبه به الأول –الغريب– يرى المغريات في بلد الغربة من أنواع ومتطلبات الحياة التي تعينه على التمكن والمكوث والاستقرار وما يتبعها من ملذات وشهوات وزينة ومع ذلك لا يلقي لها بالًا؛ لأنَّ قلبه معلق بوطنه الحقيقي، والمشبه به الثاني في الحديث –عابر السبيل– الذي يتعرض للمكاره والصعاب والمشاق وما يتبعها من خوف وألم وحاجة وفاقة ورغبة في الطمأنينة والراحة.

وقد جمع رسول الله ﷺ في هاتين الصورتين بين أمرين مختلفين وهما: ما يعترض المؤمن من زينة الحياة الدنيا وبهرجها، فيحذر منها ولا يأخذ إلا قدر حاجته، وبين ما يصيبه فيها من الآلام والمتاعب والصعاب، فيصبر فيه ويحتسب لأمر الله ولا يحزن على ما فاته منها.

فلما كانت النفس تألف الدنيا وتتعلق بما فيها، ولما كانت فكرة الاغتراب عنها مع الوجود فيها أمرًا غير مألوف، ورد التعبير البياني دقيقًا في صرف الذهن إليه وتقريب ما بعد منه، وذلك بمجموعة من الوسائل اللغوية والبلاغية، منها: اختيار صيغة الأمر (كن)، الدالة على طلب إحداث أمر لم يكن موجودًا، ومنها: إخراج المألوف القريب مخرج المستغرب البعيد، ومنها: تقريب الطلب المستغرب بأسلوب التشبيه ليصير في حكم الممكن، ومنها: العطف المقرب للفكرة والموضح دلالة اللفظة، ومنها: الإيجاز الدال المتضمن الكثير من المجالات المعنوية والشعورية[1].

---

[1] **من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف، د.فتحية محمود فرج العقدة، ط١، (مطبعة الأمانة، ١٤١٤هـ): ٢٥١.**

ونلاحظ في هذا الحديث الشريف البراعة في اختيار أداة التشبيه (كأنَّ)، لأنَّها أبلغ وأقوى في الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به، "فهي تستعمل حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يشكُّ في أنَّ المشبه هو المشبه به"[١]، فالرسول ﷺ يعلم أنَّ ابن عمر في داره وبين أهله، ولم يشعر بالغربة فلو قال ﷺ: كن في الدنيا غريبًا أو عابر سبيل؛ لكان ذلك محالًا لأنَّ الإنسان لا يمكن أن يعيش في وطنه وداره غريبًا، فهذا يقتضي أن يبتعد عن الدنيا ويزهد فيها، وفي ذلك حرمان وإجحاف له، لأنَّ الإنسان فُطر على المشاركة لغيره في أمور الحياة جميعها، سواء كان غريبًا أو مقيمًا، فأداة التشبيه في الحديث دلت على الاعتدال والتوازن في أمور الحياة.

"ولذا كانت البلاغة النبوية تقتضي في التشبيه وضع الأداة (كأنَّ) لحمل حال بحاجة إلى أن تتقرر على أخرى مقررة معلومة، وهذه العبارة أقرب إلى طبيعة الناس والحياة، مما لو كانت العبارة "إنَّك في الدنيا غريب أو عابر سبيل"، لأنَّ العبارة الأولى تجعله مشبهًا للغريب، فتعطيه حق المقيم لعمارة الدنيا في قصد وعرفان غاية، والثانية تنزع هذا الحق فتصرفه صرفًا وتجعله سفيهًا في تشبُّثه به، مهما كانت العلاقة بينه وبينه"[٢].

كما نشعر في هذه الصورة التشبيهية بصدق العاطفة وعمقها عند رسول الله ﷺ تجاه أصحابه وتجاه أمته بأسرها، لذا كان حديثه لابن عمر حديث محبٍّ مشفقٍ يخاف عليه من الاغترار بالدنيا والجري وراءها، فجاءت ألفاظه عليه الصلاة والسلام مألوفةً جزلة بعيدة عن المصطلحات العلمية والكلمات الغريبة، "تحمل دقيق المعاني وقوة التأثير ما يكون مرتبطًا بقضايا كلية عامة لها ما يتعلق بالعديد من المجالات والكثير من الدوائر الشعورية التي تشكل مجتمعة موقفًا معينًا واسع المجال والمفهوم[٣].

فكل أحاديثه الشريفة عليها رواء الطَّبع، وجلال النبوَّة، ورونق الفصاحة، وله ﷺ "قدرة عجيبة على إحكام التشبيه، وإرسال الحكمة، وإجادة الحوار. وتلك ميزة الرسل، لأنَّهم في مقام المعلمين، وأنجح ما يكون في التعليم طريقة تشبيه الأشياء كقوله ﷺ: **"مَثَلُ المُؤمِنِ الذِي يقْرَأُ**

---

[١] **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي،تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ج٢، ط١،(بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية،١٤٢٢هـ)،:١٩٨.**

[٢] **الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، عز الدين علي السيد، (القاهرة: دار الطباعة المحمدية بالأزهر، ١٣٩٢هـ–١٩٧٣م)، :١٣٧–١٣٨.**

[٣] **من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،:٢٥٠.**

القُرآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّة طَعمُهَا طَيِّبٌ، وريحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤمِنِ الذِي لاَ يقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذِي يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذِي لاَ يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا مُرٌّ"[١]. رواه أبو موسى الأشعري[٢]

لقد اشتمل هذا الحديث على عدد من التشبيهات، منها تشبيه المؤمن بالقارئ وهو متصف بصفتين: هما الإيمان والقراءة بالأترجة وهي ذات وصفين: هما الطعم والريح، وكذلك الأمر في شأن المؤمن غير القارئ، وفي المنافق القارئ، والمنافق غير القارئ"[٣].

هنا نلحظ القدرة على تناول التشبيهات النبوية التي لا تتطلب إعمال الفكر وكدَّ الذهن في استخلاص التشبيه، وطريقة فهمه. ومعلوم أنَّ فائدة التشبيهات هنا هي الارتقاء بالتعبير إلى حدٍّ يشحذ الأذهان ويهيئ النفوس لتقبل ما يلقي إليها، وهي تقصد إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به، أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب أو التنفير، لا سيَّما وقد استخلصت تلك المعاني من القريب المشاهد.

فمن ذا الذي يخفى عليه معنى المؤمن والمنافق؟ ومن ذا الذي يجهل ذلك النوع من الحمضيات وهي الأترجة؟ ومن النعم وهو الثمرة؟ ومن الفضائل التي خُصَّت بها أمَّة محمد ﷺ وهي القرآن رأس كل فضيلة؟[٤]

ثم لنتأمل مقاطع التعبير في هذا الحديث للرسول ﷺ حيث يقول: **"أنَا وكافلُ اليتِيم في الجنَّة هكذا، وأشار بالسَّبابة والوُسطى، وفرج بينهما"**[٥]. رواه سهل بن سعد الأنصاري[٦]

---

[١] **صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ج١، (بيروت–لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ)، :٥٤٩. كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، حديث رقم:٧٩٧.**

[٢] **عبد الله بن قيس بن سليم، أبو موسى الأشعري، صحابي مشهور، أمَّره عمر ثم عثمان وهو أحد الحكمين بصفين، مات سنة خمسين. (الإصابة، ج١٢، :٦٣٢).**

[٣] **المثل السائر، ابن الأثير،أبو الفتح نصر الله بن محمد الشيباني،ج٢، ط١،(مطبعة نهضة مصر)،:١٤٠.**

[٤] **الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مرجع سابق،:١٩٧–١٩٨.**

[٥] **صحيح البخاري، مصدر سابق،ج٦،:١٧٨. كتاب الطلاق، باب اللعان.**

[٦] **سهل بن سعد بن مالك الأنصاري الخزرجي، مات سنة ثمان وثمانين، وقيل بعدها، وقد جاوز المائة. (الإصابة،ج٤،:٥٠٠).**

فألفاظه تجري كالماء الزلال، لا تنبو لفظة عن أختها ولا يحيد تركيب عما يليه أو يسبقه، إنَّها مظان الحكمة الربَّانية يصوغها الرسول الكريم في قالب يقف دونه عباقرة الفكر وفرسان الكلام.

فاليتيم طفل صغير ضعيف بريء، يحتاج إلى من يرعاه ليكبر، ويحميه ليقوى، ويعلمه ويؤدبه، ويكف الأذى عنه، فأراد رسول الله ﷺ أن يوجه أنظار المسلمين ومشاعرهم إلى هذه الفئة من المجتمع، التي لا تقوى على القيام بدورها الطبيعي فيه، لأنَّ فيها من الضعف والحاجة إلى العطف والحنان والمساعدة المادية والإنسانية الشيء الكثير.

وقد ذاق رسول الله ﷺ اليتم في صغره، عاش فيه حزنه وحرمانه، فمن يعش ولم يجد أبًا يحنو عليه وأمًّا تعطف عليه، وتسقيه مع حليبها الحنان والأمان، لهو غاية الحرمان، فقد أكد علماء النفس أنَّ الحاجة إلى العطف والحنان تعادل حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب، فمن المسلَّم به أنَّ الإنسان إذا لم يأكل أو يشرب فإنَّه يموت، كما أنَّ الذي لا تُلبى حاجته العاطفية والنفسية يموت وهو مع الأحياء، بل إنَّه يموت في كل يوم وفي كل ساعة.

لقد أدرك رسول الله ﷺ هذه المشاعر التي تختلج في نفس كل يتيم، فكان ﷺ أول من لمس آلام اليتيم وأحزانه، فسجل لنا رسول الله ﷺ هذا الحديث ليبقى ما بقيت السماء والأرض، وأعلنها مدوية لتكن بشرى عظيمة لمن يكفل يتيمًا، وأي بشرى إنها مرافقة المصطفى ﷺ في جنةٍ عرضها السموات والأرض، أعدت للمتقين.

فرسول الله ﷺ في هذا الحديث يلفت انتباه أصحابه وهو يحدثهم بقوله: (أنا)، وضمير المتكلم هذا يعني عند الصحابة الشيء الكثير، لأنَّه يعود على أعظم البشرية محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وبعد أن لفت عليه الصلاة والسلام الانتباه إليه أردف بواو المعية التي تعني الملازمة والملاصقة والمصاحبة، ثم ذكر بعدها صاحب الملازمة والمصاحبة أنَّه كافل اليتيم، فإذا نظرنا إلى كلمة (كافل) وجدنا أنَّ لاختيارها دون غيرها أهمية لأنَّ لها معانيَ عدة، منها:" (كَفَلَ) عنه بالمال لِغَرِيمِه، ومنها: (الكافل) فالكافل هو الذي يكفل إنسانًا ويعوله، فـ(كَفَلَ) من باب نَصَرَ"[1]، فقد اختار رسول الله ﷺ كلمة (كافل) على كلمة (حاضن) التي تعني حضن الصغير حتى يكبر ثم تركه، أو كلمة (مُربِّي) التي تعني التربية فقط دون أن يقرنها

[1] **مختار الصحاح، مصدر سابق، باب الكاف، مادة (ك ف ل)، :٥٧٤-٥٧٥.**

بالجانب المادي، وقد جاءت الكلمة على وزن (فاعل) التي تعني من أُسند إليه الفعل فقام على احتواء اليتيم والقيام على شئونه، وباشرها بنفسه، وعمل على تعهده ورعايته حتى يبلغ أشده وكامل قوته، فكلمة (كافل) أبلغ وأعم وأشمل من غيرها، لأنَّها تعني النُّصرة والتربية والبذل المادي والمعنوي لهذا اليتيم في حال الصغر والكبر، ثم قدم رسول الله ﷺ الجار والمجرور في قوله: (في الجنة) على اسم الإشارة المقرون بهاء التنبيه وكاف التشبيه لعظم شأن المقدم، ولأنَّها الجزاء العظيم الذي ينتظر كافل اليتيم، فكان رسول الله ﷺ يدرك تشوق الصحابة إلى معرفة جزاء كافل اليتيم، فيستعجل ذكر الجنة، تبشيرًا لهم على عظيم صنعهم، ثم يؤكد ﷺ بمؤكدين: الأول لفظي، وهو اسم الإشارة (هكذا)، والثاني عملي، فيشير ﷺ بإصبعيه السبابة والوسطى ويفرج بينهما حتى يرى الصحابة ذلك، فتظل الصورة ماثلةً أمام أعينهم.

فلو أنَّ رسول الله ﷺ اكتفى بقوله: "**أنا وكافل اليتيم في الجنة**" لكانت هذه البشارة العظيمة كافية لتستثير اهتمام الصحابة ﷺ باليتيم، ولكن لعظم القضية وأهميتها أراد ﷺ أن يؤكد ذلك باسم الإشارة (هكذا)، وهو مكون من (الهاء) وهي للتنبيه، ثم (الكاف) التي تحوي معنى التشبيه، ثم (ذا) للقرب، وذلك بطريقة بارعة ذكية تبقى عالقة في أذهان أصحابه وأمته ما بقي يتيم في هذه الأمة.

فصورة المشبه في هذا الحديث "**أنا وكافل اليتيم في الجنة**" اعتمد فيها رسول الله ﷺ على إثارة الخيال لدى الصحابة ﷺ، حتى إذا أدرك عليه الصلاة والسلام تكامل تلك الصورة في أذهانهم، أكدها بصورة المشبه به وهي صورة بصرية، وذلك بإشارته بالسبابة والوسطى وتفريجه بينهما، وما ذاك إلا تثبيتًا وتأكيدًا للصورة الأولى، فتبقى صورة إصبعيه الشريفتين مقرونةً باسم الإشارة في مخيلتنا كلما نظرنا إلى يتيمٍ.

كما نلاحظ في هذا التشبيه للرسول ﷺ تأكيده على قضية مهمة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وهي الفضل والأجر العظيم الذي ينتظر من يكفل يتيمًا.

وهذه الصورة التشبيهية عميقة خالدة اقتضت تعبيرًا جزلًا سديدًا وتصويرًا محكمًا يثير الخيال لدى الصحابة ﷺ لتتولد الصورة التي أراد عليه الصلاة والسلام أن يتخيلها كل صحابي فتبقى عالقة بذهنه وتدفعه إلى الإحسان إلى كل يتيم .

ولا شك أنَّ قدرة النَّبي الكريم على تسخير ألفاظ اللغة وتحميلها من المعاني أمر لا يصل إليه ذوو المقدرة على التعبير والدقة في التصوير. فلننظر لقوله ﷺ في حديث آخر: **"مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ كَانَ كَمَنْ حِيزَتْ لَهُ الدُّنيَا بِحَذَافِيرِهَا"**[(١)].رواه عبد الله بن محسن الأنصاري[(٢)].

فلنتأمل التعبير بـ(سرب) في متن الحديث كيف جعل من مادته التركيبية معنى تصويريًّا على الرغم من بعد لفظة (سرب) عن الوضوح. فهي "من السَّرب بفتح السين: المال الراعي، فقوله: في سربه يعني في مسلكه، يُقال فلانٌ واسع السَّرب وخلي السَّرب يريد المسالك والمذاهب، وإنَّما هو مثلٌ مضروبٌ للصدر والقلب، يُقال (خلِّ سربه) أي: طريقه حتى يذهب حيث شاء، ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى: {**سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**}[(٣)] ويُقال ذلك "للإبل لأنَّها تنسرب في الطرقات" ويُقال: سرب على الإبل أي أرسلها شيئًا بعد شيء. فإذا قلت يسرِبُ بكسر السين فإنَّما هو قطيعٌ من ظباء أو بقرٍ أو شاءٍ أو نساء"[(٤)].

إذن هذه التشبيهات والأمثال التي مرت في ثنايا تلك الأحاديث تحمل في تعابيرها معاني ذات طابع تخييلي استمدت من الواقع القريب المشاهد، ولم يضرها استعمال بعض الألفاظ من معاجم اللغة، وذلك دليل القدرة على الصياغة الفنية وإحكامها حيث لم تخدش تلك الألفاظ وما أشبهها القالب التصويري للتعبير النبوي الشريف عن المعاني.

ومن هنا فإنَّ الصورة في حديث النبيِّ الكريم من قبيل الصور الحيَّة المتفاعلة مع الحياة ومن فيها من كلِّ ذي كبدٍ رطبة، ولم تكن من قبيل الصور الأدبيَّة التي استُمِدَّت من عادات ومَراءٍ محدودة ومحصورة في بيئاتها، فلم تَعُد صالحةً للانتشار والشُّيوع في الأطوار المختلفة لأنَّها تفقد

---

(١) **سنن الترمذي، مصدر سابق،ج٤،:٤٩٦.كتاب الزهد، باب٣٤،حديث رقم:٢٣٤٦. وهو حديث حسن. حسنه الألباني،محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الصحيحة،(الرياض: دار المعارف،) حديث رقم:٢٣١٨.**

(٢) **عبد الله بن محسن الأنصاري، ويقال عبيد الله بن محسن، (انظر: الإصابة:ج٧،:٢٠).**

(٣) **سورة الرعد، الآية:١٠.**

(٤) **لسان العرب،مصدر سابق،ج٣، (باب الباء، فصل السين)،:١٩٨٠.**

تأثيرها عند من لم تكن هذه العادات والأشياء المستمدَّة منها معاشة في نفوسهم، فهي صورٌ صالحة لبيئة معيَّنة وزمن معيَّن[١].

"وقد يكون في هذا الباب ما تتسع له أمَّة وتضيق عنه أخرى، ويسبق إليه قومٌ دون قوم لعادة أو عرف أو مشاهدة أو مراس كتشبيه العرب الغادة الحسناء بالنَّعامة، ولعل من الأمم من لم يرها، وحمرة الخدود بالورد والتفاح، وكثير من الأعراب لم يعرفها، وكأوصاف الفلاة وفي الناس من لم يصحر، وسير الإبل وكثير منهم لم يركب"[٢]، وكذلك نبَّه البلاغيون إلى الأطوار الحضارية وأثرها في إخماد أو موت بعض التشبيهات، واستهجان ما لم يكن مستهجنًا في طور سابق.

وعلى الرغم من أنَّ الأدباء في القديم والحاضر قد اتخذوا البيئة الكونية وكل ما يحيط بهم من أسباب الحياة ميدانًا لاستمداد صورهم والتعبير عنها بما يرتقي حينًا بالمعنى ويسف حينًا آخر، فإنَّ تشبيهات الرسول الكريم قد اتخذت ميدان الطبيعة مجالاً لاستمداد صورها دون إسفاف في المعنى أو تهافت في مبنى تلك الصور[٣].

لقد تلاءمت الصور التشبيهية مع مفردات الألفاظ والتراكيب في الحديث الشريف حيث أدَّت المعنى على أكمل وجه ليصل إلى الذهن في وضوح تام.

إنَّ تلك الصور في مدى تأثيرها مع ما ضربت له لتحمل صدق الحدس النبوي في ما يرمي إليه الرسول ﷺ من معان شريفة يصدقها الزمن وما يحدث فيه من أحداث"[٤].

"لقد جاءت الصورة التشبيهية في الحديث النبوي إضاءات فنية داخل النسيج العام الجمالي الكلي، وساعدت على كشف المعنى، فارتبطت به ارتباطًا وثيقًا، ولم يكن المقصد في التصوير الحديثي مجرد توالي الصور، مما يُشكل تعتيمًا، فالتقرير بإزاء الصورة، إذ لا غنى عنه

---

[١] **الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مرجع سابق،:٢٠١-٢٠٢.**

[٢] **التصوير البياني، محمد أبو موسى، ط٢،(القاهرة: دار التضامن)،:١٥٨.**

[٣] **الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مرجع سابق،:٢٠٣.**

[٤] **المرجع السابق،:٢٠٧.**

لاستجلاب المتلقي، خصوصًا أنَّ الحديث النبوي حريص كل الحرص على عناية المتلقي وفهمه وإدراكه حدود المعاني"[١].

"كما حازت تشبيهاته ﷺ على طاقة فنية كبرى ومخزون نفسي عميق الأثر؛ وتجاوزت مجرد السمة الوصفية، فكانت موحية مؤثرة، تحتاج إلى رهافة حس بوعيها الجمالي"[٢].

"فتلك الخصائص الفنية في التعبير لا شك أنَّ مجالها التخييل من خلال ملابسة الكلام بالتشبيه، ومعلوم أنَّ التخييل هو الذي لا يمكن أن يقال أنَّه صدق، وأنَّ ما أثبته و ما نفاه منفي، وهو متفنن المذاهب ليثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريبًا، ولا يُحاط به تقسيمًا وتبويبًا، ثم إنَّه يجيء طبقًا، ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعًا قد تلطف فيه، واستعين عليه بالرفق والحذق، حتى أُعطي شبهًا من الحق، وغشي رونقًا من الصدق، كتشبيهاته ﷺ"[٣].

"إنَّ تشبيهاته ﷺ، تحمل في تعابيرها معاني ذات طابع تخييلي استمدت من الواقع القريب المشاهد، وإذا بحثنا في مجال استمداد هذه المعاني في تشبيهاتها وصورها ألفينا أنها استمدت من ميدان الكون الرحب الفسيح، ومن الطبائع البشرية التي تعيش في هذا الكون"[٤].

لقد كان في تلك التشبيهات التي تصدر عنه ﷺ، كشف عن الحقائق التي أرسل بها، وتوضيح للمعاني التي يريدها ﷺ، "فهو أداة ناجحة فعالة للوصول إلى هدفه، من شغل الحس الظاهر والباطن، وامتلاك النفس بكل ما فيها، لأنَّ هذه الوسيلة أقرب إليها، وهي بها آنس، ولها أميل، ولا سيما أنَّ الرسالة التي جاء بها البيان النبوي تجديد للقيم، وتعزيز للمفاهيم، وتعريف بأنماط المعاني، لا يسيغها العقل الدارج على ضده إلا مأخوذًا بقهر العاطفة وتأثر الوجدان، يثنيانه ليعيد النظر ويحكم الدليل، وإنّما يهزهما فيهز العقل ليخلي مكانه إلى مكان ذلك التصوير المقنع، الذي يتجه المتكلم بكل قوى نفسه، ليسكن أغوار نفس صاحبه"[٥].

---

[١] **الصورة الفنية في الحديث النبوي، أحمد ياسوف، ط١، (سوريه: دار المكتبي،١٤٢٣هـ):١٩٢.**

[٢] **المرجع السابق، :١٨٩.**

[٣] **الخصائص الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،:١٩٥.**

[٤] **المرجع السابق،:٢٠٢.**

[٥] **الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق،:١٣٦.**

كما أنَّ تشبيهاته ﷺ "لم تُقيَّد بظرفِ الزَّمان ولا بظرفِ المكانِ، فلم ينظر فيها إلى العرب وحدهم ولا إلى الناس في زمنِ النبوة فحسب؛ ولا إلى جزيرة العرب وحدها، ولا إلى طبقةٍ دون طبقةٍ؛ وإنما كانت تنظر إلى الإنسان من حيث هو إنسانٌ"[١].

وهكذا يتنوع التشبيه في الحديث النبوي بتنوع المواقف والأحوال وبتنوع الشخصيات والظروف المتعلقة بكل منها، وبتنوع الأغراض التي يرمي هذا التشبيه إلى تحقيقها وبهذا التنوع وبتلك الملاءمة بينه وبين كل حال، وصدورًا عن ذلك البيان النبوي المرتبط بذات الرسول ﷺ وخلقه وفكره، تعددت خصائص هذا التشبيه فاكتسب الكثير من مظاهر القوة التعبيرية.

وبذلك يمكن القول، بأنَّه تشبيه متميز، يوضح نماذج رفيعة من المناهج وأنماط التعبير المتضمنة العديد من الأصول والقواعد التعبيرية المهمة، التي يضع التشبيه من خلالها كيفيات وطرق التعبير عن المواقف الفكرية والنفسية الدقيقة الملابسة للأفعال الحسية الظاهرة، أو يقارن العمل بغيره إظهارًا لقيمته، أو يضع مثالاً للصفة أو الخلق يقاس عليه ما سواه مما ماثله أو نقص عنه أو زاد عليه، كما يضع نماذج من الشخصيات التي يمكن احتذاءها لتصير أمثلة جامعة للكثير من خصال الفضل، أو يقرن التصرف العملي بالتقرير النظري الذي يوضحه متوصلاً في ذلك إلى بيان حكمه.

وهو في جميع ذلك تشبيه متجه إلى البسط والتفصيل، أو التكرار والتأكيد، أو التركيز والإيجاز، أو غير ذلك بحسب ما يقتضيه الموقف وملابساته التي تتعلق به[٢].

"إذاً لا بدع ولا غرابة أن تحتل البلاغة النبوية الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم، ولا مغالاة حين نقول: إنَّا لا نعرف أسلوبًا لأحد البلغاء هذه صفته إلا الكلام النبوي، الذي لا يعتريه ما يعتري كلام المبدعين من وجوه النقص والعيوب، بل نجد كلامه ﷺ قصدًا محكمًا متسايرًا يشد بعضه بعضًا، وأنَّه صورة روحية لأشد خلق الله طبيعة، وأقواهم نفسًا، وأصوبهم رأيًا، وأبلغهم معنًى، وأبعدهم نظرًا، وأكرمهم خلقًا"[٣].

---

[١] **التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٢٤.**

[٢] **من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، :١١٦.**

[٣] **الخصائص الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،:١٦٩-١٧٠.**

الفَصْلُ الأَوَّلُ

أهمِّيةُ الحَيَوانِ وخصَائِصُهُ فِي البِيئَةِ و الأَدَبِ

- المبحث الأول: الحيوانُ في البيئَةِ العربيَّةِ والدِّيَانَات
- المبحث الثاني: التَّشبِيهُ بالحيوانِ في الأَدبِ والشِّعرِ العَرَبيِّ
- المبحث الثالث: خَصائِصُ الحيوانَاتِ التِي ورَدتْ فِي التَّشبِيهِ النَّبَوِيِّ

المبحث الأول

الحَيَوَانُ فِي البِيئَةِ العَرَبِيَّةِ والدِّيَانَاتِ

الحيوان في البيئة العربية:

لم يكن الإنسان القديم يرى الحيوان شيئًا منفصلًا عنه، بل كان يراه ركنًا رئيسًا في حياته، فهو يعيش معه على أرضه، ويقاسمه بيئته، ويتعدى هذا الأمر إلى تشابه أعمق، فهما يعيشان حياة تعصف بها ظروف متطابقة، ويكتنفهما مناخ واحد يقاسيان حرَّه وقرَّه، حتى إنَّ مورد رزقهما واحد، وهو مطر السماء، فترى الحيوان يبتهج كما يبتهج الإنسان حين تجود السماء بمائها، حيث يجد الحيوان والإنسان في هذا ضمانًا للحياة، لأنَّ حياة الحيوان ضمان للإنسان وحياته.

فاختَلَطَ الإنسان بالحيوان، هذا الاختلاط بينهما هيأ للأول معرفة عميقة بحياة الحيوان وطباعه، ذلك أنه جعل مسكنه بين السباع وأجناس الحشرات.

لقد كان عامل وحدة البيئة من أهم الأسباب التي جعلت العربيَّ على مقربة من الحيوان فأتاحت له معرفة حياته وأسرار عيشه، وما زاد هذا الارتباط أنَّ العربيَّ كان يعشق الصحراء لأنها عالمه الفسيح الممتد الذي يكتنف أسفاره ورحلاته التي لا تكاد تنقطع، وربما كان فيها وحيدًا فتهيأ له اقتراب أكثر من الحيوان الوحشيِّ، فيأخذ في تأمله ومراقبة سلوكه.

ومما أضاف للعربيِّ عمقًا في معرفة الحيوان، أنَّه كان في أشدِّ الحاجة إليه، حتى ربما صح لنا القول بأنَّه كان عمود حياة الإنسان، فالحيوان –ونعني الأهلي خاصة– قوة نقل ركبها الإنسان ضارباً في الأرض، وقوة حمل أناخ على ظهره أحماله وأمتعته، وقوة عسكرية استعان به في غاراته، وقوة اقتصادية أمدته بالطعام والشراب، وقوة تعينه على مقاومة الهجير والشتاء، حيث أمده بمادة أخبِيتِه التي تكنُّه من الحرِّ والقرِّ، ومادة أكسيته التي يستتر بها ويتجمل، وهذه الحاجة للحيوان ليست مقصورة على الأهليِّ منه فحسب، فالحيوان الوحشيُّ كان محور أنشطة الصيد، فكان بذلك مصدرًا غذائيًّا لا غنى عنه في بيئة يغلب فيها الجفاف وتضيق فيها موارد الرزق. فلنتأمل كم يقدم الحيوان للإنسان من خدمات تشمل جميع وجوه حياته لنعرف قدر الحيوان للإنسان وعلو قيمته لديه[1]. قال تعالى متحدثًا عن منافع الحيوان: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ**

---

[1] **سلوك الحيوان في الشعر الجاهلي، سعد عبد الرحمن العريفي، ط١، (دمشق– سوريا: دار المجد للطباعة والنشر، ١٤٢٨هـ)، :١٩–٢٠.**

مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ}[1].

أحداث في التاريخ خلدها الحيوان:

لقد بلغ من أهمية الحيوان عند العرب أن أطلقوا أسماء بعض حيواناتهم على حوادث ومواقف وقعت لهم في حياتهم، كان لتلك الحيوانات دور بارز في تلك الأحداث، فحرب البسوس التي دامت أربعين سنة كانت بسبب ناقة تُدعى (سراب)، حيث كان بنو جشم وبنو شيبان أخلاطًا في دارٍ واحدةٍ، إرادة الجماعة ومخافة الفُرقة، وتزوج كليب جليلة بنت مرَّة بن شيبان بن ثعلبة، وهي أخت جسَّاس بن مرَّة، وحمى كليب أرضًا من العالية في أول الربيع، وكان لا يقربها إلاَّ محارب، ثم إنَّ رجلاً يقال له سعد بن شميس بن طوق الجرميّ نزل بالبسوس بنت منقذ التميمية، خالة جساس بن مرة، وكان للجرميّ ناقةٌ اسمها (سراب) ترعى مع نوق جساس، وهي التي ضربت العرب بها المثل، فقالوا: أشأم من سراب، وأشأم من البسوس.

فخرج كليب يومًا يتعهد الإبل ومراعيها، فأتاها وتردد فيها، وكانت إبله وإبل جساس مختلطة، فنظر كليب إلى سراب فأنكرها، فقال له جساس وهو معه: هذه ناقة جارنا الجرمي. فقال: لا تَعُد هذه الناقة إلى هذا الحمى. فقال جساس: لا ترعى إبلي مرعى إلا وهذه معها. فقال كليب: لئن عادت لأضعنَّ سهمي في ضرعها. فقال جساس: لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعنَّ سنان رمحي في لبَّتِك! ثم تفرقا، وقال كليب لامرأته: أترين في العرب رجلًا مانعًا منّي جاره؟ قالت: لا أعلمه إلاَّ جساسًا، فحدثها الحديث. وكان بعد ذلك إذا أراد الخروج إلى الحمى منعته وناشدته الله ألاَّ يقطع رحمه، وكانت تنهى أخاها جساسًا أن يسرح إبله .

ثم إنَّ كليبًا خرج إلى الحمى، وجعل يتصفَّح الإبل فرأى ناقة الجرمي، فرمى ضرعها فأنفذه، ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبها، فلما رأى ما بها صرخ بالذُّل، وسمعت البسوس صراخ جارها فخرجت إليه، فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها ثم صاحت: واذلاَّه؟! وجساس يراها ويسمع، فخرج إليها فقال لها: اسكتي ولا تراعي. وسكن الجرمي، وقال لهما: إنِّي سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، سأقتل غلالاً، وكان غلال فحل إبل كليب لم يُر في

[1] **سورة يس، الآيات: ٧١-٧٢-٧٣.**

زمانه مثله، وإنَّما أراد جساس بمقالته كليبًا. وكان لكليب عينٌ يسمع ما يقولون، فأعاد الكلام على كليب، فقال: لقد اقتصر من يمينه على غلال. ولم يزل جساس يطلب غرَّة كليب، فخرج كليب يومًا آمنًا، فلما بعد عن البيوت ركب جساس فرسه وأخذ رمحه وأدرك كليبًا، فوقف كليب. فقال له جساس: يا كليب الرمح وراءك؟! فقال: إن كنت صادقًا فأقبل إليَّ من أمامي، ولم يلتفت إليه، فطعنه فأرداه عن فرسه، فقال: يا جساس أغثني بشربةٍ من ماء، فلم يأته بشيء، وقضى كليب نحبَه. فأمر جساس رجلاً كان معه اسمه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان فجعل عليه أحجاراً لئلاَّ تأكله السِّباع.

وقد أثار مقتل كليب وائل هذا حربًا استمرت أربعين سنةً على ما يذكره أهل الأخبار، عُرفت بحرب البسوس، وهي في الواقع معارك وغزوات وقعت في أوقاتٍ متقطعة بين (تغلب) ومن حالفها وبين (بكر)، أثارها وأشعل نارها (مهلهل) أخو (كليب) أخذًا بثأر أخيه من (بني بكر) قوم (جساس). وأعلنها دون اهتمام لتوسط عقلاء (بكر) بحلِّ القضية حلًّا سليمًا حقنًا لدماء الطرفين، بتأدية دية الملوك وهي ألف ناقة سود المقل، أو أن يأخذوا أحد أبناء (مرة بن ذهل) والد (جساس) فيقتلوه بدم (كليب)[1] .

كانت هذه الحرب من أهم حروب العرب في العصر الجاهلي، وكان سببها –كما سلف– ناقةٌ ضُرب بها المثل في الشؤم. فقيل: "أشأم من سراب".

هذه الحرب التي دامت أربعين سنةً تشير إلى أهميَّة الإبل عند العرب، حيث كانت عصب الحياة وعمادها، ومصدر عزَّة العربيِّ وفخره وغناه، فقد كان العربيُّ يصنع بيته ولباسه وأثاثه وفراشه من أصوافها وأوبارها وجلودها، وهي أداة انتقاله في الرحيل أو الترفيه عن النفس، كما كانت نقده (ماله) الذي يتبادل السلع بواسطته، وكانت الإبل حاضنة العربيِّ التي ترضعه فيشرب لبنها، ويجعل طعامه من لحمها، لذا كان لا يتوانى في التضحية من أجلها، حتى ولو كان بنفسه وبكل قبيلته.

وقد بلغت بعض الحيوانات مكانة عالية عند العرب بحيث أصبحت تعدل قيمة حياة الإنسان، وقد كانت الإبل أول تلك الحيوانات وأهمها، ولا أدل على ذلك من قصة فداء عبد

---

[1] **الكامل في التاريخ، ابن الأثير،عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، جـ١، (دار بيروت للطباعة والنشر):٥٢٤-٥٣٨.**

الله بن عبد المطلب، فقد كان عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش –عند حفر زمزم– ما لقي: لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرنَّ أحدهم لله عز وجل عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره الذي نذر، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوا له، فدخل بهم على هُبَل في جوف الكعبة، وكان عند هبل سبعة أقداحٍ.

فقال عبد المطلب: اضرب على بَنِيَّ هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره، وأعطاه كل رجلٍ منهم قدحه الذي فيه اسمه، فخرج القدح على عبد الله، فأخذ عبد المطلب بيده، وأخذ الشَّفرة، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة الوثنين الذين تنحر عندهما قريش ذبائحها ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها، فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ فقال: أذبحه. فقالت قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدًا ونحن أحياء حتى نعذر فيه.

فقالت له قريش وبنوه: لا تفعل، وانطلق إلى الحجاز فإنَّ به عرَّافة يقال لها نجاح، لها تابعٌ فسلها، ثم أنت على رأس أمرك، فإن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بغير ذلك مما لك وله فيه فرجٌ قبلته، فقال: نعم.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوها فيما يزعمون بخيبر، فقالت: كم الدية فيكم؟ فقالوا: عشرةٌ من الإبل، فقالت: فارجعوا إلى بلادكم، فقدِّموا صاحبكم، وقدِّموا عشرًا من الإبل، ثم اضربوا عليها بالقداح، فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم عز وجل، فضربوا، فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا، وكلما خرجت على عبد الله زادوا عشرًا، حتى بلغت المائة.

فقالت قريش ومن حضر: قد رضي ربك، وخلص لك ابنك، فقال عبد المطلب: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على الإبل وعلى عبد الله، فخرج السهم على الإبل، ثم أعادوا الثانية، والثالثة، فخرج السهم على الإبل، فنُحرت، ثم تُركت لا يُصدُّ عنها أحدٌ[1].

---

[1] **السيرة النبوية، محمد بن عبد الملك بن أيوب الحميري، ابن هشام، حققها وضبطها وشرحها: مصطفى السقاف، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، (بيروت–لبنان: مؤسسة علوم القرآن):١٥١–١٥٥.**

لقد كانت الإبل من أهمِّ وأعزِّ وأنفس أموال قريش، ولم يكن شيء يعدل النفس البشرية غير الإبل لمكانتها عندهم، لهذا كان عظماء قريش وساداتها يملكون ما لا يحصى من الإبل، فهذا عبد المطلب سيد قريش وسادن الكعبة، لا يتردد في فداء ابنه عبد الله بمائة من الإبل راضيًا منشرح الصدر، فهذا العدد الضخم منها لا يعادل مكانة عبد الله عند والده، ففداه بأنفس ماله وأحبه إليه وهو الإبل، وقد كان عبد المطلب "أول من سن الدِّيَّة مائة من الإبل[١]"، وكان نذر عبد المطلب هذا من باب القربى في العبادة، فقد أُثر عن العرب في الجاهلية التقرب إلى الإله بذبح أبنائها، إلا أنَّها لجأت فيما بعد إلى الحيلة في تخليص أبنائها وخاصة الذكور من هذه القربى بضحايا الأنعام والبهائم، وما قصة فداء عبد الله بن عبد المطلب بمائة ناقة إلا أكبر دليل على ذلك.

ولم تكن الخيل بأقل أهمية من الإبل عند العرب، فهذه حرب داحس والغبراء استمرت زهاء سنتين بين عبس وذبيان، بسبب اختلاف على سباق خيل،كان قد تراهن عليه حذيفة بن بدر بن فزارة سيد ذبيان، وقيس بن زهير، اشتركت فيه خيار خيل قيس وحذيفة، وفي مقدمتها داحس والغبراء والخطار والحنفاء .

وقد ادَّعى كلُّ واحدٍ من المتنافسين أنَّ فرسه كان السابق، وأنَّه هو الكاسب للرهان، في قَصَصٍ طويلٍ يتخلله شعرٌ وكلامٌ وجوابٌ. وانتهى النِّزاع إلى حربٍ استمرت سنتين، قُتل فيها حذيفة بن بدر وعدة رؤساء، واشتركت فيها شيبان وضبَّة وأسد وغطفان وقبائل أخرى، كما ساهم فيها ملك هجر، وامتدت إلى أن اتصلت بالإسلام.

وللشاعر زهير بن أبي سلمى ذِكرٌ فيها. ولم تنته إلاَّ بتوسُّط الرؤساء، حيث سوِّيت بدفع الدِّيات، وبإنهاء تلك الحرب التي شغلت تلك القبائل، وأقلقت الأمن لذلك السبب التافه على زعم قول الرواة[٢].

فقد كانت الخيل تُربى عند العرب للمسابقة والمفاخرة بأجود أنواعها، هذا إذا كانت العرب في حالة سِلمٍ، أما في حالة الحرب فكانت من أهم الأسباب المُعينة على النصر، إذا كَثُر

---

[١] **الأوائل، أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ط١،(دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ):١٥.**

[٢] **الكامل في التاريخ، مصدر سابق، :٥٦٦-٥٧٦.**

عددها وأُحسِنت تربيتها وتدريبها، لذا كانوا يحافظون عليها بدافع الوقاية من المغيرين والغزاة، وكانوا يستميتون في الدفاع عنها وحمايتها بقوة السلاح.

اعتقادات العرب في الحيوان:

لقد كان العرب كغيرهم من الأمم في جاهليتهم يعتقدون بأوابد وأساطير وخرافات، فيها ما فيها من تفسير لوجودهم ووجود حيواناتهم وأصنامهم، ونشأة حياتهم ودنياهم، وما يخشونه وما يجهلونه من العالم النائي والقريب، وكانت اعتقاداتهم في الحيوان نتيجة لانطباع الخوف من الحيوان أو عليه، أو الشفقة أو الإعجاب به، فجاءت تلك الاعتقادات مطابقة للواقع الذي يعيشونه.

وتعتبر الإبل من أكثر الحيوانات التي كثرت فيها اعتقادات العرب، ولعل السبب يعود إلى الجانب النفعيّ فيها، فهي وسيلة العربي للرحلة، وهي التي تنقله من مكان يضيق به إلى آخر يؤثره ويطمئن إليه، وهي إذا جاع أشبعته، وإذا عطش أروته، ومع ذلك كله تعد أساس غناه وعزه، فلا غرابة في أن ينسج العربيُّ حولها كثيرًا من اعتقاداته وخرافاته.

فمن هذه الاعتقادات التي كثرت حول الإبل: الحَامِي، "وهو الفحل من الإبل إذا أدرك أولاد أولاد أولاده، فصار ولده جدًّا، قالوا: "حَمِيَ ظهره، اتركوه!" فلا يُحمل عليه، ولا يُركب، ولا يمنع من ماءٍ ولا مرعى، فإذا ماتت هذه التي جعلوها لآلهتهم اشترك في أكلها الرجال والنساء، وذلك قول الله عز وجل[1]: **{وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء}** "[2]

ويبدو أنَّ هذا الاعتقاد ناتج عن الخوف من الحسد على هذا الفحل لكثرة أولاده، فبادروا إلى هذا العمل خوفًا عليه.

ومن اعتقاداتهم في الإبل أيضًا: "إغلاق الظهر، والمراد بها: إغلاق ظهر البعير الذي تمَّم المائة، ولإظهار ذلك أمام الناس بأنَّ الرجل يمتلك تمام المائة من الأبعرة فهو يلجأ إلى نزع سناس

---

[1] **سورة الأنعام، الآية: ١٣٩.**

[2] **أساطير العالم، هيثم هلال، ط١، (بيروت– لبنان: دار المعرفة، ١٤٢٥هـ):٣٣.**

الفقرة (وهي حرف فقار الظهر) من فقرات ظهر البعير، ثم يُعقَرُ سنامه، والعقر يتم بالضَّرب بالسيف للقطع مجرد ضربٍ، ويُقال حينئذٍ: "تَعَنَّى"، والبعير: "مُعَنَّى"[١].

فهذا التصرف يرجع إلى الرغبة في المباهاة والمفاخرة بعدد الإبل.

ومنها أيضًا: (التَّعمِيَة والتَّفقِئة)، وهي"من خرافات مزاعمهم، وذلك أنَّ البعير إذا كان فحلًا في إبلٍ قد بلغت ألفًا عددًا، فإنَّ الرجل يعمد إلى هذا الفحل فيفقَأُ عينه بزعم دفع العين عنها والغارة، وإذا زادت على ألف عموه بالعين الأخرى، ويدعى هذا بالتَّعمية"[٢].

ومن اعتقاداتهم:(كيُّ السليم)، وهو" أنَّ الإبل إذا أصابها العُرُّ (الجرب) عمدوا إلى الصَّحيح فكووه، فقد زال العرُّ عن السقيم، ومن ذلك قول النابغة الذبياني[٣]: (الطويل)

لَكَلَّفْتَنِـــي ذَنْـــبَ امْـــرِئٍ وَترَكْتَـــهُ كَذِي العُرِّ يُكْوَى غَيْـرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ[٤]

ويزعمون أنهم يأمنون بهذا الفعل العدوى"[٥].

كما كان من اعتقادهم: (حبسُ البَلاَيا)، فقد "كانوا إذا مات الميّت يشدُّون ناقته إلى قبره، ويعكسون رأسها إلى ذنبها، ويغطون رأسها بِوَلِيَّة، (وهي البَرذَعَة)، فإن أفلتت لم تُرد عن ماءٍ ولا مرعى، ويزعمون أنَّهم إنمَّا يفعلون ذلك ليركبها صاحبها في المَعَاد ليُحشر عليها كي لا يحتاج إلى المشي"[٦]، وربما كان هذا من قبيل تعظيم الناقة عندهم، فتكون بعد موت صاحبها حرَّة طليقة.

ولم تكن هذه الاعتقادات خاصة بأهل البادية، بل امتدت إلى الحواضر، وخير دليل على ذلك (البَحِيرَة)، حيث "كان أهل الوَبَرِ يقطعون لآلهتهم من أموالهم من اللَّحم، وأهل المَدَر يقطعون لها من الحرث، فكانت الناقة إذا أنجبت خمسة أبطنٍ عمدوا إلى الخامس —ما لم يكن

---

[١] **المرجع السابق،:٢٩.**

[٢] **المرجع السابق،:٣٠.**

[٣] **هو زياد بن معاوية، ويكنى أبا أمامة، من أفحل شعراء العصر الجاهلي، نبغ بالشعر بعدما احتنك، وهلك قبل أن يُهْتَر. (انظر: الشعر والشعراء، جـ١،:١٥٧).**

[٤] **ديوانه، قدَّم له وبوّبه وشرحه: علي أبو ملحم، ط١،(بيروت–لبنان: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩١م):٧٤–٧٥.**

[٥] **حياة الحيوان الكبرى، مرجع سابق،جـ١،:٣٠.**

[٦] **أساطير العالم، مرجع سابق،:٣٢.**

ذكرًا- فشقوا أذنها وتركوها، فربما اجتمع منها هَجْمَة "مائة من الإبل تقريبًا" من البُحُر "جمع بحيرة"، فلا يُجزُّ لها وبر، ولا يُذكر عليها -إن رُكبت- اسمُ الله، ولا يُحمل عليها شيء، وكانت ألبانها للرجال دون النساء، وهذه كلها من اعتقاداتهم في الحرام والحلال نسبوها إلى الله"[١].

كما كان لهم اعتقادات في حيوانات أخرى، منها: الثور، "فالبقر إذا امتنعت عن شرب الماء ضربوا الثَّور زاعمين أنَّ الجن تركب الثيران فتصدُّ البقر عن الثور"[٢]، وهذا الاعتقاد يظهر ارتباطهم بالجنِّ، وتأثُّرهم به، واعتقادهم فيه.

ومن تلك الحيوانات أيضاً: الشاة، حيث كان من اعتقادهم فيها: (الوَصِيلَة)"وهي أن تضع الشاة أبطنًا سبعة عمدوا إلى السابع فذبحوه إن كان ذكرًا، وتركوها -إن كانت أنثى- في الشَّاة، وهم يزعمون أنهما إن كان ذكرًا وأنثى أنهما قد وصلا أخاها، فلذلك حُرِّما جميعًا، وكانت منافعها وابن الأنثى معها للرجال دون النساء، وذُكر في هذا الصدد غير هذا، ومما قيل فيها: أنَّها التي تُسيَّبُ للأصنام فتعطي لسدنة الأصنام، ويعطى لبنها لأبناء السبيل"[٣].

فهذا الاعتقاد يُظهر أنَّ الشاة لا تحتل مكانة مرموقة كالتي تحتلها غيرها من الحيوانات كالإبل مثلًا، فلذلك تُذبح ويُتقرَّب بها إلى الأصنام، ويوزع منها للفقراء والمحتاجين.

ومن الحيوانات التي لها أهمية عند العرب الأرنب، حيث يعتقد العرب في (كَعْب الأَرنبِ) فهم "يزعمون أنَّ الأرنب لا تمتطيها الجنُّ، لأنها تحيض كالمرأة، ولذلك فإنهم يعلقون كعب الأرنب لدرء العين والسِّحر عن أنفسهم، فالجنُّ تهرب من الأرنب"[٤].

ويظهر من هذا خوف العرب في الجاهلية من الجنِّ، "حتى أنهم حين ينزلون بوادٍ يتعوذون بسيد الوادي من أن يُضرُّوا بشيء"[٥]، "فالجن كابوس القفر المخيف عند الجاهلي، لذا كان البدويُّ يخاف دائمًا أن يدوس على أرضها دون معرفة منه وإذن منها، فإذا جاء واديًا عُرف بأنَّه موطن لها كان يبدأ بالسلام على (سيد ذلك الوادي) طالبًا الإذن بالمرور أو النزول في

---

[١] **المرجع السابق،:٣٢.**

[٢] **حياة الحيوان الكبرى،مرجع سابق،ج١،:٢٦٢.**

[٣] **أساطير العالم،مرجع سابق،:٣٣.**

[٤] **الحيوان،مصدر سابق،ج٦،:٣٥٧.**

[٥] **أساطير العالم،مرجع سابق،:١٢.**

جواره حتى إذا سمع صوتًا أو رأى إشارة يفسرها قبولًا وترحيبًا ويطمئن ويرتاح، أما في الحالات الأخرى فإنه يستشعر خوفًا لا يوصف، ويصبح في هلع يفزع من كل ما يراه من الأليف ومن المفترس"[١].

ولذلك كان الجنُّ يزيدونهم في التخبط والأذى والضلال كما ذكر ذلك القرآن الكريم في سورة الجن، من هذا الباب كان حرصهم واعتقادهم شديدًا في كعب الأرنب لأنَّ الجنَّ تهرب منه.

ومن أوهامهم واعتقاداتهم (الهَامَة) فهم "يزعمون أنَّ الإنسان إن قُتل ولم يؤخذ بثأره خرج من رأسه طائرٌ يدعى الهامة، وصاح على قبره: "اسقُوني، اسقُوني!" إلى أن يطلب بثأره"[٢].

ويرجع هذا الاعتقاد إلى أهمية الثَّأر عند العرب، فالميت في اعتقادهم لا يرتاح حتى يأخذ أهله بثأره، فقد كان سنة في مجتمع الصحراء، لا يُتصوَّر الخروج عليه، فقد قضت شريعة البادية أنَّ الدم لا يغسله إلا الدم، فكان لا يُقبل جزاء آخر غير أخذ الثأر.

لقد كانت اعتقادات العرب حول الحيوان بما فيها من أساطير وخرافات، وبما حوت من انطباعاتهم وأخيلتهم صورة صادقة لحياتهم وبيئتهم.

الحيوان في الديانات القديمة:

لقد كان الحيوان من بين الصور المهمة لمعبودات الإنسان؛ إذ كانت تربطه به علاقة قوية، غير أنَّ أهم جانب في تلك العلاقة بين الإنسان والحيوان هو الجانب الدِّيني؛ إذ لو توغلنا في التاريخ العربي القديم قبل العصر الجاهلي لوجدنا أنَّ الحيوان هو الرمز للإله السماوي، أو الكواكب السماوية، فقد كانت ديانة العرب ديانة تعبد فيها الكواكب، فقد عبدوا ثالوثًا مكونًا من الشمس أمًّا، والقمر أبًا، والزهرة ابنًا لهما، وخير دليل على ذلك قصة إبراهيم عليه السلام

---

[١] **أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، د.سعدي ضناوي، ط١،(بيروت، دار الفكر اللبناني،١٩٩٣م):١٩١-١٩٢.**

[٢] **أساطير العالم، مرجع سابق، :٣٢.**

مع الكواكب في القرآن قبل أن يهتدي إلى عبادة الله عز وجل[١]، قال تعالى :**{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**[٢].

لقد نتج عن عبادة الناس في العصور القديمة لتلك الكواكب الربط بين الثور الوحشي والقمر جاعلين منه رمزًا على الإله (ود)، فقد وُجدت في معابد جنوبي الجزيرة العربية صور للثور قدمها عابدوه قرابين للإله أو نُذورًا كانت عليهم، وقد عُرف القمر باسم (ثور)، ولعل ذلك بسبب قرنيه اللذين يذكران بالهلال[٣]، كما ربطوا بين المها (أنثى الثور الوحشي) وبين الشمس، وأخيرًا فقد ربطوا بين الفرقد (ابن الثور الوحشي والمها)، وبين الزهرة التي كانوا يعتبرونها ابن الشمس والقمر، إذًا فقد كونوا ثالوثًا من الحيوانات يقابل ذلك الثالوث من الكواكب[٤].

أما في العصر الجاهلي فقد "كان الجاهليون يمثِّلون ما يُؤلِّهوَنه من ذكور وإناث بصور الرجال والنساء، ثم يصوَّر الحيوان الذي يتمثلون معناه فيما يُؤلِّهون، كالذي ذكره الزَّمخشريُّ في تفسير سورة نوح من أنَّ (وَدًّا) كان على هيئة رجلٍ، وأنَّ (سُواعًا) كان على هيئة امرأة، وأنَّ (يَغُوث) كان على هيئة أسد، وأنَّ (يَعُوق) كان على هيئة فرس، وأنَّ (نسرًا) كان على هيئة نسر، وقد زعم بعض المفسرين أنَّ جميع هؤلاء كانوا بشرًا صالحين، من ولد آدم ثم أَلَهَّهُم الناس فيما بعد.

---

[١] **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي،ج٦، ط٢،(بيروت: دار العلم للملايين،١٩٧٦م):٥٠.**

[٢] **سورة الأنعام، الآيات:٧٥-٧٩.**

[٣] **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،مرجع سابق، ج٦،:١٧٤.**

[٤] **المرجع السابق، ج٦،:٥٠-٥٧.**

وكما رمزت العرب لآلهتها بالأصنام، رمزت لها أيضًا بكائناتٍ محسوسة من الحيوان والنبات، فمما رمزوا به من الحيوان العقاب، ولا ريب أنهم كانوا يُؤلِّهُونها كما يُؤلِّهُون النسر"[١]

"كما أنَّ الإبل والخيل كانت قد عُبدت في ديانات العرب القدماء، فقد ورد أنَّ جماعة الشاعر زيد الخيل، وهم من طيء كانوا يتعبدون بجمل أسود، وأنَّ بعض القبائل مثل"إياد" كانت تتبرك بالناقة"[٢].

ولنُلقي نظرة على المجتمعات الأخرى لنرى كيف كانت الحيوانات تسيطرُ على اعتقاداتهم الدينية، فالإغريق مثلًا كان لديهم ما يعرف بالبَايثِن "python" وهي الأفعى العظيمة في الأساطير الإغريقية، خُلقت هذه الحيَّة من الطين الذي بقي على سطح الأرض، إثر الطُّوفان العظيم، عاشت هذه الأفعى في كهفٍ قرب معبد يدعى (دلفي) في جبل بَارْنَاسُوس "parnasus"، لكن الإله أبُولُّو قتل هذه الأفعى، واختص بالعرافة لنفسه، ومن ثم عرف بأبُولو البِيثَانِي، وقد طلب الإله أن تنشأ الألعاب البيثانية تخليدًا لذكرى هذا النصر، وهي من الألعاب القومية التي تصطبغ بصبغة المهرجانات الضخمة[٣].

أما في الرُّومان:"فقد كانت معرفة الديانة الرومانية محدودة، ولكنَّ بعض الأدلة أظهرت أنَّ المجتمع الروماني في أبكر العصور قد قدَّس الآلهة، مثل: "جوبتير"، و"كيرينوس"، و"مارس"، الذي كان محاربًا وإله حرب، وأحد الآلهة المعبودة المهمة في البلاد الرومانية، وقد عدوه أبًا للشَّعب الروماني، وقد كان الذئب والعصفور النقار للخشب من أهمِّ الحيوانات المقدسة التي هي ماسَّة لهذا الإله"[٤].

وفي بابل وآشور وُجد لديهم:(نِرْجَال):"وهو إله العالم السفلي، وإله الوباء الذي كُلِّف بإعمار العالم السفلي، وهو يقوم بقمع كل من يتعدى على الشريعة بالحديد والنَّار، و(نرجال) ينفذ الأمور الكبرى، ويعاقب المدن الثَّائرة ضد السماء بما فيها مدينة بابل، ويرمز إلى هذا الإله بالأسد، وربما بالثور أحيانًا، وأحيانًا أخرى على صورة تنِّين أو غراب، وتزعم الأساطير أنه لا

---

[١] **الكشاف**، مصدر سابق، ج٣،:١٦٤.

[٢] **الناقة في الشعر الجاهلي**، حنَّا نصر الحتِّي، ط١، (بيروت– لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ):٢٣.

[٣] **أساطير العالم**، مرجع سابق،:١١١.

[٤] **قبسات من التراث الإنساني**، إلياس سعد غالي، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب،١٩٨٣م)،:٣٧-٤٢.

يقاوم ولا يستطيع البشر أن يردوا أمره أو يعترضوه، فهو كالقدر لا يقدرون على الانفلات من إساده"[١].

وكان من آلهتهم (شَمَسْ):"وهو إله الشمس، ويوصف بأنَّه ضوءُ العالم، وضوءُ الأعالي، كما أنَّه ضوءُ الأعماق، وضوءُ السموات والأرض، وضوء الآلهة، وبوصفه كذلك كصاحب للأشعة التي تخترق الظلمة التي يعمل فيها الأشرار، والفجر عدو للشَّر، فإن أكثر صوره دائرة بأربعة أشعة، تخرج بينها أشعةٌ مجعَّدةٌ تمثل المعبود الشمسي، ورمز لطيران الشمس من الشرق إلى الغرب، تصور الكرة الشمسية ذات أجنحةٍ وذيل طائرٍ، وحين تترك الشمس عرشها لتعبر الفلك تمتطي حصانًا"[٢].

وفي الشرق كان (سومر و أكاد): حيث "عبد السومريون آلهة مثل "بِين هِرسَاج" التي تدعى أم الآلهة وأم البشر، وهي ترعى أُمرَاء المستقبل، وصورتها على هيئة بقرة، وقد اختارت زوجًا لها هو إله "أور نانار" الذي هو بصورة ثورٍ قوي يُرمز به إلى القمر.

وفي مدينة "لَجَش" هناك إله خاص بها هو "نِينْ جِرسُو" ومثاله على هيئة نسر كبير برأس أسد يقبض على حيوانين. ويلاحظ التركيز على تصوير الإله بصورة حيوانات عند السومريين"[٣].

وفي الهند يؤمن الهنود بفكرة (التَّناسُخ والتَّقمُّص) "وهو أنَّ الروح تتقمص عددًا من الأجساد خلال رحلتها في الفضاء الخارجي حتى تصل إلى هدفها النهائي، وهذه النظريَّة –نظرية التناسخ– تسري على كل الكائنات حيوانًا أم نباتًا أم بشرًا، فإذا كانت روحه قد حلت بجسد الكلب وعاش حياة رذيلة في هذا التناسخ، فإنَّه في مدةٍ أخرى سوف تحلُّ روحه في أقل من الكلب شأنًا حتى يكون الحال أن يُولد في جسم برغوث أو بعوضة، والجيدون يكون توالد روحهم في جسد طائفة أعلى، غير أنَّه إذا ظل يعمل حياة صالحة باستمرار، فإنَّه سيرتقي حتى يصبح كاهنًا برهميًا، وهنا تنتهي دورة الحياة عنده"[٤].

---

[١] **أشهر الأساطير في التاريخ، مجدي كامل، ط١،(القاهرة: دار الكتاب،٢٠٠٣م)،:٦٨.**

[٢] **قصة الديانات، سليمان مظهر، (مكتبة مدبولي،١٩٩٥م)،:٤٧.**

[٣] **المرجع السابق،:٦٩.**

[٤] **المرجع السابق،:٨٥.**

وللهنود آلهة أخرى مثل: "جَانِيش"، "وهو الفيل الذي تتجسَّد فيه الطبيعة الحيوانية للإنسان، وتتخذ صورته طلسمًا حافظًا لحامله من سوء الحظ. وأيضًا هناك آلهة أو معبودات حيوانية كالأفعى الخطيرة "ناجا" التي تؤدي عضةٌ منها إلى الموت الزُّؤام فورًا، ولذا فهم يحتفلون كل سنةٍ، فتقدم لها ولزميلاتها من الأفاعي قرابين من الموز واللبن تُدسُّ عند مداخل جحورها، وكذلك هناك تقديس للقردة والتماسيح والنمور والطواويس والببغاوات والفئران...، إذ إنَّ الحيوان والإنسان لدى الهندوسيِّ واحدٌ، فهما روح، والأرواح كما في اعتقاد التناسخ تنتقل دائمًا.

وأما الحيوان الذي له القدسية العليا من بين الحيوانات لدى الهندوس فهي البقرة، فهذه لا تُذبُّ ولا تُمنع من شيء، ولا يجوز اعتراضها وما ينجم عنها مقدس، ولا يجوز أكلُها تحت أي ظرفٍ من الظروف، ولا الانتفاع بإهابها لديهم مهما كان الظَّرف والواقع، ولا بأي من أشكال الانتفاع، بل تُدفن بجلالٍ وتكريمٍ مع طقوس لائقةٍ تعظمها جدًّا"[1].

وفي الصين الكثير من العقائد والخرافات، فقد "تحولت "الطَّاوِيَّة" إلى عقيدة تؤمن بمعبودات بعد أن كانت فلسفيَّة أيام مؤسِّسها، فذهب أتباعه إلى عبادة التِّنين بأنواعه وحتى الفئران والحيَّات وبنات آوى"[2].

أما الفرس فتعد آلهتهم من أقدم الآلهة التي عُبدت، فقد "عبد الإيرانيُّون آلهة الطبيعة الكثيرة العدد، فقد عبدوا إله الشمس "مِيثْرَا" الذي إليه مردّ نضج محاصيلهم،كما عبدوا إله الحطب والأرض "أَنِيتَا"، وعبدوا الثور الذي مات ثم بعث حيًّا، ووهب الجنس البشري دمه شرابًا ليسبغ عليه نعمة الخلود، وسموه: (هُومَا)"[3].

مما سبق نستنتج أنَّ علاقة الإنسان بالحيوان علاقةٌ قديمةٌ، فقد جاور النَّافر والطَّائر والصَّاهِل والسَّانِح والسَّائح، وراعه منها النَّاب، وراقه منها مُوش الإِهَاب، وربما رأى في قرونها السلاح، وفي أظلافها الكدُّ والسعي، وفي ثُغَائها السرور والخصب، وفي كثرة عدد النَّافع منها المنعة والعزَّة والشرف والسؤدد، وقد اتخذ من جلودها البيوت، ومن أوبارها وأشعارها الكساء،

---

[1] **المرجع السابق:٩٦-٩٧.**

[2] **أساطير العالم، مرجع سابق :٢٦٧.**

[3] **المرجع السابق:٢٧٧.**

وكان له في كل منها آية، فمنها ما كان سببًا من أسباب الوحشة، ومنها ما كان سببًا إلى الأنس والرحمة، وقد عبدها حينًا ثم كفر بها، وامتدت إليها القدسيَّة ثم نُزعت منها، وضُربت لها الأمثال، وذُكرت بها الطبائع والصفات.

لقد كانت علاقة الإنسان بالحيوان علاقة وطيدة، غير أنَّ أهم جانبٍ من تلك العلاقة بين الإنسان والحيوان هو الجانب الدِّيني، فقد كان الحيوان من بين الصُّور المهمة لمعبودات الإنسان، فهو الممثِّل والرمز للإله الذي تتوجه إليه الجماعة في صلواتها، فقد كان أول المعبودات التي عبدها الإنسان القديم عن جهلٍ منه دون الله عز وجل[١].

الحيوان في القرآن الكريم:

لقد ارتبطت حياة الإنسان بالحيوان ارتباطًا وثيقًا، سيدوم ما دامت الحياة على وجه الأرض، وقد أدرك الإنسان بفطرته أنَّ الحيوان هدية أهديت له من عند الله، تحمل في طيَّاتها ما لا يحصى من الفوائد، التي تعتدل بها حياة الإنسان وتستقيم، فالحيوان رفيق الإنسان على الأرض، "فهو إمَّا أن يكون أليفهُ ومُعينهُ في حاجاته، ولذا فهو يرعاه ويحبه ويتمسك بصحبته تمسُّك صاحب الحاجة بمن يعينه عليها، وإمَّا أن يكون عدوًّا له مؤذيًا إيَّاه، فهو يحاول الخلاص منه والقضاء عليه بالوسائل التي يمليها عليه العقل والبصر والتدبُّر.

لذا، ملأ الحيوان جوانب رحبة في نفس الإنسان، وشغل عقله وحرك تفكيره، ومهما كان الأمر، فهو دالٌّ على مدى اتصال حياة الإنسان بالحيوان والاهتمام به"[٢].

وإذا نظرنا إلى أول علاقة للإنسان مع الحيوان وجدناها مع ابني آدم قابيل وهابيل، إذ أرسل الله عز وجل الغراب بعد أن قتل قابيل أخاه هابيل في أوَّل قصة للقتل على وجه الأرض، التي يقول عنها القرآن الكريم: {**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ**

---

[١] **الحيوان في القرآن الكريم، مرجع سابق،:٧–٨.**

[٢] **التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، مرجع سابق،:١٧١.**

قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[1]، وروي أنَّه أول قتيلٍ قتل على وجه الأرض، وقوله تعالى: "لِيُرِيَهُ"أي: ليريه الله أو ليريه الغراب، أي ليعلمه لأنَّه لما كان سبب تعليمه، فكأنَّه قصد تعليمه على سبيل المجاز"[2]، "فكان الغراب أوَّل طيرٍ يرسله الله عز وجل لتعليم الإنسان مشروعية الدفن وزمنه"[3] وهكذا نرى "أنَّ الله سبحانه جعل في الحيوان ما لم يجعله في الإنسان، فلا نستهين بالحيوان، حيث من الحيوان تعلَّمَ الإنسان كيف يُوارِي أخاه الإنسان، وكم من الناس في كل يومٍ يموتون ويوارون تحت التراب كما فعل الغراب بأخيه الغراب"[4].

ولم تنته فائدة الحيوان للإنسان عند هذا الحد، بل إنَّ الإنسان قد جعل من الحيوان فدية تُفتدى بها النفس البشرية عند وقوع المصائب كما في قصة إسماعيل عليه السلام في قوله تعالى: **{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}**[5]

فقد ذكر الله تعالى عن خليله إبراهيم أنَّه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولدًا صالحًا، فبشره الله بغلامٍ حليمٍ وهو إسماعيل عليه السلام، فلما شبَّ وأصبح يافعًا أمره الله بذبح وحيده الذي ليس له غيره، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلاَّ أن أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته.

---

[1] سورة المائدة، الآيات :٢٧-٣١.

[2] الكشاف،مصدر سابق،جـ١،:٦٠٨.

[3] تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء،إسماعيل بن كثير القرشي، جـ١، ط١،طبعة جديدة منقحة،(الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٦هـ)،:٤٨.

[4] الحيوان في القرآن الكريم، مرجع سابق،:٥٦٧.

[5] سورة الصافات، الآيات: ٩٩-١١١.

وهذه الرؤيا التي رآها إبراهيم عليه السلام كانت ابتلاءً عظيمًا من الله عز وجل، يختبر فيه طاعته وامتثاله لأمر الله عز وجل، فما كان منه عليه السلام إلا أن سلَّم لأمر الله وأذعن طاعةً له، وقد برهن إسماعيل عليه السلام بامتثاله لأمر الله أولاً ثمَّ طاعة أبيه على قوة إيمانه وصبره، فما كان إلاَّ أن فداه الله عزَّ وجلَّ بذِبحٍ عظيم، وكان هذا الذِّبح "جزاءً لما مضى من طاعة إبراهيم ورضا إسماعيل وسنَّةً لما سيأتي، سنَّة في ذرية إبراهيم استنَّ بها محمدٌ ﷺ، فنحر يوم العيد وهو اليوم الثاني بعد الوقوف في عرفة من أيام الحج، وعُرف بيوم النحر[١]، وهكذا كان الكبش رمزًا لحقيقة الإيمان، وجمال الطاعة، وعظمة التَّسليم"[٢].

وقد يكون الحيوان معجزة من الله لأحد أنبيائه كما في قوله تعالى: **{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ.}** [٣]

فقد بعث الله صالحًا إلى ثمود ، يدعوهم إلى توحيد الله و إفراده بالعبادة ، فقالوا: "**يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا**"[٤]...الآية، وظلَّ صالح يدعوهم فلم يتبعه منهم إلا قليلٌ مستضعفون، فلما ألحَّ عليهم بالدعاء والتحذير والتخويف سألوه فقالوا: يا صالح اخرج معنا إلى عيدنا –وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم– فأرِنَا آيةً فتدعو إلهك فإن استُجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعتنا.

---

[١] **الحيوان في القرآن الكريم، مرجع سابق، :٤١٨.**

[٢] **في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٧، ط١،(دار إحياء التراث،١٩٥٢م)،:٦٦.**

[٣] **سورة الأعراف، الآيات:٧٣-٧٩.**

[٤] **سورة هود، الآية: ٦٢.**

فأخذ عليهم المواثيق بذلك، وأتى الصخرة وصلَّى ودعا ربه عز وجل، فانفجرت وخرجت من وسطها الناقة كما طلبوا، وهم ينظرون، فآمن به سيد قومه، واسمه جندع بن عمرو، ورهطٌ من قومه، فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: **{هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}**[١]، ثم أوحى الله إلى صالح أنَّ قومك سيعقرون النَّاقة، فأتتهم صيحةٌ من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا[٢].

فهذه الناقة ليست كأي ناقة، بل هي ناقةٌ عظيمةٌ خرجت من صخرة صمَّاء، وهي آية من أعظم آيات الله، وهي معجزة خارقة لقوم صالح ليؤمنوا بالله عز وجل.

لقد كان ذكر الله للناقة في القرآن تحذيرًا للمشركين حين طلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بالمعجزات، فطلبوا منه أن يحول لهم "الصفا" ذهبًا، فحذرهم رسول الله ﷺ من مطالبهم هذه، لأنَّ الرسل السابقين كانوا يأتون قومهم بالمعجزات فيكذبوا بها فيعذبهم الله على تكذيبهم، "فكان ذكرها بيانًا لعدم استحباب طلب الآيات من الله عز وجل"[٣].

والسبب الآخر لذكر الناقة في القرآن، وهو السبب الأهم "هو الدعوة إلى الإيمان بالله واحدًا أحدًا حيث استطاع –سبحانه– أن يرسلها إليهم من غير وساطة، ومن غير أسبابٍ معتادة، وهم يعرفون أنَّ النوق تأتي من النوق، لكن هذه لم تلدها ناقة، وإنَّما وجدت أمامهم بغير الأسباب المعتادة، فهي خارقة معجزة، بل هي آية من عند الله، لكنهم لم يصدقوا بتلك الآية"[٤] فاستحقوا العذاب الأليم .

وقد يذكر القرآن حيوانًا أو حشرة صغيرة ضئيلة لحكمة معينة أرادها الله عز وجل، ومن هذه الحشرات النملة في قصة سليمان عليه السلام في قوله تعالى: **{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا**

---

[١] سورة الشعراء، الآية: ١٥٥.

[٢] قصص الأنبياء، إسماعيل بن كثير القرشي، تحقيق ومراجعة: الشيخ خليل الميس، (بيروت– لبنان: دار القلم)،: ١١٥–١٢٧.

[٣] المرجع السابق،: ٣٣٨.

[٤] المرجع السابق: ٣٣٧–٣٣٨.

مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[(١)]

يخبر تعالى عن عبده ونبيِّه وابن نبيِّه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، أنَّه ركب يومًا في جيشه وجميعه من الجنِّ والإنس والطير، فالجن والإنس يسيرون معه، والطير سائرة معه تظلُّه بأجنحتها من الحرِّ وغيره، **{حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}** فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

لقد ذكر الله عز وجل النملة في الآية الكريمة ليبين أنَّها أمَّةٌ من الأمم التي خلقها الله عز وجل لعبادته، فالحيوانات والطيور والحشرات أممٌ أمثالنا، **{وَ مَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم}**[(٢)].

ثم إنَّ الله عز وجل أراد أن يضرب لنا مثلاً لكل أمةٍ من الأمم التي سخرها لسليمان، وهذا من الملك الذي آتاه الله عز وجل لسليمان، كما أن الله عز وجل علمه منطق الطير والحشرات، كما أراد أن يوضح لنا مدى رحمة هذه النملة وشفقتها ببنات جنسها، فقد نبهتهنَّ إلى ما يمكن أن يحدث حتى يحذرنه وينجين بأنفسهن من الهلاك، فالرحمة ليست في بني البشر فحسب، بل في الحيوانات والطيور والحشرات، وإذا كانت هذه الرحمة موجودة في الكائنات فكيف برحمة أرحم الراحمين! قال رسول الله ﷺ :"**إنَّ للهِ مائةَ رحمةٍ أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجنِّ والإنسِ والبهائمِ والهوَامِ فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطِف الوُحوش على ولَدِها، وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يومَ القيامة**"[(٣)]

وكما كان سليمان عليه السلام يسمع لغة الحشرات ويفهمها فقد كان أيضًا يتحدث إلى الطير كما فعل مع الهدهد في قوله تعالى: **{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً**

[(١)] **سورة النمل، الآيات:١٧-١٩.**

[(٢)] **سورة الأنعام، الآية:٣٨.**

[(٣)] **صحيح مسلم، مصدر سابق، ج٣،:٢١٠٨.**

تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ. أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ. قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ. فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ. ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}[١]

يذكر الله عز وجل لنا في هذه السورة نوعًا من الطيور وهو الهدهد، وذكر من الحشرات النمل، وذكر من الإنس بلقيس، كما ذكر الجانَّ في قوله: "**قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ**"، كل ذلك لبيان عظم ما آتاه الله لسليمان من الملك، حيث دعا الله عز وجل أن يؤتيه ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من العالمين، فكان له ذلك.

ثم ذكر عز وجل ما دار بين سليمان والنملة من حديث، ثم ما دار بين سليمان والهدهد، ليقر قضية مهمة، وهي مبدأ قضية الحوار مع من كان أقل مكانةً وأقل أهميةً، فالهدهد طائر لا يعقل كما يعقل الإنسان، ومع هذا كله فقد تحدث معه سليمان عليه السلام واستجوبه وسمع منه ثم أرسله، وهذا من هدي الأنبياء عليهم السلام، لذا أراد الله عز وجل من المؤمنين أن يقتدوا بهم في طريقتهم في الحوار مع غيرهم لكسب قلوبهم ودعوتهم إلى الدين، فالحوار "يوقظ العواطف والانفعالات مما يساعد على تربيتها وتوجيهها نحو المثل الأعلى، كما أنَّ له نتائج سلوكية طيبة، وكل هذا من أغراض التربية الحقَّة"[١]

---

[١] **سورة النمل، الآيات: ٢٠-٣٧.**

[١] **حوار أم جدل؟، عادل نور الدين، ط١، (مكتبة الرشد، ١٤٢٧هـ): ١٦.**

وحقيقة أخرى وهي: "إنَّ هذه الأمم –أمة الطير والحيوان والحشرات– تعرف الله حق قدره وتؤمن بأنَّه المستحق للعبادة، ويظهر ذلك في قصة الهدهد الذي جاء لسليمان –عليه السلام– من سبأ بنبأٍ يقين، وأعلمه أنه وجد في سبأ ملكة وقومها يسجدون للشمس من دون الله، واستغرب الهدهد من هذه العبادة الباطلة وعللها بأنها من عمل الشيطان، حيث قال: **"وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ"**[٢]

الأمر الآخر أنَّ ذِكرَ الله عز وجل للهدهد في القرآن "كشف لنا تلك الحقيقة: وهي حقيقة أنَّ لكل أمَّةٍ لغة ووسائل للتفاهم فيما بينها، وإن كنَّا نجهلها نحن البشر فلأنَّ الله سبحانه جعل بيننا وبين تلك الأمم حواجز، والدليل على أنَّ التفاهم قائم واللغة قائمة بين أفراد تلك الأمم هو أنَّ الله سبحانه حين علَّم سليمان منطق الطير فأزال ما بينه وبين تلك الأنواع من حواجز، فهم سليمان وأدرك منطق تلك الأفراد"[٣]

كما يتضح من حديث الهدهد مع سليمان أنَّه قد قام بمهمة استكشافية عرف من خلالها مملكة سبأ، التي تحكمها امرأة، ثم قام بعدها بدور السفير والموفد السياسي من سليمان عليه السلام إلى مملكة سبأ، فهذا الطير لعب دورًا عسكريًّا مهمًّا أدَّى إلى هداية مملكة سبأ.

"إلا أنَّ الحقيقة التي أراد السياق القرآني أن يكشفها لنا من خلال قصة الهدهد مع سليمان لا تدخل في الإعجاز، وإنما تبقى حقيقة جارية ثابتة بعد أن ثبتها القرآن، وهي: أن هذه الأنواع أو هذه الأمم توحد الله وتسبحه دون جحود أو عصيان أو تمرد كما يفعل الإنسان، ومما يؤيد هذه الحقيقة هي قول الله عز وجل: **{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}**[١]"[٢]، "فهذا طيرٌ غيَّر مجرى حياة مملكة سبأ حيث أتى بخبرهم إلى سليمان فكشفهم له، فدعاهم إلى عبادة الله فأسلموا"[٣].

---

[٢] **الحيوان في القرآن الكريم، مرجع سابق،: ٣٧٤.**

[٣] **المرجع السابق،: ٣٧٣.**

[١] **سورة الإسراء، الآية: ٤٤.**

[٢] **الحيوان في القرآن الكريم، مرجع سابق،: ٣٧٥.**

[٣] **المرجع السابق،: ٣٧٢.**

ولم يكن الهدهد وحده سببًا في توحيد العبادة لله عز وجل، بل كانت الحية معجزة أيّد الله بها موسى عليه السلام ليؤمن فرعون وقومه بالله عز وجل كما ورد في قوله تعالى: **{وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى. قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}**[٤]، وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أنَّ الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وأنَّه الفعال بالاختيار.

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: **{وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِين}**[٥] أي: قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة، وأنيابٌ تصكُّ ،وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان، وهو ضرب من الحيَّات، يقال له: الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدًّا، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة، فلما عاينها موسى عليه السلام:" **وَلَّى مُدْبِراً** " أي: هاربًا منها، لأنَّ طبيعته البشرية تقتضي ذلك، "**وَلَمْ يُعَقِّبْ**" أي: ولم يلتفت. فناداه ربه قائلاً له: "**يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**" فلمَّا رجع أمره الله تعالى أن يمسكها: "**قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى**" فيقال: إنَّه تهيَّب منها تهيُّبًا شديدًا، فوضع يده في كمِّ مدرعته، ثم وضع يده في وسط فمها، وعند أهل الكتاب: أمسك بذنبها فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين![٦]

ويبدو أنَّ في اختيار الله عز وجل للحية أمرين:

الأول: أنَّ الحيَّة هي من الزواحف التي تظهر بشكل دائم في البيئات الصحراوية، وقد أَلِفَ الناس رؤيتها أكثر من غيرها من الزواحف، لذا كان اختيار الله عز وجل تحويل العصا إلى حية من هذا الباب.

---

[٤] **سورة طه، الآيات:١٧-٢١.**

[٥] **سورة القصص، الآية:٣١.**

[٦] **قصص الأنبياء، مرجع سابق، :٣١١-٣١٤.**

الأمر الثاني: أنَّ الحية تُستخدم كثيرًا من قبل السحرة لتخويف الناس، وقوم موسى اشتهروا ببراعتهم في السحر، فأراد الله عز وجل أن يتحداهم بجنس ما برعوا فيه.

ومن أضخم الحيوانات التي ذكرها الله في القرآن الكريم الفيل في قصة أبرهة، يقول الله عز وجل: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ.}**[(١)]

"لقد احتوت هذه السورة القصيرة على خارقتين وقعتا للحيوان، خارقة الطير الأبابيل، وخارقة فيل أبرهة، حيث جرت هاتين الخارقتين في قصةٍ واحدةٍ، وقد حدثت هذه القصة عام مولد النبي ﷺ، فسُمي ذلك العام بعام الفيل إشارة إلى تلك الخارقة التي حدثت فيه وهي خارقة فيل أبرهة"[(٢)]

"وأصحاب الفيل هم أبرهة والنظام الحاكم، ونسبهم –سبحانه– إلى الفيل والبشر أعظم من الحيوان، لأنَّ الفيل في حالهم تلك كان أعلى مرتبةً منهم كبشر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنَّ الفيل كان هو قائدهم ومناط آمالهم ومحط أنظارهم فنسبهم جميعًا إليه فقال – سبحانه–"**بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** "[(٣)]

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه حادثة الفيل تسليةً للرسول ﷺ عمَّا يلاقيه من ظلم كفار قريش، فالله سبحانه يذكِّر رسوله بذلك الجيش العظيم الذي جرَّ معه أعظم الحيوانات خلقةً وهو الفيل، لتخويف قريش وكل من يقف في طريقها، فماذا كان مصيره حين عصى الله وتحداه؟

فالله سبحانه يطمئن رسوله ﷺ ويذكره بقدرته على البطش بأعدائه، ولا شيء أهون عليه من ذلك، كما أنَّ الله عز وجل أراد من ذكر الفيل أن يخوف قريش ويرعبهم ويرهبهم، وأن يذكرهم بعظم قدرة الله عز وجل في القضاء على أعدائه، فأبرهة وجيشه صحبوا معهم

---

(١) **سورة الفيل، الآيات: ١–٥.**

(٢) **الحيوان في القرآن الكريم، مرجع سابق،: ٣٨٨.**

(٣) **المرجع السابق،: ٣٩٧.**

الفيل لهدم الكعبة وعلى الرغم من قوته وضخامته وما أوتي من تدريب، انشلَّ وعجز وبرك أمام قدرة الله، فإذا وجهوه إلى الحرم رفض، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول.

فأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، وكأنَّ الله سبحانه اختار الطير دون غيره لإذلالهم وإهانتهم، فالطير أصغر من الفيل بأضعاف مضاعفة، إلا أنَّ جيش أبرهة وقف عاجزاً عن الهرب منهم أو النجاة، فالله أراد السخرية منهم وإذلالهم، بالإضافة إلى أنَّ الله سبحانه صوَّر لهم قدرته على تدمير أعدائه العصاة بأصغر جند من جنوده[١].

مما سبق يتضح أنَّ للحيوان أهمية عند جميع الشعوب على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم على امتداد التاريخ وتعاقب الأجيال، فكانوا يحرصون على اقتنائه ويدفعون عنه كل من يعتدي عليه من إنسان أو حيوان مفترس، وربما نشبت الحروب أحيانًا بينهم بسبب حيوان.

وقد تبرز أهمية الحيوان في تعلقهم به واعتقادهم فيه، فقد ظلت هذه المعتقدات قائمة حتى ظهور الإسلام، فظلَّ في صراع معها حتى نصره الله عليها وأبطل كل ذلك.

---

[١] **المرجع السابق،: ٤٠٢.**

المبحث الثاني

التَّشبِيهُ بالحيوانِ في الأَدبِ والشِّعرِ العَرَبيِّ

في هذا الفصل إبرازٌ لظاهرةٍ مهمةٍ من ظواهر الحضارة العربية المتأصِّلة في العرب منذ أقدم العصور، وهو الكشف عن مدى اهتمامهم بتسجيل حركات الحيوان وسكناته وطبائعه بأجلى صورة وأبلغ قول.

أما عن أمثالهم السائرة فنجدها جامعةً لكلِّ صفات الحيوان وطبائعه، وقد أُطلقت هذه الأمثال على فئةٍ من الناس اتفقوا في صفاتهم مع صفات هذه الحيوانات، وقد تكون هذه الصفات إمَّا حَمِيدةً أو سيِّئةً مذمُومةً[١].

وقد نَظَم العرب من الأشعار في الحيوان أكثر مما نَظَمه أيُّ شعبٍ آخر، فقلَّما نجد قصيدةً مهما كان موضوعها وليس للحيوان ذكرٌ فيها[٢].

فما من شاعرٍ عربيٍّ إلاَّ وللحيوان أثرٌ مهمٌ في شعره، ولكنهم متفاوتون في هذا المضمار، فمنهم من يأتي على ذكره عرضًا عندما يشبِّه الشجاع بالأسد، والماكر بالثعلب، والغادة الحسناء بالظبية. إلى غير ذلك من التَّشبيهات الشائعة عندهم، ومنهم من وُلِع بالصيد فذكر في طرديَّاته: الخيل والكلاب والفهود، وجوارح الطير، وما تصيده هذه السباع من الحيوانات[٣].

وفي ذلك يقول الجاحظ: "وقلَّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين، إلاَّ ونحن وجدناه أو قريبًا منه في أشعار العرب وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا"[٤].

فمنهم من وقف على الكثير من أصناف الحيوانات الصغيرة والجسيمة، الأليفة منها والوحشيَّة، وُقوف فاحصٍ متأمِّلٍ يحصي عليها حركاتها وأنفاسها، بل ولم يغفل البعض منهم عن كلِّ ما هبَّ ودبَّ، أو طار في أجواء السماء، أو عام أو رَكَسَ في الماء ممَّا هو موجودٌ في بلادهم، دارسًا خصائصه وطبائعه[٥].

---

[١] **الحيوان في الأدب العربي**، شاكر هادي شاكر، ج١، ط١، (بيروت–لبنان: مكتبة النهضة العربية، ١٤٠٥هـ)، :٨.

[٢] **المرجع السابق**، :٨.

[٣] **المرجع السابق، ج١، :٧.**

[٤] **الحيوان، مصدر سابق، ج٣، :٢٦٨.**

[٥] **الحيوان في الأدب العربي، مرجع سابق، :٧.**

كما نلمس من معاشرة الإنسان العربيّ للحيوانات عطفًا منقطع النظير، حتى على المفترس منها عندما يتعرض للجوع أو العطش، كقصة الفرزدق[١] مع الذِّئب وهي معروضة عرضًا رائعًا في قصيدته النُّونيَّة التي مطلعها: (الطويل)

وَأَطْلَسَ[٢] عَسَّالٍ[٣] ومَا كَانَ صَاحِبًا دَعــوتُ بِنَــارِي مُوهِنًــا فَأَتَانِيَــا[٤]

وأمثال هذه القصة كثيرةٌ، نجدها في ثنايا الدواوين الشعريَّة.

وسوف نتناول في هذا المبحث جملة من الحيوانات ورد ذكرها في أمثال العرب ووردت كثيرًا في قصصهم، ووصفها كثير من شعرائهم، وهذه الحيوانات التي سنوردها في هذا المبحث هي عينها التي تناولها الحديث النبوي في تشبيهاته.

ولعل الإبل هي أول هذه الحيوانات، حيث كانت لها مكانةٌ عاليةٌ عند العرب، فهي من أغلى أموالهم وأثمنها على الإطلاق، وخير دليلٍ على ذلك دفع الدِّيَّات من الإبل إذ أنها تمثل شيئًا نفيسًا، فهي أغلى ما لديهم بعد الإنسان، لذا لم يجدوا ما يعدل قيمة هذا الإنسان في حال قتله غير الإبل تُدفع لأهل المقتول دية لهم، ففرحهم بها يخفف حزنهم وآلامهم على فراق أحد أفرادهم.

فقد كانت الإبل أكثر الحيوانات ملازمة للعربيِّ، لذلك برع الشعراء في وصف أدقِّ تفاصيلها واستمدوا تشبيهاتهم من واقع حياتهم وارتباطهم بها، يقول الدكتور شوقي ضيف: "...إذ نراها تبتدئ عادةً بوصف الأطلال وبكاء الدمن، ثم تنتقل إلى وصف رحلات الشاعر في الصحراء، وحينئذ يصف ناقته التي تملأ حسه ونفسه وصفًا دقيقًا فيه حذقٌ ومهارة..."[٥].

---

[١] **الفرزدق: همام بن غالب بن صعصعة، بن ناجية، من شعراء العصر الأموي، أسنَّ الفرزدق حتى قارب المائة، توفي سنة ١١٠هـ، (انظر:معجم الأدباء، جـ٦،:٢٧٨٥).**

[٢] **أطلس: هو الذئب الذي في لونه غبرة إلى السواد. (انظر:مختار الصحاح، باب الطاء، مادة (ط ل س)، :٣٩٥).**

[٣] **عسال: يقال:(عَسَلَ) الذئب يَعْسِلُ أي: أعْنَقَ وأسرَعَ. (انظر: مختار الصحاح،باب العين،مادة(ع س ل)، :٤٣٢).**

[٤] **ديوانه، شرحه: علي فاعور، ط١، (دار الكتب العلمية،١٤٠٧هـ):٦٢٨.**

[٥] **الفن ومذاهبه في الشعر، شوقي ضيف، ط١، (مصر: دار المعارف)،:١٨.**

ولسمو فوائدها، وضعها القرآن الكريم نصب أعين العرب مرارًا، يُشيد عن طريقها بنعم الله عليهم ويلفتهم إلى ما في خلقها وطبائعها من آيات تدعو إلى الاعتبار والتفكير، فخاطبهم بقوله: **{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}**[(١)].

وقد أكثروا التمثيل بها فقالوا: (ضَرَبهُ ضَرْبَ غَرَائِبِ الإِبِلِ)، يُضرَب مثلاً لشِدَّة الظُّلم، وغيره من المكاره[(٢)]، ومنه أيضًا قولهم: (أَرْغُوا لهَاَ حُوَارَهَا تَقِرُّ) –والحُوار بالضم ولد النَّاقة[(٣)]– وهو يُضرب مثلاً لإغاثة الملهوف بقضاء حاجته ليسكن، وأصله أنَّ النَّاقة إذا سمعت رُغَاءَ حُوَارِها سَكَنَت وهَدَأت[(٤)]، ويقولون: (هَذَا أمرٌ لا تَبْرُكُ عليه الإبل) يُضرب للأمر العظيم الذي لا يُصبر عليه، وأصله أنَّ الإبل إذا أنكرت الشيء نفرت منه فذهبت في الأرض، ولا يجمعها الراعي إلاَّ بتعبٍ[(٥)]، وقيل أيضاً: (أَحقَدُ من جَمَل)[(٦)]، فالجمل معروفٌ بالحقد، خاصةً في أيَّام الضِّراب، وأيام الضِّراب هي الأيَّام التي يُسار فيها ابتغاءَ الرِّزق[(٧)].

والأمثلة الواردة في الإبل العربية كثيرة، أكثر من أن تُحصى في هذا المبحث، وقد آثرنا أن نذكر أشهرها والمتداول منها على الألسنة.

وقد كثُر ذكر الإبل في القَصَص، ومن ذلك أنَّ "رجلًا عائنًا جلس يومًا إلى جماعة فمر بهم قطار جمال، فقال العائن: من أي جملٍ تريدون أن أطعمكم من لحمه؟ فأشاروا إلى أحسنها، فنظر إليه العائن فوقع الجمل لساعته، وكان صاحب الجمل حكيمًا، فقال: من ربط جملي فليحله، وليقل: بسم الله عظيم الشأن شديد البرهان ما شاء الله كان، حبس حابس من حجر يابس وشهاب قابس، اللهم إنِّي رددت عين العائن عليه وفي أحبِّ الناس إليه، وفي كبده

---

(١) **سورة الغاشية، الآية:١٧.**

(٢) **مجمع الأمثال، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢، (طباعة عيسى البابي الحلبي وشركاه): ٢٦٠.**

(٣) **مختار الصحاح، مصدر سابق، مادة (ح و ر)،:١٦١.**

(٤) **مجمع الأمثال، مصدر سابق،ج٢، :٣٣.**

(٥) **المصدر السابق، ج٤، :٤٧٩.**

(٦) **جمهرة الأمثال، أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ج١، ط١،(صيدا: بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٤هـ)،:٣٤٠.**

(٧) **مختار الصحاح، مصدر سابق، مادة (ض ر ب)، :٣٧٨.**

وكليته، لحمٌ رقيقٌ وعظمٌ دقيقٌ فيما له يليق، فوقف الجمل لساعته كأن لم يكن به بأس، وندرت عين العائن"[١].

فهذه القصة توضح خوف العربي على إبله وبذله كل ما في وسعه حتى لا يصيبها مكروه، لأنَّها كانت بالنسبة له عصب الحياة.

واحتلت الإبل مكانة كبيرة في شعر عرب الجاهلية والإسلام، ولشدَّة عنايتهم بها وبصفاتها وطباعها، لا تأخذنا الدهشة عندما نعلم أنَّ العرب أول ما عمدوا إلى التَّأليف كان أول ما ألَّفوا فيه الإبل، فخصَّ اللغويون الإبل بالرسائل اللغوية منذ وقت مبكر، مثل: كتاب الإبل لعبد الملك بن قريب الأصمعي، وكتاب الإبل لأبي عبيد القاسم بن سلام، وغيرها.

فصوروها ورسموا لها لوحاتٍ فنية ناطقة، فهم يستحضرون دقائقها ويحصرون أطرافها ويستقصون جوانبها ويصفون أعضاءها عضوًا عضوًا، فلم يتركوا عرقًا ولا عصبًا إلا وصفوه أدقَّ وصف، فوصفوها حسيًّا مرارًا كثيرة، فرسموا لونها وشكلها وشبهوها بالسفينة والدلو والسيف والسحابة والنخلة، وتحدثوا عن لُغامها وصوتها ونشاطها وهزالها، ووصفوها معنويًّا أحيانًا نادرة في مختلف أحوالها ومراحل نموِّها وأماكن وجودها في أطراف الليل وآناء النهار كأنَّما يتغزلون بها، تحدثوا عن عاطفتها وحنينها وشوقها وعتابها، فعبروا عن إحساسها ومشاعرها، وتحدثوا عن علاقتهم بها وموقفهم منها، وعانوا معها مما تعاني ومما تشكو، فسجَّلوا بذلك صورةً رائعةً صادقةً تنبع من أعماق النفس البشرية ويطال الخلجات العاطفية[٢].

يقول عُبيد بن الأبرص[٣] وهو يصوِّر ناقته الشَّابة بعد كل تعب وكلل، وقد حنَّت وهاج شوقها وميضٌ بالحجاز بعد منتصف الليل فحنَّت إليه، فيلمس عُبيد شوق ناقته برفق ولا يعنِّفها: (الطويل)

وَحَنَّتْ قَلُوصِي بَعْدَ وَهنٍ[٤] وهَاجَها مَـعَ الشَّـوقِ يَوْمًـا بِالحِجَـازِ وَمِـيضُ

---

[١] **حياة الحيوان الكبرى،مصدر سابق،ج١،:٢٨٨.**

[٢] **الناقة في الشعر الجاهلي، مرجع سابق،:٣٥-٤٠.**

[٣] **عبيد بن الأبرص بن عوف بن جُشم، كان شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين، شهد مقتل حُجر أبي امرئ القيس، قتله النعمان بن المنذر يوم بؤسه. (انظر: الشعر والشعراء، ج١، :٢٦٧).**

[٤] **وهن: "الوَهْنُ والمُوْهِنُ: نحوٌ من منتصف الليل". انظر: (لسان العرب،ج١٣،(باب النون، فصل الواو)،:٤٥٥).**

فَقُلْــتُ لَهَــا لا تَضْــجَرِي إِنَّ مَنْــزِلًا   نَــأَتْنِي[١] بِــهِ هِنْــدٌ إِلَــيَّ بَغِـيضُ[٢]

فالحجاز موطن (هند)، وهند حبيبة صروم، والسبل إلى الحجاز ضيِّقة وبغيضة إلى قلب عبيد، لكنَّ الجاهلي يعلق بالأرض بحكم حياته الرعوية يتشبث بالمحسوس وقلَّما يفارقه، إن علا عليه ظل بصره مشدودًا إليه، وإن ابتعد عنه فلمسافة قريبة، وهو كذلك في علاقته بحبيبته وناقته، وفي صوره وأخيلته.

ولعلَّ الناقة هنا ترمز إلى عاطفة الشاعر التي هيجها وميض الحجاز، وأنَّ هناك صراعًا قد نشب بينهما وبين العقل، فهي لا تزال عالقة بالحجاز وبديار الأحبة، والعقل يأبى الرضوخ والإذلال لحبيبة صروم[٣].

ويشبه طرفة[٤] ناقته عندما يضربها بالسوط بقوله: (الطويل)

أَحَلْـتُ عَلَيْهَـا بِـالقَطِيعِ[٥] فَأَجْـذَمَتْ[٦]   وَقَـدْ خَـبَّ آلُ[٧] الأَمْعَـزِ[٨] المُتَوَقِّـدِ[٩]

فَذَالَتْ[١٠] كَمَا ذَالَتْ وَلِيدَةُ مَجْلِسٍ[١١]   تُـرِي رَبَّهَـا أَذْيَـالَ سَـحْلٍ مُمَـدَّدِ[١٢]

---

[١] نأتني به: "النَّأيُ: البُعد، والنَّأيُ: المُفارقة". انظر: (لسان العرب،ج١٥،(باب الياء، فصل النون)،:٣٠٠).

[٢] ديوانه،تحقيق: حسين نصار،ط١،(دار بيروت للطباعة والنشر،١٩٥٧م)،:٨٨–٨٩.

[٣] انظر: كتاب الناقة في الشعر الجاهلي، :١٢١–١٢٢، بتصرف.

[٤] طرفة بن العبد بن أبي سفيان بن قيس بن ثعلبة، كان في حسب من قومه جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم، كان أحدث الشعراء سناً وأقلهم عمراً، قُتل وهو ابن العشرين.(انظر: الشعر والشعراء، ج١،:١٨٥–١٨٨).

[٥] القَطِيع: "السوط يقطع من جلد سيرٍ ويعمل به". انظر: (لسان العرب،ج٨،(باب العين، فصل القاف)، :٢٨٢).

[٦] أجْذَمَتْ: "الجَذْمُ: السُّرعة". انظر: (لسان العرب،ج١٢،(باب الميم، فصل الجيم)،:٨٧).

[٧] خبَّ آلُ: "الخَبَبُ: ضربٌ من العَدْوِ". انظر: (لسان العرب،ج١،(باب الباء، فصل الخاء)،:٣٤١).؛ آلُ: "الأَلُّ: السُّرعةُ". انظر: (لسان العرب،ج١١،(باب اللام، فصل الهمزة)،:٢٣).

[٨] الأَمْعَزِ: "الأَمْعَزُ: الأرض الغليظةُ ذات الحجارة. انظر: (لسان العرب،ج٥،(باب الزاي، فصل الميم)،:٤١١).

[٩] المُتوَقِّد:"مُتَوَقِّدٌ: سريع التَّوقُّد في النَّشاطِ والمَضاءِ". انظر:(لسان العرب،ج٣،(باب الدال، فصل الواو)، :٤٦٦).

[١٠] ذَالَتْ:"الذَّألانُ: مشيٌ سريعٌ خفيفٌ في ميَسٍ وسرعةٍ".انظر:(لسان العرب،ج١١،(باب اللام، فصل الذال)، :٢٥٤).

[١١] وَلِيدَة: "الوَلِيدَة: الجَارِيَةُ والأَمَةُ". انظر: (لسان العرب،ج٣،(باب الدال، فصل الواو)،:٤٦٨).

[١٢] ديوانه،(دار بيروت للطباعة والنشر،١٣٩٩هـ)،:٢٩.

يقول الشاعر: أنّه إذا ضرب ناقته بالسوط، فإنها تسرع في السير على الأرض التي اختلطت تربتها بالحجارة والحصى، وتبخترت كما تتبختر جارية صبيَّة أمام سيدها، فتريه ذيل ثوبها الأبيض الطويل في رقصها، فطول ذنب الناقة يشبه طول ذيل ثوب الرَّاقصة، فالشاعر يشبه ناقته بالمحبوبة.

والسوط هنا يرمز إلى القَدَرِ وقسوته، وهذه الصَّبيَّة الفتيَّة التي تتبختر بجمالها وتتمايل رقصًا وغنجًا أمام ربِّ البيت ما هي إلا هذه الحياة الجميلة التي تسحر المرءِ بمفاتنها، فيصارع الدَّهر من أجلها ويستميت في الدفاع عنها ولا يفارقها إلا مرغمًا[١].

ويلي الإبل في الأهمية حيوان اتصف بالجمال الخلاَّب في خِلقته وخُلقه، تغنى العرب به كثيرًا، وأعجبوا بوفائه وجميل خصاله، ذلك هو الخيل، الذي هام العربيُّ به وعرف كثيرًا من صفاته وأوصافه، ولعل ذلك بسبب اهتمامه به وقربه منه، فذكره كثيرًا في أمثاله في مواطن الوفاء والنجدة والكرم، فقال: (أَسْرَعُ مِنْ فَرِيقِ الخَيْلِ) ويعني به الفرس الذي يسابق فيسبق، فهو يفارق الخيل وينفرد عنها[٢]، و: (الخَيْلُ أَعْلَمُ بِفُرْسَانِهَا) يعني أنَّها قد اختَبَرَتْ ركَّابها فهي تعرف الكفء من غيره. ومعنى المثل: استعن بمن يعرف الأمر[٣]، وأيضاً:(الخَيْلُ تَجْرِي عَلَى مَسَاوِيهَا) أي: إن كان بها –يعني الخيل– أَوْصَابٌ أوعيوبٌ فإنَّ كرمها يحملها على الجري، فكذلك الحر الكريم يحمل المؤَن ويحمي الذِّمار، وإن كان ضعيفًا، ويستعمل الكرم على كل حال[٤].

أما في الشعر، فإنَّ الخيل من أهم الحيوانات التي وصفها الشعراء على مر العصور، فقد نشأت بين العربيِّ وحصانه علاقة تاريخيَّة مصيريَّة "فكانا صديقين وفيَّين يتقاسمان صروف الحياة، ويتعرضان لنفس المخاطر، ويتذوقان نفس النَّشوة في غمار المعارك، وكانت النُّصرة والعزة ثمرة لتعاونهما الوثيق وشجاعتهما وجلدهما وبراعتهما"[٥].

فلم تكن للخيل عند العربيِّ المكانة العظمى والاهتمام الكبير، من أجل الزينة والتفاخر وحسب، بل كانت وسيلته إلى العزَّة والنصر، فالعربيُّ أبيٌّ بطبعه، محارب مقدام بحكم ظروف

---

[١] **انظر: كتاب الناقة في الشعر الجاهلي،:١١٤، بتصرف.**

[٢] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج٢،:١٣٤.**

[٣] **المصدر السابق، ج١، ٤٢٠.**

[٤] **المصدر السابق، ج١، ٤٢٠.**

[٥] **الحصان العربي الأصيل، قبلان غلوب، جروس برس، ط١، (طرابلس–لبنان،١٩٨٩م)،:١٢.**

حياته، وامتلاكه فرسًا أصيلة سابقة يعني الفوز والغلبة غازيًا أو مدافعًا، ولذلك نرى كثيرًا من الشعراء الفرسان قد تغنَّوا وتفنَّنوا بحب هذه الخيول سواء في مجالسهم أم في حلهم وترحالهم، في حربهم وسلمهم أم في مرحهم ولهوهم وصيدهم، تناولوها بشتى أنواع الوصف، وبرعوا في تربيتها ومعرفة الأصيل من الهجين منها، وخبروا طبائعها وعاداتها، ووضعوا لكل عضوٍ من أعضائها اسمًا، ونظموا فيها المؤلفات الكثيرة والقصائد الرائعة فأسسوا بها قواعد الفروسية الرائعة، فدخلت هذه الخيول في مختلف الأغراض الأدبية: في الفخر، والوصف، والمديح، والاعتذار، والتشبيه[١]، وكانوا في الارتحال والانتقال يستخدمون الإبل ولا يركبون الخيل وإنما يقودونها ويربطونها بالإبل، وهذا يدل على مدى اهتمامهم بها، ورغبتهم في ادخار جهدها وطاقتها ليوم احتياجهم لها في حرب أو صيد أو سبق أو مفاخرة، وكانوا يسمون خيولهم وكأنها أبناؤهم فيتحدث أحدهم عن فرسه باسمه، ويسقونها اللبن حتى تستعيد سمنها[٢]، يقول النابغة الذبياني[٣] مادحًا ابن الجلاح (النعمان بن وائل): (الطويل)

سَبَقْتَ الرِّجَالَ البَاهِشِينَ[٤] إِلَى العُلا   كَسَبْقِ الجَوَادِ اصْطَادَ قَبْلَ الطَّوَارِدِ[٥][٦]

فالنابغة يشبه هذا الممدوح بالخيل السريعة الكريمة حيث إنَّ الممدوح يسابق أهل المعالي والكرم والسؤدد فيسبقهم كما تسبق الجياد كلاب الصيد التي تتسابق على طرد الصيد، فتسبقها وتظفر به، فسرعة الممدوح في المبادرة إلى الكرم والمعالي تذكر الشاعر وترسم في خياله صورة الخيل الوفيَّة الكريمة في سرعتها وسبقها للكلاب في الظفر بالصيد، فشبهه بأوفى حيوانٍ وأسرعه في البادية وهو الخيل.

---

[١] الخيل في قصائد الجاهليين والإسلاميين، أحمد إسماعيل أبو يحيى،ط١،(بيروت–لبنان:المكتبة العصرية، ١٤١٧هـ)،:٦١.

[٢] فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر،محمد لطفي الصباغ،ط١،(بيروت–لبنان:المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ)، :١٧٥–١٧٦.

[٣] سبقت ترجمته،:٤٩.

[٤] البَاهِشِينَ: "البَهْشُ: المسارعةُ إلى أخذِ الشَّيء". انظر: (لسان العرب،جـ٦،(باب الشين، فصل الباء)،:).

[٥] الطَّوَارد: "الطَّرِيدَة: مَا طردت من صيدٍ وغيره". انظر: (لسان العرب،جـ١،(باب الباء، فصل الخاء)،:٢٦٧).

[٦] ديوانه،تحقيق وشرح: كرم البستاني،(دار صادر،١٩٦٣م)،:٤٣.

أما الحيوان الأليف الذي ملأ حياة البدويِّ فهو الكلب، فقد كان للكلاب عامةً شأنٌ كبيرٌ عند العرب، فكانوا ينسبون الكلاب كما ينسبون عِتَاق الخيل، وكانوا يسمُّون بها على التفاؤل لما اتسمت به من كريم الخلال، وكانوا يشتقون من أسمائها أسماء لأنفسهم في موضع النباهة وعلوِّ الشأن، بل إنَّ العرب أطلقوا على الشعراء اسم كلاب الحيِّ، وذلك لأنَّهم ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم.

وإنما استحقت الكلاب هذا المقام عند العرب وغيرهم لما امتازت به من صفات وما انفردت به من خلال[١]. وهو الحارس الأول للبدوي من أعدائه البشر، أو من الحيوانات المفترسة التي تفتك بحيواناته الأليفة. ولأهمية هذا الحيوان تغنى به الشعراء، وبأوصافه ووفائه وضربوا به الأمثال فقالوا: (أَفْحَشُ مِنْ كَلْبٍ) لأنَّه يهرُّ على الناس[٢]، و:(إِنَّكَ لاَ تُحَرِّشُ كَلْباً) يُضرب لمن يحمل على التوثُّب[٣]، وقالوا: (جَوِّعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْكَ) يُضرب في معاشرة اللِّئام وما ينبغي أن يُعاملوا به[٤]، و:(زَمَانٌ أَرَبَّتْ بِالكِلاَبِ الثَّعَالِبُ) يعني اشتدَّ الزَّمانُ فسمن الكلابُ من أَكْل الجيف، فلم يتعرَّض للثَّعلب، يُضرب لمن يوالي عَدُوَّه لسببٍ ما[٥]، و:(أَبْخَلُ مِنْ كَلْبٍ) لأنَّه إذا نال شيئًا لم يُطمَع فيه[٦].

وفي الشعر يقول دعبل بن علي الخزاعي[٧] يهجو المعتصم، وكان ثامن خلفاء بني العباس: (الطويل)

مُلُوكُ بَنِي العَبَّاسِ فِي الكُتْبِ سَبْعَةٌ ... وَلَمْ تَأْتِنَا فِي ثَامِنٍ لَهُمُ كُتْبُ

كَذَلِكَ أَهْلُ الكَهْفِ فِي الكَهْفِ سَبْعَةٌ ... كِرَامٌ إِذَا عُدُّوا وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ[٨]

---

[١] الصيد عند العرب أدواته وطرقه، حيوانه الصائد والمصيد، عبد الرحمن رأفت الباشا، ط٣، (بيروت–لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ) :١٤٥–١٤٧.

[٢] مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ٢،:٤٦٥.

[٣] المصدر السابق، جـ١،:١٢٨.

[٤] المصدر السابق، جـ١،:٢٩٤.

[٥] المصدر السابق، جـ٢،:٨١.

[٦] جمهرة الأمثال، مصدر سابق، جـ١،:٢١٢.

[٧] دعبل: أبو علي الخزاعي، كان من غلاة الشيعة، وله هجو مقذع، توفي سنة٢٤٦هـ،(انظر:معجم الأدباء،جـ٣،:١٢٨٤).

[٨] ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،(مصر: دار المعارف، ١٩٨٥م)،:٣٩٦–٣٩٧.

يشبه الشاعر ملوك بني العباس السابقين للمعتصم بأصحاب الكهف في تقواهم وقوة إيمانهم، ويرى أنَّ المعتصم ليس له حق في الخلافة، وأنه بمثابة كلب أهل الكهف الذي كان معهم وفي صحبتهم إلا أنه لا علم له بالصلاح والخير والتقوى، فيرى أنَّ المعتصم كان ينتسب لبني العباس لكنه ليس على تقواهم وقوة إيمانهم وحنكتهم، لذا عمد إلى هذه الصورة المعبرة في قصة أهل الكهف ليجمع بين مدح خلفاء بني العباس السابقين وهجاء وذم المعتصم في صورة واحدة هي صورة أهل الكهف وكلبهم، فهذه الصورة أدت المعنى الذي يريده الشاعر حيث جمع فيها بين المدح والذَّم معًا كما أراد.

ومن الحيوانات الأليفة أيضًا الجدي والشاة والغنم والكبش، فالأليف منها يكون في الحواضر، والوحشيُّ يكون في الصحراء، وقد عرف العرب هذه الحيوانات ومثَّلوا بها، فقالوا: (تغدَّ بِالجَدْيِ قَبْلَ أَنْ يَتَعَشَّى بِكَ) يُضربُ للأخذ بالحزم[١]، و: (كُلُّ شَاةٍ تُنَاطُ بِرِجْلِهَا) ومعناه: لا يؤاخذ الرجل بذنب غيره. وتُناط: تُعلَّق[٢]، وقالوا أيضاً: (عِنْدَ النِّطَاحِ يُغلَبُ الكَبْشُ الأَجَمُّ) يُضرب مثلاً للرجل يمارس الأمور بغير عُدَّة فيخيب، والأَجمُّ: الذي لا قرن له[٣]، و: (أنتُنَّ من مَرَقَاتِ الغَنَمِ) الواحدة مرقة، وهي صوف العجان المرضيُّ منها ينتف، يقال: كأنَّه ريح مرق[٤].

ومما ذكره بعضُ القُصَّاص في الكبش أنَّه أفضل من التَّيس، وذلك أنَّ الله عز وجل جعل الكبش مستور العورة من قُبُل ومن دُبُر، ومما أهان الله به التَّيس أن جعله مهتور السِّتر، مكشوف القُبُل والدُّبُر[٥]، ولذلك يُذكر الكبش في حال المدح، ويُذكر التَّيس في حال الذَّمِّ، ولا يوجد الكبش إلا في الواحات أو حيث يكون المرعى أكثر خصوبة.

أما في الشعر فقد كان ذكرهم لهذه الحيوانات من باب الاستهانة والاستخفاف بمن يهجونهم، لضعف هذه الحيوانات وحاجتها إلى العون، كقول الإمام الشافعيِّ[٦]: (الطويل)

---

(١) **حياة الحيوان الكبرى، مصدر سابق،ج١،:٢٦٦.**

(٢) **جمهرة الأمثال، مصدر سابق، ج٢،:٢٢٧.**

(٣) **المصدر السابق، ج٢،:٤٢.**

(٤) **مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج٣،:٤٠٣.**

(٥) **الحيوان للجاحظ، مرجع سابق، ج٥،:٤٦٤.**

(٦) **هو محمد بن إدريس الشافعي الإمام، ولد في غزة سنة ١٥٠هـ، من علماء الفقه والحديث، توفي سنة ٢٠٤هـ. (انظر: معجم الأدباء،ج٦،:٢٣٩٣).**

سَـأَكتُمُ عِلمِـي عَـن ذَوِي الجَهـلِ طَـاقَتِي وَلاَ أَنثُـرُ الـدُّرَّ النَّفِـيس عَلَـى الغَـنَم[١]

يختار الشافعي لتشبيهه أصحاب الجهل الذين لا يُقدِّرون العلم ولا يفهمون، بل ربما تطاولوا على العلماء، يشبههم بالغنم التي لا تعي ما تسمع من القول، فالشافعي من أهل الحاضرة الذين يعتمدون على الغنم في معيشتهم، فهي من الحيوانات الأليفة، لهذا جاءت صورته التشبيهية مطابقة لحياته وواقعه الذي يعيشه.

ويقول ابن الرُّومي[٢] في الهجاء: (السريع)

تَقُـــولُ إِنْ هَاجَرَهَـــا سَـــاعَةً كَـــمْ غُمَّـــةٍ تَتبعُهَـــا فَرحَـــة

لاَ تَيْأَسِـــي يَـــا نَفْـــسُ مِـــنْ عَـــوْدَةٍ فَـــالْكَبْشُ لاَ يَلهُـــو عَـــنِ النَّعجَـــة[٣]

وقد وُجدت في البيئة العربية حيوانات أكثر العرب من ذكرها في أمثالهم وضربوا بها المثل في الصغر والذِّلة والمهانة، من هذه الحيوانات الأرنب، فقد قالوا: (أَطْعِم أخَاكَ مِنْ كِلْيَةِ الأَرنَب)[٤] يُضرب للمُواسَاة، وأصل ذلك أنَّ كِلْيَة الأَرنَب متناهِيةً في الصِّغَر، ومعنى ذلك أن تُوسِي أخاك بأقلِّ شيء، أو هي المواساة بأقل شيء وأصغره، وقالوا: (بِئسَ الرَّميةُ الأَرنَب) يُرِيدُون: بئسَ الشَّيء ممَّا يُرمَى[٥]، وقولهم: (كِرَاعُ الأَرنَب) يُضرب مثلاً فِيمَا قلَّ وذلَّ[٦]، وقالوا: (لَو كَانَتِ الصَّبَّةُ دَجَاجَةً، لكانَت الأَرنَب دَرَّاجَةً) يُضرَب لمن يَعجَب من شيءٍ لا يستحقُّ الإعجاب[٧]، و(أَقْطَفُ مِنْ أَرنَبٍ) يُضرب للمبالغة والتَّناهِي[٨].

---

[١] ديوانه،جمع وتحقيق:زهدي يكن،(بيروت: دار الثقافة،١٩٦٢م)، :١٥٥.

[٢] ابن الرومي شاعر زمانه، أبو الحسين،علي بن العباس بن جريح مولى آل المنصور، له النظم العجيب والتوليد الغريب، ولد سنة٢٢١هـ، وتوفي سنة٢٨٣هـ، (انظر: الفهرست، محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالنديم، ضبطه وشرحه وعلق عليه: يوسف علي الطويل،ط١،(بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية،١٤١٦هـ)،:٢٧١).

[٣] ديوانه،ج٢،تحقيق:حسين نصار،ط١،(دار الكتب المصرية)، :٥٠٣.

[٤] مجمع الأمثال، مرجع سابق،ج٢ :٢٨٧.

[٥] الحيوان في الأدب العربي، مرجع سابق، ج١، :١١١.

[٦] المرجع السابق، ج١،:١١١.

[٧] المرجع السابق، ج١،:١١١.

[٨] جمهرة الأمثال، مرجع سابق،ج٢ :٩٧.

وقد ورد الأرنب في الشعر على سبيل الاستهانة والاستهجان، من ذلك قول امرئ القيس[١]: (المتقارب)

يَـــا هنـــد لاَ تَنْكِحِـــي بُوهَـــةً[٢] عَلَيـــهِ عَقِيقَتُـــهُ[٣] أَحسَـــبَا[٤]

مُرَسَّـــعَةً[٥] بَـــينَ أَرْسَـــاغِهِ[٦] بِـــهِ عَسَـــمٌ[٧] يَبتَغِـــي أَرنَبَـــا

لِيَجعَـــلَ فـــي كَفِّـــهِ كَعبَهَـــا حَـــذَارَ المَنِيَّـــةِ أَن يَعطَبَـــا[٨]

يخاطب امرؤ القيس امرأة تُدعى هندًا محاولاً ثنيها عن أن تُنكح من رجل وصفه لها بأبشع الأوصاف وصوَّره أبشع تصوير، فقد شبَّهه بالبومة لأمرين، الأول: بشاعة البومة، والثاني: ما تتصف به البومة عند العرب من جلب للشُّؤم والنَّكد، فهذا الرجل سيجمع بين بشاعة المنظر ونكد الحياة وشؤمها معه.

ثمَّ يضيف إلى هذه الأوصاف وصفًا آخر وهو اللُّؤم والشُّح، حتى أنه لشُحِّه لم يُسقِط شعره الذي وُلد به، وكأنَّه بخل على نفسه بشعرٍ جديد، فظلَّ متمسكًا بهذا الشعر حتى شاخ، بالإضافة إلى ذلك فإنه يحمل في معصمه تعويذةً من خرز وغيره لدفع الهوام عنه، وهذا يدل على أنَّه جبان، وهو على المنظر القبيح يبحث عن أرنب حتى يستخدم كعبها لطرد الشر وغيره فلا يُصاب بالأذى ويهلك، وهذا من اعتقاداتهم بكعب الأرنب[٩].

---

[١] **امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي، وهو من أهل نجد من شعراء العصر الجاهلي، صاحب إحدى المعلقات العشر. (انظر:الشعر والشعراء، ج١، :١٠٥).**

[٢] **بُوهةً: "البُوهَةُ: الرجلُ الضعيفُ الطَّائشُ". انظر: (لسان العرب،ج١٣،(باب الهاء، فصل الباء)،:٤٧٩).**

[٣] **عقِيقَتُه: "العَقِيقة: الشَّعر الذي يُولد به الطفل لأنَّه يشقُّ الجلد. انظر: (لسان العرب،ج١٠،(باب القاف، فصل العين)، :٢٥٧).**

[٤] **أَحْسَبَا: "الأَحسبُ: الذي في شعر رأسه شُقرَةٌ". انظر: (لسان العرب،ج١،(باب الباء، فصل الحاء)،:٣١٦).**

[٥] **مُرَسَّعَةً: "الرَّسَعُ: كالمُعاذة، وهو أن يُؤخذ سير فيُخرق فيُدخل فيه سير فيجعل في أرساغه، دفعًا للعين". انظر: (لسان العرب،ج٨،(باب العين، فصل الراء)،:١٢٤).**

[٦] **أَرْسَاغِهِ: "الرُّسغ: مَفْصَلُ مَا بين الكفِّ والذِّراعِ". انظر: (لسان العرب،ج٨،(باب الغين، فصل الراء)،:٤٢٨).**

[٧] **عَسَمٌ: "العَسَم:يَبْسٌ في المِرْفَقِ والرُّسغِ تَعوَجُّ منه اليدُ والقدم. انظر: (لسان العرب،ج١٢،(باب الميم، فصل العين)، :٤٠١).**

[٨] **ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢،(مصر: دار المعارف،١٩٦٤م):١٢٨.**

[٩] **انظر: الفصل الأول، من هذا الباب،:٥١.**

فهذه الصورة البشعة للرجل القبيح الذي يوحي بالشؤم مادًّا يده الهزيلة اليابسة، وعلى معصمه تلك التعويذة يبحث عن أرنب ليدفع الشر عنه، يجعل المرأة تقارن بين هذه الصورة وتستحضر مباشرة صورة الرجل الشجاع الذي لا يرضى بأي صيد، بل لابد له من صيد ثمين، فيكون في خيالها مقارنة بين هاتين الصورتين: الصورة التي وصفها الشاعر، والصورة المضادة لها، فالأرنب ليس من الحيوانات الثمينة التي يحرص العربي على صيدها، كالمها والبقر الوحشي فهذه الحيوانات لا يصيدها إلا العربي الشجاع الماهر، فجمع الشاعر بين صورة الأرنب الصغير وبين هذا الرجل في الصورة الشعرية ليثبت حقارته وجبنه، ويثنيها عن نكاحه.

وفي هذه الصورة لم يخرج امرؤ القيس عن معتقدات العصر الجاهلي وفكره، إذ كان شائعاً في ذلك العصر أنَّ الأرانب لا تمتطيها الجنُّ، لأنَّها تحيض كالمرأة، ولذلك فهم يعلِّقون كعب الأرنب لدرء العين والسحر عن أنفسهم، فالجنُّ تهرب من الأرنب.

وهناك حيوانات ذكرها العرب وإن لم تكن في بيئتهم إلا أنَّ ذِكرهم لها كان نتيجة تجوالهم في البلاد الأخرى ومعرفتهم لها، كالخنزير الذي عرفوا قبحه وقذارته، فهجوا به في أشعارهم، وضربوا به الأمثال في أحاديثهم كقولهم: (أَقْبَحُ مِنْ خِنْزِيرٍ)[١]، و:(أَبْكَرُ مِنَ الخِنْزِيرِ) حيث إنَّ الخنازير تطلبُ العَذِرَة، وليست كالجلالة[٢] لأنها تطلب أرطبها وأحرَّها وأنتنها وأقربها عهدًا بالخروج، فهي في القُرى تتعرَّف أوقات الصبح والفجر، وقُبيلَ ذلك وبُعيده، لبروز الناس للغائط، ويُعرف من كان في بيته في الأسحار ومع الصبح أنَّه قد أسْحَر وأصْبَح، بأصواتها ومُرورها ووَقْع أرجلها إلى تلك الغِيطان، وتلك المتبرِّزات، ولذلك ضُرب المثل ببُكور الخِنْزير[٣]، وقولهم:(أَحْرَصُ مِنْ خِنْزِيرٍ)[٤].

وقد ورد الخنزير في الشعر كقول أعشى همدان[٥] : (البسيط)

---

[١] مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ٢،:٥٣٦.

[٢] الجلة: البعر. والجلالة: التي تأكله.

[٣] جمهرة الأمثال، مصدر سابق، جـ١،:٢٠٩.

[٤] المصدر السابق، جـ١،:٣٣٩.

[٥] أعشى همدان، شاعر مفوه شهير كوفي، وهو أبو المصبح عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمداني، كان متعبداً فاضلاً، قتله الحجاج سنة نيف وثمانين. (انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني،تحقيق: سمير جابر،جـ٦، ط١،(بيروت: دار الفكر)،:٤١).

إنْ يَـرْزُقِ اللهُ أَعْـدَائِي فَقَـدْ رُزِقَـتْ مِـنْ قَـبْلِهِمْ فِـي مَرَاعِيهَـا الخَنَـازِيرُ[١]

يؤكد الشاعر على كرم الله عز وجل ولطفه بالعباد، فليس غريباً أن يرزق الله أعداءه أيًّا كانوا، أو يرزق أعداء الشاعر نفسه، فذلك لن ينقص من رزق الله شيئًا، ويضرب لذلك برزق الله عز وجل للخنازير في مراعيها.

فعلى الرغم من سوء طبع الخنزير وسوء خِلقَته، فإنَّ الله عز وجل يرزقه، حيث لفت انتباهه ما أودع الله فيه من صفات القبح في الخُلُق والخِلْقة، فبادر إلى التشبيه به، وعمد إلى أن يقرنه في التشبيه بصورة أعدائه، فكلاهما في نظر الشاعر سواء، حيث يشبه الشاعر أعداءه بالخنازير في قبح المنظر وسوء الخُلُق، فقد استخلص هذه الصفات القبيحة من الخنزير، وجعلها من خصال أعدائه فكان تشبيهه بالخنزير أكثر قبحًا وبشاعةً.

وقد اختار الشاعر الخنزير دون غيره من الحيوانات في البيئة العربية كالحمار مثلًا، لأنَّ الحمار مهما وصل من القبح وسوء الخُلق فإنه لا يصل إلى حد قبح الخنزير وسوء طبعه، بالإضافة إلى أنَّ الحمار فيه من المنافع ما يفوق الخنزير من حمل الأثقال والتنقل والصبر، كما أنَّه لا يأكل الجيف كما يفعل الخنزير بل يعتمد على الأعشاب في طعامه، فالخنزير جمع بين البشاعة الخارجية في الشكل، والقذارة في المأكل، والقباحة في الخلق، فلا يوجد في حيوانات البيئة العربية ما يصل منها إلى هذا الحدِّ الذي وصل إليه الخنزير.

كما أنَّه دليل على أنَّ الشاعر لم يعد يحصر نفسه في بيئته، بل أصبح يتجول في البيئات المجاورة له، فلفتت انتباهه تلك الحيوانات في تلك البيئات فاستخدمها في تشبيهاته وأجاد في استخدامها.

ويوجد من الحيوانات ما كان منه وحشي وأليف، كالبقر والثور، فالبقر نوعان: بقر أليف وهو الذي يكثر في الحواضر لأنها تستخدم في حرث الأرض وزراعتها، ونراها تكاد تكون معدومة في البادية الصحراوية، لذا لم يذكرها شعراء الصحراء إلا نادرًا في أشعارهم، وأكثروا من التمثيل بها.

أما البقر والثور الوحشي فهو الذي يعيش في الصحراء ويكثر صيده[٢]، وهذا النوع كثر وصفه والتمثيل به في الشعر، فقالوا: (الظِّباءَ على البَقَر) يُضرب عند انقطاع ما بين الرَّجلين

---

[١] **الحيوان، مصدر سابق، ج٧،:٦٢.**

[٢] **الصيد عند العرب، مرجع سابق،:١٩٧.**

من القرابة والصداقة، وكان الرجل في الجاهلية إذا قال لامرأته (الظباءَ على البقر) بانت منه، وكانت عندهم طلاقًا، ونصب "الظباء" على معنى اخترت أو أختار الظباءَ على البقر، والبقر كناية عن النساء، ومنه قولهم: (جاء يجرُّ بقرةً) أي عياله وأهله[١]، وقالوا: (كَالثَّورِ يُضرَبُ لمَاَّ عافتِ البَقَرُ) وأصله أنَّ العرب إذا أوردوا البقر فلم تشرب لكَدَر الماء أو لأنه عطش بها ضربوا الثور ليقتحم البقر الماء[٢].

وقالوا أيضًا: (الكِلاَبَ عَلَى البَقَر) يُضرب عند تحريش القومِ على بعض من غير مبالاة يعني: لا ضرر عليهم فخلهم، ونصب الكلاب على معنى أرسل الكلاب[٣]، وقولهم:(أَبْلَدُ مِنْ ثَوْرٍ)[٤]، و:(الثَّوْرُ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ) الرَّوق: القرن، يُضرب في الحث على حفظ الحريم[٥]، وأيضًا:(أَلِسَانَ الثَّوْرِ؟) يُشبَّه به اللسان الطويل العريض[٦].

ومن القصص التي ورد فيها ذكر البقر هذه القصة التي تُحكى عن القضاء في بني إسرائيل، فقد قالوا: إنَّ "القضاة في بني إسرائيل كانوا ثلاثة، فمات أحدهم، فولَّى غيره مكانه ثم قضوا ما شاء الله أن يقضوا، ثم بعث الله لهم ملكًا يمتحنهم، فوجد رجلًا يسقي بقرة على ماء، وخلفها عجلة، فدعاها الملك وهو راكب فرسًا، فتبعتها العجلة فتخاصما، فجاء إلى القاضي الأول فدفع إليه الملك درَّةً كانت معه، وقال له: احكم بأنَّ العجلة لي، قال: بماذا أحكم؟ قال: أرسل الفرس والبقرة والعجلة، فإن تبعت الفرس فهي لي. فأرسلها فتبعت الفرس فحكم له بها، وأتيا القاضي الثاني فحكم كذلك، وأخذ درَّةً. وأما القاضي الثالث فدفع له الملك درة وقال: احكم بيننا، قال: إنِّي حائض. قال الملك: سبحان الله! أيحيض الذَّكر؟ قال سبحان الله أتلد الفرس بقرة؟ وحكم بها لصاحبها"[٧]، فقد صورت هذه القصة غباء العجل وبلادته وسهولة انقياده وراء الفرس.

---

[١] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ٢، :٣١٠.**

[٢] **المصدر السابق، جـ٣، :٢٣.**

[٣] **المصدر السابق، جـ٣، :٢٢.**

[٤] **المصدر السابق، جـ١، :٢٠٩.**

[٥] **المصدر السابق، جـ١، :٢٧٠.**

[٦] **الحيوان في الأدب العربي، مرجع سابق، جـ١، :١٨٦.**

[٧] **حياة الحيوان الكبرى، مرجع سابق، جـ١، :٢١٩.**

وكثيرًا ما شبه الشعراء بالبقر الوحشي في أشعارهم، ولعل السبب في ذلك يعود إلى كثرة صيدهم لهذا الحيوان، وكثرة تواجده في بيئتهم، وقد "وجد الشعراء القدامى في حياة الثور الوحشيِّ والبقرة الوحشية فرصة للتأمل والتفكير في غموض أمور الكون والحياة وما يكتنفها من المخاوف والقلق والاطمئنان والأحلام، وعقدوا لهذه التشبيهات قصصًا رمزية، تناولوها من البيئة الصحراوية التي تحيط بهم، تترجم إحساسهم وخواطرهم، وتحدد موقفهم من حدثان الأيام، وقد لوَّن الشعراء قصة الثور الوحشيِّ تلوينًا متنوعًا يعكس ما في نفوسهم من المشاعر وما يجول في عقولهم من أفكار وآراء، وتنقسم قصة الثور الوحشيِّ عندهم إلى نوعين: الأول: في قصائد الأسفار التي يرد ذكر الناقة فيها، والثاني: في قصائد الرثاء والمواعظ"[١]، فكثيرًا ما وصفوا الناقة بالثور الوحشيِّ في سرعة عدوها، والشاعر عندما يصف البقر أو الثور الوحشيِّ يذكر في خلال هذا الوصف مشاهد رائعة من مشاهد الصيد التي يذكر فيها أدوات الصيد من أسلحة وكلاب، يقول أبو ذؤيب الهُذلي[٢] من قصيدة في رثاء أولاده: (الكامل)

والــدَّهرُ لا يَبْقَــى عَلَــى حَدَثَانِــهِ ... شَــبَبٌ[٣] أَفَزَّتْــهُ[٤] الكِــلاَبُ مُــرَوَّعُ

شَــغَبَ[٥] الكِــلاَبُ الضَّــارياتُ فُــؤَادَهُ ... فَــإِذَا يَــرَى الصُّــبحَ المُصَــدَّقَ[٦] يَفْــزَعُ

وَيَعُــودُ بِــالأَرطِي[٧] إِذَا مَــا شَــقَّهُ ... قَطْــرٌ وَرَاحَتْــهُ[٨] بَلِيــلٌ[٩] زَعْــزَعُ[١٠][١١]

---

[١] الناقة في الشعر الجاهلي، مرجع سابق،:١٨٧.

[٢] هو خويلد بن خالد، جاهلي إسلامي، وكان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي، وخرج مع عبد الله بن الزبير في مغزى نحو المغرب، فمات فدلاه عبد الله بن الزبير في حفرته. (انظر: الشعر والشعراء، جـ٢،:٦٥٣).

[٣] شَبَبٌ: "الشَّبَبُ: المُسِنَّ من ثيران الوحشِ. انظر: (لسان العرب،جـ١،(باب الباء، فصل الشين)،:٤٨١).

[٤] أفزَّتهُ: "فزَّهُ فزاً وأفزَّهُ: أفزعه وأزعجه وطيَّر فؤاده". انظر: (لسان العرب،جـ٥،(باب الزاي، فصل الفاء)، :٣٩١).

[٥] شَغَبَ: "الشَّغَبُ: تَهْيِيج الشَّر". انظر: (لسان العرب،جـ١،(باب الباء، فصل الشين)،:٥٠٤).

[٦] "المُصَدَّقُ: المُضِيءُ". انظر: (لسان العرب،جـ١٠،(باب القاف، فصل الصاد)،:١٩٥).

[٧] الأرطي: شجر ينبت بالرمل. انظر: (لسان العرب،جـ٧،(باب الطاء، فصل الهمزة)،:٢٥٤).

[٨] راحتْه: أصابته ريح. انظر: (لسان العرب،جـ٢،(باب الحاء، فصل الراء)،:٤٦٨).

[٩] بليل: ليلٌ شديد الظُّلمة. انظر: (لسان العرب،جـ١١،(باب اللام، فصل اللام)،:٦٠٨).

[١٠] زعزع: تحريك الشيء زَعزعةُ زعزعةً فتزعزعَ: حرَّكهُ ليقلعهُ. انظر: (لسان العرب،جـ٨،(باب العين، فصل الزاي)،:١٤١).

[١١] ديوان الهذليين، جـ١، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر،١٩٦٥م):١٠.

فالشاعر يرسم صورة من الصور الصحراوية التي طالما رآها في بيئته، وهذه الصورة لثور أخافته وأفزعت قلبه كلاب الصيد الضارية المتوحشة، فإذا نظر إلى الصبح ترقب الكلاب أن تأتيه، ففي بداية النهار تكون رحلة الصيد والبحث عن الحيوانات، فالليل بالنسبة للثور نوع من الأمان، لأنه يختبئ فيه عن أعين الصيادين وكلابهم، ثم إنَّ هذا الثور يلجأ إلى شجر الأرطي إذا أصابه ريحٌ بليلٍ شديدة باردة تزعزع كل شيء، فهذا الثور قد ينجو من الموت أحيانًا، وقد يكون فريسة الموت في أحيان أخرى، فهو بين نوعين من الصراع، صراع مع الحيوانات المفترسة، وصراع مع عوامل الطبيعة التي يعيش فيها، فإذا نجا من واحدة قد لا ينجو من الأخرى، هذه الصورة رسمها الشاعر، ليؤكد على أنَّ الدهر لا يبقى على حال، فقد يُفرح المرء مرة ويحزنه في مرات أخرى، إلا أنَّ الهدف الحقيقي للشاعر من وراء رسم هذه الصورة هو الشعور النفسي داخل الشاعر، فصورة هذا الثور في صراعه مع الموت والحياة مطابقة تمامًا لواقع الشاعر وصراعه مع الحياة، فمنظر الثور وهو يحاول الهرب من مصيره المحتوم أثار في داخل الشاعر إحساسه بالخوف وصراعه مع القدر وبحثه عن الأمان، فصورة الثور جسمت واقع الشاعر وأحاسيسه.

فهذه الأبيات كانت في رثاء أبنائه الذين أحبهم وتعلق بهم، يذود عنهم بكل ما يملك، وكلما اشتدت عليهم المخاطر ازداد عزمًا في الدفاع عنهم، ولكنه عندما يتعرض لحديث الموت يرضخ ويعترف -راضيًا أم غاضبًا- بأنَّ الموت هو المنتصر في الجولة الأخيرة، ويحس أنَّ الحياة قاسية، وأنَّ عدوان الدهر قاهر يبخل عليه بالفرح، فهو في صراع دائم معه، تمامًا كما صوَّر الثور في هروبه من الموت، فقد ينجو وقد لا ينجو، فهذه صورة مستوحاة من مشاهد الحياة التي رآها وعايشها وتأسَّى بها، وهي صورة حيَّة من صور الصراع الخالد بين الأحياء والطبيعة، أو بين الأحياء والأحياء في بيئته الصحراوية.

ومن الحيوانات التي يكون منها الأليف والوحشي أيضًا الحمار، حيث يتواجد في الحاضرة والبادية، فالأليف منه يستخدم لحمل الأثقال والتنقل، أما الوحشي فقد كان العرب يصيدونه في باديتهم، وقد أدى بهم ذلك إلى مراقبته ومعرفة أدق أوصافه وصفاته، فأكثروا التمثيل به، فقولهم: (أَجْهَلُ مِنْ حِمَارٍ)[1] مأخوذ من قول النَّاس للجاهل يا حمار، و: (أَخْلَفُ مِنْ وَلَدِ

---

[1] مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج١،:٣٣٧.

الحِمَارِ) يعنون البغل، لأنَّه لا يشبه أباه ولا أمَّهُ[١]، وقولهم: (أَخْلَى مِنْ جَوْفِ حِمَارٍ)[٢] ومعنى ذلك أنَّ الحمار إذا صِيدَ لم يُنتفَع بشيءٍ مما في جوفه بل يُرمى ولا يُؤكل و:(أَصْبَرُ مِنْ حِمَارٍ)[٣] لأَنَّهُ يحمل الحِمْلَ الثَّقيل على الدبر.

وورد ذِكر الحمار بنوعيه في القَصص العربي، ومن هذه القصص: أنَّه "كان رجلٌ بالبَادية له حمارٌ وكلبٌ وديكٌ، وكان الدِّيك يوقظهم للصلاة، والكلب يحرسهم، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خيامهم، فجاء الثعلب فأخذ الديك فحزنُوا له، وكان الرجل صالحًا، فقال: عسى أن يكون خيرًا، ثم جاء الذئب فحرق[٤] بطن الحمار فقتله، فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أُصيب الكلب بعد ذلك. فقال عسى أن يكون خيرًا، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سُبِي من حولهم وبقوا سالمين، وإنما أُخذوا أولئك بما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والدِّيكة. فكانت الخيرة في هلاك ما كان عندهم من ذلك كما قدر الله سبحانه وتعالى، فمن عرف خفيَّ لطف الله رَضِي بفعله"[٥].

فهذه القصة توضح جانبًا من جوانب الحياة في البادية، الجانب الأول: أنَّ العرب كانوا يعتمدون على حيواناتهم كثيرًا فيما يتعلق بأمور الحياة النَّفعية، والجانب الآخر: أنَّ العرب كان يُغير بعضهم على بعض طمعًا فيما عندهم من الحيوانات التي كانت تُعدُّ من أهمِّ أموالهم، فيسلبونها للانتفاع بها، وكان هذا سببًا من أسباب الحروب في البيئة الصحراوية.

ويكثر ذكر الحمار في الشعر، إمَّا للوصف وذلك في الأشعار التي تصف الصيد، أو في قصائد الهجاء كما يقول المتلمس[٦] مشبهًا المقيم بدار الهوان بالحمار المقيد: (البسيط)

وَمَــا يُقِــيمُ بِــدَارِ الــذُّلِّ يَعْرِفُهَــا ... إلاَّ الأَذَلاَّنِ عَيْــرُ الحَــيِّ والوَتَــدُ

هَــذَا عَلَــى الخَسْــفِ مَرْبُــوطٌ بِرُمَّتِــهِ ... وَذَا يُشَــجُّ فَمَــا يَبْكِــي لَــهُ أَحَــدُ[٧]

---

[١] المصدر السابق، جـ١،:٤٤٦.

[٢] المصدر السابق، جـ١،:٤٥٣.

[٣] المصدر السابق، جـ٢،:٢٥٦.

[٤] الصواب: فخرق.

[٥] حياة الحيوان الكبرى، مرجع سابق، جـ١،:٣٤١.

[٦] المتلمس: هو جرير بن عبد المسيح، من بني ضبيعة، وأخواله بنو يشكر، وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة في الجاهلية، وهو من الشعراء المقلين.(انظر:الشعر والشعراء، جـ١،:١٧٩).

[٧] مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ٣،:٤٧٩.

فقد رسم الشاعر صورتين لمن يقيم على الهوان والذل في مكان يعرفه، الصورة الأولى: صوَّر فيها حمار الحيِّ وهو مربوط، وتُحمل عليه الأثقال، ويصبُّ عليه الضرب والتوبيخ من قبل أصحابه، ومع ذلك فهو صابرٌ على هذا الذُّلِّ راضٍ به، فهو على هذه الحال لا يرثي له أحد.

فقد رسم الشاعر صورة مهينة لمن يقيم بدار غير داره قد يكون فيها مذلَّة له، حيث إنَّ هذا المقيم عادةً لا يكون له ناصر ولا منصف في هذا المكان، فهو مجبور على الرضوخ لأهل هذه الدار، حيث إنَّه لا يوجد له مقام غيرها، كذلك عير الحي يكون صابرًا على الذُّلِّ والإهانة في مقابل أكله وشربه ومكوثه في هذا الحي، فصورة حمار الحي توحي وتجسِّد كل صفات الصبر والذُّل والاحتقار كمثل لمن يقيم بدارٍ غير داره. والصورة الأخرى: صوَّر فيها الوتد الذي تُربط به خيمة البدويِّ، وهذا الوتد لا يَشدُّ الخيمة ويوقفها إلا إذا ضُرب عليه بالحجر حتى يثبت، فهذا الحجر لا يشعر به أحد، وتُعدُّ كلٌّ من الصورتين، صورة عير الحيِّ والوتد من المناظر المألوفة لدى الإنسان العربي وخاصة البدوي.

ولم يكن العرب يمثلون بالحيوانات الأليفة وحدها، بل إنَّهم مثلوا بالوحشي منها كالأسد، فهو من الحيوانات التي أكثر العرب من التمثيل بها، حيث إنَّه من أشرف الحيوانات عند العرب، وهو بمنزلة الملك المُهاب لقوته وشجاعته وشهامته وشراسة خلقه، ولهذا أكثر ما كانت العرب تضرب به المثل في القوة والنَّجدة والبسالة والشجاعة والإقدام والجُرأة والصَّولة، ولذا أطلق العرب كثيرًا من هذه الأوصاف على أبنائهم ومقاتليهم الشجعان، ومن هذا القبيل أُطلق على حمزة بن عبد المطلب ﷺ: (أسد الله)، لما بذله من قوة وشجاعة في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وقالوا أيضًا: (كَمُبْتَغِي الصَّيْدِ فِي عَرِينَةِ الأَسَدِ) يُضرب مثلًا لمن طلب مُحالاً[1]، وقولهم: (مَا اسْتَبْقَاكَ مَنْ عَرَّضَكَ للأَسَدِ) يُضرب لمن يحملُك على ما تكره عاقِبتَه[2]، وقولهم: (أَحْمَى مِنْ أَنْفِ الأَسَدِ)[3]، و:(أَشْرَهُ مِنَ الأَسَدِ) وذلك أنَّه يبتلع البَضعةَ العظيمة من غير مضغٍ[4]، وقولهم:(الجُوعُ يُرضِي الأَسَدَ بِالجِيَفِ)[5]، ويُضرب للجوع الشديد أو الفاقة

---

[1] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج٣، :٤٨.**

[2] **المصدر السابق، ج٣، :٢٩٣.**

[3] **المصدر السابق، ج١، :٤٠٦.**

[4] **المصدر السابق، ج٢، :٢٠٠.**

[5] **الحيوان في الأدب العربي، مرجع سابق، ج١، :٧٨.**

الشديدة تُرضي المرء باليسير، وقولهم:(النَّهرُ يشرَبُ مِنهُ الكَلبُ والأَسَدُ)[١]، و:(مَن يَتْبَعِ الأَسَدَ لَمَ يعدِمْ لحَمًا)[٢] ، ويُضرب للشخص يعرف أين يجد حاجته.

وقد ورد الأسد في القَصَص العربيِّ كثيرًا، ومن ذلك أنهم زعموا أنَّ لبؤةً كانت في غيضةٍ ولها شبلان[٣]، وأنَّها خرجت في طلب الصيد وخلفتهما في كهفهما، فمر بهما إسوار[٤] فحمل عليهما ورماهما فقتلهما وسلخ جلديهما فاحتَقَبَهُمَا[٥] وانصرف بهما إلى منزله، ثم إنها رجعت فلما رأت ما حلَّ بهما من الأمر الفظيع اضطربت ظهرًا لبطنٍ وصاحت، وكان إلى جنبها شغبر[٦] فلما سمع ذلك من صياحها قال لها: ما هذا الذي تصنعين وما نزل بك فأخبريني به. قالت اللبؤة: شبلاي مرَّ بهما إسوارٌ فقتلهما وسلخ جلديهما فاحتقبهما ونبذهما بالعراء[٧]، قال لها الشغبر: لا تَضِجِّي وأنصفي من نفسك، واعلمي أنَّ هذا الإسوار لم يأت إليك شيئًا إلاَّ وقد كنتِ تفعلين بغيرِكِ مثله، وتأتين إلى غير واحدٍ مثل ذلك ممن كان يجد بحميمه[٨] ومن يعزُّ عليه مثل ما تجدين بشبليك، فاصبري على فعل غيرك كما صبر غيرك عليه منك، فإنَّه قد قيل كما تُدين تُدان، ولكلِّ عملٍ ثمرة من الثواب والعقاب وهما على قدره في الكثرة والقلَّة كالزرع إذا حضر الحصاد أعطى على حسب بذره.

قالت اللَّبؤة: بيِّنْ لي ما تقول وأفصِح لي عن إشارته، قال الشغبر: كم أتى لك من العمر؟ قالت اللبؤة: مائة سنة. قال الشغبر: ما كان قُوتُك؟ قالت اللبؤة: لحم الوحش. قال الشغبر: من كان يطعمكِ إياه؟ قالت اللبؤة: كنت أصيد الوحش وآكله. قال الشغبر: أرأيت الوحوش التي كنت تأكلين، أما كان لها آباءٌ وأمهات؟ قالت: بلى. قال الشغبر: فما بالي لا أرى ولا

---

[١] **المرجع السابق،:٧٨.**

[٢] **المرجع السابق،:٧٨.**

[٣] **شبلان مثنى شبل: ولد الأسد.(انظر:لسان العرب،ج١١،(باب اللام، فصل الشين)،:٣٥٢).**

[٤] **الإسوارٌ والأُسوار بالضم: الواحد من أساورة فارس، وهو الفارس من فرسانهم المقاتل.(انظر:لسان العرب،ج٤،(باب الراء، فصل السين)،:٣٨٨).**

[٥] **احتقبهما: من الحقب وأصله حبل يُشد به رحل البعير إلى بطنه كي لا يتقدم إلى كاهله وهو غير الحزام، والحقيبة: ما يحمل من القماش على الفرس خلف الراكب، وحقبتها واحتقبتها: حملتها. (انظر:لسان العرب، ج١،(باب الباء، فصل الحاء)،:٣٢٤).**

[٦] **شغبر: ابن آوى. (انظر:لسان العرب،ج٤،(باب الراء، فصل الشين)،:٤١٨).**

[٧] **نبذهما بالعراء: أي ألقاهما في الفضاء.(انظر:لسان العرب،ج١١،(باب الذال، فصل النون،:٥١١).**

[٨] **الحميم: القريب.(انظر:لسان العرب،ج١٢،(باب الميم، فصل الحاء)،:١٥٢).**

أسمع لتلك الآباء والأمهات من الجزع والضجيج ما أرى وأسمع لك؟ أما إنه لم ينزل بك ما نزل إلا لسوء نظرك في العواقب، وقلة تفكرك فيها، وجهالتك بما يرجع عليك من ضرها.

فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الشغبر عرفت أنَّ ذلك مما جنت على نفسها وأنَّ عملها كان جورًا وظلمًا، فتركت الصيد وانصرفت عن أكل اللحم إلى أكل الثمار والنُّسك والعبادة[١].

في هذه القصة حكمة من الحكم وهي أنَّ الجزاء من جنس العمل، فعلى قدر عمل المرء يكون جزاؤه، فليعمل المرء الخير ليكن جزاؤه خيرًا وثوابًا، وربما كان اختيارهم للأسد في هذه القصة تأكيدًا على صدق اعتقادهم في الجزاء، فهذا الأسد المهاب سيد الغابة بما يحمله من قوة وبطش يجري عليه ما يجري على غيره من الأحكام.

وكثيرًا ما أسبغ الشعراء على ممدوحيهم صفات الأسد، لما رأوا في هذا الحيوان من القوة والشجاعة، يقول ابن المعتزّ[٢] يمدح المعتضد: (الكامل)

اسْلَمْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَدُمْ ... فِي غِبْطَةٍ وَلْيَهْنِكَ النَّصْرُ

فَلَرُبَّ حَادِثَةٍ نَهَضْتَ بِهَا ... مُتَقَدِّماً فَتَأَخَّرَ الدَّهْرُ

لَيْثٌ[٣] فَرَائِسُهُ اللُّيُوثُ فَمَا ... يَبْيَضُّ مِنْ دَمِهَا لَهُ ظُفْرُ

سَحَبَ الجُيُوشَ فَكَمْ بِهَا فُتِحَتْ ... بَعْدَ التَّمَنُّعِ بَلْدَةٌ بِكْرُ[٤]

يصور ابن المعتز أمير المؤمنين في صورة أسدٍ، لكنَّ هذا الأسد لا يفترس الحيوانات بل يفترس الأسود الأخرى، وذلك لشدة شجاعته وقوته وبأسه، هذا الليث لا يُرى بياض أظافره فهي دائمة الحمرة من دماء فرائسه، وذلك لاستمراره ومداومته على افتراس أعدائه فلا تجف هذه الدماء ولا يُرى بياض أظافره منها، كذلك أمير المؤمنين لا يجف سيفه ولا يُرى بياضه لكثرة قتاله.

---

(١) **كليلة ودمنة، ابن المقفع، (بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية)، :٣٢٧.**

(٢) **هو عبد الله بن محمد بن جعفر، من شعراء العصر العباسي، كان غزير الأدب وافر الفضل، توفي سنة٢٩٦هـ مقتولاً. (انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، جـ٤،:١٥١٩).**

(٣) **لَيْثٌ: "اللَّيْثُ: الأَسَدُ". انظر: (لسان العرب،جـ٢،(باب الثاء، فصل اللام)،:١٨٨).**

(٤) **ديوانه، جـ١، شرحه: مجيد طراد،قطعة [١٣٢١]،(دار الكتاب العربي):٣٤٤–٣٤٥.**

فابن المعتز من شعراء العصر العباسي، العصر الذي عُرف بالحضارة والازدهار إلا أنَّه فضل في مدح الخليفة أن يستمد صورته التشبيهية من الصحراء، وذلك لأنَّ فيها من القوة ما فيها؛ ولأنَّ العربي كان وما زال يرتبط بموروثه الأدبي والثقافي القديم، فيلجأ من حين لآخر إلى تلك الصورة الشعرية القديمة لأنها ترمز إلى شيء في نفس الشاعر يظهره في تلك الصورة القديمة.

وبالإضافة إلى الأسد كانت البيئة العربية تزخر بحيوانات متوحشة منها على سبيل المثال: الذئب الذي كثيرًا ما أقضَّ مضجع العربي، واعتدى على حيواناته الأليفة، وأدى ذلك إلى معرفة العربيِّ به، فذكره في قصصه وأشعاره وأمثاله، فقال عنه:(أَجْوَعُ مِنْ ذِئْبٍ) لأنَّه دهرَه جائع[١]، وقال:(أَحْذَرُ مِنْ ذِئْبٍ) قالوا: إنَّه يبلغ من شدَّة احترازه أن يُراوِح بين عينيه إذا نام، فيجعل إحداهما مطبقة نائمة، والأخرى مفتوحة حارسة، بخلاف الأرنب الذي ينام مفتوح العينين لا من احتراز، ولكن خلقة[٢]، وقال:(أَحْوَلُ مِنْ ذِئْبٍ) هذا من الحيلة، يقال: تحوَّل الرَّجل، إذا طلب الحيلة[٣]، وأيضًا:(أَخَفُّ رَأْسًا مِنَ الذِّئْبِ) قالوا: إنَّ الذئب لا ينام كلَّ نومه لشدَّة حذره، ومن شقائه بالسهر لا يكاد يخطئه من رماه، وإذا نام فتح إحدى عينيه[٤].

والذئاب من أكثر الحيوانات تواجدًا في البادية الصحراوية ، إذ عني الشعراء بها وأخص ما عنوا به حركتها التي شبهوا بها حركة جيادهم، وحتى سموا الذئاب باسم حركتها (العُسل) وصوروها في حلكة الليل وهي تعسل على أطراف الماء تبحث عن فرائسها[٥]، "وكانت العرب تتشاءم بالغراب وتتيامن بالذئب لأنه كَسُوب"[٦].

أما في الشعر فقد ذكره كثير من الشعراء، من هؤلاء: ابن الرومي[٧] حيث يقول في أحمد بن جعفر البرمكي النديم: (الوافر)

---

[١] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ١،:٣٣٢.**

[٢] **المصدر السابق، جـ١،:٤٠٢.**

[٣] **المصدر السابق، جـ١،:٤٠٤.**

[٤] **المصدر السابق، جـ١،:٤٤٨.**

[٥] **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، نصرت عبد الرحمن، (عمان–الأردن: مكتبة الأقصى)،:٨٤.**

[٦] **فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر، مرجع سابق،:٢٣٦.**

[٧] **سبقت ترجمته،:٧٤.**

أَمُعْتَصِمٌ بِأَنَّكَ ذُو صِحَابٍ   مِنَ الشُّعَرَاءِ نَصْرُهُمُ قَرِيبُ
وَمَا تُجْدِي عَلَيْكَ لُيُوثُ غَابٍ   بِنُصْرَتِهَا إِذَا دَمَّاكَ ذِيبُ
تَوَقِّي الدَّاءَ خَيْرٌ مِنْ تَصَدٍّ   لأَيْسَرِهِ وَإِنْ قَرُبَ الطَّبِيبُ[١]

يشبه الشاعر نفسه بالذئب الذي يتغلب على مجموعة من الأسود، ويقصد بالأسود هنا الشعراء، فيرفع الشاعر قدر الذئب على الأسود، ومن المعروف أنَّ الأسد أقوى من الذئب، إلا أنَّ الشاعر يختار أن يتصف بالذئب، وهذا فيه تهديد وتوعد لهم، ورفع لمنزلته بين الشعراء، فتشبيهه لنفسه بالذئب يتحدى مجموعة من الأسود فيها كثير من الاحتقار والسخرية بهم وبشعرهم، ولعل السبب في اختيار الشاعر في تشبيهه نفسه بالذئب أنَّ الأسد تغلب عليه القوة والشجاعة والإقدام، أما الذئب فمعروف بالدهاء والمكر والخديعة مع القوة إذا اضطر لذلك، وفي كثير من الأحيان تتغلب الحيلة والخديعة على القوة والشجاعة في أمور كثيرة، لذا فضَّل الشاعر الذئب على الأسد.

ومن الحيوانات المتوحشة في البيئة العربية: الفهد الذي ضُرب به المثل في ثقل الرأس فقالوا: (أَثْقَلُ رَأْسًا مِنَ الفَهْدِ) كأنَّهم أرادوا نومه لأنهم قالوا: أنوم من الفهد[٢]، وقالوا: (أَكْسَبُ مِنْ فَهد) وذلك أنَّ الفهود الهرمة التي تعجز عن الصيد لأنفُسِها تجتمع على فهدٍ فتيٍّ فيصيدُ لها في كلِّ يوم شِبَعها[٣]، و:(أَنْوَمُ مِنَ الفَهْدِ) لأنَّ الفهد أنوم الخلق وليس شيءٌ في جسم الفهد -أي في حجم الفهد- إلاَّ والفهدُ أثقلُ منه وأحْطَم لظهر الدابة[٤].

وفي الشعر يقول الراجز: (الرَّجز)

لَيْسَ بِنَوَّامٍ كَنَوْمِ الفَهْدِ   وَلاَ بِأَكَّالٍ كَأَكْلِ العَبْدِ[٥]

يصف الشاعر الممدوح بأنه قليل النوم، وينفي عنه أن يغلبه النوم وينام كنوم الفهد، لأنَّ الفهد عُرف بكثرة نومه حتى وُصف بذلك، فالشاعر يذكر الفهد في تشبيهه لأنه يعلم هذه الصفة فيه أكثر من غيره من الحيوانات في البادية، فالشاعر يريد أن يُثبت صفة حميدة في

---

[١] ديوانه، جـ١،:١٧٦.
[٢] مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ١،:٢٧٩.
[٣] المصدر السابق، جـ٣،: ٧٢.
[٤] المصدر السابق، جـ٣،:٤١١.
[٥] ثمار القلوب، مرجع سابق،:٤٠١.

الممدوح، وهي صفة القوة والشجاعة، ثم ينفي صفة أخرى وهي صفة النوم المعروفة في الفهد، فقد اختار لصورته التشبيهية حيوانًا عُرف بالشجاعة والقوة وشدة النوم، فأراد أن يُثبت الصفة الحسنة وينفي السيئة بهذه الصورة، ثم يمتدحه بقلة الأكل وبأنَّه لا يأكل كأكل العبد، فالعبد لكثرة أعماله التي يكلف بها، ولكثرة حركته يُصاب بالجوع الشديد، فإذا أكل أكثر من الطعام فكان أكله بنهمٍ شديدٍ، لذا نفى الشاعر هذه الصفة عنه، فهو سريع اليقظة سريع الحركة خفيف النوم.

كما أنَّ هناك حيوانات زاحفة تواجدت في البيئة العربية مثل: الحية التي تكثر في الحاضرة والبادية، وقد ألف العربي رؤيتها، واستفاد من سمها وجلدها، وعرف صفاتها وخصائصها فضرب المثل بها، فقال: (أَرْوَى مِنْ حَيَّةٍ) لأنَّها تكون في القفار فلا تشرب الماء ولا تريده[١]، و:(أَطْوَلُ ذَمَاءً من الأَفْعَى) وذلك أنَّ الأفعى تُذبح فتبقى أيامًا تتحرَّك[٢]، وقال أيضاً:(أَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ) وذلك لأنَّها تجيء إلى جُحر غيرها فتدخله وتغلبُه عليه[٣]، و:(رَمَاهُ اللهُ بِأَفْعَى حَارِيَة) والحارية: هي التي نقص جسمها من الكِبَر ، يقال: إنَّ الأفعى الحارية لا تُبقي لديغها بل تقتله من ساعتها[٤]، و:(أَعْمَرُ مِنْ حَيَّةٍ) لأنَّها لا تموت حتى تُقتل ، وزعموا أنها تكبر ثم تصغُر فلا تزال كذلك حتى تُصاب فتموت[٥].

وقد ورد ذِكر الحية في الشعر كثيرًا، كنوع من التخويف أو التهويل وغيره، لما للحية من رعب في قلوب الناس منذ القدم، كقول بشَّار بن برد[٦] واصفًا قوافي شعره كأنياب الأفاعي: (الطويل)

تَـزِلُّ القَـوَافِي عَـنْ لِسَـانِي كَأَنَّهَـا   حُمَـاتُ الأَفَـاعِي رِيقُهُـنَّ قَضَـاءُ[٧]

---

[١] مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ٢،:٧٤.

[٢] المصدر السابق، جـ٢،:٢٩٧.

[٣] المصدر السابق، جـ٢،:٣١٣.

[٤] المصدر السابق، جـ٢،:٦٢.

[٥] جمهرة الأمثال، مصدر سابق، جـ٢،:٦٥.

[٦] بشار بن برد مولى لبني عقيل، ويقال لبني سدوس، ويكنى أبا معاذ، ويلقب المرعث. والمرعث: الذي جعل في أذنيه الرعاث، وهي القرطة، وهو من أشعر المحدثين. (انظر: الشعر والشعراء، جـ٢،:٧٥٧).

[٧] ديوانه،تحقيق وتكملة: محمد الطاهر عاشور،جـ١،(القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،١٩٥٠–١٩٦٦)،:١٧٦.

يرسم الشاعر صورة مخيفة لشعره، يهدد بها أعداءه، وهذه الصورة هي صورة الأفعى السامة التي تلدغ بأنيابها فريستها وتفرغ فيها السم لتقضي عليها .

ونلاحظ أنَّ الشاعر قرن بين لسانه ولسان الحية، لأنَّ المشاهد من الحية دائمًا هو لسانها الذي تتحسس به ما حولها، ثم قرن بين قوافيه الشعرية وبين أنياب الحية التي تختزن فيها السم، فالسم الذي يقصده الشاعر في القوافي هو هجاؤه لأعدائه الذي قد يكون أكثر إيلامًا من السم عند العربي، فالصورة التي اختارها الشاعر لِشعره وقوافيه فيها الكثير من التهويل والتخويف لأعدائه، وقد اختار الأفعى لأنَّها من الزواحف التي تكون في البادية والحاضرة، وهي الوحيدة من الزواحف التي تكثر مشاهدتها في الحواضر.

كما ذكر العرب الطيور الأليفة التي كثيرًا ما تُربى في المنازل كالدجاجة والديك، فالدَّجاج من الطيور التي تُربَّى في الحواضر (المزارع والبيوت) لذا لم يرد ذِكرها في أشعار العرب في العصر الجاهلي، وإنما جاء ذكرها في أشعار المتأخرين حيث اتسعت الرقعة الإسلامية واختلط أهل البادية بالحاضرة واستوطنوا القرى والمدن.

وقد ضربوا بها المثل في الخوف فقيل:(أَسْلَحُ مِنْ دَجَاجَةٍ) ويُقال: أسلح من حُبارَى ومن دجاجة ، الحُبارى تسلح ساعة الخوف والدجاجة ساعة الأمن[١]، و:(أَبْيَضُ مِنْ دَجَاجَةٍ) يُضرب للمُبالغة في شدَّة البياض[٢]، وقيل في الديك: (أَنْخَى مِنْ دِيكٍ) هذا من النَّخوة[٣]، وقيل: (أَخْيَلُ مِنْ دِيكٍ) من الاختيال في المشية[٤]، و:(أَشْجَعُ مِنْ دِيكٍ) ويُضرب للمبالغة[٥]، وأيضًا: (أَصْفَى مِنْ عَيْنِ الدِّيكِ) يُضرب للتَّناهي والمبالغة[٦]، وقيل أيضًا: (أَغْيَرُ مِنْ دِيكٍ)[٧].

وترد الدجاجة والديك في القصص العربي في كثير من الأحيان للتندر والفكاهة كهذه القصة التي تقول إنَّ العرب كانت تزعم أنَّ الدِّيك كان ذا جناحٍ يطير به في الجو، وأنَّ الغراب كان ذا جناحٍ كجناح الديك لا يطير به، وأنهما تنادما ليلةً في حانةٍ يشربان فنَفِدَ شرابهما،

---

[١] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج٢،:١٤٣.**

[٢] **جمهرة الأمثال، مصدر سابق، ج١،:٢١٥.**

[٣] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج٣،:٤١٤.**

[٤] **جمهرة الأمثال، مصدر سابق، ج١،:٣٧٠.**

[٥] **المصدر السابق، ج١،:٤٥٦.**

[٦] **المصدر السابق، ج١،:٤٨٢.**

[٧] **المصدر السابق، ج٢،:٦٢.**

فقال الغراب للدِّيك: لو أعرتني جناحك لأتيتُك بشراب، فأعاره جناحه فطار ولم يرجع إليه، فزعموا أنَّ الدِّيك إنَّما يصيح عند الفجر استدعاءً لجناحه من الغراب[١].

وقد يرد ذكر الدجاجة في الشعر مقروناً بالهجاء كقول أعرابي يهجو امرأة: (الطويل)

لهـا أنْـفُ خنزيـرٍ وسـاقا دجَاجَـةٍ ... ورؤيتُهَـا تَـرْحٌ مـن العـيش تـارِحُ[٢]

يهجو الأعرابي هذه المرأة بأقبح الأوصاف، فأنفها أنف خنزير أي أنَّه يتميز بالعرض والقصر تمامًا كالخنزير، والعرب تعتبر هذه الصفة من العيوب الخِلقية حيث إنَّهم كانوا يتباهون بطول الأنف حتى أنَّهم شبهوه بالسيف لطوله وجماله، والصفة القبيحة الأخرى أنَّ ساقيها مثل ساقي الدجاجة في نحولها وبشاعتها، فجمع الشاعر هذه الصفات وصورها في هذه المرأة كنوع من الازدراء والتقبيح لها، فرؤية هذه الصفات تجلب له الحزن الشديد.

وقال بشار بن برد[٣] يشِّبب بامرأة اسمها رحمة: (البسيط)

قـدْ زُرْتِنَـا مـرةً فـي الـدَّهرِ واحـدةً ... عودِي ولا تجعلِيهَا بيضَةَ الدِّيكِ[٤]

يشبه الشاعر زيارة محبوبته ببيضة الديك لندرتها وعدم تكرارها، فينهى محبوبته أن تكون زيارتها شبيهة ببيضة الديك في ندرتها، فالعرب كثيرًا ما تضرب المثل ببيضة الديك في الشيء يكون مرة واحدة لا ثانية لها.

وإذا تناولنا الحمام وجدنا أنَّه من الحيوانات التي تكثر في البيئة العربية، وهو من الطيور التي عايشها العربي في الحواضر، وذلك أنه يبني أعشاشه على الأشجار القريبة من المنازل، وهذا مكَّن من رؤيته ومراقبته، وهو يحنو على صغاره ويطعمهم، فضُرب به المثل فقيل: (زَقَّهُ زَقَّ الحَمَامَةِ فَرْخَهَا) يُضرب لمن يربِّي قريبه غير مقصِّرٍ في الشَّفقة عليه[٥]، و: (آمَنُ مِنْ حَمَامِ مَكَّةَ) لأنَّها لا تُثار ولا تُهَاج[٦]، وأيضاً: (أَخْرَقُ مِنْ حَمَامَةٍ) لأنَّها لا تُحكِم عشَّها، وذلك أنَّها ربما جاءت إلى الغصن من الشجرة فتبني عليه عشَّها في الموضع الذي تذهب به الريح وتجيءُ،

---

[١] **نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: جماعة من العلماء والأدباء، ج١٠، (دار الكتب المصرية، ١٩٢٣م)،:٢٢٢.**

[٢] **الحيوان، مصدر سابق، ج٢،:٣٠٠.**

[٣] **سبقت ترجمته،:٩٤.**

[٤] **ديوانه،:١٢٣.**

[٥] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج٢،:٨٩.**

[٦] **المصدر السابق، ج١،:١٥٠.**

فبيضُها أضيعُ شيءٍ وما ينكسر منه أكثر مما يَسْلم[١]، و:(أَشْجَى مِنْ حَمَامَةٍ) يُضرب في التَّناهي والمبالغة[٢].

وقد لاحظ الشعراء هذه الصفات في الحمام، فنظموا أشعارهم، ورسموا صورهم بالحمام في مواطن الحنين والشوق والألفة والمحبة، يقول محمد بن رجب[٣] من قصيدة في رثاء زوجته: (الطويل)

يَقُولُـونَ مَامَـا مَـنْ يَلُـومُ مَقَـالَهُمْ وَقَـدْ غَـابَ عَـنْهُمْ وَجْهُهَـا المُتَهَلِّـلُ

تَرَبَّـوْا فِرَاخًـا فِـي العِشَـاشِ تَـزُقُّهُمْ حَمَـامَةُ أَيْـكٍ بِالأَهَـازِيجِ تَهْـدِلُ

يَحُسُّونَ فَيْضَ الحُبِّ تَحْتَ جَنَاحِهَا فَمَـا مِنْهُـمُ إِلاَّ الأَثِيـرُ الْمُـدَلَّلُ![٤]

يصف الشاعر حال أبنائه حين كانت أمهم على قيد الحياة، ويشبههم بصغار الحمام، ويشبه أمهم بالحمامة، ويرسم لهم صورة من صور الحمام مع فراخها، قد ضمتهم في عش على شجر كثير ملتف الأغصان، تزقُّهم أي تطعمهم وتهدل لهم أحلى الأهازيج، فصورة الحمامة في عشها مليئة بالحب والدفء والأمان، تذكر الشاعر بزوجته الراحلة وكيف كانت تربي أبناءها وترعاهم، فكلهم عندها أثير مدلَّل، كتلك الحمامة تمامًا.

هذه الصورة التي رآها الشاعر أثارت في داخله الكثير من الأحاسيس والمشاعر التي كان يعيشها وأطفاله مع تلك الزوجة الراحلة.

وتنتشر الحشرات في البيئة العربية منها الضَّار والنافع، إلا أنَّ أهم الحشرات منفعة للعربيِّ في الحاضرة والبادية النحلة حيث بُهر العرب بعمل النحلة وإتقانها في صنع بيوتها، وصنع العسل فضربوا بها الأمثال فقالوا: (أَصْنَعُ مِنْ نَحْلٍ) إنَّما قيل هذا لما فيه من النِّيقة[٥] في عمل العسل[٦]،

---

[١] **المصدر السابق، ج١،: ٤٥٠.**

[٢] **جمهرة الأمثال، مصدر سابق، ج١،: ٤٥٦.**

[٣] **هو محمد بن رجب البيومي، شاعر مصري له العديد من المؤلفات في الأدب والنقد. (انظر: ديوانه،: ١٤).**

[٤] **ديوانه: حصاد الدمع، ط٢،(الرياض: من منشورات دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، ١٤٠٤هـ):٢٨.**

[٥] **يقال: تنوَّق في الأمر أو تأنَّق فيه، إذا جوَّده وبَالَغَ فيه.(انظر: لسان العرب،ج١٠،باب القاف، فصل النون،: ٣٣٦).**

[٦] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج٢،: ٢٧٤.**

و:(أَصْفَى مِنْ جَنَى النَّحْلِ) وهو العسل[1]، و:(تَرَى الفِتْيَانَ كَالنَّحْلِ وَمَا يُدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ!) الدَّخل: العيب الباطن، وهو يُضرب لذي المنظر لا خير عنده[2]، و:(أَرَقُّ مِنْ رِيقِ النَّحْل) يعني العسل[3].

ومن أقوالهم في النحلة ما ذكره إبراهيم بن أبي الفتح (ابن خفاجة الأندلسي)[4]:

"وكفى النَّحلة فضيلة ذاتٍ وجلالة صفاتٍ أنّها أُوحِي إليها وأُثني في الكتاب عليها، تعلم مساقط الأنداء، وراء البيداء، فتقع هناك على نُوَّارةٍ عبِقَة وبَهارة أَنِقة، ثمَّ تصدر عنها بما تطبِّقه، وتبدعه صنعةً، وترتشف منها ما تحفظه رضابًا، وتلفظه شرابًا، وتتجافى بعد منه أكرم مُجْتَنَى وأحكم مُبْتَنَى".

يدل هذا القول على مكانة النحل عند العرب المستمدة من كتاب الله عز وجل، فالله عز وجل شرفها بقوله: **{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}**[5] فأوحى سبحانه إليها وأثنى عليها.

وقد عرف الشعراء هذه الصفات في النحلة فاستخدموها في أشعارهم لغرض المديح كقول المتنبي[6] من قصيدةٍ في مدح أَبِي الفَوارس: (الطويل)

تُرِيـــدِينَ لُقْيَـــانَ المَعَـــالِي رَخِيصَـــةً وَلاَ بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ[7]

يشبه الشاعر طلب المعالي وما يلاقيه المرء في سبيل ذلك من المشاق والمتاعب بصاحب المنحل -الذي يقوم على خلايا النحل- حيث يجد صعوبة في اتقاء لسع النحل عند جنيه للعسل من المنحل.

أما الفراشة فهي من الحشرات التي تعوَّد العربي في باديته على رؤيتها ، وذلك أنَّ الفراش يحب الضوء، والعرب كثيرًا ما كانوا يعتمدون على إشعال الحطب طلبًا للإنارة والدفء أو الطهي، فكان الفراش يجتمع حول هذه النار وكثيرًا ما كان يقع فيها فيحترق.

---

[1] المصدر السابق، جـ٢،:٢٤٩.

[2] المصدر السابق، جـ١،:٢٤٠-٢٤١.

[3] جمهرة الأمثال، مصدر سابق، جـ١،:٤٢٠.

[4] نهاية الأرب، مرجع سابق، جـ١٠،:٢٨٨.

[5] سورة النحل، الآية:٦٨.

[6] أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي، الأديب الشهير بالمتنبي، ولد سنة٣٠٣هـ وأقام بالبادية يقتبس من اللغة، كان من أذكياء عصره، توفي مقتولا سنة٣٥٤هـ. (انظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، جـ١،ط١،(بيروت-لبنان: دار صادر)،٣٨٢).

[7] ديوانه،:٥٦٠.

فكان العربي يلاحظ هذه الحشرات ويراقبها ويعرف أحجامها وألوانها وصفة خلقها، وذلك أدى به إلى أن يضرب بها المثل في الجهل فقال: (أَجْهَلُ مِنْ فَرَاشَةٍ) لأَنَّها تطلبُ النار فتُلقي نفسَها فيها[١]، و:(أَخَفُّ مِنَ الفَرَاشَةِ) والفراشة أكبر من الذُّباب الضخم، فإن أخذتها بيدكَ صارت بين أصابعك مثل الدقيق[٢]، و:(أَخْطَأُ مِنْ فَرَاشَة) لأَنَّها تُلقِي نفسها في النار[٣].

وقال أعرابي في الفراش: (المتقارب)

خَتَمْــتُ الفُــؤَادَ عَلَــى حُبِّهَــا كَــذَاكَ الصَّــحِيفَةُ بِالخَــاتَمِ

هَــوَتْ بِــي إِلــىَ حُبِّهَــا نَظْــرَةٌ هُــوِيَّ الفَرَاشَــةِ لِلجَــاحِمِ[٤]

يشبه الشاعر حاله بحال الفراشة التي ترى النار، ومع ذلك تحاول طلبها وترمي بنفسها فيها فيكون هلاكها، فهو يصور سرعة وقوع حبها في قلبه وما عاناه من هذا الحب بسرعة سقوط الفراشة في النار، فالشاعر يسعى جاهدًا إلى هذه المحبوبة على الرغم مما سيلاقيه في هذا الحب من الألم والحرقة والعذاب على بُعدِ الحبيبة أو فراقها، إلا أنَّه يحاول الوصول إلى هذا الحب حتى لو كان فيه هلاكه، فهو كالفراشة، وهذا الحب مثل النار التي تحرق الفراشة.

ويعدُّ الجراد من ألدِّ أعداء العربي في الحواضر، لأنَّه يقضي على مزروعاته ويهلكها، لذلك ضُرب به المثل في الفساد فقيل:(أَفْسَدُ مِنَ الجَرَادِ) لأنَّه يجرُد الشَّجر والنَّبات، وليس في الحيوان أكثر إفسادًا لما يتقوَّتُه الإنسان منه[٥]، وقيل: (أَصْرَدُ مِنْ جَرَادَةٍ) من الصَّرد الذي هو البَرْدُ، وذلك لأنَّها لا تُرى في الشِّتاء أبدًا لقلَّة صَبْرِها على البرد، وهو يُضرب للَّذي يَجِد البرد

---

[١] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ١،:٣٣٥.**

[٢] **المصدر السابق، جـ١،:٤٤٨.**

[٣] **المصدر السابق، جـ١،:٤٥٨.**

[٤] **الحيوان في الأدب العربي، مرجع سابق، جـ٣، :٣٩٨.**

[٥] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ٢،:٤٦١.**

سريعاً[١]، و:(أَصْفَى مِنْ لُعَابِ الجَرَادِ)[٢]، و:(أَطْيَرُ مِنْ جَرَادٍ)[٣]، وأيضًا:(جَاءَ القَوْمُ كَالجَرَادِ المِشْعِلِ) أي متفرِّقين من كلِّ ناحية[٤].

وقد وصف أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه[٥] الجرادة فأجاد حيث قال فيها بعد أن وصف النملة:

"وإن شئت قلتَ في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين، وأسْرج لها حدقتين قمراوين[٦]، وجعل لها السَّمع الخفي، وفتح لها الفم السَّوي، وجعل لها الحس القويَّ، ونابين بهما تقرِض، ومنجلَين[٧] بهما تقبِض، يرهبهما الزرَّاع في زرعهم، ولا يستطيعون ذبَّها ولو أجلبوا بجمعهم حتى تَرِد الحرث في نزواتها[٨]، وتقضي منه شهواتها، وخلقها كله لا يكون إصبعًا مستدقَّة، فتبارك الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا، ويعفِّر له خدًّا ووجهًا، ويُلقي بالطاعة إليه سلمًا وضعفًا، ويُعطي له القياد رهبةً وخوفًا"[٩].

هذا الوصف الذي وصفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يدل على دقة الملاحظة عند العرب، وعلى سعة خيالهم وتصوراتهم فيما يصفون، حتى أنهم يجعلون مما يصفون شيئًا مجسمًا ماثلًا ينظر إليه السامع، كما في هذا الوصف للجرادة.

---

[١] **المصدر السابق، جـ٢،:٢٤٩.**

[٢] **المصدر السابق، جـ٢،:٤٧٩.**

[٣] **المصدر السابق، جـ٢،:٣٠٤.**

[٤] **المصدر السابق، جـ١،:٢٩٤.**

[٥] **ابن عم الرسول ص وزوج ابنته من السابقين الأولين في الإسلام مات سنة ٤٠ وله ٦٣ سنة. (انظر:الإصابة،جـ٧،:٢٧٥).**

[٦] **أسرج لها حدقتين، أي جعلهما مضيئتين كالسراج، ويقال: حدقة قمراء، أي منيرة. (انظر:لسان العرب، جـ٢،(باب الجيم، فصل السين)،:٢٩٧).**

[٧] **المنجل: آلة معروفة يحصد بها الزرع، وأراد بالمنجلين رجلي الجرادة لاعوجاجهما وخشونتهما. (انظر:لسان العرب،جـ١١،(باب اللام، فصل النون)،:٦٤٧).**

[٨] **النزوات: الوثبات. (انظر:لسان العرب،جـ١٥،(باب الواو، فصل النون)،:١٥٢).**

[٩] **نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب،شرح الشيخ: محمد عبده، مراجعة وتدقيق: أحمد إبراهيم زهوه. ط١،(بيروت–لبنان: دار الكتاب العربي،١٤٢٥هـ)،:٢٠٧.**

ويرد الجراد في الشعر كما في قول عمرو بن معد يكرب[(١)]: (الوافر)

تَمَنَّانِي لِيَلْقَانِي أَبِيٌّ وَدِدْتُ وَأَيْنَ مَا مِنِّي وِدَادِي

تَمَنَّانِي وَسَابِغَتِي[(٢)] دِلَاصٌ[(٣)] خَرُوسُ الحِسِّ مُحْكَمَةَ السِّرَادِ

مُضَاعَفَةٌ تَخَيَّرَهَا سُلَيْمٌ كَأَنَّ سِكَاكَهَا حَدَقُ الجَرَادِ[(٤)]

يصف الشاعر درعه بأنَّها درع فضفاضة، ملساء لينة، مضاعفة ذات طبقتين، وتنسج حلقتين حلقتين، ثم يضفي على هذه الدرع نوعًا من الإتقان والجودة في الصنع، فينسبها إلى سليمان عليه السلام، وشبه حلقاتها بحدق الجراد، وحدق الجراد يمتاز بلمعانه داخل عين الجرادة ذات اللون الأحمر، فالشاعر يريد أن يصف درعه باللمعان، واللمعة لا تكون إلا في الدرع الجديد المحكم الصنع، فهو يستحضر هذه الصورة ليثبت خاصية اللمعان لدرعه.

ويلي الجراد في الإفساد والأذى الذباب، الذي كثيرًا ما يقع على القوت، وينافس الشخص في مأكله ومشربه، حتى وإن حاول صده أو إخافته، ولذلك وصف بالجرأة فقيل: (أَجْرَأُ مِنْ ذُبَابٍ) لأنَّه يقع على أنْفِ الملكِ وتاجِه، وعلى أَنْف الأسد ويُزالُ فيرجع[(٥)]، و:(أَخْطَأُ مِنْ ذُبَابٍ) لأنَّه يُلقي نفسه في الشَّيء الحارِّ، أو الشيء يُلْزَقُ به فلا يمكنه التخلص

---

(١) **عمرو بن معد يكرب الزبيدي، من مذحج، ويكنى أبا ثور، كان من فرسان العرب المشهورين بالبأس في الجاهلية، أدرك الإسلام فأسلم. (انظر: الشعر والشعراء، جـ١،:٣٧٢).**

(٢) **سَابِغَتِي: "سَبَغَ: أيُّ شيءٍ سابغٌ أي كاملٌ وافٍ، وسَبَغَ الشيء: طال إلى الأرض واتَّسع فهو سابغٌ". انظر: (لسان العرب، جـ٨، (باب العين، فصل السين)،:٤٣٢-٤٣٣).**

(٣) **دِلاصٌ: "الدِّلِيص: البريق، والدِّلاص: اللَّيِّنُ البرَّاق الأملس".انظر: (لسان العرب،جـ٧،(باب الصاد،فصل الدال)، :٣٧).**

(٤) **الحيوان، مرجع سابق، جـ٥،:٥٦٠.**

(٥) **جمهرة الأمثال، مصدر سابق، جـ١،:٢٧٦.**

منه[١]، وقيل:(أَطْفَلُ مِنْ ذُبَابٍ)[٢]، و:(أَطْيَشُ مِنْ ذُبَابٍ)[٣]، و:(أَمْهَنُ مِنْ ذُبَابٍ)[٤]، و:(أَلَحُّ مِنَ الذُّبَابِ)[٥]، وأيضًا:(أَهْوَنُ مِنْ ذُبَابٍ)[٦].

وقد عرف الشعراء هذه الصفات وغيرها في الذباب وذكروه في أشعارهم، كما فعل البحتري[٧]: (الوافر)

تَعَجَّبَ أَهْلُ مَكَّةَ إِذْ رَأَوْنَا وَحُقَّ لَهُمْ رَأَوا أَمْراً عَجِيبَا

رَأَوا فِيلاً يُعَادِلُهُ ذُبَابٌ وَكَيْفَ يُعَادِلُ الفِيلُ الذُّبَابَا[٨]

يفخر الشاعر بنفسه وبمن معه عند دخول مكة، فقد ذكر أنَّ أهل مكة أخذتهم الدهشة عندما رأوه وقومه، فقد كانوا كما يبدو ضخام الأجسام مقارنة بأهل مكة، فقد شبه قومه بالفيل في الضخامة، وأهل مكة بالذباب في صغر الجسم، وعلى الرغم من أنَّ الفيل ليس من الحيوانات التي تعيش في الجزيرة العربية، إلا أنَّ الشاعر يختار لصورته الشعرية الفيل ليقارن بينه وبين الذباب، وربما يعود ذلك إلى أنَّ أهل مكة قد رأوا الفيل، وأنَّ مكة كانت لها قصة مع الفيل في عهد عبد المطلب بن هاشم أحد أشراف قريش في العصر الجاهلي، فمن هذا المنطلق اختار الشاعر الفيل دون غيره من الحيوانات كالإبل مثلاً لمقارنته بالذباب، والذباب من الحشرات المألوفة لدى العرب، والشاعر عمد إلى اختيار الذباب، لضآلة حجمه وصغره بجانب الفيل، وحتى يبرز الفرق الهائل بينهما في الحجم، وهذا ما أراده الشاعر.

ومن الحشرات التي أقلقت وأقضت مضجع العربي وعانى ما عانى منها البعوض، ففي خضم هذا الصراع يتعرف العربي على هذه الحشرة، ويعرف صفاتها وأدق خصائصها، حيث

---

(١) **مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ١،:٤٥٨.**

(٢) **المصدر السابق، جـ٢، :٣٠٥.**

(٣) **المصدر السابق، جـ٢، :٣٠٠.**

(٤) **المصدر السابق، جـ٣، :٣٥٩.**

(٥) **المصدر السابق، جـ٣، :٢٢٠.**

(٦) **المصدر السابق، جـ٣، :٥١٠.**

(٧) **هو الوليد بن عبد الله بن يحيى بن عبيد بن بحتر، أبو عبادة من شعراء العصر العباسي، ولد بمنبج وبها نشأ وقال الشعر، توفي سنة٢٨٤هـ. (انظر: معجم الأدباء، جـ٦،:٢٧٩٦).**

(٨) **ديوانه، جـ١،:٣٢٧.**

ضُرب بها المثل في صغرها فقيل: (كَلَّفْتَنِي مُخَّ البَعُوضِ) يُضرب لمن يكلِّفك الأمور الشَّاقة[١]، و:(أَضْعَفُ مِنْ بَعُوضَةٍ) يُضرب للمُبالغة[٢]، و: (أَعَزُّ مِنْ مُخِّ البَعُوضِ)[٣].

وقد استخدم الشعراء صغر البعوضة وضعفها في الهجاء كما قال شاعر في رجل اسمه ليث: (الهزج)

أيَا مَنْ اِسْمُهُ ليثٌ وَهُوَ أضعفُ من بَقَّة[٤]

لقد بَاعَدَ ربُّ النَّاسِ بين الاسمِ والخِلقَة[٥]

يسخر الشاعر من هذا الرجل لأنَّ اسمه ليث، وهو اسم للأسد، وهذا الاسم لا يدل على صاحبه بل على العكس فإنَّه أضعف من بعوضة، وربما يكون الضعف في الجسم والقوة معًا، والعرب تضرب بالبعوضة المثل في الضعف وذلك من باب المبالغة، فالبعوضة من الحشرات التي تنتشر في البوادي والحواضر، وهي تتميز بصغر الجسم ودقته.

من المبحث السابق نستنتج، أنَّ أكثر أمثال العرب كانت مضروبة بالبهائم، فلا يكادون يذمُّون أو يمدحون إلاَّ بها، وذلك أنَّهم جعلوا مساكنهم بين الحيوانات، فراقبوها وعرفوا صفاتها وطبائعها، فاستعملوها للتمثيل، ولم يكتفوا بهذا وحسب، بل إنَّهم أطلقوا كثيرًا من أسمائها على أبنائهم وخدمهم، وكثيرًا ما ضمَّنوا قصصهم حكمًا وعبرًا عرضوها على ألسنة الحيوانات، بشكل مشوق وجذاب.

أما الشعراء فقد كانوا لصفاء أعينهم ودقة أسماعهم لا يدعون شيئًا من صفات الحيوان وطباعه وخصائصه إلا صوَّروه في لوحات تتسم بالحيوية والغنى بالمشاهد والعواطف التي ترتكز على الحركة والتنوّع في الصورة التشبيهية، وهذا من أهمِّ الفوارق التي تفرق بين لوحات الشعراء ولوحات الرسامين "التي يتجمد المنظر فيها ويأخذ وضعًا خاصًّا لا يفارقه، بسبب ما يتقيد به

---

[١] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج٣،: ٣٠.**

[٢] **جمهرة الأمثال، مصدر سابق، ج٢،:٥.**

[٣] **المصدر السابق، ج٢،:٣١.**

[٤] **بقَّة: "البَقُّ: البَعُوضُ، واحدته بقَّة". انظر: (لسان العرب،ج١٠،(باب القاف، فصل الباء)،:٢٣).**

[٥] **الحيوان،الجاحظ، مرجع سابق،، ج٢،:٣١.**

الرسام من المكان، أما الشاعر فإنَّ انفساح الزمن عنده يعطيه الفرصة كي يرسم ما يريد في أوضاع مختلفة[١]".

وهذا ما لحظناه فيما سبق من تشبيهات الشعراء بصفات الحيوان وخصائصه وطباعه، حيث تذهلنا تلك اللوحات بشمولها والتقاطها لأدق المناظر والصور، حتى نحس بأننا نرى ونسمع ونعيش ما يصوره لنا الشعراء واقعًا حيًّا، فلم تعد تلك اللوحات نصوصًا نقرأها بل عالمًا يجذبنا إلى ساحته الرحبة.

[١] **التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، ط٦،(القاهرة: دار المعارف،١٩٧٧م)، :٢٥٦-٢٥٧.**

المبحث الثالث

خَصائِصُ الحيوانَاتِ التِي ورَدتْ فِي التَّشبِيهِ النَّبَوِيِّ

إنَّ للحيوانات التي شبه بها الرسول ﷺ من الخصائص والصفات ما يميز بعضها عن بعض، فإذا تناولنا هذه الصفات والخصائص وحاولنا كشف الستار عنها وفهم أسرارها الدقيقة التي أودعها الله فيها، ثم أعملنا الفكر في الربط بين صفات هذه الحيوانات وبين مراد الرسول ﷺ عندما عمد إلى التشبيه بها، لأيقنا أنَّ هذا الاختيار لهذه الحيوانات لم يكن اعتباطًا أو محض صدفة؛ بل كان اختيارًا دقيقًا ينمُّ عن عقلٍ واعٍ وفكرٍ سامٍ.

فاختيار الرسول ﷺ لهذه الحيوانات يختلف باختلاف صفات كلٍ منها، فهي متنوعةٌ ومتعددةٌ وفقًا لما تعبر عنه من المضامين وتعالجه من المواقف، وتهدف إلى تحقيقه من الغايات، ومن خلال هذه الصفات والخصائص في أيِّ حيوانٍ تتخذ الصورة التشبيهية أشكالها البلاغية المختلفة والمتميزة التي تستطيع عبرها تصوير الحقائق الفكرية المجردة، وتحديد معالم المعاني المبهمة التي لا يستطيع العقل إدراكها وتصورها إلا بعد تأملٍ لتلك التشبيهات، وفهم ما تتضمَّنه من مجالات، وما يدور في فلكها من القضايا، ولا شك أنَّ في ذلك أكبر الأثر في إمتاع النفس وتجلية الصورة أمام ناظريها.

فللحيوانات خصائص وصفات لا تعتمد على الغريزة قدر اعتمادها على الخبرة والاكتساب، وقيامها على الانضباط والوعي، فالحيوان يمتلك الأحاسيس، وتثور في داخله ألوان من الانفعالات تتناسب مع المثيرات التي تواجهه أو الحاجات التي تتحرك في نفسه، قال ابن سينا: "ولسائر الحيوانات أيضًا أخلاقٌ وانفعالاتٌ نفسانية"[١].

ورغم ثبات الإحساس والشعور لدى الحيوان، فإنَّ الحيوانات تتفاوت في مستوى ذلك، فمنها ما هو في مرتبة رفيعة من حيث الإدراك والتمييز والصفات والخصائص، ومنها ما يقع دون ذلك بدرجة أو درجات، جاء في رسائل إخوان الصفا: "وإنَّ من الحيوان ما هو في أشرف المراتب مما يلي رتبة الإنسانية، وهو ما كانت له الحواس الخمس، والتمييز الدقيق، وقبول التعليم"[٢].

---

[١] **الشفاء (الطبيعيات)، تحقيق: إبراهيم مدكور، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ)، :١٣٧.**

[٢] **إخوان الصفا وخلاَّن الوفا، جماعة من القرن الرابع الهجري،جـ٢، (بيروت: دار صادر)،:١٨٤.**

وهذا النوع من الحيوان ذو تميُّزٍ وفهم، وصفه الشعراء الجاهليون، ونقلوا عنه مشاهد غزيرة يظهر من خلالها في درجة عالية من الحكمة والفطنة، بل والقدرة على التفكير والتخطيط وحل المشكلات.

إلاَّ أنَّنا لن نتمكن من الفهم الصحيح لما أورده ﷺ من التشبيه بالحيوان إلا إذا عرضنا خصائص وصفات وطباع الحيوان، لأنَّ في حياة الحيوان ضروبًا معقَّدة من أنماط السلوك المعتمدة على الخصائص والصفات التي جُبل عليها، "فهذه الحيوانات تملك الحواس والحدس والأهواء والعواطف والانفعالات النفسية، حتى أكثرها تعقيدًا كالغيرة والشك والمنافسة والامتنان والنبل، وهي تمارس الخداع والانتقام، والتصميم والاختيار، واستحضار الذاكرة والتخيل، وتداعي الأفكار والتحليل المنطقي بدرجات شديدة الاختلاف"[1] لندرك السر الخفيَّ في اختيار رسول الله ﷺ لحيوان دون آخر في تشبيهاته.

فأول هذه الحيوانات التي اهتم بها العرب القدماء الإبل، لأنَّ حياتهم كانت قائمة عليها، فهي بالنسبة إليهم من أعظم الحيوانات نفعًا، ولولاها ما كانت الصحراء صالحةً للسكن، ولأهمية الإبل فقد كانت تُعطى في الدِّيات فتُحقن بها الدماء، وتمنع من أن يُهرق دم القاتل، كما أنَّ المرأة الحرَّة لا تقبل بأقل من الإبل مهرًا لها، وذلك أنَّ الإبل من أنفس أموال العرب وأشرفها، فلا يكون ذلك في الحمير أو الماشية مثلًا، ولو أنَّ ذلك حدث لكان عارًا عند العرب وذلًّا.

والإبل تسير قطعانًا قطعانًا، وإذا أُفرد الجمل عن قطيعه، كان همُّه الأول الالتحاق بهذا القطيع، والتخلص من وثاقه، وهي صفة ثابتة فيه، وهو حيوانٌ وديعٌ أليفٌ، والجمل يعمَّر من عشرين إلى ثلاثين سنة، ويبدِّل وبره كل سنةٍ في فصل الصيف، ومن أهمِّ خصائصه القدرة الفائقة على تحمُّل العطش حتى في الأيام الحارة، وسهولة انقياده مع الضعيف والقوي، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، مع شدة قوته وعظم خلقه، وشدَّة حنُوِّ النَّاقة على مولودها، وشدَّة الطَّرب للحداء والغناء، إلى هذا تتصف الإبل بخواص فسيولوجية تميِّزها عن آكلات الأعشاب بشكل عام والحيوانات المجترَّة بشكل خاص، ومن هذه الخواص: وجود الخُف، والقوائم الطويلة،

---

[1] **عندما تبكي الفيلة "الحياة الانفعالية عند الحيوان"، جفري ماسون وسوزان مكارثي، ترجمة: نهلة بيضون،ط١، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٠هـ)،:٥.**

وقوة الجسم التي تساعدها على السير فوق الرمل، دون أن تغوص قوائمها فيه، وعلى السير مسافات طويلة دون أن تتعب، كما أنَّ لها قدرة على تناول النباتات المرتفعة وأوراق الأشجار نظرًا إلى طول رقبتها، وارتفاع جسمها، وللجمل شفتان مطاطيتان وقاسيتان تستطيعان التهام الأشواك الحادة، كما أنَّ الشفة العليا مشقوقة وتساعده على تجميع وتناول الأعشاب والحشائش الأرضية بفاعلية مرتفعة، كما يختزن الجمل في سنامه كمية كبيرة من الدهن تعادل خمس وزنه تقريبًا، ويستعمل هذا الدهن كمصدر احتياطي للطاقة والماء عند أَكْسَدَتِهِ في وقت الجوع والعطش، وتستطيع الإبل تحمُّل ارتفاع تركيز البول في دمها نتيجة حصر البول دون حدوث التسمم، وتُربَّى الإبل لاستخدامها في نقل الأثقال، وقطع المسافات البعيدة، ومن أجل حليبها، ولحمها، ووبرها، وجلدها، كما يستعمل بَعرُها وبولها سمادًا طبيعيًّا[١].

والإبل من الحيوانات العجيبة، وإن كان عَجَبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم لها، وهو أنَّها حيوانٌ عظيم الجسم، سريع الانقياد، ينهض بالحِمْل الثَّقيل، ويبرُكُ به، ويُتَّخذ على ظهره بيت يقعد الإنسان فيه مع مأكوله ومشروبه وملبوسه وظروفه ووسائده، كأنه في بيته، ويُتَّخذ للبيت سقف وهو يمشي بكل هذا، وربما تصبر الإبل عن الماء عشرة أيام، وإنَّما جعل الله أعناقها طوالاً لتستعين بها على النهوض بالحمل الثقيل.

وليس في طبائع الحيوان عند هيجانها ما للجمل عند هيجانه، إذ يسوء خلقه، ويظهر زبده ورُغاؤه فلو حُمِل عليه ثلاثة أضعاف عادته حَمَلَ ويقلُّ أكله، ويخرِج الشَّقْشقة وهي الجلدة الحمراء التي يخرجها من جوفه، وينفخ فيها فتظهر من شدقه لا يعرف ماهي[٢].

والجمل أشدُّ الحيوان حقدًا، وفي طبعه الصبر والصَّولة، وكل الحيوان له مرارة إلا الإبل، ولذلك كثُر صبرها وانقادت، وكُنِّي الجمل بأبي أيوب[٣].

والإبل من أشرف الحيوانات وساداتها وكبارها ورؤساؤها، ففيها خصال الشرف والمنافع والغناء في السفر والحضر، ومنافعها في الحرب والسلم وفي الزينة والبهاء، وفي العدة والعتاد، ما

---

[١] **موسوعة الحيوان، إعداد: غراتا قره بتيان،ج١،ط١،(الدار العربية للعلوم،١٤١٨هـ):٨-٩.**

[٢] **حياة الحيوان الكبرى، مرجع سابق، ج١،:٢٧-٢٨.**

[٣] **المرجع السابق، ج١،:٢٧.**

ليس في غيرها من الحيوان[١]. ويتصف الجمل بالهداية والغيرة، والبَخَر (فساد رائحة الفم)، ويُضرب المثل ببوله وتيله (وعاء قضيبه) في المخالفة، وبسلا الناقة (ما تلقيه إذا وضعت) في الوقوع في الشدة، وبضرطته في الهوان[٢]، ولكثرة أوصاف الإبل كثُر تمثيل العرب بها، وذلك لكثرة معاشرتهم وصحبتهم الطويلة لها.

ومن الحيوانات الأليفة أيضًا التي اعتنى بها العربيُّ في باديته الخيل، والخيل حيواناتٌ ثديَّة من آكلات الأعشاب، ومن رتبة مفردات الأصابع، تتواجد في معظم بلدان العالم.

وقد طارد الإنسان الخيل منذ فجر التاريخ طلبًا للحمها، وبعد أن دجَّنها استخدمها وسيلة للنَّقل ولحمل الأثقال، ثم ما لبث أن استخدمها في جرِّ المركبات الحربيَّة، ثم للأغراض العسكريَّة، ثم للسِّباق، أما استخدامها لجرِّ الأثقال وللحراثة فحديثٌ نسبيًّا.

والخيل أنواعٌ متعددة تتفاوت فيما بينها تفاوتًا كبيرًا من حيث الشكل، والحجم، والسرعة، وغير ذلك، وأشهرها على الإطلاق الفرس العربيُّ الأصيل، ويتميَّز الحصان بصورةٍ عامَّة بقِصَر وبره، وطول عُرفه، وكذلك ذيله، وبأن أنثاه تنجب مُهرًا، أو (مُهرة) واحداً، ويعيش عادةً من خمس وعشرين إلى ثلاثين سنة، وهو من الحيوانات التي تتكور على بطنها عند النوم.

كما يمتاز الحصان العربيُّ الأصيل بجماله، وسرعته، ونسبه الصافي، ووفائه لصاحبه، وصحته الجيدة، وتتميَّز هذه الصحة بجملة أمور، منها: الخِصب، فالعقم عنده نادر، والشِّفاء العاجل من الجروح، والاكتفاء بقليلٍ من الطَّعام، والتمتع بجهاز تنفُّسيٍّ ممتاز، وذلك بفعل سَعَة قصبته الهوائيَّة بالنسبة إلى حجمه، وضخامة قفصه الصدري[٣].

والخيل أشبه الحيوان بالإنسان، لما يوجد فيه من الكرم وشرف النفس، وعلوِّ الهمة. وتزعُم العرب أنَّه كان وحشيًّا، وأول من ذلَّله وركبه إسماعيل عليه السَّلام، ومن الخيل ما لا يبُول ولا يَرُوث، ما دام راكبه عليه، ومنها ما يعرف صاحبه، ولا يمكِّن غيره من الركوب عليه[٤]، وفي طبع الخيل الزَّهو والخُيلاء، والسرور بنفسه والمحبة لصاحبه، ومن أخلاقه الدَّالة على شرف نفسه

---

[١] **الحيوان ،مصدر سابق، ج٧،:١١٩-١٢٠.**

[٢] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، ج١،:١٨.**

[٣] **المرجع السابق، ج١،:٨٩.**

[٤] **المرجع السابق، ج٢،:٢٨٥.**

وكرمه أنَّه لا يأكل بقية علف غيره، ومن طبعه أنَّه لا يشرب الماء إلا كدرًا، فإذا رآه صافيًا كدَّره، ويُوصف بحدَّة البصر وبأنه لا طحال له، وهو مثل لسرعته وحركته[١]. كما يُوصف بحدَّة السمع، وسرعة الجري والعدو، والشَّأو (السَّبق)، والطَّاعة، والشِّدة[٢].

ويلي الخيل في الأهمية الكلب، فقد أطلق العرب اسم الكلب على كلِّ سبعٍ عَقُور، ثم غلب على الكلب النَّابح المعروف، وتنقسم الكلاب إلى نوعين: كلاب أهليَّة، وكلاب صيد، ويُراد بالكلاب الأهلية ما خُصص للحراسة والماشية والزرع وما إلى ذلك، ويراد بكلاب الصيد ما يُضرَّى على الصيد.

والكلب حيوانٌ ثدييٌّ أليفٌ من آكلات اللحوم، ومن فصيلة الكلبيَّات التي تشمل الكلاب والذِّئاب والثعالب وغيرها، وهو كثير الوجود في جميع بلدان العالم تقريبًا، ويعتقد العلماء أنَّ الكلب كان من حيوانات الغابات، وأنَّ الإنسان دجَّنه منذ ثمانية آلاف أو تسعة آلاف سنة، فهو صديق الإنسان، وهو الأكثر أمانةً بين كلِّ الحيوانات الدَّاجنة، وله أجناسٌ متعددةٌ من حيث الحجم ولون الجلد والطَّبع، وهو عند الولادة لا يرى ولا يسمع، ومعظم الكلاب لها لغةٌ مشتركة يفهمها جميع أفراد جنسه، وهذه اللُّغة تتألَّف بشكلٍ رئيسيٍّ من وضعيَّات ومواقف مختلفة، وهو من أكثر الحيوانات نفعًا للإنسان، فهو يحرسُ البُيوت، ويقود العميان، ويساعد في الصيد، ويقودُ القُطعان ويحرسها، ويساعد في تعقُّب المجرمين والقبض عليهم[٣].

والكلب إذا نبح على الإنسان بالليل فلا يُنجِيه إلا أن يقعد، فإذا قعد انصرف، وكأنَّه قد ظفر به، وقد يصيب الكلب في الصيف جنونٌ لأنَّ مزاجه حارٌّ يابسٌ جدًّا، ويزيده الصيف حرارةً ويُبُوسةً، فيغلب عليه المرار، فيحدث له هذا المرض فيصير ريقه سمًّا، وعلامة ذلك اللَّهث الدائم، واحمرار العينين، وإطراق الرَّأس، واعوجاج الرقبة، واسترخاء الذَّنَب، وجعله بين فخذيه، ويمشي مائلًا خائفًا سكران كئيبًا مغمومًا ويتعثَّر في كل خطوة، وإذا لاح له شبحٌ عدا إليه حاملًا عليه سواءً كان شجرةً أو حجرًا أو حيوانًا، وهذا المرض صعب المداواة، ومَنْ عضَّه

---

[١] **المرجع السابق، جـ٢، ٢٨٩.**

[٢] **المرجع السابق، جـ١، ٩٧.**

[٣] **المرجع السابق، جـ١، ١٧٨.**

ينبح كالكلب، ويرى بوله مرشوشًا على صورة الكلب، وينظر في الماء يرى صورة الكلب، ولا يشرب من الماء حتى يهلك عطشًا[١].

والكلب حيوانٌ شديد الرياضة كثير الوفاء، وهو لا سبعٌ ولا بهيمةٌ، حتى كأنَّه من الخلق المركب لأنَّه لو تمَّ له طباع السبعيَّة ما أَلِف النَّاس، ولو تمَّ له طباع البهيميَّة ما أكل لحم الحيوان، والجيفة أحبُّ إليه من اللحم الغريض، ويأكل العَذِرَة ويرجع في قَيئِه، ومن طبعه الاحتلام، وهو أيقظ الحيوانات عينًا في وقت حاجته إلى النوم، وإذا نام كسر أجفان عينه ولا يطبقها، وذلك لخفَّة نومه، ومن عجيب طباعه أنَّه يكرم الجُلَّة من النَّاس وأهل الوجاهة، ولا ينبح أحدًا منهم، وينبح الأَسْود من النَّاس والدنس من الثِّياب والضعيف الحال، ومن طباعه أيضًا البصبصة والتَّرضِّي والتَّودُّد والتَّآلف، بحيث إذا دُعي بعد الضَّرب والطَّرد رجع، وإذا لاعبه ربُّه عضَّه العضَّ الذي لا يُؤلم، ويقبلُ التَّأديب والتَّلقِين والتَّعليم، حتى لو وُضعت على رأسه مسرجة وطُرح له مأكولٌ لم يلتفت إليه مادام على تلك الحالة، فإذا أُخِذت المسرجة عن رأسه وَثَب إلى مأكوله[٢].

ويتَّصف الكلب بالبُخل والحِرص، والحفظ، والجشع، والنَّهم، والإلحاح، واللُّؤم، والشُّكر، والشَّجاعة، والضَّراعة، والفُحش، والصبر على الذُّل، والسُّرعة في الوُلُوغ، ولحس الأنف[٣].

ومن الحيوانات الأليفة أيضًا الجدي والشاة والغنم والكبش، وهي من حيوانات المرعى، وهي حيواناتٌ ثدييَّة مُجترَّة، منها ما هو أهليٌّ وأليف، ومنها ما هو بريٌّ، وهي تُربَّى في معظم دول العالم طلبًا لأصوافها وألبانها ولحومها، وتُستخدم أبعارها وأبوالها في السَّماد، وتعتبر القرون من أهمِّ الأسلحة التي تستخدمها هذه الحيوانات، فهي مجوَّفة مؤلَّفة من مادة تشبه كثيرًا مادة الحوافر والأظافر، وقرون بعضها تسقط كل عام، وينمو غيرها من جديد[٤].

---

[١] **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ط١،(مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٦م)،:٣٣٦.**

[٢] **حياة الحيوان، مرجع سابق، جـ٢،:٣٧٨.**

[٣] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،:١٨٠.**

[٤] **فصول ومقالات في طبيعة الحيوانات، سعد الدين محمد المكاوي، ط١،(القاهرة: مكتبة الدار العلمية، ٢٠٠٦م)،:٧٣٢.**

ويبدأُ موسم تناسلها في الخريف، ومدة الحمل عندها خمسة أشهر، وتلد الأنثى مرةً واحدةً في السَّنة، ونادرًا ما تلد مرتين، وهي تضع حملًا واحدًا، ونادرًا ما تضع حملين، ويعيش الواحد منها ستَّة عشر سنة تقريبًا[١].

وهذه الحيوانات تتميز بقلة الحيلة وعدم قدرتها على حماية نفسها، فحاجتها للإنسان شديدة، ولو كانت تستطيع حماية نفسها لما استطاع الإنسان أن يروِّضها ويذلِّلها ويستفيد منها في أمور حياته، وهي متى ما وجدت قطيعًا انضمَّت إليه.

ويتَّصف الغنم والجدي والشاة والكبش بعدة أوصاف منها نَتَن مرقاتها[٢]، والعَجَلة في وُرُودها إلى الحوض وحمقها عليه، كما تتصف الإناث منها بسرعة حلبها[٣].

ومن الحيوانات التي وجدت في البيئة العربية الأرنب، فهو حيوانٌ صغيرٌ، ألوانه مختلفة، ينتشر في أنحاء العالم تقريبًا، وهو لبُونٌ قاضِمٌ كثير العروق والسُّلالات، يتميَّز الأرنب بخفة الحركة وسرعة العَدْو، وهو طويل الأذنين، كبير العينين، قصير الذَّيل، مستطيل الجسم، كبير الرأس، قائمتاه الأماميتان قصيرتا القدِّ، خماسيتا الأصابع، وقائمتاه الخلفيتان مستطيلتا القدِّ، رباعيتا الأصابع، وتتوالد الأرانب بسرعة، لذا تكثر تربيتها للإفادة من لحمها وفرائها ووبرها، وتأكل الأعشاب والبقول والحبوب، وهي تتكوَّر على بطنها وتنام مفتوحة العين، فربما جاءها القنَّاص، فوجدها كذلك فيظنها مستيقظةً، ويقال إنها إذا رأت البحر ماتت، ولذا لا توجد في السواحل[٤].

والأرانب حيوانات رقيقة لطيفة فضولية ودودة وغير عنيفة، تصنع مع الأم الرئيسة مجموعات اجتماعية، فهي اجتماعية من الدرجة الأولى، تكره أن تعيش منفردة، تعشق صحبة الأرانب الأخرى خاصة إذا كانت معها منذ الصغر، وهي تبقى منتصبةً على رجليها الخلفيتين، دائمة الاستعداد للهرب، ونادرًا ما تغامر بالابتعاد عن جحورها مسافة تزيد عن ٢٠٠ متر،

---

[١] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،:١٥٢.**

[٢] **المرقات: الصوف قبل أن ينظف ويدبغ.**

[٣] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،:١٥٢.**

[٤] **حياة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،:٣٧.**

وبعض أنواع الأرانب يقوم منها أرنب واحد بحراسة المكان الذي ترعى فيه الأرانب الأخرى، حتى إذا أحس بدنوِّ الخطر أعلم رفاقه الباقين.

وفي الأرانب من العجب أنَّها تحيض، وأنَّها لا تسمن، وأنَّ قضيب الخُزَرِ ربما كان من عظم، وفيها التَّوبير الذي ليس لشيء من الدَّوابِّ التي تحتال بذلك، صائدة كانت أو مَصِيدة، والتَّوبير الوطء على مؤخرة القوائم، كي لا تعرف الكلاب آثارها، وليس يعرف ذلك من الكلاب إلا الماهر منها. وإنما تفعل ذلك في الأرض اللينة، وإذا فعلت ذلك لم تسرع في الهرب، وإن خافت أن تدرك انحرفت إلى المرونة والصلابة، وإنما تستعمل التَّوبير قبل دنوِّ الكلاب[١]، وليس لشيءٍ من الوحش، ممَّا يوصف بقصر اليدين ما للأرنب من السرعة.

ومن الحيوانات التي عرفها العرب ولم تكن في بيئتهم الخنزير وهو حيوانٌ ثدييٌّ من رتبة مزدوجات الجسم، وهو قسمان: أهليٌّ ووحشيٌّ، ولكلٍّ منهما أجناسٌ مختلفة، ويُربَّى الأهليُّ منه في مختلف دول العالم غير الإسلامية، ومعظم الخنازير الأهليَّة المعروفة اليوم مُتحدِّرٌ من الخنزير الأوروبيِّ القديم.

"والخنازير تعيش في قطعان، وهو الحيوان الوحيد الذي لا يغار على حدوده، ولا يدافع عنها، ويعيش الخنزير في مسكن لا يعبأ بتحديد حدود له، ويأكل ويشرب ويناكح في مكانه، وإذا هوجم ترك المكان بدون أدنى مقاومة! ولا يدافع عن إناثه أو صغاره إذا هوجمت هي الأخرى بل يتركها وشأنها! ومن هذا فهو سُبَّة عند جميع الشعوب، حتى تلك التي تربي الخنازير وتعنى بها"[٢].

والخنزير حيوانٌ قذر يأكل كلَّ شيءٍ تقريبًا، وكثيرًا ما يتسبب لحمه في إصابة الإنسان بأمراضٍ وبيلة، لذا حرَّم الشرع الإسلامي أكله، وهو يتميَّز بجسمٍ برميليٍّ، وقوائم قصيرة، وخطم غضروفي طويل نسبيًّا يستخدمه في نكت الأرض، وهو يُربَّى في كثير من البلدان غير الإسلامية للحمه ودهنه[٣].

---

[١] **الحيوان للجاحظ، جـ٦،: ٣٥٦-٣٥٧.**

[٢] **النبات والإنبات والحيوانات والحشرات، الكتابان السابع والثامن، خالد فائق العبيدي، ط١، (بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ)،: ٣٧.**

[٣] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،: ٨٦.**

والخنزير يشترك بين البهيميَّة والسبعيَّة، فالذي فيه من السَّبع النَّاب وأكل الجيف، والذي فيه من البهيمة الظِّلف وأكل الأعشاب والعلف، وهذا النوع يوصف بالشَّبق، والذَّكر من هذا النوع يطرد الذُّكور عن الإناث، وربما قتل أحدهما صاحبه، وربما هلكا جميعًا، وإذا كان زمن هيجان الخنازير، طأطأت رءوسها، وحرَّكت أذنابها، وتغيرت أصواتها، وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تلد، وهذا الجنس أنسلُ الحيوان، والذَّكر أقوى الفُحول على السّفاد، يُقال: إنَّه ليس لشيءٍ من ذوات الأنياب والأذناب ما للخنزير من القوَّة في نابه، حتى أنَّه يضرب بنابه صاحب السيف والرمح، فيقطع كل ما لاقى من جسده من عظم وعصب، وربما طال ناباه فيلتقيان فيموت عند ذلك من الجوع لأنهما يمنعانه من الأكل، وهو متى عض كلبًا سقط شعر الكلب، وهو إذا كان وحشيًّا ثم تأهَّل فإنَّه لا يقبل التَّأديب، ويأكل الحيَّات أكلًا ذريعًا، ولا يؤثر فيه سمومها، وهو أروغ من الثعلب، وإذا جاع ثلاثة أيام ثم أكل سمن في يومين، وهكذا تفعل النصارى بالخنازير في الروم، يجيعونها ثلاثة أيام، ثم يطعمونها يومين لتسمن، وإذا مرض أكل السرطان فيزول مرضه. وإذا ربط على حمار ربطًا محكمًا، ثم بال الحمار مات الخنزير، ومن عجيب أمره أنه إذا قُلعت إحدى عينيه مات سريعًا، وفيه من الشبه بالإنسان أنه ليس له جلد يُسلخ إلا أن يقطع بما تحته من اللحم[١]، وهكذا وصف الخنزير بالحرص، والقُبح، والقذارة، والبُكور، والحراسة[٢].

وعلى ما في الخنزير من صفات سيئة فإنَّه يتصف بأخرى محمودة كثيرًا ما يُشاد بها في حال المديح، كصفة الحرص والبُكور كما قال بعض الحكماء: "خذ من الخنزير بُكوره في الحوائج"[٣].

ومن الحيوانات التي تكثر في البيئة الصحراوية البقر والثور، فالبقر اسم جنسٍ يقع على الذكر والأنثى، والشَّائع تسمية البقرة الأنثى بالبقرة والذَّكر بالثور، وهما نوعان: أهليٌّ ووحشيٌّ، ويمتاز الوحشيُّ منه بقوة قرونه التي يتخذ منها سلاحًا يدافع بها عن أولاده من الكلاب والصيادين، وهي ذات عينين نجلاوين سوداوين حتى أنه ليُضرب المثل في حسن عيونها

---

[١] **حياة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،: ٤٢٤.**

[٢] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،: ٨٧.**

[٣] **الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، جـ١، (بيروت– لبنان: المكتبة العصرية)،: ١٤٤.**

وسوادها[١]، وهما أيضًا من الحيوانات المُجتَرَّة، من آكلات الأعشاب، ولها أجناس وسلالات كثيرة.

والبقر الأليف حيوانٌ شديد القوة كثير المنفعة، خلقه الله ذلولاً ولم يخلق له سلاحًا شديدًا كما للسِّباع، لأنَّه في رعاية الإنسان، فالإنسان يدفع عنه ضرر عدوه، فلو كان له سلاحٌ لصَعُب على الإنسان ضبطه، وكلُّ حيوانٍ إناثه أرقُّ صوتًا من ذكوره إلا البقر، فإنَّ الأنثى أفخم وأجهر صوتًا من الثور[٢]، ويُوصف الثور بالزَّهْو (المشي باختيال)، وبالبَلاَدة، ويُضرب بأذناب البقر في الذُّلِّ، كما يُضرب ببقرة بني إسرائيل في الشيء يأمر به السيِّد فيجنح فيه المسود، ويسدُّ الأمر فيه على نفسه[٣].

ومن الحيوانات المهمَّة في البيئة العربية الحمار، حيث إنَّه من الحيوانات التي أكثر شعراؤنا من وصفها، وهذا دليل على كثرة هذا النوع من الحيوان في ذلك الوقت.

ويشابه الحمار الوحشيُّ الثور الوحشيَّ حيث يرد وصفه خلال حديث الشاعر عن سرعة الناقة غالبًا والفرس أحيانًا، والحمار نوعان: أهليٌّ ووحشيٌّ، فالأول حيوان داجن لا يُؤكل لحمه، والثاني وحشيٌّ يُصاد ويُؤكل، "وحمر الوحش لا تعيش إلا جماعات، ولكل جماعة أمير يقودها، فترد بوروده، وتنهض بنهوضه وتقع بوقوعه، وتروح برواحه وتغدو بغدوه..."[٤].

والحمار -الأليف منه والوحشيُّ- حيوانٌ ثدييٌّ من آكلات الأعشاب، كثير الشَّبه بالحصان، ولكنه أصغر منه، رأسه كبير وأذناه طويلتان، وحوَافِرُه صغِيرة، وذيلُهُ قصير، وهو حيوانٌ صبورٌ وقويٌّ، يستطيع حمل الأثقال ونقلها في الأماكن الخشنة والصَّعبة، وقد استخدمه الإنسان منذ أقدم العصور لنقل حاجاته، وللحراثة، وغير ذلك من الأمور الصعبة، ويختلف جسم الحمار باختلاف أجناسه، ويبلغ متوسِّط عمره سبعًا وثلاثين سنةً[٥].

---

[١] **الصيد عند العرب**، مرجع سابق،:١٩٧.

[٢] **حياة الحيوان**، مرجع سابق، جـ١،:٢١٤.

[٣] **موسوعة الحيوان**، مرجع سابق، جـ١،:٥٦.

[٤] **الصيد عند العرب**، مرجع سابق،:١٩٥.

[٥] **موسوعة الحيوان**، مرجع سابق، جـ١،:٦٩.

ويُكنّى الحمار بأبي صابر، لقدرته الكبيرة على التحمل، وليس في الحيوان ما ينزُو على غير جنسه ويُلقّحُ إلا الحمار والفرس، وهو ينزُو إذا تمَّ له ثلاثون شهرًا، ومنه نوع يصلح لحمل الأثقال، ونوع ليّن الأعطاف سريع العدو، يسبق براثين الخيل، ومن عجيب أمره أنَّه إذا شمَّ رائحة الأسد رمى نفسه عليه من شدَّة الخوف، يريد بذلك الفرار منه، ويُوصف الحمار بالهداية إلى سلُوك الطُّرقات التي مشى فيها، ولو مرةً واحدةً، وبحدَّة السمع.

والحمار مثلٌ في الذَّم الشَّنيع والشَّتيمة، ومن استحيائهم لذكر اسمه أنهم يُكنُّون عنه ويرغبون عن التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يُكنُّون عن الشيء المستقذَر، وقد عُدَّ من مساوئ الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم ذوي مُروءة، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافًا، وإن بلغت به الرِّحلة الجَهد[١].

وعادةً ما يُوصف الحمار بكثرة الضُّراط، والجهل، والغَيرة، والذُّل، والصبر، والضلال، والامتهان، والنَّكس، وبقِصَر ذَنَبِه، وتَسَاوي أسنانه، وبخلوِّ جوفه مما لا يُستفاد منه[٢]، وكل هذه الصفات الذميمة وصفت بها العرب للتحقير والإذلال، وللإنقاص من قدر المهجو.

ومن الحيوانات المفترسة في البيئة الصحراوية الأسد، فهو حيوانٌ ضخمٌ، يُلقَّب بملك الغابة، نظرًا إلى قوته وزئيره المدوِّي، وهو من الثدييَّات ومن آكلات اللحوم، يأكل الظباء، والخنازير، والأرانب، والجواميس، وغيرها من الحيوانات، ولا يهاجم الإنسان إلاَّ إذا عضَّه الجوع، وهو يقضي معظم يومِه (حوالي عشرين ساعة) نائمًا أو مستسلمًا للراحة، وقد يقضي أسبوعًا كاملًا دون طعام، وهو لا يتسلق الأشجار، ولا يخرج عادة في النَّهار للبحث عن فريسته، بل يكمن لها ليلاً وينقضُّ عليها.

والأسد هو الحيوان الوحيد المفترس الذي يعيش مع أنثاه كبعلٍ حقيقي، ولا يفترق عنها مدى الحياة، وهو يتزوج بعمر ست سنوات، ويتميَّز بحدَّة البصر وبلمعان عينيه في الظلام، وبرهافة السمع الذي يهديه إلى الفريسة قبل أن تظفر بها العين، يمشي إلى فريسته على أطراف الأصابع إلى أن يصبح على مسافةٍ مناسبةٍ فينقضُّ عليها في قفزةٍ واحدةٍ، وقيل إنَّه لا يأكل من

---

[١] **حياة الحيوان، مرجع سابق، ج١،:٣٣٨-٣٣٩.**

[٢] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، ج١،:٧٠.**

فريسة غيره، فإذا شبع من فريسته تركها ولم يعد إليها[١]، وهو أشدُّ السِّباع قوةً، وأكثرها جراءةً، وأعظمها هيبةً، وأهولها صورةً، لأنَّه لا يهاب شيئًا من الحيوان، ولا يوجد حيوانٌ له شدة بطشه، إذا صاد شيئًا أكل قلبه وترك الباقي لغيره ولا يرجع إليه، وإذا رأى ضوءًا بالليل ذهب إليه ووقف بالبعد منه وحينئذ يسكن غضبه، وكثيرًا ما تلازمه الحُمَّى، ولذلك يُقال للحمَّى: داء الأسد، وإن أصابه خدش أو جراحة تجتمع عليه الذئاب ولا تنتقل عنه حتى تقتله، ويهرب من الدِّيك الأبيض ومن ضرب الطَّاس، وجميع الحيوانات تهرب من زئيره إلا الحمار فإنَّه يقف عن السعي، ولا يزأر حالة جوعه حتى لا تهرب الصيد، والنمل يفعل بالأسد ما يفعله البقُّ بالفيل فإنَّه في عذابٍ من النمل، وإذا ولدت اللَّبؤة يتعرض النمل لأشبالها، فعند الولادة تطلب أرضًا ندِيَّة لدفع النمل، وقالوا: ليس في السِّباع أشدُّ تجرؤًا من الأسد[٢]، لذلك يوصف بالجرأة، والشجاعة، والإقدام، والشِّدة، والشَّرَهِ، والكَرَم، والمَنَعَة[٣]، ونرى أنَّ أوصافه هذه هي من مكارم الأخلاق ومحاسنها التي يسعى العربي إلى الاتصاف بها، لذا استخدمت هذه الصفات في المديح والرفع من قدر الممدوح.

ويحتل الذئب المرتبة الثانية بعد الأسد، فهو حيوانٌ أكبر من الكلب الكبير، من آكلات اللحوم، ومن فصيلة الكلبيَّات، كان مألوفًا، ثم استُؤصِل من معظم المناطق الآهلة بالسكان لخطره الشديد على الأغنام والماشية، وهو حيوانٌ ضارٌّ، مفترسٌ وقاسٍ، ذكيٌّ وصبُور، وشجاعٌ في القتال، يبلغ نضج عمره في السنتين، وهو يعمَّر ست عشرة سنة.

وهو يعيش غالبًا ضمن قطيعٍ يخضع لأقوى الذئاب فيه، وهو حيوانٌ اجتماعيٌّ، يُنشِئ أسرةً صغيرة لا تنفصم عُراها إلا بعد أن تشبَّ صغارها، وتصبح قادرةً على إعالة نفسها بنفسها. وقيل: إنَّه وفيٌّ لأنثاه، فلا يقرب أنثى غيرها، كما أنَّه صيادٌ ماهر، يعمل منفردًا عندما تكون الفريسة من النوع الصَّغير، وقد تهاجم مجموعة ذئاب الفريسة إذا كانت كبيرة الحجم، أما الذِّئاب المريضة والجائعة فإنَّ الجماعة تهتمُّ بها من الفرائس التي تصطادها، وتسير الذئاب بعضها وراء بعض في خطٍّ طويلٍ، وإذا اعترضها حاجز مَّا، فإنَّ الكلَّ يشترك في إزالته.

---

[١] **المرجع السابق، ج١،:٣٣.**

[٢] **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مرجع سابق،:٣١٩.**

[٣] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، ج١،:٣٤.**

ويستطيع الذئب أن يعدو النهار كله دون أن يرتاح، وعندما تتعب الفريسة التي يعدو وراءها، فإنَّ القطيع كله يهاجمها. وهو يفترس الفئران، والأرانب، والطيور، ولكنه يُؤثر الأَيَائِل ويطاردها حيثما وجدها، ويُغير على الماعز والماشية، ويأكل الجيف أحيانًا[1].

والذئب حيوانٌ كثير الخبث، ذو غارات وخصومات، ومكابرة وحِيَل شديدة، وصبر على المطاولة، وقلَّما يُخطئ في وثبته، وعند اجتماع الذئاب لا ينفر أحدٌ منها، إذ لا يأمن أحد على نفسه منها، وإذا نامت واجهت بعضها بعضًا حتى قالوا: ينام بإحدى عينيه، وإذا عجز عن من يقاومه يعوِي حتى يأتيه من يسمع عُوَاءه، وإذا مرض ينفر عن الذئاب، وإذا رأى مع الرجل عصا يفزع منه، ومن رمى إليه الحجر يتركه، ومن رمى إليه النَّشاب لا يتركه، وإذا مرض أكل حشيشة تسمى جعدة يزول مرضه، وإذا دنا من الغنم يعوي، ثم يذهب إلى جهةٍ أخرى، ليذهب الكلب إلى الجهة التي سمع منها العواء، ثم يأتي يسلب الغنم والكلب بعيدٌ عنه، ويأخذ بقفا الشَّاة ويضربها بذَنَبه، حتى تعدو معه، وأكثر ما يأتي وقت طلوع الشمس، لأنَّه يعلم أنَّ الكلب طول الليل يحرس الغنم ولا ينام، وفي ذلك الوقت يغلبه النوم.

وزعموا أنَّ الفرس لا تعدو خلف الذئب وإن ركضها الفارس تعثر، والذئب أشدُّ الحيوانات شمًّا، وإذا رُمي الإنسان وشمَّ منه رائحة الدم لا ينجو منه، وإن كان أشدَّ الناس قلبًا وأتمهم قوةً وسلاحًا[2].

والذئب يُوصف بالظُّلم والعبث (الفساد)، والغَدر والكَسب واللُّؤم، والنشاط والوقاحة واليَقَظة، والحِرص، والحذَر، وسرعة الغدر وخفَّة الحلم، والخيانة، والحِيلة، والعبث والعتوِّ (الاستكبار)، والسرقة، والخبِّ (الغش)، والخبث، وخفة النوم، والعَدْوِ[3].

ومن الحيوانات المفترسة أيضًا الفهد، فهو من أكرم الحيوانات الصائدة وأجلها نفعًا وأحسنها صيدًا، وأحلاها في العين منظرًا وأغلاها ثمنًا وأعزها جانبًا، لذا عُدَّ من جوارح الملوك، وقد أولع الشعراء والملوك بوصف الفهود شعرًا ونثرًا، ومن طريف ما أودع الله في هذا الحيوان أنَّ

---

[1] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،:١٠٧-١٠٨.**

[2] **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مرجع سابق،:٣٢٦.**

[3] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،:١٠٨.**

الفهود الهرمة التي تعجز عن الصيد لأنفسها تجتمع على فهدٍ فتيٍّ فيصيد لها في كل يومٍ ما يشبعها.

وقد عرف صيادو العرب في الفهد خصالًا حميدة، منها أنَّه يكمن للصيد حتى يتمكن منه، وأنه لا يعدو خلف صاحبه وإنما يركب خلفه، وأنه لا يُلجأ في تعليمه إلى الضرب، وإنما يُضرب الكلب بين يديه إذا أكل من طريدته فيتَّعظ هو بذلك، وأنه لا يتناول الخبيث من اللحم وإنما يطلب من اللحم أطيبه، وأنه يثب على طريدته ثلاثًا أو خمسًا فإذا لم يتمكن منها تركها ورجع، وهذه المعرفة الدقيقة بالفهد وخصاله لأكبر دليل على مراقبة العربيِّ له وقربه منه وصيده وتأنيسه له[١].

والفهد حيوانٌ ضخمٌ من آكلات اللحوم، ومن فصيلة السنُّوريات التي تضمُّ أيضًا النَّمر والهرَّ، وغيرهما، يمتاز بسرعة عَدْوِه، فهو أكثر الحيوانات سرعةً في المسافات القصيرة، وقد تبلغ هذه السرعة مائة كلم في الساعة، ممَّا يساعده على مطاردة فرائسه واقتناصها، رأسه صغير، وذيله طويل، وقوائمه طويلة، ولونه يضرب إلى الحُمرة أو إلى الصُّفرة مع بُقعٍ سوداء، وهو "ينام في وضع معلق على فرع شجرة، بينما تتدلى أرجله وذيله[٢]".

يبلغُ الفهد نضجه بين الشَّهر السابع عشر والشهر الرابع والعشرين، وتختار أنثاه زوجها من بين الفهود، ويكون عادةً الأقوى في مجموعته[٣]، وهو حيوانٌ شديد الغضب، ضيِّق الخلق، ذو وثباتٍ بعيدة، ويستأنس بالنَّاس خلاف النَّمر. وقال بعضهم: إنَّ الفهد متولِّد من بين الأسد والنَّمر والله أعلم. وسائر السِّباع تحبُّ رائحة الفهد وتشتهيه، والسِّباع الصِّغار تتبع رائحته، لتأكل من فضلةِ فريسته، والفهد يحبُّ الأصوات الحسنة يصغي إليها إصغاءً شديدًا، وإذا مرض أكل لحم الكلب فيزول مرضه[٤].

ويُقال: إنَّ الفهدة إذا أثقلت بالحمل حنَّ عليها كلُّ ذكَرٍ يراها من الفُهود، فيُواسيها من صيده، فإذا أرادت الولادة هربت إلى موضعٍ قد أعدَّته لذلك، والفهد ثقيل الجثة يحطِّم ظهر

---

[١] **الصيد عند العرب**، مرجع سابق، :١٦١-١٦٣.

[٢] **فصول ومقالات في طبيعة الحيوانات**، مرجع سابق،:٧١٨.

[٣] **موسوعة الحيوان**، مرجع سابق، ج١،:١٦٢.

[٤] **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، مرجع سابق،:٣٣٢.

الحيوان في ركوبه، ومن خلقه الغضب، وذلك أنَّه إذا وثب على فريسة لا يتنفَّس حتى ينالها، فيحمى لذلك وتمتلئُ رئته من الهواء الذي حبسه فإذا أخطأ صيدهُ رجع مغضباً وربما قتل سائسه[١]، كما يتَّصف الفهد بكثرة النوم وقدرته الفائقة على الكسب، وبفساد رائحة فمه[٢].

وإذا انتقلنا إلى الحيوانات الزَّاحفة وجدنا أنَّ الحيَّة من الزواحف التي تكثر في الصحراء، ومنها نوعٌ يعيش في المزارع ويتسلل إلى البيوت، لذلك عرف العرب أنواعها وصفاتها واستخدموها في صنع بعض أدويتهم، وكانوا كثيرًا ما يقرنونها بالسحر والكهانة.

وتتميَّز الحيَّة بجسمها المطُول المحَرْشَف العَدِيم الأطراف، وبعينين مُغطَّاتين بحَرَاشِفَ شفَّافة (بدلًا من جُفونٍ متحركة)، وبِرِئَة واحدةٍ فقط، وهي تتحرك بعضلات الجسم مستعينةً بالحَراشِف الممطُولة الموجودة في البطن، وبأطراف الضلوع، ويرجع ذلك إلى إبداع الخالق وإتقان صنعته، وذلك أنَّ قلوب الثعابين وأجهزتها الدَّموية تتوافق وتتكيف مع الجاذبية الأرضية، ويرجع ذلك إلى أنَّ أوردة الثعابين خلافًا لأوردة الثدييات لا يوجد بها صمامات داخلية تمنع ارتداد وتدفق الدم، وبدلًا من ذلك فإنَّ هذه الثعابين تحقق جريان الدَّم إلى أعلى بثلاثة طرق: بانقباضات العضلات الملساء، وبحركة العضلات الهيكلية التي تضغط على أوردة الثعبان وبالجلد المشدود، فيؤدي هذا إلى التواء الثعبان حول جسمه بحركات دائرية نلاحظها في زحفه إلى فريسته وانقضاضه عليها، أو بالرجوع إلى جحره ومخبئه[٣].

وتتغيَّر درجة حرارة الحيَّة تبعًا لحرارة البيئة التي هي فيها، وهي تُسقط جلدها عدَّة مرَّاتٍ في العام، وتستطيع أن تعيش سنةً كاملةً دون طعام، وهي تأكل الحشرات، والدِّيدان، والطُّيور، والضَّفادع، والأَفَاعي، وغيرها، وهي تقتل ضحاياها إمَّا بابتلاعها، وإمَّا باعتصارها، وإمَّا بلدغها بالسُّمِّ. والأفاعي بعضها بَيُوض، وبعضها الآخر وَلُود، وهي حيوانات غير اجتماعية أي أنَّها لا تعيش في نظام أسري، فعند وضع البيض تتركه ليفقس دون أيِّ رعاية منها، إلاَّ أنَّ بعض الأنواع تحرس البيض حتى يفقس ويخرج منه الصغار، ثم تتركهم ليعيشوا حياتهم دون أيِّ رعاية منها.

---

[١] **حياة الحيوان**، مرجع سابق، جـ٢،:٣٠٦.

[٢] **موسوعة الحيوان**، مرجع سابق، جـ١،:١٦٣.

[٣] **فصول ومقالات في طبيعة الحيوانات**، مرجع سابق،:٦٢٤.

والأَفَاعي الخبيثة السَّامة تتميَّز بأنَّ لها نابين طويلين أجوفين نفَّاثين للسُّم، متَّصلين بعظام الفكِّ الأعلى المتحركة، وهي تعيش ألف سنةٍ، وتبيض في كلِّ سنةٍ ثلاثين بيضةً على عدد أضلاعها، فيجتمع عليها فيفسد غالب بيضها، ولا يصلح منه إلا القليل، وإن لدغتها العقرب ماتت، ومن أنواعها الحريش وشرُّها الأفاعي ومسكنها الرِّمال، وبيض الحيَّات مستطيل، وهو كدر اللَّون وأخضر وأسود وأبيض وأَرقَط وفي بيضه نمشٌ ولمعٌ، وداخله شيءٌ كالصَّديد، وهو في جوفها منضد طولًا على خطٍّ واحدٍ، ولها لسان مشقوقٌ فيظنُّ بعض الناس أنَّ لها لسانين، وتُوصف بالنَّهم والشَّرَه، لأنَّها تبتلع الفراخ من غير مضغٍ، ومن شأنها أنَّها إذا ابتلعت شيئًا له عظم أتت شجرةً أو نحوها فتَلْتَوي عليها التواءً شديدًا حتى ينكسر ذلك في جوفها. ومن عادتها أنَّها إذا نهشت انقلبت فيتوهَّم بعض الناس أنَّها فعلت ذلك لتُفرِغ سمَّها، وليس كذلك. وقد يبلغ بها الجوع مبلغًا فلا تأكل إلا لحم الشيء الحيِّ، وهي إذا كبُرت صغُر جسمها، ولم تشتهِ الطعام.

ومن غريب أمرها أنَّها لا تريد الماء ولا تردُّه، إلا أنَّها لا تضبط نفسها عن الشُّرب إذا شمَّته لما في طبعها من الشَّوق إليه، فهي إذا وجدته شربت منه حتى تسكَر، وربما كان السُّكْر سبب هلاكها. والذَّكر لا يقيم في موضعٍ واحدٍ، وإنَّما تقيم الأنثى على بيضها حتى تخرج فراخها، وتقوى على الكسب، ثم تخرج هي سائرةً، فإن وجدت حجرًا انسابت فيه، وعينها لا تدور في رأسها، بل كأنَّها مسمارٌ مضروب في رأسها، وإذا قُلعت عادت، وكذلك نابُها إذا قُلع عاد بعد ثلاثة أيام، وكذلك ذَنَبها إذا قُطع نبت، ومن عجيب أمرها أنَّها تهرب من الرجل العريان، وتفرح بالنار وتطلبُها، وتتعجب من أمرها، وتحب اللبن حبًّا شديدًا.

وليس شيءٌ في الأرض مثل الحيَّة إلا والحيَّة أقوى منه، وذلك أنها إذا أدخلت صدرها في حجرٍ أو صدْعٍ لم يستطع أقوى النَّاس إخراجها منه، وربما تقطعت ولا تخرج، وليس لها قوائم، ولا أظفار تتشبث بها وإنمَّا قوي ظهرها، وهذه القوَّة لكثرة أضلاعها، فإنَّ لها ثلاثين ضلعًا، وإذا مشت مشت على بطنها، فتتدافع أجزاؤُها وتسعى بذلك الدَّفع الشَّديد[1].

---

[1] المرجع السابق، جـ١،: ٣٨٩-٣٩٠.

والحيَّات أنواع: نوعٌ منها لا ينفع للسعته ترياق ولا غيره، كالثُّعبان والأفعى والحيَّة الهنديَّة، ونوعٌ منها ينفع في لسعته الترياق(١). ومن صفاتها: الظُّلم، والعُري، وقوَّة البَصَر، والشَّرَه، وقوَّة السَّمع، والضَّلال، وطول العُمر(٢).

أما عالم الطيور فإنَّ فيه من الطيور الأليفة التي عرفها الإنسان الشيء الكثير ، فمن أكثرها منفعة: الدَّجاج، الواحد منه الدَّجاجة، والذَّكر والأُنثى فيه سواءٌ. يبلغ إنتاج العالم السنويّ منه نحو ثمانية مليارات دجاجة، وقد عرفه الإنسان ودجَّنَه حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، ومن ثمَّ انتشر في أنحاء العالم، ويختلف حجم الدَّجاجة والدِّيك ووزنهما بحسب النوع، وهي تبيض عددًا غير محدَّد من البيض، وبعض الأنواع يبيض طوال السنة، وتأكل الدَّجاجة والدِّيك الحبوب، والبذور، والدِّيدان، وغيرها(٣).

وأعجب ما في الدجاجة أنَّها إذا تشبَّهت بالدِّيك في الصِّياح والمهارَشة ينبُتُ لها شوكةٌ كشوكة الدِّيك، وربما بَاضت من لعبِها في التُّراب ومن ريح الجنوب من غير رُكوب الدِّيك، لكن لا تفرخ تلك البيضة ويطيب طعمها، وإذا حصل فيها بيض كثير من هذا السبب وركبها الديك صلحت كلُّها، وإذا حَضَنت الدجاجة وسمعت صوت الرعد يفسُد بيضها، كما أنَّها إذا سمنت لا تبيض(٤).

وتُوصف الدجاجة بقلَّة النوم، وسرعة الانتباه، ويُقال إنَّ نومها واستيقاظها إنما هو بمقدار خروج النَّفس ورجوعه، ويُقال إنَّها لا تفعل ذلك من شدة الجُبن، وأكثر ما عندها من الحيلة أنَّها لا تنام على الأرض بل ترتفع على رفٍّ أو على جذع، أو جدار، أو ما قارب ذلك، وإذا غربت الشمس فزعت إلى تلك العادة وبادرت إليها.

والدَّجاج والدِّيك مشترك الطبيعة يأكل اللَّحم والذُّباب وذلك من طباع الجوارح، ويأكل الخبز ويلتقط الحَبَّ وذلك من طباع البهائم والطير(٥)، أما الدِّيك فهو أكثر الطيور شهوةً

---

(١) **الحيوان للجاحظ، مرجع سابق، ج٤،:١٢١.**

(٢) **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، ج١،:٨١.**

(٣) **المرجع السابق، ج٢،:٨٠.**

(٤) **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مرجع سابق،:٣٤٩.**

(٥) **حياة الحيوان، مرجع سابق، ج١،:٤٥٨.**

وعجبًا بنفسه، يبشِّر بطلوع الفجر، ومن العجائب معرفته ساعات الليل، فإنَّ الليل إذا كان خمس عشرة ساعة يقسم أصواته عليها كما كان يقسمها والليل تسع ساعات، وذلك بإلهامٍ من الله تعالى.

والدِّيك يحبُّ الدَّجاج محبةً شديدةً، ويُؤثره على نفسه، وربما يأخذ الحبَّ بمنقاره ويرميه إلى الدَّجاجة ويُهارش[١] عليها، وهذا كله في زمن شبابه وكثرة نشاطه، وأما إذا هَرِم فتكون همَّته مقتصرةً على نفسه، وإذا جاء للدَّجاج عدُوٌّ دفعه الدِّيك عن الدَّجاج، وبالليل يجتمع الدَّجاج في موضع حَرِيزٍ ويقفُ الدِّيك على بابه يحرسها[٢]، وفي طباعه البلادة وذلك أنَّه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلى دار أهله[٣]، ومن صفاته الشجاعة والنَّخوة والغَيرة والسَّخاء والخُيلاء والحسن وصفاء العين[٤].

ويعد الحمام من أهم الطيور، حيث يذكر المؤرخون أنَّ العرب أنشأوا عام ١١٨٠م في بغداد، نظامًا بريديًّا خاصًّا قوامُه الحمام الزَّاجل، وكانت الرسائل تُشدُّ إلى ظهر الحمامة أو تُعلَّق بإحدى قائمتيها بمشْبَك مُعَدٍّ خصيصًا لهذا الغرض، وهذا الحمام يستطيع أن يجتاز بضعة آلاف من الأميال في الرحلة الواحدة[٥]، وهذا يدل دلالة قاطعة على أنَّ العرب عرفوا الحمام، وما يتميز به من صفات فعمدوا إلى تربيته والإفادة منه، ف(الحمام الزَّاجل) حمامٌ يُدرَّب على الطَّيران السَّريع مسافاتٍ بعيدة جدًّا، والعودة من ثمَّ إلى الموطن الذي أُطلق منه. يُستخدم في نقل الرسائل .

والحمام طائرٌ متوسط الجسم، يتميَّز بقائمتيه القصيرتين، وريشه النَّاعم، ورأسه الصغير، وهديله في موسم التَّناسل. أنواعه كثيرةٌ تقارب الثلاثمائة نوع، ويتواجد في مختلف أصقاع العالم باستثناء المناطق القُطبية والأصقاع الباردة، والجُزُر النائية، منها ما هو أهليٌّ، ومنها ما هو بريٌّ، وهو أشدُّ الطيور ذكاءً، فإذا أُرسل من موضعٍ بعيدٍ يصعد نحو الهواء، ويكون صعوده مدورًا، فلا يزال يصعد وينظر حتى يرى شيئًا من علامات بلده فعند ذلك يهبط إليها في أدنى زمان،

---

[١] **يهارش: أي يحارب غيره من الديوك.**

[٢] **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مرجع سابق،:٣٤٨.**

[٣] **حياة الحيوان، مرجع سابق، جـ١،:٤٧٨.**

[٤] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، جـ٢،:٨٤.**

[٥] **المرجع السابق، جـ٢،:٦٣.**

وربما تغيَّمت السماء فيصير الغيم حائلًا بينه وبين الأرض فيقع في بلادٍ شاسعة أو يصيده شيءٌ من الجوارح.

يأكل الحمام الحُبوب، والبُذُور، والثِّمار، والحشرات، والدِّيدان، والحَلاَزين، ويختلف طول الحمامة ووزنها بحسب النوع، والأنثى تضع بيضتين عادةً، وعملية الإِبَاضة تتكرر عادةً طوال السَّنة.

وترى عجبًا بين زوج الحمام من المُلاعبة والغُنج، مثل ما يجري بين النَّاس من القُبلة والمُعانقة وغيرهما، ومن العجب أنَّ الحمام الذَّكر يحس بما أودع رحم الأنثى، فعند ذلك يهتم بعمل العشِّ، فيتَّخذانه على قدر بدنَيهما فإذا جهَّزَا ذلك العش جوَّفَاه، حتى يظهر فيه مقعدٌ تبقى البيضة فيه مصُونةً، فإذا وضعته يتناوبان عليه الحِضْن بعدما سخَّنَا موضعهما وأحدثَا له رائحةً أخرى مستحدثة من طبيعة أبدانهما، ويقلِّبان البيض في أيام الحِضْن وساعاتها، وأكثرها على الأُنثى، فإذا صارت فراخًا فأكثر الرزق على الذكر، وإذا فَقَس الفرخ نفَخَا في حلقه حتى يتسع ممرُّ الغذاء، لعلمهما بأن آلات ممرِّ غذاء الفرخ لا تحتمل الطعام، فيزقَّانه أولاً باللُّعاب المختلط بالطعام، لعلمهما أنَّ حوصلته تحتاج إلى دبغٍ، وهذا يدل على شدة حنوِّهما على فراخهما[١]، والحمام يتَّصف بالأُلفة والأُنس، والحُمق والزَّهو، والهِداية والشَّجْو[٢].

ويتميَّز الحمام بشدَّة حنينه إلى وكره ولو أُرسل إلى ألف فرسخ، وربما اصطِيد وغاب عن وطنه عشر حِججٍ فأكثر فيتمُّ على ثبات عقله وقوَّة حفظه ونُزوعه إلى وطنه، حتى يجد فرصةً فيطير إليه، وقد عرف العرب ذلك وخاصة الشعراء فمثلوا به في شدة حنينهم وشوقهم إلى ديارهم وأهليهم، وسِباع الطير يطلبُه أشدَّ الطَّلب، وخوفه من الشاهين أشدُّ من خوفه من غيره، وهو أطيرُ منه، ومن سائر الطير كله لكنه يذعر منه[٣].

وإذا تناولنا الحشرات وجدنا أنَّ النحلة تحتل المركز الأول من حيث المنفعة، حيث عرفها العرب فاستخدموا عسلها لعلاج بعض أمراضهم، فهي نوعٌ من الحشرات، من فصيلة النَّحليات، ورتبة غشائيَّات الأجنحة، تعيش جماعاتٍ طبق نظامٍ خاصٍّ بها، وتُربَّى في الخلايا

---

[١] **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مرجع سابق،:٣٤٥.**

[٢] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق، ج٢،:٦٨.**

[٣] **حياة الحيوان، مرجع سابق، ج١،:٣٦٥.**

للانتفاع بعسلها وشمعها، وللنَّحل مَلِكَةٌ يأتمرون بأمرها، وهي لا تشاركهم في العمل، فهي تقضي مُعظم وقتها في وضع البيض[١].

ومن خصائص المَلِكَة أنَّه ليس لها حمَّة تلسع بها، والنَّحل يجتمع فيقسم الأعمال، فبعضه يعمل العسل، وبعضه يعمل الشمع، وبعضه يسقي الماء، وبعضُه يبني البيوت، وبيوتُها من أعجب الأشياء لأنَّها مبنيَّةٌ على الشكل المُسدَّس الذي لا ينحرف، كأنَّه استُنبِط بقياسٍ هندسيٍّ، ثمَّ هو في دائرةٍ مسدَّسة، لا يوجد فيها اختلاف، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك لأنَّ الأشكال من الثَّلاث إلى العشر إذا جُمع كلُّ واحدٍ منها إلى أمثاله لم يتصل، وجاء بينها فُروج، إلا الشَّكل المسدَّس، فإنَّه إذا جُمع إلى أمثاله اتصل، كأنَّه قطعةٌ واحدةٌ، وكلُّ هذا بغير مقياس منها ولا آلةٍ بل ذلك من أثر صنع اللَّطيف الخبير وإلهامه إيَّاها، كما قال تعالى: **{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}**[٢] وغذاؤُها من الفضول الحلوة والرُّطوبات التي يرشح بها الزهور والورق، يجمع ذلك كله ويدخره، وهو العسل وأوعيته، ويجمع ذلك مع رطوباتٍ دسمة يتخذ منها بُيوت العسل، وهذه الدسومات هي الشمع.

ومن عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار، واحترازها من النَّجاسات والأقذار أنَّها تقتل من حَمَل شيئًا من النجاسة على باب المنفذ، والنَّحل يهرب بعضُه من بعض، ويُقاتل بعضه بعضاً في الخلايا، ويلسع من دَنَا من الخليَّة، وربما هلك الملسوع، وإذا هَلَك شيءٌ منها داخل الخلايا، أخرجته الأحياء إلى الخارج، ومن طبعه النَّظافة، فلذلك يخرج رجيعه من الخلية، لأنَّه مُنْتِن الرِّيح، ويعمل زماني الربيع والخريف، والذي يعمله في الربيع أجود، والصغير أعمل من الكبير، وهو يشرب من الماء ما كان صافيًا عذبًا، يطلبه حيث كان، ولا يأكُل من العسل إلا على قدر حاجته، وإذا قلَّ العسل في الخلية، قذفه بالماء ليكثُر، خوفاً على نفسه من نفاده، لأنَّه إذا نفَدَ، أفسد النحل بُيوت الملوك وبُيوت الذُّكور، وربما قتلت ما كان منها هناك.

---

[١] **موسوعة مملكة الحيوانات، إعداد: د.حمود الغزلاني، صححها ورتبها وأشرف عليها: محمد عبد الرحيم، ج٥، ط١، (دار الراتب الجامعية، ١٤٢٤هـ)، :٢٧١.**

[٢] **سورة النحل، الآية:٦٨.**

والنحل يسلخ جلده كالحيَّات، وتعجبه الأصوات اللَّذيذة المطربة ويضرُّه السُّوس، ودواؤُه أن يطرح له في كل خليَّةٍ كفُّ ملحٍ، وأن يفتح في كل شهر مرة ويدخِّن، ومن طبعه أنَّه متى طار من الخلية يرعى ثمَّ يعود، فتعُود كل نحلةٍ إلى مكانها ولا تُخطِئه، فسبحان الله الذي علَّمها[1].

ومن الحشرات الجميلة الفراش، وهو أجناس كثيرة ذات أنواع مختلفة، فالفراشة برَّاقة اللون مثلها كمثل الأزهار الجميلة والغريبة، وهي من أجمل المخلوقات، وهي مألوفةٌ للناس لأنَّها تنشط في النهار وتمكث في الليل، وهناك عددٌ كبير من الفراش يبلغ حوالي (٢٠٠,٠٠) نوع[2]، والفراشة تطير وتتهافت في السِّراج لضعف أبصارها، فهي بسبب ذلك تطلب ضوء النهار، فإذا رأت فتيلة السِّراج بالليل ظنَّت أنَّها في بيتٍ مظلم، وأنَّ السراج كُوَّةٌ (نافذة) في البيت المظلم إلى الموضع المضيء، فلا تزال تطلب الضَّوء وترمي بنفسها إلى النار، فإذا جاوزتها ورأت الظلام ظنَّت أنَّها لم تُصب الكوَّة، ولم تقصدها على السَّداد، فتعود إليها مرَّةً بعد مرَّةٍ حتى تحترق[3]، لذلك وُصفت بالجهل والخفَّة معاً[4].

ولعلم العرب ومعرفتهم الدقيقة بالفراش جاء القرآن مهددًا ومتوعدًا بالآخرة وأهوالها، فضرب بالفراش مثالًا على ما يحدث للناس في ذلك اليوم العظيم، مما خلع القلوب المؤمنة الخاشعة من الخوف من ذلك اليوم، نسأل الله أن يعيذنا من عذابه.

وإذا تناولنا الجراد وجدنا أنَّه من الحشرات الضارة للإنسان، إلا أنَّ ضرره لا يكون على الإنسان مباشرة كما في البعوض بل على مئونة الإنسان وأرزاقه، فهو من الحشرات التي تهلك النبات وتقضي عليه، وقد كان العرب يعرفونه في جاهليتهم، يدل على ذلك وصفه لهم في أشعارهم وتمثيلهم به.

وتتَّصف الجرادة بعدم صبرها على البرودة، لذلك تختفي في فصل الشتاء، ولا تظهر إلا في الصيف، كما تتَّصف بقدرتها الشديدة على الطيران. ومن صفاتها أنَّها تطير جماعات فإذا

---

[1] **حياة الحيوان، مرجع سابق، جـ٢،: ٢٨٠.**

[2] **موسوعة مملكة الحيوانات، مرجع سابق، جـ٤،: ٢٧١.**

[3] **حياة الحيوان، مرجع سابق، جـ٢،: ٢٨٠.**

[4] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، جـ١، :٣٣٥.**

رأت النبات تفرقت بسرعة، فيُقال: جرادٌ منتشرٌ، كما تتَّصف بشدَّة صفاء لعابها[١]. والجراد أصناف مختلفة: فبعضه كبير الجثة وبعضه صغير، وهو من الحيوان الذي ينقاد لرئيسه فيجتمع كالعسكر إذا ظَعَن أوله تتابع جميعه ظاعنًا، وإذا نزل أوله نزل جميعه، ولعابه سمٌّ ناقعٌ للنبات، لا يقع على شيء إلا أهلكه[٢].

ويتبع الجراد رتبة الحشرات مستقيمة الأجنحة، ويقع بين أفراد فصيلة الجراد والنَّطاط ذي القرون القصيرة، ويوجد منه عدَّة أنواعٍ أشهرُها: الجراد الصحراويُّ، والجراد المصريُّ، ويمتاز الجراد بأنَّ للفرد منه زوجاً من الأرجل (الخلفية) مُعدَّة للقفز بصورةٍ واضحةٍ، وهي حشراتٌ ذات حجمٍ كبيرٍ، تتكاثر في مجموعات كثيفةٍ، وتُهاجر من مناطق التَّكاثر إلى مناطق أخرى. ولأيِّ نوعٍ من الجراد مظهران واضحان يختلفان تبعاً للاختلافات الشكليَّة والفسيولُوجيَّة هما: المظهر الانفرادي، والمظهر الرَّحال، ولهذين المظهرين تأثيراتٌ مختلفة على أعداد البيض الذي تضعه الإناث حيث يكون أكثر في المظهر الانفرادي، ويكون أقل في المظهر الرَّحال، كما تطُول فترة حياة المظهر الانفرادي عن الرَّحال، وإناث الجراد تضع بيضها في التُّربة الخفيفة الهشَّة التي تتوفر فيها الرطوبة كالوديان، والأراضي الرمليَّة المجاورة للزراعة، وجسور الترع، والمساقي، والأراضي الزراعية، وعندما تتوافر الظروف البيئية وأهمها توفر قدر من الرطوبة في التربة الحاضنة تتم عملية تفريخ وفقس البويضات، حيث يخرج منها أول الأطوار، وهو الطَّور اليرقيُّ.

وأهم ما يميِّز اليرقات في هذا الطَّور لونه الأخضر وعدم تزويده بأجنحة تساعده على الطيران، مما يجعله يعتمد في تنقله على القفز،كذلك يتميز هذا الطَّور بأنَّه انفرادي، أي أنَّه يعيش فرديًّا وليس في جماعات أو أسراب، وهذا الطَّور لا توجد منه خطورة. وقد توجد في بلاد كثيرة دون أن تسبب خسائر حقيقية سواء أكان هذا بسبب قلة عدده أم أسلوب غذائه. ولأسباب غير واضحة ومن خلال لغة معينة هي لغة الهرمونات تبدأ أعداد كبيرة من هذا الطَّور في الانجذاب لبعضها، لتجد نفسها في النهاية مجتمعة بأعدادٍ كبيرة في مكان واحد، واللافت في هذه المرحلة هو بدء ظهور أجنح تتيح للحشرة الطيران لمسافات طويلة، إضافة إلى تحول لونها

---

[١] **مجمع الأمثال**، مصدر سابق،ج٢، :٢٤٩.

[٢] **حياة الحيوان**، مرجع سابق، ج١،:٢٦٨-٢٦٩.

إلى اللون الأصفر، ومن ذلك الحين يبدأ الجراد في عمل أسراب قد تصل إلى أكثر من مائة كيلو متر مربع، وهي التي تأتي على كل ما هو أخضر قد يقابلها في أثناء هجرتها وترحالها.

بهذا الشكل يتحول الطور الناضج التجمعي إلى الطور الأخير، وهو الطور المهاجر الذي يعود إلى موطنه الأصلي بعد عملية وضع البيض لبدء دورة تكاثرية جديدة، وتضع الأنثى طوال حياتها ما يقرب من ثلاث كُتلٍ من البيض، وللجراد الصحراويِّ عدة أجيال يصل إلى ٢-٥ تقريبًا كل سنتين[١].

أما الذُّباب فهو من الحشرات المؤذية المعروفة، وهو أصنافٌ كثيرة، منها ما يُصيب النباتات، كذُباب الفاكهة، ومنها ما يُصيب الحيوان، ومنها ما يُصيب الجيف والعفونات، وينجم عنه أضرارٌ كثيرة، ومنها الذُّباب المنزلي الذي يُخالط النَّاس[٢].

قال الجاحظ: "الذُّباب عند العرب يقع على الزَّنَابِير والنَّحل والبعُوض بأنواعه، كالبقِّ والبراغيث والقَمل والنَّاموس والفَراش والنَّمل، ولا يخفى أنَّ هذا إطلاق عام على جميع الحشرات تقريباً، والحق أنَّ كلاً من هذه الحشرات يختلف عن الآخر من حيث التَّسمية والعادات والوضع التَّصنيفي[٣]".

وسمي ذبابًا لكثرة حركته واضطرابه، وقيل لأنَّه كلما ذُبَّ، آبَ، والذُّباب أجهل الخلق لأنَّه يُلقي نفسه في الهَلَكة، ولم يُخلق للذباب أجفانٌ لصغر حدقتها، ومن شأن الأجفان أن تصقل مرآة الحدقة من الغبار، فجعل الله لها عوضًا عن الأجفان يدين تصقل بهما مرآة حدقتها، فلهذا ترى الذباب أبدًا يمسح بيديه عينيه، وهو أصنافٌ كثيرةٌ متولِّدة العفونة، ومن عجيب أمره أنَّه يُلقي رجيعه على الأبيض أسود، وعلى الأسود أبيض، ولا يقع على شجرة اليقطين، لذلك أنبتها الله على نبيه يونس عليه السلام. وهو من الحيوانات الشمسية لأنَّه يختفي شتاءً ويظهر صيفًا[٤].

---

[١] **الحشرات في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية والعلم الحديث، عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، ط١، (مكتبة الدار العربية للكتاب)،:١٦١-١٦٣.**

[٢] **المرجع السابق،:١٦٤.**

[٣] **الحيوان، مصدر سابق، ج٣،:٣٩٢.**

[٤] **حياة الحيوان، مرجع سابق، ج١،:٤٨٨-٤٩٠.**

ويتَّصف الذُّباب بالطَّيش والتَّطفُّل، والإلحاحِ على الشَّيء[١]، وهو ينتشر في الحواضر والبوادي، لذا عرف العرب صفاته على اختلاف بيئاتهم، وأكثروا من التمثيل بصفاته وخصائصه في مواطن الهجاء والسخرية.

ويحتل البعوض المكانة العالية من حيث الأضرار التي يسببها، فقد عرفه العرب في حواضرهم وبواديهم، ولا أدل على ذلك من قصة النمرود بن كنعان الذي قضت عليه بعوضة بأمر الله[٢]، وقد أطلقوا عليه أسماء مختلفة، وذكروا في أشعارهم ألمهم ومعاناتهم وما يسببه لهم من أمراض أقضَّت مضاجعهم.

فالبعوض حشراتٌ متطفِّلة، تنشط في الظلام، وتتغذَّى إناثها على دماء الإنسان والحيوانات الفقارية الأخرى كالطيور والثدييات، ومن ثمَّ فهي تنقُل لها الكثير من الأمراض، مثل: الملاريا، وملاريا القردة والقَوارِض، والدِّيدان الخيطيَّة، وملاريا الطيور. وتجدر الإشارة إلى أنَّ ذكور البعوض يتغذى على العُصارات النباتية والأَرحقة[٣].

وخُرطوم البعوض مجوَّفٌ نافذٌ للجوف، فإذا طعن به جسد الإنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه، فهو له كالبلعوم والحلقوم، ولذلك اشتد عضُّها وقويت على خرق الجُلود الغِلاظ، ومما ألهمه الله تعالى أنَّه إذا جلس على عضوٍ من أعضاء الإنسان، لا يزال يتوخَّى بخرطومه المسام التي يخرج منها العرق، لأنها أرقُّ بشرةً من جلدة الإنسان، فإذا وجدها وضع خرطومه فيها، وفيه من الشَّرَهِ أن يمصَّ الدم إلى أن ينشق أو يموت، أو إلى أن يعجز عن الطيران، فيكون ذلك سبب هلاكه، ومن عجيب أمره أنَّه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع، فيبقى طريحًا في الصحراء، فتجتمع السِّباع حوله والطير التي تأكل الجيف فمَنْ أكل منها شيئًا مات لوقته[٤].

---

[١] **مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج١، :٤٥٨.**

[٢] **الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي، شمس الدين القرطبي،تحقيق: هشام سمير البخاري، ج٣، (دار الحديث)،:٢٨٣.**

[٣] **الحشرات في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية والعلم الحديث، مرجع سابق،:١٤٩.**

[٤] **حياة الحيوان، مرجع سابق، ج١،:١٨٤-١٨٥.**

من المبحث السابق نستنتج أنَّ الحيوان رافق الإنسان منذ أن خطى خطواته الأولى على الأرض، فكان مستودع أسراره وشريكه في أيام ضيقه وضره، وساعات فرحه وسروره، ومن يتعزى به عند المصائب، ويسلو به عند همومه.

وقد تعلَّق به تعلقًا شديدًا مكَّنه من مراقبته في حركته وسكونه، وعرف كلَّ عضوٍ من أعضائه، وكل صفةٍ من صفاته، فتعاطف معه وأشفق على الأليف منه وحذِرَ الوحشيَّ، وكان نتاج ذلك أن أضفى على نفسه كثيرًا من صفاته وخصائصه، كالكرم والشجاعة، والأَنَفة والإباء، والسَّماحة والشرف والحريَّة، والحنين والشَّوق، والذَّكاء والصَّبر، والمراوغة والمكر والدَّهاء والخديعة، والقُبح وغيرها، فقد آمن بهذه الصفات والخصائص في الحيوان قبل أن يؤمن بها في الإنسان، فاشتقَّ منه صفاتٍ وخصائص أسبغها عليه، فكان من ذلك أن امتلأت كتب اللغة والأمثال وأفواه الشعراء ودواوينهم بالحيوان وصفاته وخصائصه، وربما يضيع جزء من اللغة إن نحن أهملنا ما يتعلق بالحيوان من ألفاظٍ وعباراتٍ وأمثلةٍ وقصصٍ وصورٍ وأخيلةٍ كانت من نتاج معرفة الإنسان بالحيوان وقربه منه.

الفَصْلُ الثَّانِي

التَّشْبِيهُ بِالحَيَوانِ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، خصَائِصُهُ وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة

- المبحث الأول: التَّشْبِيهُ بِالدَّوَابِّ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، خصَائِصُهُ وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة
- المبحث الثاني: التَّشْبِيهُ بِالزَّوَاحِفِ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، خصَائِصُهُ وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة
- المبحث الثالث: التَّشْبِيهُ بِالطَّيْرِ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، خصَائِصُهُ وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة
- المبحث الرابع: التَّشْبِيهُ بِالحَشَرَاتِ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، خصَائِصُهُ وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة
- المبحث الخامس: المَوْضُوعَاتُ والعَنَاصِرُ المُشْتَرَكَةُ بَيْنَ التَّشْبِيهِ بِالحَيَوانِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، والحَدِيثِ النَّبويِّ

المبحث الأول

التَّشْبِيهُ بِالدَّوَابِّ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، خصَائِصُهُ وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة

إنَّ اختيار الرسول ﷺ لأيِّ حيوان يختلف باختلاف صفات كلٍ منها، ومن خلال هذه الصفات والخصائص في أي حيوان يتخذ الرسول ﷺ للصورة التشبيهية أشكالها وألوانها البلاغية المختلفة والمتميزة التي يستطيع عبرها تصوير الحقائق الفكرية المجردة، وتحديد معالم المعاني المبهمة التي لا يستطيع العقل إدراكها وتصورها إلا بعد تأمُّلٍ لتلك التشبيهات، وفهم ما تتضمنه من مجالات، وما يدور في فلكها من القضايا.

- ولعل الإبل هي أكثر تلك الحيوانات التي اعتمد عليها ﷺ في تشبيهاته، مجسِّمًا من خلالها كثيرًا من المعاني المجردة والحقائق الغامضة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه[١] **{أنَّ أعرابيًا أتى رسول الله ﷺ فقال: إنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ حُمْرٌ. قَالَ: فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قَالَ: فَأَنَّى تَرَى ذَلِكَ جَاءَهَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عِرْقٌ نَزَعَهَا. قَالَ: وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ. ولم يُرخِّص له في الانتفاء منه}**[٢].

فقد جاء رجل أعرابي إلى الرسول ﷺ شاكيًا متذمرًا يبحث عند رسول الله ﷺ عن حل لمشكلته، وتلك المشكلة ليست بالمشكلة الهيِّنة، إنَّها تتعلق بالشرف والنسب، فما إن أصبح بين يدي الرسول ﷺ حتى بدأ في سرد مشكلته فقال: "**إنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ**" لقد حدد للرسول ﷺ لبَّ المشكلة وهي قوله : "**إنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ**" فالمشكلة تكمن في لون هذا الصبيّ وهو اللون الأسود، وذلك يعني أنَّ الأعرابي ليس بأسودَ، لذلك هو يرفُضُ هذا اللَّون ويستغربُه وينكرُهُ، وبعد تحديدِهِ للمشكلة بيَّن للرسول ﷺ موقفَه من هذا الغلام بقوله "**وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ**". ويبدو أنَّ الأعرابيَّ كان شديد الرَّفض لهذا الغُلام بدليل استخدام (إنَّ) في بداية حديثه مع الرسول ﷺ، وتكراره لـ(إنَّ) مرة أخرى في قوله:"**وإنِّي**"،ليؤكد لرسول الله شدَّة استيائه من هذا الغلام ، فـ"**إنَّ**" في حديثه صوَّرت نفسيَّته الغاضبة المنكرة، ونشعر بذلك في تكرارها ونبرتها العالية.

فماذا كان منه ﷺ أمام هذا الموقف الـمُتشدِّد من الأعرابي؟ إنَّها مسألةُ نسبٍ وهي من الأمور العظيمة المُهمَّة عند العرب، وليس هذا الأعرابيُّ فحسب، والصحابة حاضِرُون يسمعُون حديث الأعرابي، فما كان منه ﷺ إلا أن استخدم أسلوبًا رائعًا خفَّف فيه من حدَّة انفعال الأعرابيِّ حين بدأ بسؤال الأعرابي بقوله: "**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**" بهدوءٍ تامٍّ خاطب فيه ﷺ هذا الأعرابي دُون الحاجة إلى أن يدخُل معه في نِقاشٍ قد لا يؤدِّي إلى النتيجة التي يرضاها عليه الصلاة والسلام.

---

[١] **عمرو بن عامر الدَّوسي، أبو هريرة، الصحابي الجليل، أحفظ الصحابة، مات سنة سبع، وقيل ثمان أو تسع وهو ابن ثمان وسبعين سنة. (الإصابة ، ج١٣،:٢٩.)**

[٢] **صحيح البخاري، مصدر سابق، ج٦،:١٧٨، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد.**

إنَّ أسلوب الرسول ﷺ الاستفهامي[1] فيه لفتٌ لانتباه المُخاطب إلى المَضمُون المُباشِرِ لكلامه وفيه تحريكٌ لعقله و تهدِئَةٌ لنفسه المُنفَعِلة، حتى يستطيع أن يُتِيح لعقله التَّفكير فيما سيقوله عليه الصلاة والسلام، فما إن هدأ حتى أجاب على سؤال الرسول ﷺ بقوله :"**نعم**". فسأله عليه الصلاة والسلام سؤالًا آخر بقوله :"**فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ حُمْرٌ. قَالَ: فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا**" والأَوْرَقُ هو "الذي في لونِهِ بياضٌ إلى السَّوادِ، أو سوادٌ فيهِ غُبرةٌ"[2]، لقد كان هدف الرسول ﷺ الأول من هذا الحوار مع هذا الأعرابي هو تهدئة نفسه الثائرة الغاضبة حتى يتمكَّن من إقناعه بالقضية التي يراها عليه الصلاة والسلام.

والهدف الثاني من الحوار هو السُّؤال عن لون الإبِلِ تمهيدًا لعقل الأعرابيِّ لتقبُّل الحُكم الذي يراه ﷺ، وبعد ذلك يطرح عليه ﷺ سؤاله الثَّالث بقوله : "**فَأَنَّى تَرَى ذَلِكَ جَاءَهَا؟**" ونُلاحظ أنَّ رسول الله ﷺ استخدم في استفهامه (أنَّى) أي : (كيف) أو (من أين)[3] أتاها اللون الذي خالفها، هل هو بسبب فَحْلٍ غيَّر من لونِهَا؟ أو طَرَأَ عليها أمرٌ آخرَ؟ بهذا السؤال وهذا الاستفهام أراد ﷺ أن يقرِّب به الحقيقة لهذا الأعرابي، فردَّ عليه الأعرابيُّ بقوله :"**يَا رَسُولَ اللهِ عِرْقٌ نَزَعَهَا**"، وتقديمه للفظة "عرق" في قوله "**عرقٌ نزعها**" إذ لم يقل "نزعها عرق" فيه دلالة على خبرة هذا الأعرابي بأصول الإبل وصفاتها وتوارثها لهذه الصفات وعلمه بأنَّ العرق قد ينزع آخر، فهذه الإجابة "**عرقٌ نزعها**" هي بمثابة الحكم العقلي المقنع، فبعد أن تهَّيأ هذا الأعرابي عقليًّا ونفسيًّا أخبره رسول الله ﷺ بأصل ما حدث لهذا الغلام بقوله "**وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ**" وقصد عليه الصلاة والسلام بالعِرقِ: "الأَصلُ الذي يُرجَعُ إليه"[4] أي أنَّه جَذَبهِ عرقٌ من أصول أجداده السَّابقين، فهذه الاستفهامات المتتالية وما أعقبها من صورة تشبيهية أعطت للأعرابي فرصة للمشاركة والوصول للحل بنفسه، فلو أنَّ الرسول ﷺ أعطاه الإجابة مباشرة بقوله مثلًا: "**لقد نزعه عرق**"، لظل الشك مستقرًا في نفس الرجل، أو لربما أحس بزواله المؤقت أمام الرسول ﷺ، ولكنه بعد زمن سيعاوده مرة أخرى، ولكن طريقة المصطفى ﷺ اجتثت كل

---

[1] **الاستفهام:طلب حصول صورة الشيء في الذهن، (انظر:حاشية الدسوقي، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ج١،(دار الكتب العلمية،١٤٢٣هـ)، ج٢،:٤١٢.)**

[2] **لسان العرب، مصدر سابق، ج١٠، (باب القاف، فصل الواو)،:٣٧٦.**

[3] **عروس الأفراح، مرجع سابق، ج١،:٥٣٨.**

[4] **لسان العرب، مصدر سابق، باب القاف، فصل العين،:٢٤٢.**

شك، هذه الصورة قربت للأعرابي المعنى الذي قصده عليه الصلاة والسلام بالقياس على ما يعرفه هذا الأعرابيُّ من الإبل وهو الخبير بأحوالها.

فمن أسرار التشبيه تمثيله للمعاني بصورة مشاهدة تصل إلى الأذهان في صفاء ووضوح، بالإضافة إلى ما تميَّز به هذا الأسلوب التَّشبيهي من قدرةٍ على استدراج المخاطب نحو وضع الحل بنفسه ومُساعدته على الخلاص من تردُّده وشكِّه ليأتي حكم رسول الله ﷺ مُقنعًا له تمَامَ الإقناعِ حين قال عليه الصلاة والسلام: "**وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ**"، فـ"لعل" في قوله عليه الصلاة والسلام توضح أنَّ نزع العرق قد لا يظهر متسلسلًا في جميع الأجيال، بل قد يظهر في فرد من أفراد الجيل دون سائر الجيل.

"إنَّ حديث رسول الله ﷺ: "**وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ**" يعد قاعدة في علم الوراثة لم يسبق إليها أحدٌ، لأنَّ العرق هنا يُقصد به الأصل من النَّسب كون الجنين يكتسب صفاته ميراثًا عن أبويه الذين يتقاسمان إعطاءه تلك الصفات بنسبٍ مُتبايِنَةٍ حقيقيَّةٍ مُشاهدَةٍ، إلا أنَّ امتداد هذا الميراث إلى أصوله القديمة لم يُعرف إلا بعد فهم آليَّة هذا التوارث في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٦٥م-١٨٦٩م)، حين تمكَّن النِّمْساوي (مندل mendel) من وضع تصوُّر مبدئي لقانون الوراثة من خلال عددٍ من الملاحظات والتَّجارب التي أجراها على نبات (البَسَلَة) استخلص منها أنَّ عملية انتقال الصِّفات من جيلٍ إلى آخر تتمُّ عبر عددٍ من العوامل المُتناهية في الصِّغر عُرفت فيما بعد باسم : حاملات الوراثة أو الموروثات أو الجينات (Genes).

فكلُّ ما في الفرد من سماتٍ ومُيولٍ وذوقٍ ومزاجٍ ولونٍ وطولٍ وقامةٍ وزمر الدَّم، وغير ذلك من ضوابط موروثة عن سلسلة أجداده من ناحيتي الأب والأم -بعض هذه الصفات مُستَتر في جيلٍ من الأجيال، ومن هنا تتَّضح روعةُ التَّعبيرِ النَّبوي الشَّريف "**وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ**"[(١)].

لقد وقع اختيار الرسول ﷺ في هذا التشبيه على "الإبل" وهي من الحيوانات المألوفة المعروفة لتكون المشبه به للمشبه وهو الغلام الأسود في الصورة التشبيهية التي عقدها عليه الصلاة والسلام لهذا الأعرابي.

---

(١) **الإعجاز العلمي في السنة النبوية،زغلول النجار، جـ٢،ط٧،(نهضة مصر للنشر والتوزيع،٢٠٠٦م)،:٨٠-٨١.**

فكانت هذه الصورة رغم قرب طرفي التشبيه غاية في الوضوح والتلاؤم والانسجام والإقناع التام، وهذا على عكس ما ذكره البلاغيون من أنَّ الشعراء والأدباء قد "كدُّوا في إبراز العلاقات الكامنة بين الأشياء المتباعدة، وكأنَّ ذلك كان ميدان سباقهم، ومراد خيالهم ومحراب تأملاتهم"[١].

"ويقرر البلاغيون أنَّ هذا الأصل أصلٌ في النفس والفطرة، فالأشباه والنظائر حين تنكشف بين الأشياء المتباعدة أو المتناقضة تبعث الارتياح والشعور بالألفة"[٢]، يقول عبد القاهر: "وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب"[٣]، هذا ما ذكره البلاغيون عن التباعد بين طرفي التشبيه، إلا أنَّ تشبيهاته ﷺ لا تدخل تحت مظلة هذه القاعدة عند البلاغيين، وذلك أنَّه الوحيد عليه الصلاة والسلام من اختصت تشبيهاته بهذا الوضوح والانسجام التام المبدع المقنع رغم قرب طرفي التشبيه، وهذا يعد من خصائص تشبيهاته عليه الصلاة والسلام حيث استطاع في هذا الحديث أن يجمع بين طرفي التشبيه المتقاربين فظلت الصورة تحمل الإثارة والإعجاب والإبداع في آنٍ واحد.

- ويتناول عليه الصلاة والسلام "الإبل" في جانب تعبُّديٍّ يبين من خلاله شدة تفلُّت القرآن بصورة حركية مألوفة من هذا الحيوان كثيرًا ما شاهدها الصحابة ﷺ في حياتهم اليومية، فعن أبي موسى[٤] عن النبي ﷺ قال: **{تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَوَ الذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا}**[٥].

فالقرآن الكريم قانون شريعتنا الإسلامية، وقاموس لغتنا العربية، وقدوتنا وإمامنا في حياتنا، به نهتدي وإليه نحتكم وبأوامره ونواهيه نقتدي، وعند حدوده نقف، سعادتنا في سلوك سننه واتباع مناهجه، وشقوتنا في البعد عن تعاليمه وعن شرعته[١]، ولأنَّه الإمام الذي نقتدي به في

---

[١] **التصوير البياني، محمد محمد أبو موسى، ط٦،(القاهرة: مكتبة وهبة،١٤٢٧هـ)،:١٢٢.**

[٢] **المرجع السابق،:١٣٠.**

[٣] **أسرار البلاغة، مصدر سابق،:٩٨.**

[٤] **سبقت ترجمته،:٣٢.**

[٥] **صحيح البخاري، مصدر سابق، جـ٦،:١١٠، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده.**

[١] **الأدب النبوي، محمد عبد العزيز الخولي، ط٤،(بيروت–لبنان: دار المعرفة،١٤٢٣هـ)،:٢٥٤.**

حياتنا فقد أمرنا عليه الصلاة والسلام بأن نتعاهده بملازمته وتلاوته[٢]، فالنبي ﷺ يستهل حديثه بالأمر الصريح[٣] في جملة موجزة مركزة، وقد جاء الأمر هنا في صيغة الفعل (**تعاهدوا**)، وليس يخفي أنَّ الخطاب هنا للجمع، ولكنه ليس لجمع بعينه، فهو خطاب للمسلمين أينما كانوا ومتى كانوا. وعندما نتأمل هذه الصيغة نجد الفعل مزيدًا بالتاء والألف، وهذه الصيغة تدل على التفاعل، لأنَّ الفعل في هذه الصيغة غالبًا يقع من طرفين، ما يعطي الفعل دلالة التفاعل والتجاوب، وبذلك تتضح إحدى لطائف البلاغة النبوية التي تبين أنَّ القرآن فاعل في هذه المعاهدة فإذا كان ظاهر المعنى ينصرف إلى مطلق الأمر للمسلم، فإنَّ الدلالة الكامنة وراء المعنى تكشف عن أنَّ القرآن فاعل في هذه العلاقة، ليتضح لنا أنَّ القرآن يهجر من يهجره ويحفظ من يحافظ عليه[٤].

ولعل اختيار الرسول ﷺ لكلمة القرآن دون غيرها من المسميات مثل "الفرقان" أو "كتاب الله" يدل على أنَّ الرسول ﷺ عندما اختار هذا الاسم يريد أن يُذكرنا بأنَّ هذا الكتاب إنَّما أُنزل ليُقرأ ويرتل آناء الليل وأطراف النهار، لتظل أحكامه وشرائعه ماثلة أمامنا في كل حين، فأصل: "قرأ، يقرأ قراءة وقرآنًا، والاقتراء (افتعال) من القراءة، وقد سمي القرآن لأنَّه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض"[٥] لذا عمد عليه الصلاة والسلام إلى اختيار هذا المسمى لكتاب الله دون غيره.

ثم بعد هذا الأمر من الرسول ﷺ (**تعاهدوا القرآن**) يقسم عليه السلام بقسم يحتوي على عدة مؤكدات ليثبت صحة ما يخبر به أمته، وهذا التأكيد يحوي أسلوبًا خبريًّا[٦] يثري دلالة الأمر الذي استهل به الحديث في بدايته، فيأتي بمثابة التأكيد له، وقد جاء التأكيد هنا بأكثر من وسيلة، إذ استهله النبي ﷺ بهذا القسم المعهود منه "**فو الذي نفسي بيده**" فعلى

---

[٢] **فتح الباري، شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني،ج٩، (المكتبة السلفية)،:٧٩.**

[٣] **الأمر: طلب الفعل على جهة الاستعلاء مع الإلزام.(انظر: معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، ط٤،(جدة: دار المنارة، ١٤١٨هـ)،:٥٠).**

[٤] **السياق وتوجيه دلالة النَّص، عيد بلبع،ط١،(بلنسية للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ)،:٦٣٠-٦٣١.**

[٥] **لسان العرب، مصدر سابق، ج١،(باب الهمزة، فصل القاف)،:١٢٩.**

[٦] **الإسناد الخبري: ضم كلمة إلى أخرى على وجه يفيد بأن مفهوم إحداهما ثابت أو منفي عن مفهوم الأخرى. (انظر:المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم،عبد الفتاح لاشين،ط٤،(القاهرة:دار الفكر العربي،١٤٢٤هـ)، :٨٨).**

الرغم من أنَّ هذه الصيغة للقسم كانت لازمة لقسمه ﷺ في كثير من الأحيان، فإنَّها تتضمن بلاغيات مضاعفة التأكيد بالقسم، فتعريف المقسم به بالاسم الموصول (الذي)، وجملة الصلة التي تلته تحمل دلالة الحضور بفعل القدرة المطلقة للذَّات المُقسَم بها في ذهن المُقسِم ﷺ، في مقابل التسليم وانتفاء القدرة عن ذات المُقسِم، فتتضاعف بذلك دلالة التأكيد بهذا القسم الخاص، إضافة إلى التأكيد باللام الداخلة على الضمير العائد على القرآن الكريم، ثم يضيف إلى ذلك دلالة التفضيل "**أشدُّ تفصِّيًا**" التي لا تنفصل عن التأكيد أيضًا بدلالة كلمة "**أشد**" في ذاتها، وبذلك تجتمع هذه الوسائل اللغوية، وتنتظم في بنية الأسلوب الخبري الذي يبلغ مبلغه في التحذير من التهاون في شأن القرآن[١].

وكلمة (أشد) التي تحمل التفضيل تدل هنا على علوِّ المشبه على المشبه به في الصفة المقصودة وهي الحركة، إيغالًا شديدًا بالترهيب من النسيان منطلقًا من تجاوز الحسية المعهودة في الإبل[٢]، ثم تقترن كلمة (أشد) بالفعل (تفصيًا) التي تعني (تفلتًا) وأصل "التَّفصِّي" أن يكون الشيء في مضيق ثم يخرج إلى غيره"[٣]، فالإبل مادامت مشدودة في العقال فهي في ضيق إلى أن تُحلَّ منه، فالمعروف عن الجمل أنَّه إذا أُفرد عن قطيعه كان همه الأول الالتحاق بهذا القطيع والتخلص من وثاقه، وهي صفة ثابتة فيه[٤]، فكلمة (تفصِّيًا) تنقل التشبيه من السكون إلى الحركة الحيَّة حين يقرنه ﷺ بالإبل التي يخشى هروبها إذا لم يحكم وثاقها، فحرف الجر (في) يصور شدة التحكم، وأنَّ الإبل داخل هذه العُقل تحيط بها ما يصور شدة التحكم.

هذه الصورة التشبيهية التي ضربها الرسول ﷺ لأصحابه تعد تأكيدًا آخر منه ﷺ على صدق قوله، فقد شبه قراءة القرآن والمداومة على تلاوته بربط البعير الذي يخشى منه الهروب، فما دام التعاهد موجودًا فالحفظ موجود، كما أنَّ البعير ما دام مشدودًا بالعقال – وهو الحبل الذي يشد به ركبة البعير[٥] – فهو محفوظ، وخص عليه الصلاة والسلام الإبل لأنَّها أشد

[١] **السياق وتوجيه دلالة النص، مرجع سابق،: ٦٣١**

[٢] **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،: ٣٥١.**

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق، ج١٥،(باب الياء،فصل الفاء)،: ١٥٦.**

[٤] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،: ١٠١.**

[٥] **مختار الصحاح، مصدر سابق، باب العين، مادة (ع ق ل)،: ٤٤٧.**

الحيوان الإنسي نفورًا، وفي تحصيلها بعد استكمال نفورها صعوبة"[١]، وفي التعاهد استمرار ومداومة على القراءة، وفي تكرار القراءة والمداومة عليها يجعل المقروء مع الزمن ثابتاً في القلب و النفس، وهذا الأمر مُشاهد ملموس للعربي، فالتشبيه[٢] مقتبس من البيئة العربية يراه ويشاهده ويعايشه كل من يعيش في هذه البيئة، فيتأكد عنده المقصود من التشبيه الوارد في الحديث[٣].

كما أنَّ بين طرفي التشبيه المشبه (القرآن الكريم) والمشبه به (الإبل) علاقة تُقرب الصورة للنفوس، حيث إنَّ الإبل تنقاد مع الضعيف والقوي، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، مع شدة قوتها وعظم خلقها، والقرآن مع علو قدره، وجلال أمره، وعجز الخلق عن الإتيان بمثله ميسَّرٌ منقاد للضعيف والقوي، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، ومن ذلك أيضا أنَّ الإبل تحمل الأثقال، والقرآن يحمل أثقال المذنبين، فبكل حرف منه عشر حسنات، كل حسنة تكفر سيئة[٤]، بالإضافة إلى أنَّ الإبل تعتبر أنفع الحيوانات للإنسان على الإطلاق، حيث يستفاد من حليبها وبولها ولحمها وجلودها وروثها، بل إنَّ العلم الحديث من عهده ﷺ إلى يومنا هذا ما زال يكتشف منافع عديدة للإنسان مستقاة من هذا الحيوان، وصدق الله تعالى في قوله: **{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}**[٥]"[٦].

والإبل من أنفس أموال العربي وأعزه، كذلك القرآن فهو أنفع الكتب السماوية للبشر حيث بنزوله نسخت الكتب السماوية جميعها وكل ما حوى القرآن نافع لبني البشر، حيث فيه التشريع الكامل لحياتهم الدنيا.

---

[١] فتح الباري، مصدر سابق، :٧٩.

[٢] التشبيه: الدلالة على مشاركة أمرٍ لأمرٍ في المعنى. (انظر:التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، شرحه: عبد الرحمن البرقوقي، ط١،(بيروت–لبنان: دار الكتاب العربي،١٩٠٤م)،:٢٣٨).

[٣] أثر التشبيه في تصوير المعنى، عبد الباري طه سعيد، ط١، ١٤١٢هـ،:١٠٩.

[٤] أقيسة النبي، الناصح الحنبلي، تحقيق: أحمد حسن جابر،علي أحمد الخطيب، (مصر:مطبعة السعادة، ١٣٩٣هـ)،:١٦٨.

[٥] سورة الغاشية، الآية:١٧.

[٦] الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية،أحمد مصطفى متولي،ط١،(دار ابن الجوزي)،:٣١٧–٣١٨.

والمقصود من الحديث ضرورة تعاهد القرآن الكريم بالمذاكرة، حتى لا يذهب من الحفظ، إذ يضبط القرآن الكريم حركة المؤمن في الحياة ويمنعه من الاضطراب بشتى أنواعه النفسية والجسمانية، فهو يكبح التسلط الحيواني في الإنسان المُتجلي في الرغائب المتعددة والملذات، كما توحي به الحبال التي يشد بها البعير هنا كما في الصورة، كما قال عزَّ وجلَّ: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ}**[١] فهذه الإبل لها إرادتها المخالفة لإرادة الإنسان، حتى إنَّ إرادتها تقهر إرادته أحيانًا[٢].

فهذه الصورة الحية نابضة بالتفاعل بين القرآن وصاحبه سلبًا وإيجابًا، ليتأكد للمسلم أنَّ محافظته على القرآن الكريم والمداومة على تلاوته ومراجعته يقابلها إقبال من القرآن الكريم والتصاق، أما هجره والتخلي عنه فيقابله تخل وتفلت وهجر من القرآن الكريم.

- وتحمل "الإبل" الخصال والصفات الحميدة فتتناسب هذه الصفات مع صفات يريد عليه الصلاة والسلام أن يجسدها لأصحابه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[٣] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **{إِنَّمَا النَّاسُ كَإِبِلِ المِائَةِ لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً}**[٤].

فبدأ رسول الله ﷺ حديثه بـ(إنَّما) التي قصد منها عليه الصلاة والسلام إيقاظ الإحساس والانتباه والتشويق لما سيلقيه على أصحابه من حديث، وهذا الحديث أو التشبيه مألوف ومستأنس لا يجهله الصحابة، فجميعهم يعرفون الإبل وأنواعها وأجودها، فكانت بلاغته ﷺ تقتضي أن يستخدم (إنَّما) في بداية تشبيهه، التي "تجيء لخبر لا يجهله المخاطب"[٥]، فالصحابة جميعهم يعرف الراحلة من بين الإبل، فيقول: "**إنَّما الناس**" وذكره عليه الصلاة والسلام لـ(الناس) ليوضح وينبه على أنَّه ليس فئة معينة أي في كل البشر دون تحديد، يدل على ذلك دخول (أل) على لفظة (الناس)، أي جميع الناس، ثم يضرب الرسول ﷺ بالتشبيه فيقول:

---

[١] **سورة آل عمران، الآية:١٠٣.**

[٢] **الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق، :٣١٥.**

[٣] **سبقت ترجمته،:٢٩.**

[٤] **صحيح البخاري، مصدر سابق، جـ٧،:١٨٩، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة.**

[٥] **دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني، شرحه وعلق عليه ووضع فهارسه:محمد التنجي،ط٣،(بيروت–لبنان: دار الكتاب العربي،١٤٢٠هـ)،:٢٦٧–١٧١.**

"**كإبل مائة**"وهي "الجماعة من الإبل الكرام"[٦]، وقد حدد ﷺ عدد الإبل بـ(المائة)، وذكره للعدد هنا الغرض منه تصوير كثرة الإبل، بعد هذا يردف الرسول ﷺ بقوله: "**لا تكاد تجد فيها راحلة**" فالراحلة: "الإبل التي يختارها الرجل لمركبه لنجابتها وتمام خلقها وحسن منظرها"[١]، و(لا) النافية هنا للمبالغة أيضًا، فوجود الراحلة في الإبل قليل، ونادر الحصول، وقد اقترنت التاء بالفعل "كاد" مما أدى إلى زيادة المعنى ومطابقة الواقع مستقبلًا.

كل هذه التأكيدات وهذه المبالغة من أجل أن يؤكد ﷺ على ندرة الراحلة بين الإبل وهي: "الناقة التي تصلح لأن تُرْحَلَ، وهي المَرْكَبُ من الإبل ذكرًا كان أو أنثى"[٢]، وهذه الراحلة لها قدرة على الأحمال الشاقة والأسفار الطويلة، ولا تكون كذلك إلا بعد ترويض وطول تجربة وممارسة، وهي تمثل الصفوة من الإبل، فكذلك الكريم من الناس، قليل الوجود، وهي مرتبة لا يبلغها صاحبها إلا بعد اختبار وابتلاء وشدة أبانت عن معدنه وكشفت منه هذا الجوهر الإنساني النَّفيس، فالمُتصف بمثل هذه الصفات لا يصادفنا وجوده إلا مرة أو مرات معدودة بين الناس، ولا يعرف الراحلة من الإبل إلا من طالت خبرته بها، كذلك هذا النوع من الناس لا يُعرف إلا بعد طول تجربة تكشف عن معدنه، فالكريم من الناس: صاحب الفضل، اللين الجانب، رحيم القلب، خافض الجناح، المتميز في قوة إيمانه وحسن أخلاقه، الخالص في معدنه، الذي يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم، ويكشف كربهم، ويعينهم على نوائب الدهر، عزيز الوجود كالراحلة في الإبل الكثيرة[٣].

فرسول الله ﷺ حين يرشد إلى هذا النوع من الناس كأنَّه يغرينا بهذه الصفات وهذه المراتب ليأخذ بيد الأمة نحو الارتقاء إلى هذه المنازل أو ما يقاربها[٤].

- ويضرب عليه الصلاة والسلام لتأصل الفطرة في الناس بمثل للإبل مشاهد معروف عند العرب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه[٥] عن رسول الله ﷺ قَالَ: **{مَنْ يُولَدُ يُولَدُ عَلَى هَذِهِ**

---

[٦] **الإبل في التراث العربي، محمد أحمد سلامة، ط١،(دار الفكر العربي،١٤١٧هـ)،:٩٤.**

[١] **المرجع السابق،:٩١.**

[٢] **مختار الصحاح، مصدر سابق، باب الراء، مادة (رح ل)،: ٢٣٧-٢٣٨.**

[٣] **التشبيه التمثيلي في الصحيحين، فائزة سالم أحمد،رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، فرع البلاغة،: ٢٤٠-٢٨٩.**

[٤] **المصدر السابق،:٢٩٨.**

الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ كَمَا تُنْتِجُونَ الإِبِلَ فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُم تَجْدَعُونَهَا قَالُوا يَا رَسُولَ الله أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ}[١].

فبدأ عليه الصلاة والسلام حديثه بجملة موصولة في قوله: "**من يولد يولد على هذه الفطرة**" وذلك للتأكيد على مبدأ الفطرة في الخلق، وذِكره لاسم الإشارة (هذه) فيه تجسيد للفطرة وكأنها شيء محسوس مشاهد يُشار إليه تحقيقًا لوجودها في كل نفس، ومجيء اسم الإشارة (هذه) دون لفظ الإسلام إعلاء لمكانة الإسلام وتعظيم لشأنه، واختياره ﷺ لهذه المرحلة العمرية من حياة الإنسان وهي مرحلة ما بعد الولادة، أول مراحل حياة الإنسان، تدل على أنَّ الإنسان في هذه المرحلة يكون في حالة نقاء وصفاء من الذنوب، وبراءة وطهر، فالإنسان وهو في هذه المرحلة من عمره يكون على الفطرة، والفطرة هي: "معرفة الله تعالى والإقرار به فليس أحد يولد إلا وهو يقر بأنَّ له صانعًا وإن سماه بغير اسمه أو عبد معه غيره"[٢].

ونلاحظ تكراره لكلمة (يولد) حيث فيها تأكيد على أنَّ كل من يولد يكون على الفطرة السليمة الصحيحة، بالإضافة إلى أنَّ تكرار لفظة "يولد" في فعل الشرط وجوابه وتواليهما يروي لنا بهذا الأسلوب الموجز قصة الحياة الإنسانية وأصولها التي بنيت عليها وهي أنَّها مجبولة على معرفة الله وعبادته منذ أول يوم لقدومها في هذه الحياة.

ثم يخبرنا عليه الصلاة والسلام بما يحدث بعد ذلك فيقول: "**فأبواه يهودانه وينصرانه**" فذِكْر الأبوين في الحديث دون غيرهما يدل دلالة واضحة على الدور المهم الذي يلعبانه في حياة أبنائهما، فالإنسان يولد صفحة بيضاء نقية يَخُطُّ فيها الوالدان الديانة التي سيعتنقها ويدين لها بولائه واعتقاده ويدافع عنها وينتصر لها، فهي المرتكز المهم الذي يُقَوِّمُ حياته وسلوكه بها، من هنا ركز ﷺ على ذكر الوالدين دون غيرهما من أفراد المجتمع المقربين لهذا الإنسان، لعلمه عليه الصلاة والسلام بقوة ارتباط الإنسان بوالديه وتقبله وتأثره بما يصدر منهما من تصرفات، مع

---

[٥] تقدمت ترجمته،:١٢٦.

[١] صحيح مسلم، مصدر سابق،ج٤،:٢٠٤٨، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، حديث رقم:٢٦٥٨.

[٢] صحيح مسلم بشرح النووي،محيي الدين أبو زكريا يحيى بن أشرف بن مري الحزامي الحواربي الشافعي، ج٨،(بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية)،:٢٠٨.

العلم أنَّ هناك جهات أخرى يتأثر بها الإنسان ويتلقى عنها غير الوالدين، إلا أنَّ تأثير الوالدين في مرحلة الطفولة المبكرة يظل له أثره حتى في مراحل عمر الإنسان الأخرى.

فبعد أن كان الإنسان أو المولود على الفطرة السليمة يلعب الوالدان دورًا مهمًّا في تغيير هذه الفطرة الصحيحة، فإن كانا يهوديين فإنَّ هذه الديانة ستمتد لتصل إلى ابنهما فيصبح على ملة والديه، وإن كانا نصرانيين فإنَّ ابنهما سيصبح نصرانيًّا، ونلاحظ أنَّ الرسول ﷺ استخدم حرف العطف (الواو) للجمع بين الديانتين، وذلك أنَّ الأبوين قد يكون أحدهما نصرانيًّا والآخر يهوديًّا أو العكس، ومن هنا فإنَّ الابن سوف يكون إمَّا نصرانيًّا وإمَّا يهوديًّا، وذلك أنَّه قد يعتنق إحدى الديانتين ثم مع تقدم عمره قد يتركها ويعتنق الأخرى فيكون قد جمع بين الاثنتين معًا.

ومن هنا نلاحظ بلاغة النبي ﷺ في اختيار حرف العطف (الواو)، إذ قد يجمع بين الديانتين معا في أوقات مختلفة من عمره، وقد يكون من الذين كتب الله لهم السعادة في الآخرة فيخرج من هاتين الديانتين إلى الفطرة السليمة الصحيحة ويدخل في ملة الإسلام.

وحتى يتغلغل هذا المعنى في قلوب الصحابة بل في قلب كل قارئ جاء المصطفى ﷺ بهذا التشبيه من واقع بيئتهم، فقال ﷺ: " **كما تنتجون الإبل فهل تجدون فيها جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها**" فـ(الكاف) في حديثه ﷺ للتشبيه[1]، وقوله تنتجون الإبل، أي كما تلد الإبل، فالعرب كانت تطلق على ولادة الناقة (نِتَاج)، "والنِّتَاج: اسم يجمع وضْعَ جميع البهائم، وهو في الناقة والفرس، ومن ذلك قولهم: أنتجت الناقة إذا وضعت، ويُقال: نُتج القوم إذا وضعت إبلهم"[2]، وهي تدل على العناية والاجتهاد والكد في رعاية الإبل ما يجعلهم على علم تام بصحتها وسلامتها من كل عيب.

فالرسول ﷺ باختياره لهذه اللفظة قصد أن يصور لهم الإبل عندما تولد وهي صحيحة سليمة الأعضاء والأجزاء في كامل خلقتها، فإذا ما ارتسمت هذه الصورة في أذهانهم بادرهم بقوله: " **فهل تجدون فيها جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟**" فهذا استفهام منه ﷺ أراد به صياغة الصورة كوسيلة للإقناع، كما أنَّه أراد به أن يقررهم فيه على هذا الفعل الذي

---

[1] **عروس الأفراح، مرجع سابق، جـ٢،:١٨٩.**

[2] **لسان العرب، مصدر سابق، (باب الجيم، فصل النون)،:٣٧٣.**

يفعلونه ببهائمهم وهو تغييرهم لخلقتها، وفي تقديم الضمير "أنتم" إنكار منه عليه الصلاة والسلام وتعجب واستغراب وتوبيخ لهم على صنيعهم، فكان الغرض من الاستفهام إقرار المخاطب بالفعل، مع كون السائل يعلم بذلك[١]، فالرسول ﷺ باستفهامه "**فهل تجدون فيها جدعاء**" ينكر على الصحابة صنيعهم بهذه الإبل وتغييرهم لخلقتها، وذلك زيادة في إقناعهم بالفكرة والمعنى الذي يريده، فالرسول ﷺ كثيرًا ما يستخدم الاستفهام في حواره مع أصحابه، وذلك أبلغ في الإقناع بالفكرة، حيث تصل الفكرة أو المعنى الذي يريده عليه الصلاة والسلام إلى المخاطب، فتتبلور هذه المعاني لدى المخاطب في شكل حوار داخليٍّ عقليٍّ ذاتيٍّ ليأتي الاقتناع بالفكرة والمعنى اقتناعًا تامًّا، وذلك أوقع وأبلغ.

"فالجدع: القطع البائن في الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها، فالناقة الجدعاء: التي قُطع سُدُسِ أذُنُها أو ربعها أو ما زاد على ذلك إلى النصف"[٢]، بمعنى أنَّه قد غُيِّر من خلقتها السَّوية، وتقديمه للجار والمجرور في قوله "فيها جدعاء" للتنبيه على أنَّها ولدت سليمة غير مجدوعة، واستخدامه للفظة (الجدع) فيها غلظة، وكأنَّه ﷺ يستثير عاطفتهم ويستغرب من صنيعهم التشويهي وما يلحقه من ضرر.

وقوله ﷺ: "**حتى تكونوا أنتم**" فـ"حتى" تفيد انتهاء الغاية، فهي توحي إلى أنَّه بعد أن تولد هذه الإبل سليمة وبعد أن تبلغ غاية فتوتها يقومون بجدعها، فهناك فترة زمنية تبدأ من ولادتها إلى أن يجدعونها، وهي الفترة التي تكون فيها سليمة كما خلقها الله، ففيها إشارة إلى أنَّ المولود يولد على الفطرة، فيظل فترة زمنية قصيرة على هذه الفطرة وهي مرحلة الطفولة المبكرة أي في مرحلة المهد إلى أن يبدأ والداه في تغيير هذه الفطرة بالتدريج، وهذا ما أوحت به "حتى".

وذكره للفعل المضارع هنا دليل على أنَّها تولد صحيحة الخلقة سليمة من التشويه، ثم هم بعد ذلك في المستقبل يقومون بتغييرها وجدعها وتشويهها، فكأنَّه تأكيد على أنَّها تولد سليمة، ثم أردف بالضمير أيضًا للإشارة على أنَّهم من يفعل ذلك ويغيرون في خلقة تلك البهائم التي تولد وهي سليمة صحيحة، ومجيء الفعل بالمضارع (تجدعونها) دليل على أنَّ هذا التغيير إما

---

[١] **عروس الأفراح، مرجع سابق،ج١،:٥٤٨.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، (باب العين، فصل الجيم)،:٤١.**

بالجدع أو الوسم أو التشويه هو عادة غالبة عند كثير ممن يمتلك الحيوانات، وفيه دليل على ولادتها سليمة، وإنَّما يحدث التغيير فيما بعد، وهذه العادة كانت في الماضي والحاضر وسوف تستمر حتى في المستقبل، يدل على ذلك مجيء الفعل بالمضارع، ونلاحظ أنَّه ﷺ استخدم الاستفهام في حواره مع الصحابة، وذلك أوقع وآكد في إقناع عقولهم بالفكرة التي يريدها عليه الصلاة والسلام.

هذا التشبيه أراد أن يدلل به عليه الصلاة والسلام على أنَّ كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبويه يغيران تلك الفطرة التي أودعها الله فيه، **{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}**(١) كذلك يفعلون بإبلهم فيقومون بتغيير خلقتها فيجدعونها، فهذا تشبيه يوافق ما يفعلونه بأبنائهم مستنبطين ذلك مما يرونه في محيطهم.

وبعد أن ارتسمت الصورة في أذهانهم مؤكدة صدق رسول الله ﷺ تبادر إلى أذهانهم أطفال الكفار وما مصيرهم، فسارعوا بسؤال رسول الله ﷺ بقولهم: "**أرأيت من يموت صغيرًا؟**" فاستفهام الصحابة عن من كان صغيرًا لم يبلغ سنَّ التكليف ما مصيره؟ فسؤالهم فيه تلهف مليء بالعاطفة والحنو على مصير من كان صغيرًا، فردَّ عليهم ﷺ بقوله: "**الله أعلم بما كانوا عاملين**"، أي أنَّ الله عز وجل أعلم بما سيكون منهم لو مكثوا في الحياة حتى سن البلوغ وما بعده، ومن ذلك "أنَّ الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرًا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، وقد أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أنَّ من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة، لأنه ليس مكلَّفًا، وأما أطفال المشركين فهم من أهل الجنة، ويستدل له بأشياء منها حديث إبراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبي ﷺ في الجنة وحوله أولاد الناس، قالوا: "**يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال وأولاد المشركين**"(٢)، وفي ذلك دليل على أنَّ كل مولود يولد على الفطرة حتى أبناء المشركين، فمن مات منهم وهو صغير كان على الفطرة كما أخبر ﷺ، وبذلك يكون من أهل الجنة.

---

(١) **سورة الروم، الآية: ٣٠.**

(٢) **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق،ج٨،:٢٠٧-٢٠٨.**

- وننتقل إلى صورة من صور الآخرة يصفها لنا عليه الصلاة والسلام، تلك هي صورة حوضه ﷺ فيصفه وصفًا رائعًا يشمل كل جوانبه، ثم يخبر عليه الصلاة والسلام بأنَّه يطرد أناسًا عن حوضه فيعمد إلى "الإبل" لوصف هذه الصورة، فعن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه[٣] أنَّ رسول الله ﷺ قال: **{إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ[١] مِنْ عَدَنٍ،[٢] لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الوُضُوءِ}**[٣].

فقد أراد الرسول ﷺ في هذا الحديث أن يُحذِّر أمته من أن يُخالفوا منهجه وطريقته السليمة الصحيحة، وحتى يُرغِّب أصحابه وأمَّته في الاستقامة على هديه ﷺ ذكر لهم في هذا الحديث صِفَة حوضه فقال ﷺ: "**إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ**" فبدأ عليه الصلاة والسلام حديثه بالتأكيد بـ(إنَّ) للمبالغة في بُعدِ هذا الحوض، بالإضافة إلى استخدامه صيغة التفضيل (أبعد) وذلك للتأكيد على البُعد، وذكره ﷺ للبُعد بين (أيلة وعدن) يدل على كِبَرِ مساحة الحوض، وهو الغرض من ذكر المسافة بين أَيْلَةَ وعدن.

ثمَّ وصف ﷺ صِفَة الماء في حوضه ﷺ بقوله: "**لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ**" فرسول الله ﷺ يؤكِّد شدَّة بياضِ الماءِ باستخدامه لصيغة التفضيل (أشد) أيضاً للمُبالغة في بياضه، فهو أشد بياضًا من الثلج، والثلج عندما يتساقط وتشتَدُّ برودتُه يكون في غاية البياض، أَضِف إلى ذلك أنَّ الشَّمس عندما تسطع على هذا الثلج تضيف إليه لمعانًا وبريقًا، فيصبح هناك بياضٌ ممزوجٌ بلمعان وهو أشدُّ أنواع البياض جمالاً. وربَّما كان غرض الرسول ﷺ من هذا التَّشبيه أن يتخيَّل السامع جمال هذا الماء في بياضه ولمعانه، لذا كانت دقَّتُه ﷺ في اختيار بياض الثلج دون غيره.

---

[٣] **تقدمت ترجمته،:١٢٦.**

[١] **أيلة، بالفتح: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي،جـ١، باب الهمزة والياء،(بيروت: دار الفكر)،:٢٩٢).**

[٢] **عدن: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. (انظر:معجم البلدان، جـ٥، باب العين والدال، :٨٩).**

[٣] **صحيح مسلم، مصدر سابق،جـ١، :٢١٧،كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، حديث رقم:٢٤٧.**

كما أضاف عليه الصلاة والسلام صفةً أخرى إلى هذا الماء، وهو قوله: "**وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ بِاللَّبَنِ**" فيُكرِّر عليه الصلاة والسلام بصيغة التفضيل بقوله: "**أَحْلَى**" وذلك للمُبالغة في شدَّة حلاوته، فرسول الله ﷺ يَصِفُ ماءَهُ بأنَّه أحلى من العسل باللَّبن، وقد اختار عليه السلام العسل ممزوجًا باللبن، يدل على ذلك استخدمه حرف الجر (الباء) الذي يدلُّ على الالتصاق، وهذا يعني التصاق العسل باللبن، والتصاقهما يؤدي إلى امتزاجهما ببعضهما، ولهذا التشبيه وَجَاهَتُهُ حيث إنَّ الرسول ﷺ لو شبَّه بالعسل وحده لكان في ذلك حلاوة زائدة، والمعروف أنَّ في العسل حلاوة شديدة لا يستطيع الإنسان أن يأكل منه إلا كمية قليلة لشدة حلاوته، كما أنَّ اللبن يحتوي في العادة على نوع معين من الحموضة قد تكون قليلة في بداية إنتاجه، ولكنها تزداد مع زيادة المدة في إنتاجه فيصبح شديد الحموضة، ولكي يكسر عليه الصلاة والسلام شدة حلاوة العسل وشدة حموضة اللبن اختار تشبيه الماء بحلاوة العسل باللبن فلا تطغى حلاوة العسل مع وجود اللبن، بل يصبح مُستساغًا، ولا تطغى حموضة اللبن مع وجود العسل فيصبح مستساغًا أيضًا، وهذا من بلاغته ﷺ في اختيار المشبه به لوصف حلاوة الماء.

ونلاحظ أنَّه ﷺ عطف بـ"الواو"[1] في الجمل السابقة وذلك لاختلاف أوصاف هذا الحوض وتعددها، ولأنَّ هذه الأوصاف جميعها لحوضه عليه الصلاة والسلام، فالعطف بـ"الواو" أوحى لنا بجمال هذه الصفات وكثرتها وتعددها.

ثم ينتقل ﷺ إلى وصف آنية هذا الحوض بقوله: "**وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ**"، فيؤكِّد عليه الصلاة والسلام على كثرة عدد هذه النُّجوم باستخدامه لصيغة التفضيل (أكثر) للمبالغة أيضاً في كثرتها، والمعروف أنَّ عدد النجوم كثيرٌ جدًّا لا يعلم عددها إلا الله عزَّ وجلَّ، منها ما اكتُشِف في العصر الحديث ومنها ما لم يُكتَشَف، لذا عَمَد ﷺ إلى استخدام عدد النُّجوم في تشبيهه، كما أنَّ هناك ميزة أخرى لهذه النُّجوم وهي أنَّها لامعةٌ برَّاقةٌ، وهذا ما أراد عليه الصلاة والسلام أن يصف به هذه الآنية، فهي كثيرةٌ لامعةٌ كالنُّجوم تماماً.

بعد هذه الأوصاف الجميلة الخلَّابة التي وصف بها عليه الصلاة والسلام حوضه، يُردِف قائلاً: "**وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ**" فيخبر عليه الصلاة والسلام أنَّه يَصُدُّ النَّاس ويمنعهم أن يَرِدُوا حوضَهُ ويشربوا منه، ويدل على ذلك قوله: "**وإنِّي**"

---

[1] **الوصل: هو عطف الجمل بعضها ببعض والفصل تركه.(انظر:التلخيص في علوم البلاغة،مرجع سابق، :١٧٥).**

فهذا فيه تأكيدٌ على فعله وهو صدُّ الناس، وأيضًا (اللام) في كلمة "لَأصُدُّ" فيه تأكيدٌ أيضًا ومبالغةٌ في الصَّدِّ، ولفظة "صدَّ" هي "أعرض" مع الردِّ والإبعاد فهي توحي باستيائه عليه الصلاة والسلام من صنيعهم بعده لذا كان يصدهم عن حوضه[٢]. ثمَّ يؤكِّد ﷺ بتأكيدٍ آخر أكثر ترسيخًا في ذهن أصحابه وهو تشبيهه لهذا الصدِّ بقوله: " **كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ**" فهذا التشبيه مُنتَزَعٌ من البيئة الصحراوية حيث كان الرجل "يَذُودُ الإِبِلَ ذَوْدًا"[١] عن حوض إبله، والصحابة يعرفون ذلك تمامًا، لكن ما الذي أدى بالرسول ﷺ إلى استخدام كل هذه المؤكِّدات وهذه التشبيهات في حديثه السابق؟ لقد وصف عليه الصلاة والسلام حوضَهُ بالمساحة الواسعة الشَّاسعة، وبلونه الأبيض النَّاصع، وبمذاقه الحلو المعتدل، وبعدد آنيته الكثيرة اللامعة، هذا الحوض بهذه الأوصاف الدَّقيقة الجميلة في ذلك اليوم الصَّعب الشَّديد الحرارة والناس عطشى يبحثون عن الماء، فإذا بِرسول الله ﷺ واقفٌ على ذلك الحوض، يترك أناسًا يشربون ويصدُّ آخرين عنه، لقد كرر عليه الصلاة والسلام استخدام "إنَّ" و"اللام" وصيغة التفضيل "أفعل" في التشبيهات التي عقدها لهذا الحوض في قوله "**إنَّ حوضي، لهو أشد، ولآنيته أكثر، وإنِّي لأصدُّ**.."، مع أنَّ المخاطبين هم الصحابة رضي الله عنهم وهم مصدقون لما يخبرهم به عليه الصلاة والسلام غير منكرين، إلا أنَّ أوصاف هذا الحوض الذي أخبر عنه ﷺ عجيبة مثيرة قد تبعث على التعجب والإنكار، مما جعل الرسول عليه الصلاة والسلام يستخدم هذه الأدوات والألفاظ لتأكيد صورته التشبيهية. لكن ما الذي دعا رسول الله ﷺ إلى أن يفعل مثل هذا الفعل؟ يقول العلماء: إنَّ الذين يصدُّهم النَّبيُّ ﷺ هم "المُنافقون والمُرتدُّون الذين لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم، وقال آخرون: إنَّهم الذين ارتدُّوا بعد وفاته ﷺ ولم يبقوا على إسلامهم، وقيل: إنَّهم أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعهم عن الإسلام"[٢]، وأيًّا كانوا فالذي يجمعهم هو أنَّهم خالفوا ما جاء به ﷺ من الهدى والحق، لذا كانوا ممَّن قصد عليه الصلاة والسلام أنَّه يصدُّهم عن حوضه، ومن هنا ندرك أهمية هذه التشبيهات والتوكيدات التي ذكرها عليه الصلاة والسلام، فهي أولًا ترغيبٌ لهم في أن يكونوا ممَّن ثبت على الحق واتبع منهجه ﷺ فيفوزوا بالشُّرب من حوضه الكريم ﷺ،

---

[٢] **مختار الصحاح**، مصدر سابق، (باب الصاد، مادة (ص د د)،:٣٥٧.

[١] **لسان العرب**، مصدر سابق، (باب الدال، فصل الذال)،:١٦٨.

[٢] **صحيح مسلم بشرح النووي**، مصدر سابق،ج٨،:٢٠٧-٢٠٨.

وهي ثانيًا تحذيرٌ لهم في أن يخالفوا ما جاء به من الحق، فيتبرأَّ منهم ﷺ ويصدُّهم عن حوضه الشريف.

لقد بُهر الصحابة ﷺ لهذا الوصف منه ﷺ، ورَغِب كل واحد منهم ونحن معهم ﷺ في أن يشرب من هذا الحوض، وفي المقام نفسه شعر الصحابة ﷺ بالخوف الشديد من أن يكونوا ممن يصدُّهم رسول الله ﷺ عن حوضه، وخاصةً بعد أن شبَّه لهم هذا الصدَّ بصدِّ أحدهم إبلَ غيرِهِ عن حوض إبله، فهم يعلمون ذلك جيدًا، وترتسم لهم هذه الصورة بكل ما فيها من قسوةٍ وقوةٍ وشدَّةٍ في إبعاد أحدهم إبِل غيره عن حوض إبله، وخاصة عندما تكون هذه الإبل عطشى فتزيد ضراوتها وهيجانها ما يصور الجهد الذي يبذله عليه الصلاة والسلام في صد الناس عن حوضه. فالعربي يعرف إبلَه ويميِّزُها عن غيرها، ويقوم بطرد الأُخرى وإبعادها، وفي ذلك تجسيدٌ وإبرازٌ للذُّلِّ والخِزي والمهانة والعذاب والهلاك الذي يُصيبُ من يبدل ما كان عليه ﷺ، فهذا الماء لا يشرب منه إلا المؤمنون المخلصون النَّقية قلوبهم من الشركيات والبدع، فهي نقيةٌ كنقاء هذا الماء وصفائه وخلوصه من الشَّوائب.

وفي هذه اللحظة وصُورُ هذا الحوض تتراءى لهم، يتبادر إلى أذهانهم سؤالٌ في غاية الأهمية ألا وهو قولهم: "**أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ**"؟ لقد دهش الصحابة ﷺ كيف يعرفهم الرسول ﷺ من بين آلاف الناس بل آلاف الأمم؟ فأجابهم عليه الصلاة والسلام بقوله: "**نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ**" أجابهم عليه الصلاة والسلام بأنَّه يعرفهم حق المعرفة، فهم مميَّزون عن غيرهم بسيما وهي "العلامة"[١] التي يعرف بها أمته.

ولكن ما هذه العلامة؟ يقول عليه الصلاة والسلام لأصحابه ولأمته عامَّةً: "**تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ**" هذه هي الميزة التي تميَّزت بها أمة محمَّد ﷺ، "فالوضوءُ من خصائص هذه الأمة"[٢]، وقد شبههم عليه الصلاة والسلام بتشبيه في غاية الجمال حيث شبه

---

[١] **لسان العرب، مصدر سابق، (باب الميم، فصل السين)،:٣١٢.**

[٢] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق، ج٢،:١٣٥.**

مواضع الوضوء في جباههم بـ"البياض في جبهة الفرس"[٣] و"مواضع الوضوء في أيديهم وأقدامهم بالبياض الذي يكون في يديه ورجليه"[٤].

وقد عمد عليه الصلاة والسلام في تشبيهه لاختيار الفرس لعلمه ﷺ بمكانة هذا الحيوان عند العرب، فهو حيوان لا يُقدَّر عند العربيِّ بثمنٍ لأهميته في حياته، فهو صاحبه الذي لا يخذله في حربه على أعدائه، وهو عزُّه وفخره الذي يكتسبه في السباق، وهو فوق هذا كله ماله الذي لا يفرط فيه بأي حال من الأحوال، من هذا المنطلق استعار عليه الصلاة والسلام في تشبيهه أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين في الإنسان من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه، هذا التشبيه منه ﷺ "يجعلنا إزاء صورة لونية يتركز البصر فيها على الجزء الأبيض في الأيدي والأرجل، والعدد كبير جدًّا إذ تصورناه يوم القيامة"[١].

فهذا التشبيه فيه بيانٌ لمكانة الأمة الإسلامية وفضلها، وأنَّ لها علامة مميزة يوم القيامة تظهرها بمظهر خاص وهو أثرٌ لعمل من أعمالها وهو الوضوء، أي أنَّ المسلمين يأتون **{يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم}** [٢]"[٣].

فيجسِّم هذا التشبيه الأثر الديني للوضوء، فهو طهارة ظاهرة تنقي الجسم من الأوساخ وهو طهارة باطنة تطهر الروح من الذنوب، وإحساس المسلم ببرودة الوضوء يدفعه إلى المحافظة عليه، فهو في المقابل يطفئ حرارة نار جهنَّم، وهو جمال للنفس وإحساس بالنقاء والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

لقد اعتمد عليه الصلاة والسلام في حديثه هذا على عدة تشبيهات تضمنت ألفاظًا دلت على الزيادة في بعض الأوصاف باستخدام صيغة (التفضيل)، في إطار أسلوب اشتمل على الكثير من العناصر الحسِّية التصويريَّة لتوضيح المعاني وتقريبها وربطها ببعضها البعض ربطًا قويَّ الدلالة لما يتضمنه من عناصر المساحة والمسافة في قوله ﷺ: "**أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ**"،

---

[٣] **مختار الصحاح، مصدر سابق، (باب الغين، مادة (غ رر)،:٤٧١.**

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق، (باب اللام، فصل الحاء)،:١٤٤.**

[١] **في ظلال الحديث النبوي، نور الدين عتر، ط١،(١٤٢١هـ)،:١٦٣.**

[٢] **سورة الحديد، الآية:١٢.**

[٣] **في ظلال الحديث النبوي،مرجع سابق،:١٦٤.**

وعنصر اللون في قوله ﷺ: "**أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ**"، ثم استخدم توظيفه لحاسة الذَّوق في قوله: "أَحْلَى مِنَ العَسَلِ" ثم توظيفه لعناصر الطبيعة الصامتة في مثل قوله ﷺ: "**لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ**" بالإضافة إلى تصويره للهيئات التَّشبيهيَّة لبيان أهمية الموقف المصوَّر، لقوله ﷺ: "**كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ**" وقوله: "**غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الوُضُوءِ**" حيث مزج اللون الأبيض بالنُّور الذي يعبِّر عن موضع السجود.

"فصورته التشبيهية ﷺ اعتمدت على الحسِّ المباشر الذي يدركه المشاهد ويتابعه وتتجسَّم به الأشياء تجسُّمًا واضحًا يخلب النَّفس"[٤].

- وعندما يختلف الصحابة ﷺ ويدبُّ بينهم الخلاف فإنَّه ﷺ يصف ما حدث بينهم ويصف كراهيته لهذا الخلاف، فيصفه وصفًا جميلًا معتمدًا على صورة تشبيهية للإبل منتزعة من بيئتهم ليقرب لهم المعنى الذي يريد ويحذرهم من العودة إلى مثل ذلك، فعن عوف بن مالك ﷺ[١] قال: قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ رَجُلًا مِنَ العَدُوِّ فَأَرَادَ سَلْبَهُ فَمَنَعَهُ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ وَكَانَ وَالِيًا عَلَيْهِمْ، فَأَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَوفَ بنَ مَالِكٍ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لِخَالِدٍ: {**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلْبَهُ؟ قَالَ: اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: أَدْفَعُهُ إِلَيْكَ فَمَرَّ خَالِدٌ بِعوْفٍ فَجَرَّ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتُغْضِبَ فَقَالَ: لاَ تُعْطِهِ يَا خَالِدُ لاَ تُعْطِهِ يَا خَالِدُ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمَرَائِي {إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا فَشَرَعَتْ فِيهِ فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ وَتَرَكَتْ كَدَرَهُ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدَرُهُ عَلَيْهِمْ**}[٢].

حدثت هذه "القضية في غزوة مُؤْتَة"[٣] بين أصحاب رسول الله ﷺ، حيث علم رسول الله ﷺ ما كان من أمر تهديد عوفٍ لخالد والتجرُّؤ عليه، "**فاستُغضِب**" فعدَلَ عن حكمه، وتوحي لنا لفظة "فاستُغضِب" أنَّ رسول الله ﷺ ليس بسريع الغضب إلا لأمرٍ يستحقُّ ذلك الغضب،

---

[٤] **التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق،: ٥٨١.**

[١] **عوف بن مالك الأشجعي، صحابي مشهور، سكن دمشق، ومات سنة ثلاث وسبعين.(الإصابة،ج٧: ٥٥٦).**

[٢] **صحيح مسلم، مصدر سابق، ج٣،: ١٣٧٣، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم: ١٧٥٣.**

[٣] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق،ج٦،: ٦٤.**

ثم قال عليه الصلاة والسلام: "**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمَرَائِي**"، وهذا الاستفهام منه عليه الصلاة والسلام يصور شدة غضبه واستيائه من هذا الفعل، ثم بيَّن أنَّ هؤلاء الأُمراء الذين كُلِّفوا الولاية هم من خيار الناس، وأحسنهم أمانةً ودينًا، لم يسعوا إلى الإمارة ولم يطلبوها لأنَّهم على علمٍ بِعِظَمِ أمرها وشدَّة تكليفها، وحتى يُقرِّب لهم عليه الصلاة والسلام هذا الأمر قال ﷺ: "**إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا فَشَرَعَتْ فِيهِ فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ وَتَرَكَتْ كَدَرَهُ فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدَرُهُ عَلَيْهِمْ**". ولننظر إلى قوله: "**إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ**"، فـ(إنَّما) هنا تدل على علم الصحابة بأمرٍ مُسبَقٍ وهو ما حدث بين الصحابة رضي الله عنهم،"فهي تجيء لخبرٍ لا يجهله المخاطب"[٤]، بالإضافة إلى أنَّها تحمل معنى التأكيد لما سيقوله عليه الصلاة والسلام، وقوله: "**مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ**"، فاستخدامه لـ"مثل" في حديثه كان "للدلالة على المشابهة في الهيئة والصورة"[١]، و"توكيدًا وتثبيتًا لأمره"[٢] في أنفسهم، ثم قوله ﷺ:"**كَمَثَلِ رَجُلٍ**"، فالكاف للتشبيه وتنكيره عليه الصلاة والسلام لـ(رجل) تدل على العموم، بمعنى: أي رجل يكون واليًا على المسلمين، وقوله: "**اسْتُرْعِيَ إِبِلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا**"، فلنتأمل كلمة (استُرعي) وما تحمله من العطف والرحمة من الوُلاة على رعاياهم ومن ولوا أمرهم، كما أنَّ الفعل المبني للمجهول يدلُّ على أنَّ الأمير كُلِّف بالإمارة ولم يُؤمِّر نفسه، ثم قوله: "**إِبِلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا**"، فالإبل من الحيوانات التي تتصف بالصعوبة في رعيها، وإن لم يحسن الراعي معاملتها والاهتمام بها فربما غضبت وحقدت على هذا الراعي نتيجة لسوء معاملته لها، بالإضافة إلى مكانة الإبل عند العرب، كما أنَّ الغنم تتصف بسهولة قيادتها ورعيها سواء أحسن الراعي لها أم لم يحسن، وفي الرَّعية من يكون شديدًا على الأمير لا يخضع لأمرٍ حتى يُحاج، ومنهم من هو صاحب مكانةٍ مرموقة في قومه كالإبل تمامًا، ومن الرعية من هو سهلٌ واسع النفس مطيعٌ لأميره في العسر واليسر، بالإضافة إلى أنَّه صاحب مكانةٍ متواضعةٍ في رعيته، وهذا كالغنم في الرعي وفي مكانتها عند العرب، إذ إنَّها أقلُّ مكانةً وأهميةً من الإبل، وهنا نُلاحظ الدقة في اختيار المشبه به (الإبل أو الغنم) إذ إنَّ كلًا منهما يمثل طائفةً من الرَّعية، وقد

---

[٤] **دلائل الإعجاز، مصدر سابق،: ٢٥٤.**

[١] **أدوات التشبيه، دلالاتها واستعمالاتها في القرآن، محمود موسى حمدان، ط١،(القاهرة: مطبعة الأمانة، ١٤١٣هـ)،: ٣٦.**

[٢] **معجم البلاغة العربية،مرجع سابق،: ٦٦٣.**

نُكِّرت اللفظتان "**إِبِلًا أَوْ غَنَمًا**" لتدلَّ على التَّنوِّع في الرعية وعلى الكثرة، وهذا التنوُّع يحتاج من الأمير أو الراعي أن يكون ذا حكمةٍ وحنكةٍ وقدرة على فهم النفسيَّات وطبائع البشر على اختلاف مشاربها وكيفية التواصل والتعامل معها.

وقوله: "**فَرَعَاهَا**" أي أنَّه قام بجميع حقوق الرعيَّة عليه ولم يفرِّط في شيءٍ منها، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا فَشَرَعَتْ فِيهِ**"، نُلاحظ ما في لفظة (تحيَّن) من حسن قيام الوُلاة على شئون الرعية، وما تحمله من معنى الانتظار والحلم وحسن اختيار الأمور، وأنَّ الورد والسقي جاء بعد التحيُّن والترقُّب، يدل على ذلك حرف العطف "ثم" حيث كان هناك متسعًا من الوقت مكَّن الراعي من البحث والتقصِّي المتأنِّي ليجد الحوض المناسب لِسقي إبله أو غنمه بعد أن أحسن رعيها.

وقوله: "**فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا**"، أي حثَّها على أفضل الأمور وأحسنها، وقوله ﷺ: "**فَشَرَعَتْ فِيهِ**": "شرعت الدَّواب في الماء: تَشْرَعُ شَرْعًا: أي دخلت، والشَّريعَةُ والشِّراعُ والمِشْرَعَة: المواضع التي ينحدر الماء منها، وبها سُمِّي ما شرع اللهُ لعبادِهِ شريعةً"[1]، ومن هذا المعنى نفهم لماذا اختار عليه الصلاة والسلام لفظة (شرعت) بدلاً من لفظة (شربت)، لأنَّ لفظة (شرعت) تدلُّ على أنَّ الرَّعية قد أخذت بما جاء به هذا الوالي وتمكنت منه، يدلُّ على ذلك حرف الجر (فيه)، بالإضافة إلى أنَّ ما جاءهم به هذا الوالي من الأمور إنَّما هي أمورٌ لا تخرج عن ما شرعه الله لعباده.

ثم قوله ﷺ: "**فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ وَتَرَكَتْ كَدَرَهُ**"، هنا في قوله: "**فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ**" نُلاحظ أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يقل (شرعت) بل قال (شربت) لأنَّ الرعية في (شرعت) قد تهيَّأت ودخلت في طاعة الأمير ثم بعد ذلك أخذت بالعمل في تنفيذ ما أمر به هذا الأمير من الأوامر الحسنة المُؤدِّية إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ، وقوله: "**صَفْوَهُ**": "صَفْوَةُ كُلِّ شَيْءٍ خَالِصُهُ"[2] أي أحسن وأيسر ما في تلك الأمور التي أمر بها هذا الأمير. وقوله: "**وَتَرَكَتْ كَدَرَهُ**"،"كَدَرُهُ بفتح الدَّال: كَدَرَةُ الحَوْضِ وَطِينُهُ"[3]، أي أنَّها تركت ما يصعب عليها منه.

---

[1] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٨، (باب العين، فصل الشين)،:١٧٥.**

[2] **المصدر السابق، ج١٤، (باب الواو، فصل الصاد)،:٤٦٢.**

[3] **المصدر السابق، ج٥،(باب الراء، فصل الكاف)،:١٣٤.**

وقوله: "**فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدَرُهُ عَلَيْهِمْ**"، فالمقابلة[٤] هنا أدت إلى وفاء المعنى وتمام الغرض، إذ إنَّه عليه الصلاة والسلام لو ذكر صفوة الأمور للرعية دون أن يذكر كدره للولاة لكان ذلك مجالاً للاعتقاد بأنَّ صفو الأمور وكدرها يكون على الرعية دون الولاة، ولكنَّ ذكر المقابلة هنا "**فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدَرُهُ عَلَيْهِمْ**" أوضحت المعنى المراد، لأنَّ الغرض من المقابلة هو بيان حصول الرعية على حقوقهم، دون كدٍّ أو تعب أو عناء، على عكس ما يلاقي الولاة من الشدائد والمحن والابتلاء في سبيل تحقيق متطلبات الرعية أيًّا كانت، فقوله: "**فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدَرُهُ عَلَيْهِمْ**" "أي أنَّ الرعية يأخذون صفو الأمور فتصلهم أُعطياتُهم وحقوقُهم بغير نكدٍ، وتُبْتَلى الوُلاة بمقاساة الأمور وحفظِ الرَّعية والشَّفقة عليهم والذَّب عنهم وإنصاف بعضهم من بعض، ثم متى وقع عتبٌ في بعض ذلك توجه ذلك على الأُمَرَاءِ دُونَ النَّاس"[١]، ونشعر بهذه المعاناة في لفظة (كدره)، فحروف هذه اللفظة تدل على "الشِّدَّة والقلق والقوَّة"[٢]، فالأمير يُعاني من الشدة مع الرعية في أوامر الله، ثم القلق والخوف من التقصير مع هذه الرعية، ثم إنَّه قد يضطر إلى استخدام القوة مع الرعية إذا خرجت عما أمر به الله عزَّ وجلَّ، فيعيش في صراعٍ ومعاناةٍ قد لا تظهر للرعية.

لقد استخرج البيان النَّبويُّ من حالة هذا الراعي وصفًا رائعًا للوالي الذي يلي أمر المسلمين وأنَّه يقوم دائمًا على مصلحتهم وحاجاتهم وأنَّه يَكِدُّ من أجل سعادتهم واستقرارهم.

- ثم يوضح عليه الصلاة والسلام فضل التبكير إلى صلاة الجمعة بالتدرج في أهمية الحيوان ومنفعته للإنسان فتكون الإبل هي في مقدمة تلك الحيوانات فيعمد إلى التشبيه بها أولاً، فعن أبي هريرة ﷺ[٣] أنَّ رسول الله ﷺ قال: **{مَنِ اغْتَسَلَ يَومَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ**

---

[٤] المقابلة: أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما.(انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي،ط٢(القاهرة: مؤسسة المختار،١٤٢٧هـ)،:٢٩٤).

[١] صحيح مسلم بشرح النووي،مصدر سابق، جـ٦،:٦٥.

[٢] سر الفصاحة، عبد الله بن محمد بن سعد بن سنان، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي،(مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر)،:٢٠.

[٣] تقدمت ترجمته،:١٢٦.

فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ}[٤].

لقد جعل الله عزَّ وجلَّ هذه الأمة خير الأمم وأكرمها بهذا اليوم العظيم الذي جعله ميزة لها دون غيرها، وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم، وتشريعه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره من الأيام، ولمكانة هذا اليوم فقد حث عليه السلام أمته على الاغتسال فيه والتطهر والتبكير إلى المسجد للتنفل والعبادة، وجعل عليه الصلاة والسلام لكل ساعة من ساعات التبكير فضلًا معينًا فقال: "**مَنِ اغْتَسَلَ يَومَ الجُمُعَةِ**" فبدأ ﷺ خطابه بجملة شرطية دلت على أنَّ هناك أمرًا مهمًّا سيكون له عظيم الجزاء، فقال عليه الصلاة والسلام: "**من اغتسل يوم الجمعة**"، فلفظة "**اغتسل**" تدل على فعل الغسل بالرغبة والقناعة المطلقة، ونلاحظ تكرار الفعل "اغتسل، غسل" للفت الانتباه لأهمية الاغتسال يوم الجمعة، ثم جعل اليوم معرفًا بالإضافة ليحدد أي يوم من الأيام هو؟ حيث وضح عليه السلام أنَّه يوم الجمعة، ثم بين ﷺ نوعية الاغتسال وهو غسل "كغسل الجنابة في الصفات"[١] "وهو تشبيه مصدري بمعنى اغتسل غُسلاً كغسل الجنابة في الصفات"[٢]، فحذفه ﷺ لأداة التشبيه فيه حثٌّ وتحبيبٌ لمثل هذا الغسل، وبيان أهمية الاغتسال بهذه الصفات، ووجوب ذلك على كل مسلم ليقابل ملك الملوك وهو في أتم طهارة وأفضلها.

ثم حدد عليه الصلاة والسلام الزمن الذي يُذهب فيه للصلاة فقال ﷺ :"**ثم راح**"، فاختيار الرسول ﷺ لحرف العطف (ثم) يوحي لنا بأهمية الاغتسال أولًا ثم الذهاب للصلاة، لأنَّ (ثم) تفيد "الترتيب والتراخي"[٣] وإلا لكان عليه السلام اختار أيَّ حرف عطف آخر ك(الفاء) الذي "يفيد الترتيب والتعقيب"[٤]، بمعنى أن يغتسل أولاً ثم يذهب مباشرة وقد حان وقت صلاة الجمعة، وذلك يقتضي بأن لا يكون هناك وقت بين الاغتسال والصلاة، وهذا يعني أنَّه لا

---

[٤] **صحيح مسلم، مصدر سابق، جـ٢،:٥٨٢،كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، حديث رقم: ٨٥٠.**

[١] **صحيح مسلم بشرح النووي،مصدر سابق، جـ٣، :١٣٥.**

[٢] **أثر التشبيه في تصوير المعنى،مرجع سابق،:١١٨.**

[٣] **حاشية الدسوقي، مصدر سابق،:٩٧.**

[٤] **المصدر السابق،:٩٧.**

يبكِّر في الحضور إلى المسجد وهذا معنى التعقيب، أي أن يكون هناك "أمر ثم يتبعه ويعقبه أمر آخر مباشرة"[٥]، وهذا ما لا يقصده عليه الصلاة والسلام، لذا كان اختياره ﷺ لحرف العطف (ثم) هو الاختيار الأبلغ لجملته ولمقصده عليه السلام، إذ إنَّ حرف العطف (ثم) يفيد الترتيب والتراخي، يقال: (رجلٌ رَخِيُّ البال أي واسع الحال)[٦] فالتراخي يعني عدم الإسراع، ومن هنا نفهم أنَّ (ثم) تعني عدم الإسراع في الجمع بين الاغتسال والصلاة، وذلك لا يكون إلاَّ بالتبكير في الاغتسال والذهاب إلى المسجد قبل وقت الصلاة في طمأنينة وخشوع، وحتى يكون هناك متسع من الوقت للعبادة وقراءة القرآن والاستغفار، فـ"ثم" دلت على أنَّه قام بالاغتسال بهدوء وتمهُّل ما يولد الطمأنينة في نفسه فيذهب منشرح النفس مرتاح البال، وهذا ما يستفاد من معنى التراخي في "**ثمَّ**"، كذلك تدل على عناية هذا الإنسان وحرصه على الاستعداد ليوم الجمعة، أما بقية الأصناف فجاء ذكر "الواو" معها دون "ثم"، فـ"ثم" ناسبت التبكير، و"الواو" ناسبت التعجيل والإسراع وهي حال المتأخر.

وبعد ذلك يعمد عليه الصلاة والسلام إلى توضيح أهمية التبكير في الذهاب إلى الصلاة بقوله (**راح**) والرواح هو "الذهاب أول النهار وهو اسم للوقت من زوال الشمس إلى الليل"، فذكر الزمن هنا "إنما كان للحث في التبكير إليها والترغيب في فضيلة السبق وتحصيل الصف الأول وانتظارها والاشتغال بالتنفل والذكر ونحوه"[١].

ثم يوضح ﷺ بعد ذلك الجزاء لمن بكَّر في الذهاب لصلاة الجمعة فيقول عليه الصلاة والسلام: "**فكأنَّما قرَّب بدنة**". فاختيار الرسول ﷺ لأداة التشبيه (كأنَّ) دون غيرها من أدوات التشبيه يدل دلالة واضحة على تأكيد التشبيه[٢] وتثبيته في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، ولأنَّها تقوي التشبيه فتجعل المشبه كأنَّه عين المشبه به[٣]، فيقول ﷺ: "**فكأنما قرَّب**" والمقصود بـ(قرب) "أي: تصدَّق"[٤]، وبعد ذلك يذكر عليه الصلاة والسلام المشبه به في التبكير

---

[٥] **مختار الصحاح، مصدر سابق، باب العين، مادة(ع ق ب)،:٤٤٤.**

[٦] **المصدر السابق، باب الراء، مادة(رخ ا)،:٢٣٩.**

[١] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق،ج٣،:١٣٥.**

[٢] **عروس الأفراح،مرجع سابق،ج٢.:١٩٨.**

[٣] **حاشية الدسوقي، مصدر سابق،ج٢،:١٩٨.**

[٤] **المصدر السابق، ج٣، جزء ٦،:١٣٦.**

في الساعة الأولى وهي (البَدَنَة)، و(البدنة) هي "ناقةٌ أو بقرةٌ تُنحر بمكة. سُمِّيت بذلك لأنهم كانوا يُسَمِّنونَها"[٥] "وخصَّها جماعة من الفقهاء بالإبل"[٦] وتميل الباحثة إلى هذا الرأي وذلك لأنَّه لو كان مُراد الرسول ﷺ الإبل والبقر معًا لما ذكر عليه السلام البقر في التشبيه الثاني وكان اكتفى بذكر (البدنة) في التشبيه الأول.

فرسول الله ﷺ يشبه المبكِّر في الساعة الأولى لصلاة الجمعة بمن تصدَّق بالإبل، فالتصدُّق بالإبل أفضل من التصدُّق بالبقر بدليل أنَّ الرسول ﷺ قدَّم الإبل في التشبيه على البقر، ولأنَّ الإبل من الحيوانات التي يُنتفَع بكل ما فيها "فهم يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويتخذون من أوبارها ملابسهم وخيامهم وبعض أثاث بيوتهم، وكانت إلى جانب ذلك وسيلة للانتقال، كما كانت أهمَّ العدد الضرورية للقتال، فكانوا يعتمدون عليها في السِّلم والحرب، ومن ثمَّ أصبح لها في نظرهم قيمة عظمى، وسمَّوها (المال)، فكانت ثروة الشخص تُقدَّر بما يملكه من هذه الحيوانات"[١].

من هذه المكانة والأهمية للإبل جعلها ﷺ أول الحيوانات التي شبَّه بها في الفضل في التبكير إلى صلاة الجمعة، فهي إبل ضخمة الجسم قد سُمِّنت لغرض التصدُّق والتقرُّب بها إلى الله عز وجل، فهي من أفضل القُربات عند الله عزَّ وجلَّ، لهذا ذكرها ﷺ في أول حديثه، قال تعالى: **{وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**[٢].

ثم تدرج عليه الصلاة والسلام في التشبيه فذكر تشبيهًا آخر لمن جاء في الساعة الثانية بقوله: "**وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً**" فرسول الله ﷺ يكرر التأكيد في المشبه الثاني بأداة التشبيه (كأنَّ) "لأنَّه أبلغ وأقوى في الشبه"[٣]، ولكن المشبه به في الساعة الثانية حيوان أقلُّ نفعًا من الإبل ألا وهو البقر، فالبقر حيوان يُنتفع بلحمه وحليبه وجلده فقط،

---

[٥] مختار الصحاح، باب الباء، مادة (ب د ن)،:٤٤.

[٦] صحيح مسلم بشرح النووي،مصدر سابق، ج٣، :١٣٦.

[١] الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي،بهيج مجيد القنطار،(بيروت–لبنان:دار الأفق الجديدة)،:١١٥.

[٢] سورة الحج، الآية:٣٦.

[٣] عروس الأفراح، مرجع سابق،ج٢،:١٩٨.

وهو من الحيوانات التي تُربى من أجل إنتاجها لا غير، بالإضافة إلى أنَّ حجمها أقل بكثير من الإبل، لذا عمد ﷺ إلى ذكر البقر في التشبيه لمن ذهب إلى صلاة الجمعة في الساعة الثانية، فالمنفعة هنا أقل، ومن ثمَّ فالأجر أقل من أجر الذي يذهب في الساعة الأولى.

ثم يتابع ﷺ حديثه بذكر فضل من ذهب في الساعة الثالثة بتشبيهه بمن تصدَّق بكبش فيقول: "**وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ**" فالمشبه به في هذه المرة أقل من المشبه به في الساعة الأولى والساعة الثانية، فالكبش أقل حجمًا وأقل نفعًا من البقر حيث يُستفاد من لحمه وجلده وقرنيه، بدليل وصفه ﷺ بأنَّه (أقرن) أي ذو قرنين، فيمكن أن يُستفاد من قرنيه، إلا أنَّ صغر حجمه مقارنة مع البقر يوضح صغر الثواب وقلته لمن تأخر حتى الساعة الثالثة عن صلاة الجمعة.

ويعود عليه الصلاة والسلام إلى التشبيه ليوضح تناقص الأجر والثواب في التأخير عن صلاة الجمعة بقوله: "**وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً**"، والمعروف عن الدجاج أنَّه أقل حجمًا ومنفعةً من الكبش، حيث لا يُستفاد منها سوى لحمها وبيضها، ولحمها يُعدُّ أقل بكثير من لحم الكبش، فإنتاجها الغذائي قليل جدًّا مقارنة بالكبش، كذلك ثواب وجزاء من جاء في الساعة الرابعة يكون أقل بكثير ممن جاء في الساعة الثالثة.

ثم نصل مع رسول الله ﷺ إلى أقل الدرجات وهو من جاء في الساعة الخامسة حيث قال عليه الصلاة والسلام: "**وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً**" والبيضة أقل حجمًا ومنفعة من الدجاجة، بالإضافة إلى أنَّ الحيوانات الأربعة السابقة والتي شبه بها عليه الصلاة والسلام تعدُّ كائنات حية يُستفاد منها ويُؤجر المرء في القيام عليها ورعايتها، أما البيضة فهي كائن جامد ليس للمرء أجر فيه بل المنفعة فقط، وهذا يوضح مدى قلة الأجر والثواب لمن جاء في وقت متأخر لصلاة الجمعة، فناسب ذكر الحيوان وحجمه وقدر منفعته، وهو أمر حسي، ناسب درجات الثواب والأجر والجزاء في التبكير لصلاة الجمعة، "والمراد بالساعات هنا إنَّما كان للحث على التبكير إليها والترغيب في فضيلة السبق، وتحصيل الصف الأول وانتظارها والاشتغال بالتنفل والذكر ونحوه، وهذا كله لا يحصل بالذهاب بعد الزوال، ولا فضيلة لمن أتى بعد الزوال لأنَّ النداء يكون حينئذ ويحرم التخلف بعد النداء، وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ الملائكة تكتب من جاء في الساعة الأولى وهو كالمُهدي بدنة، ومن جاء في الساعة الثانية ثم الثالثة ثم

الرابعة ثم الخامسة، فإذا خرج الإمام طووا الصحف ولم يكتبوا بعد ذلك، ومعلوم أنَّ النبي ﷺ كان يخرج إلى الجمعة متصلا بالزوال وهو بعد انفصال السادسة، فدل على أنَّه لا شيء من الهدي والفضيلة لمن جاء بعد الزوال"[١].

ثم يكمل عليه الصلاة والسلام حديثه بعد أن ذكر عددًا من التشبيهات التي يؤكد فيها أهمية التبكير في الذهاب إلى صلاة الجمعة بقوله: "**فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**". فلننظر إلى قوله ﷺ، فـ"**إذا**" توحي لنا بالمفاجأة، وبما يحدث بعد ذلك[٢]، وكأنَّ المتأخر عن صلاة الجمعة إن لم يتدارك الوقت ويبكر في الذهاب فإنَّه سيفاجأ بتأخر الوقت حتى أنَّه لن يشعر إلا والإمام يخطب، وهنا تتوقف الملائكة التي كانت تكتب الأجر، ويدل على ذلك قوله ﷺ: "**حضرت الملائكة**"، وكأنَّها كانت مشغولة في السابق بكتابة الأجر والثواب للمبكرين إلى صلاة الجمعة، "فهؤلاء الملائكة غير الحفظة وظيفتهم كتابة حاضري الجمعة"[١]، فالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يدرك الآثار الفعالة لما يحيط به من مشاهدات، وهو على دراية وافية بقيمة هذه الحيوانات وأحجامها عند مستمعيه، والتي تستمر على مر العصور، فهي تشتهر بالمنافع، ولذلك ربط هذا المعنى الديني الجليل بها، معطيًا القيمة النفعية والحجمية لها وما تبثه من راحة نفسية لديهم[٢].

إنَّ هذه الصور التشبيهية التي ضربها ﷺ للتأكيد على أمر معنوي لتعطي للعقل مساحة للتفكير، وللنفس فرصة للتأمُّل، استخدم فيها عليه الصلاة والسلام أسلوبًا شرطيًّا عرض فيه كل تشبيه عرضًا موجزًا[٣] بيَّن فيه الفرق بين الأول والأخير، فأين هذا الذي أهدى بيضة من الذي أهدى بدنة في عظيم العمل أولًا وجليل المثوبة ثانيًا، فإذا ما كان هذا عظيمًا في دنيا النَّاس فإنَّ الفرق بين المشبهين في كلٍّ جدُّ عظيمٌ، على الرغم من أنَّ الذي يبذل بين التبكير والتأخير قليل ولكنَّ الثواب عظيم.

---

[١] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق،ج٣،:١٣٦.**

[٢] **حاشية الدسوقي، مصدر سابق،ج٢،:٤٣.**

[١] **المصدر السابق، ج٣، جزء٦،:١٣٧.**

[٢] **الصورة الفنية في الحديث النبوي،مرجع سابق،:٣١٦**

[٣] **الصورة البلاغية وأثرها في المتلقي، نجاح الظهار،(تحت الطبع): ١٠٥.**

فالحديث الشريف اعتمد على حسن التقسيم[٤]، وهذا التقسيم لم يترك قسمًا واحدًا مما يقتضيه المعنى، بحيث لو ذُكر كل قسم منها منفردًا لقام بنفسه ولم يشارك غيره[٥].

وبذلك تضمن هذا النمط التشبيهي جانبي التركيز القائم على الإيجاز الخاص، مع التفصيل القائم على الإيضاح المتشابه في شكله المختلف في طبيعته ودرجته مما ترك أبعادًا شعورية ودلالات عقلية لها أثرها وقيمتها[٦].

- ويجسد عليه الصلاة والسلام فرحة الله عزَّ وجلَّ بتوبة عبده في صورة رائعة تختلط فيها المشاعر الصادقة من العبد إلى ربه عزَّ وجلَّ، فقد خطب النُّعمان بن بشير ﷺ[٧] فقال: قال رسول الله ﷺ: **{لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ ثُمَّ سَارَ حَتَّى كَانَ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَأَدْرَكَتْهُ القَائِلَةُ فَنَزَلَ فَقَالَ تحت شَجَرَةٍ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ وَانْسَلَّ بَعِيرُهُ فَاستَيْقَظَ فَسَعَى شَرَفًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَانِيًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَالِثًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الذِي قَالَ فِيهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بَعِيرُهُ يَمْشِي حَتَّى وَضَعَ خُطَامَهُ فِي يَدِهِ، فَلَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ}**[١].

فمن مظاهر رحمة الله بعباده أنَّه فتح أمام العُصاة باب التوبة على مصراعيه حتى لا يقنطوا من رحمة الله فإنَّه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون، وقد أنزل الله على رسوله سورةً من طِوال السور تحمل اسم (التَّوبة) للإعلان بأنَّ الطريق إلى الله مفتوحٌ دومًا، وما على العبد إلا أن يرجع إليه تائبًا طائعًا فتُقبل توبتُه، ويُجزى على طاعته، بل فرحة الله بعبده التائب مثل فرحته بعبده الطَّائع ، والحديث يُصوِّر مدى فرحة المولى عزَّ وجلَّ بعودة عبده إليه[٢].

---

[٤] **حسن التقسيم:ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكلٍ إليه على التعيين.(انظر:حاشية الدسوقي،جـ٤،:٥٠).**

[٥] **أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ١١٨-١١٩**

[٦] **من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،:١٨١.**

[٧] **سبقت ترجمته،:٢٧.**

[١] **صحيح مسلم، مصدر سابق، جـ٤،:٢١٠٣-٢١٠٤، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، حديث رقم:٢٧٤٥.**

[٢] **أضواء على البلاغة النبوية، مرجع سابق،:١٠٧-١٠٨.**

فقال عليه الصلاة والسلام :" **لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتوبَةِ عَبْدِهِ**" فقرن لام الابتداء بالجملة الاسمية زيادةً في التأكيد[٣]، بالإضافة إلى استخدامه ﷺ لصيغة التفضيل (أشد) التي توحي بزيادةٍ شديدةٍ في التأكيد، كلُّ هذه المؤكِّدات كان الغرض منها لفت الانتباه وتصوير عظم الفرحة بتوبة العبد، وشد أسماع الحاضرين إلى أمرٍ هو في غاية الأهميَّة وهو حث العبد على التوبة والرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ، يقول ﷺ :" **لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ**" والفرح المقصود في قوله عليه السلام هو" رضا الله بتوبة عبده، فعبَّر عن الرِّضا بالفرح تأكيدًا لمعنى الرِّضا في نفس السامع ومبالغةً في تقريره"[٤].

وبعد أن شدَّ عليه السلام انتباههم بدأ بضرب صورة تشبيهية رائعة صور فيها أمرًا معنويًّا وهو فرح الله بتوبة عبده، بأمرٍ محسوسٍ مُشاهدٍ مألوفٍ من واقع حياتهم وبيئتهم، حيث صوَّر لهم هذا التشبيه بقوله: "**مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ**" فيها كناية[٥] عن كل ما يملك، ففي "زاده ومزاده" جناس[١] صور كل مقومات الحياة الضرورية من طعام وشراب يحتاجه هذا الرجل لكي يستطيع العيش ومقاومة الهلاك والفناء في هذه الصحراء القاحلة، فلفظة "**زاده ومزاده**"، جناس ليس فيه تكلف، بل إنَّ المعنى استدعاه، فلا يكون المعنى تامًّا بدونه، وذلك أنَّنا إذا ذكرنا لفظة "زاده"، وهي الطعام لتبادر إلى أذهاننا على الفور لفظة "مزاده" وهي الشراب، وهما لفظتان متلازمتان إذا ذكرت إحداهما لا يتم المعنى بدون الأخرى، فتكتمل بذلك الصورة كما أرادها عليه الصلاة والسلام. فهذا الرجل قد أعدَّ كلَّ شيءٍ لرحلته. "**زاده**": أي "طعام السفر"[٢]، و"**مزاده**": وهي "القِربَةُ العظيمةُ المَملُوءَة بالماء"[٣]، فكلُّ ما يحتاجه من طعامٍ أو شرابٍ قد اعتدَّ به لرحلته ووضعه على بعيره.

---

[٣] **المثل السائر، مرجع سابق،ج٢،:٣٧.**

[٤] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق،ج٩،:٦٠-٦١.**

[٥] **الكناية:لفظٌ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ.(انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، مرجع سابق، :٢٧٣).**

[١] **الجناس: تشابه اللفظين في النطق مع اختلافهما في المعنى. (انظر:البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، عبد الفتاح لاشين،(القاهرة:دار الفكر العربي،١٤٢٢هـ)،:)١٥٩.)**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٣،(باب الدال، فصل الزاي)،:١٩٨.**

[٣] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق ج٩،: ٦٢.**

وتعبيره ﷺ بقوله: "**عَلَى بَعِيرٍ**" يفيد "تمكُّنه منه وثِقَته المُتزايدة في طوَاعِيتِه وانقيادِهِ لأمرِهِ"،[٤] فهو مُطمئِنٌّ له سائرٌ به في (فَلاةٍ من الأرض) وهذا يُخيل لنا أنَّه مكانٌ واسعٌ من الأرض يخشى الإنسان على نفسه من الضياع فيها، فهي "أرضٌ لا شيءَ بها مُقْفِرَةٌ"[٥] مُتناهية البعد بالإضافة إلى أنَّها "خاليةٌ من البشر"[٦].

فبينما هو سائرٌ في هذه الأرض المُوحشة القاحِلةِ المَليئَةِ بالحيوانات المفترسة والحشرات السَّامة في حرارة الشمس ومخاطرِ الصحراء يسيرُ وحيدًا دون رفيقٍ من البشر غير هذا البعير الذي يُؤنسه في سفره، إذ شعر بالتَّعب "**فَأَدْرَكَتْهُ القَائِلَةُ فَنزَلَ فَقَالَ تَحت شَجَرَةٍ**" والقَائِلة: "وقت الظهيرة"[٧]، "**فَقَال**": أي نام تحت الشجرة، فقوله عليه السلام : "**فَأَدْرَكَتْهُ القَائِلَةُ فَنَزَلَ فَقَالَ تَحتَ شَجَرَةٍ**" يوحي لنا بذلك الجوِّ شديد الحرارة، مِمَّا اضطر الرجل إلى أن يجلس تحت ظلِّ الشَّجرةِ تخفيفًا من حرارة الصحراء التي أحاطت به من كلِّ جانب ما جعله يسرع الخطى ليحتمي بظل شجرة، وقوله: "**فَقَالَ**" صورت "الفاء" هنا مبلغ التعب الذي حل بذلك الأعرابي ما جعله يستسلم للنوم، ففي هذه الأثناء ما الذي حدث؟ يصوِّر رسولُ الله ﷺ حالَ الرجل فيقول: "**فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ**" فـ(الفاء) هنا تُوحي بسرعة تسلُّل النَّوم إلى عيْني الرجل، وبقدر الإنْهَاك والإعياءِ الذي وصل إليه، بالإضافة إلى إحساسه بقلَّة حرارة الشمس في ظلِّ الشجرة مِمَّا سارع بدخوله في نومٍ عميقٍ، ويدلُّ على ذلك قوله ﷺ: "**غَلَبَتْهُ**" أي لم يستطع مُقاومة النَّوم في ذلك الظِّل، ولكن ما الذي حدث له في أثناء تلك الإِغْفَاءة؟ لقد حصل ما لا يُحمد عقباه، فقد "**انْسَلَّ بَعِيرُهُ**"، و"**انْسَلَّ**": أي "خَرجَ بِتأنٍّ وتدرُّجٍ في خِفْيَةٍ يَعدُو"[١]. وفي قوله عليه السلام: "**فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ**"، مجاز مرسل، الغرض منه المبالغة في شدة غلبة النوم على الرجل، حتى أنَّه عُبِّر بالعين كلها ولم يُكتف بفعلها وهو النوم، فأطلق السبب وهو العين وأريد المسبب وهو النوم، وفي ذلك مبالغة في شدة سيطرة النوم على الرجل وتمكنه منه، وقوله: "**وانْسَلَّ بَعِيرُهُ**" دليلٌ على أنَّ الوقت الذي نام فيه الرجل هو نفسُهُ الوقت الذي بدأ فيه البعير في

---

[٤] **أضواء على البلاغة النبوية،مرجع سابق،:١١٤.**

[٥] **لسان العرب، مصدر سابق، (باب اللام، فصل الفاء)،:٥٣١.**

[٦] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق ج٩،:٦١.**

[٧] **مختار الصحاح، مصدر سابق، باب القاف، مادة (ق ي ل)،:٥٥٩.**

[١] **لسان العرب،مصدر سابق، ج١١، (باب اللام، فصل السين)،:٣٣٨-٣٣٩.**

التَّسلّل بِخِفيةٍ والانسحاب بهدوءٍ، يدلُّ على ذلك استخدامه عليه السلام لحرف العطف (الواو) الذي يدل على "الجَمعِ بين شيئَينِ في وقتٍ معًا"[٢].

وبعد فترةٍ وجيزةٍ من نوم الرجل ما الذي حدث؟ يكمل لنا عليه السلام بقوله: "**فَاستَيْقَظَ**" فـ(الفاء) تُوحي لنا بِهَول المفاجأة التي رآها الرجل عندما استيقظ والفَاجِعة التي مُنِيَّ بها، وهي أنَّه أصبح وحيدًا فريدًا يُصارع بداخله اليأس في فقدانه كلَّ مقوِّمات الحياة من الرَّاحلة والطعام والشراب والأمل في أن يعثر على بعيره وينجو من الموت المُحدق، صراعٌ عاشَهُ ذلك الرجل في لحظاتٍ قاتلةٍ خانِقَةٍ، فما عساه أن يفعل؟ لقد "**سَعَى شَرَفًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا**" ومعنى شرفًا: "أعلى الشَّيء"[٣] أي أنَّه صعد على كلِّ مُرتفعٍ في تلك الصحراء علَّهُ يجد بعيرهُ، "**ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَانِيًا**" أي أنَّه ذهب إلى اتجاهٍ آخر ومرتفعٍ آخر غير الأول، "**ثُمَّ سَعَىَ شَرَفًا ثَالِثًا**" أي صَعَدَ مرتفعًا ثالثًا في اتجاهٍ غير الاتجاهين الأوَّلين في محاولةٍ يائسةٍ بائسةٍ في الحصول على بعيرِهِ، ونلاحظ هنا تكرار "**ثم**" حيث صورت لنا تلك الحركة الدائمة والبحث المستمر والوقت والجهد الذي بذله ذلك الأعرابي.

ونُلاحظ في تكراره ﷺ لقوله: "**فَسَعَى شَرَفًا**" توضيحًا لمدى اليأس الذي وصل له الرجل وتأكيدًا للحالة النَّفسيَّة العصيبة التي يمُرُّ بها، فما كان منه إلا أن "**أَقْبَلَ حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الذِي قَالَ فِيهِ**" هذه الجملة تصوِّر مدى شعور الرجل بالإحباط والتَّخبُّط واليأس حتى إنَّنا نراهُ وهو يعود مُنكسِرَ النفس حَسِيرَ القلب، يجرُّ خُطَاهُ بتَثَاقُلٍ وحسْرَةٍ، يشعر بالموت يقترب منه لضَياعِ بعيرِهِ وعليه كلُّ مقوِّمات الحياة التي تُنقِذُه من هذا الموقف العسير، فيعودُ بائسًا يائسًا إلى تلك الشجرة التي نَامَ تحتها بعد أن أَعيَاهُ التَّعب والإِجهَادُ، وكل هذه الأحداث المتتابعة صورها لنا حرف العطف "الفاء"، فنشعر بتسارع الأحداث وتتابعها، وفي نهاية هذه الأحداث المتتابعة، وفي هذه اللحظة يَصِلُ الصحابة رضوان الله عليهم إلى مرحلةٍ نفسيَّةٍ شُعُوريَّةٍ، خائفةٍ قلقةٍ على مصير ذلك الرجل. فكلُّ مشاعر الصحابة وأحاسيسهم مع رسول الله ﷺ فيستغل عليه السلام ذلك بقوله: "**فَبَيْنَمَا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بَعِيرُهُ يَمْشِي حَتَّى وَضَعَ خُطَامَهُ فِي يَدِهِ**" فذكر الضمير "هو" وتقديمه يدل على أهميته في التشبيه، فهو الشخصية التي وقعت لها هذه

---

[٢] **حاشية الدسوقي، مصدر سابق،:٩٧.**

[٣] **لسان العرب، جـ٩،(باب الفاء، فصل الشين)،:١٧٠**

الأحداث، ولفظة "قاعد" توحي لنا بأنَّه مكث مدة طويلة على هذه الهيئة، ونلاحظ أنَّ الأداة (إذ) أوحت لنا بوقوع فعل سارٍّ بعدها، وهو ما حدث بالفعل بعد الأحداث السابقة، وأصل ذلك أنَّ "إذا" تدل "على الاستقبال"[١]، وفي تكرار الضمير في لفظة "جاءه، بعيره، خطامه، يده"، تدل على ملكية هذا الرجل الكاملة لهذا البعير، وأنَّه الشيء الوحيد الذي يمتلكه هذا الرجل، وهو بالنسبة له معبر النجاة في هذه الصحراء القاحلة، وقوله عليه الصلاة والسلام: "فَبَيْنَمَا" يوحي بِبَارقة الأمل وتسارعه، ووصفه ﷺ للرجل بالقعود تصويرٌ لمدى يأس الرَّجل في البَحثِ عن بعيره، ودليلٌ على أنَّ البعير جاء إليه بمَحضِ إرادتِهِ حتى أنَّه "**وَضَعَ خُطَامَهُ**" أي "مُقدِّمة فَمِهِ وأنفِهِ"[٢] في يده، وهذا دليلٌ على أنَّ الرجل كان ساهمًا ساهيًا زائغ النظرات فاقد الأمل، فجاءت هذه الجملة وابتدأت بـ"حتى" لإثبات أنَّ ما يراه من مجيء البعير هو حقيقة وليس وهمًا، وأكَّد على ذلك بقوله: "**وضع خطامه في يده**" كدليل وبرهان محسوس على مجيء البعير.

هنا والصحابة في تلك الحالة النفسيَّة التي عاشوها مع الرسول ﷺ من بداية التشبيه حتى نهايته، وهم في قمة انفعالهم وشدة شعورهم يكرر الرسول ﷺ ما بدأ به حديثه بقوله: "**فَلَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ**"، هذا التكرار لهذه الجملة في آخر الحديث تنبيهٌ للصَّحابة وتذكيرٌ لهم برحمة الله لهم، وقُربِهِ منهم، وفَرحه بتوبة أحدهم إذا تاب، ونُلاحظ في قوله عليه السلام: "**وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ**" أنَّه مازال يحمل الطعام والماء، وذلك أنَّه لو وجد البعير فقط وأنَّ ما كان يحمله من طعامٍ وماءٍ قد فُقِد حين ضياعه، لم تكتمل فرحةُ الرجل، فذكر الجار والمجرور (على حاله) يؤكِّد سلامة البعير وحُمُولته، وذلك أدَّى لأن تكون هناك فرحةٌ غامرةٌ لصاحب البعير.

إنَّ هذه الصورة التشبيهية التي ضربها عليه الصلاة والسلام لتوحي للصحابة برضا الله بتوبة عبده وفرحه بها، وهذا البعير في عودته إلى صاحبه، إنَّما يدعو كل إنسانٍ إلى العودة إلى الله عزَّ وجلَّ، حتى وإن تاه في المعاصي والذُّنوب كضياع هذا البعير ثمَّ عودته ، وهذه العودة تُشير إلى عودة المذنب العاصي، وهي بتوفيق الله له وهدايته إياه. ومن هنا فإنَّنا نُلاحظ أنَّ

---

[١] **حاشية الدسوقي، مصدر سابق،ج٢،:٤٣.**

[٢] **لسان العرب،مصدر سابق،ج١٢، (باب الميم، فصل الخاء)،:١٨٦.**

رسول الله ﷺ قد اعتمد على الصورة التشبيهية في إيصال المعاني التي يُريدها عن طريق انتزاعه لصورةٍ تشبيهيَّةٍ حيَّةٍ محسوسةٍ من واقع الصحابة وبيئتهم اعتمد فيها ﷺ على براعته في الدَّمج بين مشاعر الخوف والرجاء واليأس والفرح في صورةٍ تشبيهيةٍ واحدةٍ ، فالخوف حين فَقَدَ الرجل بعيره وأصبح بلا زادٍ ولا رحلةٍ في صحراءَ مُوحِشَةٍ ، والرَّجاء عندما بدأ يبحثُ عنه وكلُّه أملٌ في أن يجده ، واليأسُ عندما عاد خَالِي اليدين كسِيرَ القلب ، والفرح عندما عادَ إليه بعيرُه في زادِهِ ومزادِهِ.

"لقد بلغ هذا التَّشبيه منزلةً كبيرةً من التَّأثير في نُفُوس العرب أبناء الصحراء، وأصحابِ الإِبِلِ، فمكَّن هذا المعنى المُجرَّد عندهم، لأنَّه حدَّثهم عن أمرٍ غيْبِيٍّ بأسلوبٍ هم أكثر الناس إدراكًا له لأنَّهم يَعِيشُون في هذه الأوساط، وربَّما تعرَّض بعضُهُم لمثل هذه الأَزَمات أو سمعوا بنبأٍ من تعرَّض لها"[١] وهذا الأسلوب التصويري النفسي الذي جعل الصحابة يتعايشون مع شعور الرجل لا يقتصر عليهم، بل هو حالة تنسحب على كل من يقرأ الحديث النبوي في أي زمن من الأزمان.

- ويضرب عليه الصلاة والسلام المثل بقصص الأولين في صور تشبيهية جذابة ليجسد من خلالها معاني سامية أرادها عليه الصلاة والسلام، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها[١] أَنَّهَا قَالَتْ: **{جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لاَ يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا. قَالَتِ الأُولَى: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٌّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لاَ سَهْلٌ فَيُرْتَقَى وَلاَ سَمِينٌ فَيُنْتَقَلَ. قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لاَ أَبُثُّ خَبَرَهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ لاَ أَذَرَهُ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ. قَالَتِ الثَّالِثَةُ: زَوْجِي الْعَشَنَّقُ إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ. قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ لاَ حَرٌّ وَلاَ قَرٌّ وَلاَ مَخَافَةَ وَلاَ سَآمَةَ. قَالَتِ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهْدٌ وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ وَلاَ يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ. قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، وَإِنِ اضْطَجَعَ الْتَفَّ، وَلاَ يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ. قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَايَاءُ أَوْ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ، كُلُّ دَاءٍ**

---

[١] **التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق،:١٩.**

[١] **عائشة بنت أبي بكر الصديق، أم المؤمنين، أفقه النساء مطلقًا وأفضل أزواج النبي ﷺ بعد خديجة، ماتت سنة سبع وخمسين. (الإصابة، جـ١٤،:٢٧).**

لَهُ دَاءٌ شَجَّكِ أَوْ فَلَّكِ أَوْ جَمَعَ كُلاًّ لَكِ. قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، والرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ. قَالَتِ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ. قَالَتِ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ قَلِيلاَتُ الْمَسَارِحِ، إِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ . قَالَتِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ وَمَا أَبُو زَرْعٍ؟ أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ، وَمَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشَقٍّ فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلاَ أُقَبَّحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ. أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ. ابْنُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْجِعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ. بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَبِيهَا وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارَتِهَا. جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ؟ لاَ تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا، وَلاَ تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا، وَلاَ تَمْلأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا. قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالأَوْطَابُ تُمْخَضُ فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلاً سَرِيًّا رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِّيًّا، وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَماً ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا، وَقَالَ: كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ. قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ. قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ}[١]".

يروي الرسول ﷺ لعائشة رضي الله عنها قصةً من القصص السابقة، وهذه القصة يبدو أنّها كانت في إحدى "قُرى اليمن، أو مكةَ أو الجاهليَّة"[٢] وهي قصة إحدى عشرة امرأة جلسن واجتمَعن "**فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ**" أي "ألزمن أنفسهنَّ عهدًا وعقدن على الصِّدق من ضمائرهنَّ". "**أَنْ لاَ يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئاً**"، فـ(أن) مع أداة النفي (لا) دليلٌ على الصدق في الحديث عن أخبار وصفات الأزواج، فـ"**قَالَتِ الأُولَى زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٌّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ لاَ سَهْلٌ فَيُرْتَقَى وَلاَ سَمِينٌ فَيُنْتَقَلَ**"، فشبَّهت زوجها بلحم الجمل الغثِّ،

---

[١] صحيح البخاري، مصدر سابق، ج٦،:١٤٦، كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل.

[٢] فتح الباري، مصدر سابق،ج٩،:٢٠٨.

و"الغثُّ: الرديء من كل شيءٍ، ولحمٌ غثٌّ رديءٌ، ولحم جمل غثٌّ مهزولٌ"[٣]،"يُستغثُّ من هُزاله فيُترك ويُستكره"[٤]. ونلاحظ دقة التعبير في اختيار لفظة (الجمل)، "إذ ليس هناك في اللُّحوم أشدُّ غثاثةً من لحم الجمل لأنَّه يجمع خبث الطعم وخبث الريح"[٥]، وتذهب الباحثة إلى الاعتقاد أنَّه قُصِد بخبث الطعم وخبث الريح في حال كون الجمل هزيلًا، لأنَّه في حال كونه سمينًا فلا يخبث طعمه ولا ريحه، يدل على ذلك تشبيهها بلحم الجمل الهزيل، وقوله: "**عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ**"، تصف بُعده عنها وتكبره عليها وكأنَّه على رأس جبلٍ، ولفظة (رأس جبل) تُوحي بأنَّه في أعلى قمة في الجبل مُبالغةً في الصُّعوبة والمشقة للوصول إليه.

وقوله: "**لاَ سَهْلٌ فَيُرْتَقَى وَلاَ سَمِينٌ فَيُنْتَقَلَ**"، فكأنَّها بقولها "**لاَ سَهْلٌ فَيُرْتَقَى**" تقصد وصف الجبل، أي أنَّه ليس فيه بعض السهولة لكي يصعد إليه لأنَّ بعض الجبال وإن كانت جبالًا لا تكون على درجة من الارتفاع، بل يمكن الصعود إليها وبلوغ قمتها وإن قصدت بقولها:"**لاَ سَهْلٌ فَيُرْتَقَى**" المبالغة والتأكيد على ارتفاع هذا الجبل. وقد يحمل قولها معنى آخر، وهو أن تقصد من هذا الوصف الجمل نفسه فهي تصفُهُ بأنَّه صعب المِراس حتى وإن صُعد إلى هذا الجبل لإنزاله إلا أنَّه مع المكابدة والمشقَّة في الوصول إليه مع هذا المجهود يكون صعب المراس والقيادة، فلا ينقاد لصاحبه بسهولة، وقد تكون أرادت بهذا الوصف صعوبة أخلاق زوجها فهو مُتكبِّرٌ مُتعالٍ شديد القسوة وإن حاولت التَّقرب والتَّلطُّف والتَّودُّد إليه.

وقولها: "**وَلاَ سَمِينٌ فَيُنْتَقَلَ**" أي أنَّه بالإضافة إلى ما سبق فهو هزيلٌ لا ينقله الناس إلى بُيوتهم ليأكلوه لرَدَاءته، ولا يأخذه أحدٌ للإفادة منه في أعماله لهُزاله وضعفه، وقد تكون أرادت بهذا وصف هيكل زوجها وجسمه، فهو هزيلٌ ضعيفٌ حتى إنَّه لا يستطيع القيام بشئونها وشئون بيته ومتطلباته، فليس بالسَّمين الصحيح الذي يُصبر على شدته في مقابل القيام بشئون بيته وحياته، وقوله: "**لاَ سَهْلٌ فَيُرْتَقَى وَلاَ سَمِينٌ فَيُنْتَقَلَ**"كان مبالغةً منها في صعوبة الوصول إليه، وفي غثاثته وخساسته وقلَّة خيره، فصوَّر التشبيه مُعاناة هذه المرأة مع زوجها.

---

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق،ج٢،(باب الثاء، فصل الغين)،:١٧١.**

[٤] **فتح الباري، مصدر سابق، ج٩،:٢٥٩.**

[٥] **المصدر السابق.**

وقوله ﷺ: "**قَالَتِ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهْدٌ وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ وَلاَ يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ**"، فقولها:"**زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهْدٌ**" شبَّهت زوجها بالفهد، "ووصفتهُ بالغفلة عند دُخول البيت على وجه المدح لهُ، ويحتمل معنى آخر وهو "إن دخل البيت وثب عليَّ وَثْبَ الفهد، فعلى هذا يحتمل أن يكون على المدح والذَّم، فالمدح حيث تُشير إلى كثرة جِمَاعِهِ لها إذا دخل فينطوي تحت ذلك تمدُّحها بأنَّها محبوبةٌ لديه بحيث لا يصبر عنها إذا رآها، والذَّم من جهة أنَّه غليظ الطَّبع ليست عنده مُداعبة ولا مُلاعبة قبل المُواقعة، بل يثِبُ وثوبًا كالوحش، أو من جهة أنَّه كان سيِّئ الخلق يبطش بها ويضربها"[١].

وتميل الباحثة إلى أنَّها أرادت المدح لا الذَّم، وإلا لقالت: إن دخل أسدٌ وإن خرج فهدٌ، لأنَّ من صفات الفهد الحياء وقلَّةِ الشرِّ وكثرة النَّوم، فهو كالفهد في لِينِهِ وغفلتِهِ"[٢]، والفهد من الحيوانات التي تعيش في جماعاتٍ مُتعاونةً فيما بينها، "فالفهدة إذا أثقلَت بالحمل حنَّ عليها كل ذَكرٍ يراها من الفُهود، فيُواسيها من صيده، ومن خُلُقه أنَّه يأنس لمن يُحسن إليه"[٣]، "كما يتصف بقدرته الفائقة على الكسب"[٤]، والفهد "يحبُّ الأصوات الحسنة يُصغِي إليها إصغاءً شديدًا"[٥]، فقد أرادت هذه الزَّوجة أن تصف زوجها بأنَّه كثير الكسب، لا يدخل على أهله إلا ومعه الكسب، وأنَّه شديد الإصغاء لها عند حديثها وحاجتها إليه، كما أرادت أن تصفه بالحنان والأُنس والمُواساة لأهله في كلِّ شيءٍ، وبأنَّه كثير النَّوم، يغضُّ الطرف ولا يُحاسب عمَّا تلِف من أمواله، يدلُّنا على ذلك دقة التعبير في اختيار لفظة (الفهد) دون غيره من الحيوانات، مع أنَّه يوجد في الحيوانات من يحمل هذه الصفات، ولكنَّها لا تكون إلا في حيوانٍ أليفٍ، فلماذا وقع الاختيار على الفهد دون غيره؟

لقد أراد الرسول ﷺ باختيار (الفهد) أن نفهم أنَّ ذلك الزوج مُهابٌ عند زوجته، يملك أمر نفسه، لا تحكمه زوجته بل هو الذي يحكم في بيته بما شاء، وهيبتُها له ناتجةٌ عن حسن

---

[١] **المصدر السابق، ج٩،: ٢٦٢.**

[٢] **المصدر السابق، ج٩،: ٢٦١.**

[٣] **حياة الحيوان، مرجع سابق،ج٢،: ٣٠٦.**

[٤] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق،ج١،: ١٦٣.**

[٥] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،: ١١٢.**

معاملته لها وكرم أخلاقه معها، فهنا اجتمعت القوّة واللِّين معًا في شخصيَّة ذلك الزوج، وهي من صفات الفهد.

وقوله: "**وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ**"، فشبَّهته بالأسد في قوَّته وبطشه وإقدامِهِ وبسالتِهِ في مُواجهة أعدائه، وإذا خرج إلى قومه كان مُتفضِّلًا عليهم مُكرمًا ومُواسيًا ومُشاركًا لهم في أمورهم، وفي قوله: "**إِنْ دَخَلَ فَهْدٌ وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ**" مُقابلة[١]، " وقد أدَّت هذه المقابلة إلى اكتمال المعنى الذي قصده ﷺ؛ إذ إنَّ قوله: "**إِنْ دَخَلَ فَهْدٌ**"، أراد أنَّ ذلك الزوج قويٌّ ذو مهابة عند زوجته، وهو في نفس الوقت رحيم ليِّنٌ هيِّنٌ، ولو اكتفى بذلك لأدى ذلك إلى الاعتقاد في أنَّه يحمل هذه الصفة وحدها داخل بيته وخارجه، لكنَّ المقابلة في قوله: "**وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ**" أوضحت أنَّ ذلك الزوج شجاع مقدام ذا رأي ومشورة عند قومه، فيكون بذلك قد حمل كل الصفات الحميدة، صفات الزوج الرحيم اللين مع أهله، القوي الشجاع في قومه.

وقوله عليه الصلاة والسلام: "**وَلاَ يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ**"، هذه الجملة "تحتمل المدح وتحتمل الذَّم، فالمدح بمعنى أنَّه شديدُ الكرم كثيرُ التَّغاضي لا يتفقَّد ما ذهب من ماله، وإذا جاء بشيءٍ إلى بيته لا يسأل عنه بعد ذلك، أو لا يلتفت إلى ما يرى في البيت من المعايب، بل يُسامح ويغض الطرف، ويحتمل الذَّم بمعنى أنَّه غيرُ مُبالٍ بحالها حتى لو عرف أنَّها مريضةٌ أو مُعوزةٌ وغاب ثم جاء لا يسأل عن شيءٍ من ذلك، ولا يتفقَّد حال أهله ولا بيته، بل إن عُرضت عليه بشيءٍ من ذلك وثب عليها بالبطش والضَّرب"[٢].

وتميل الباحثة إلى أنَّ الجملة أرادت بها المدح لا الذَّم، حيث قصدت الزوجة أنَّ من صفات زوجها المُسامحَة وغض الطرف عن أخطائها، وذلك من كريم خصاله.

وقوله ﷺ: "**قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ والرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ**"، فقوله: "**زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ**"، فقوله: "**الْمَسُّ مَسٌّ**" من "مسَّ، يُقال: مسَسْتُ الشيءَ أَمُسُّهُ مسًّا إذا لمسته بيدك"[١]، "والأرنب دُويبةٌ ليِّنة المسِّ ناعمة الوبَرِ جدًّا"[٢]، لذا تكثرُ تربيتُها وصيدُها

---

[١] سبق تعريفها،:١٤٦.

[٢] فتح الباري، مصدر سابق،ج٩،:٢٦٢.

[١] لسان العرب، مصدر سابق، ج٦،(باب السين، فصل الميم)،:٢١٩.

[٢] فتح الباري، مصدر سابق، ج٩،:٢٦٤.

للإفادة من لحمها وفِرائِها ووبرها[٣]، فوصفت زوجها كأنَّ جسدهُ لِفَرط نعومته وَبرُ أرنبٍ، وقد بالغت في هذا الوصف فحذفت أداة التشبيه حتى كأنَّ المشبه والمشبه به شيءٌ واحدٌ.

وربما أرادت هنا ذمَّه لا مدحه لأنَّ الرجل يُوصف بالخشونة وهي من صفات الرجال، أما النعومة فللنساء، فقصدت بهذا الوصف أنَّه رجل ضعيف، لا يخرج من بيته، ولا يتعرض للمشاق والصعاب حتى يخشن جسده، بل هو لفرط مكوثه في بيته أصبح ناعم الجسد.

وقوله: "**والرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ**"، فـ"الزَّرنبُ: نباتٌ طيِّبُ الرَّائحة"[٤]، فوصفت رائحة جسمه بأنَّها رائحةٌ طيِّبةٌ، ويحتمل أن تكون كناية أرادت بها أنَّه كثير النَّظافة كثير التَّطيب بالروائح الحسنة، ويحتمل أن تكون أرادت بذلك جميل حديثه معها أو سيرته الحسنة عند الناس وكثرة ثنائهم عليه، فبالغت في ذلك الوصف حتى جعلت المشبه والمشبه به شيئًا واحدًا حين حذفت أداة التشبيه في وصفها لزوجها وثنائها عليه.

وقوله ﷺ: "**قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالأَوْطَابُ تُمْخَضُ فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا**"، فقوله: "**خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالأَوْطَابُ تُمْخَضُ**"، فـ"**الأَوْطَابُ**" من:"وَطَبَ: الوطْب: سقاء اللَّبن"[٥]، "أي وِعاؤُه"[٦]، و"**تُمْخَضُ**": "المَخْضُ: هو أخذ الزَّبد عن اللبن"[٧]، فـ"أرادت أنَّه بَكَّر بخروجه من منزلها غدوةً وقت قيام الخدم والعبيد لأشغالهم، وانطوى في خبرها كثرة خير داره وغزر لبنه، وأنَّ عندهم ما يكفيهم ويفضل حتى يمخضوه ويستخرجوا زبده، ويحتمل أن يكون أنَّها أرادت أن الوقت الذي خرج فيه كان في زمن الخصب وطيب الربيع"[١]، وقد يكون خروجه لسفرٍ أو غيره.

---

[٣] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:١٠٥.**

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق، ج١،(باب الباء، فصل الزاء)،:٤٤٨.**

[٥] **المصدر السابق، ج١،(باب الباء، فصل الواو)،:٧٩٧.**

[٦] **فتح الباري، مصدر سابق، ج٩،:٢٧٣.**

[٧] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٧،(باب الضاد، فصل الميم)،:٢٢٩.**

[١] **فتح الباري، مصدر سابق، ج٩،:٢٧٣.**

وقوله: "**فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا**"، تخبر أنَّ زوجها في أثناء خروجه رأى امرأة معها ولدان لها، ونلاحظ تقديم الجار والمجرور (لها) حتى لا يكون هناك شك في أنَّهما أخواها أو قريباها بل ولداها، وقوله: "**كَالْفَهْدَيْنِ**"، شُبِّه الولدان بالفهدين، فكأنَّه يصفهما بالشجاعة والمؤانسة على الرغم من صغر سنِّهما، ونلاحظ دقة التعبير في اختيار لفظة (الفهد)، فهو من أكرم الحيوانات المفترسة وأجلِّها نفعًا وأحلاها في العين منظرًا وأغلاها ثمنًا وأعزها جانبًا، كما أنَّه من الحيوانات المفترسة التي تستأنس بالنَّاس[٢]، فجمع في وصف الولدين بين الشجاعة والقوة وبين الأُلفة والمؤانسة.

وقوله: "**يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ**"، كناية عن "أنَّ المرأة كانت ذاتَ كفلٍ عظيمٍ فإذا استلقت على ظهرها ارتفع كِفلها بها عن الأرض حتى تصير تحتها فجوة يجري فيها الرُّمان، وقد يكون المقصود بالرُّمانتين نهديها فشبَّه نهداها بالرُّمانتين في قولها "**يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ**" أي أنَّ ذلك مكان الولدين منها، وأنَّهما كانا في حضنها أو جنبيها، وفي تشبيه النَّهدين بالرمانتين إشارة إلى صغر سنها"[٣]، وهنا يكون الكلام على الاستعارة[٤] وليس هناك كنايةٌ[٥].

وقوله: "**فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا**"، في هذه الجملة تُذكر الزوجة النهاية التي وصلت لها حياتها الزوجية مع أبي زرع، لقد حوى الحديث السابق لأم زرع على صور بيانية امتلأت بالسجع والجناس بأنواعه، وبالرغم من ذلك فلم نشعر بطول الكلمات أو ثقلها، بل على العكس فإنَّه أضفى خفة ومرحًا على المعنى ما جعله مؤنسًا للنفس.

وفي الحديث السابق نلاحظ كثرة الجناس والسجع في مثل قوله" "جملٍ، جبلٍ"، "فهدٍ، أسدٍ"، "أرنبٍ، زرنبٍ"، مما كان له تأثير في جذب السامع حيث أحدثت في النفس ميلًا إلى الإصغاء والتلذُّذ بنغمته العذبة، وجعلت العبارة سهلة مستساغة على الرغم من ثقل الكلمات وصعوبتها إلا أنَّها أوجدت في النفس قبولًا وتأثيرًا.

---

[٢] انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:١١٢.

[٣] فتح الباري، مصدر سابق، ج٩،:٢٧٣-٢٧٤.

[٤] الاستعارة: ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له.(انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، مرجع سابق،:٢٤٠).

[٥] سبق تعريفها،:١٦٣.

- ولكي يوضح لنا عليه الصلاة والسلام أهمية تعلُّم وقراءة ولو آية من القرآن الكريم وفضل ذلك، لا يجد خيرًا من الإبل للتشبيه بها في هذا المقام لمكانتها عند العرب، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه[١] قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال : **{أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بَطْحَانَ أَوْ إِلِىَ العَقِيقِ فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كُومَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ نُحِبُّ ذَلِكَ، أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكمْ إِلَى المَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ وَأَرْبَع خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ}**[٢].

فقوله عليه الصلاة والسلام: "**أَيُّكُمْ يُحِبُّ**" استفهام[٣] الغرض منه لفت انتباه الصحابة رضي الله عنهم لإشراكهم في الحوار حول القضية التي سيطرحها بعد هذا الاستفهام، ثم الترغيب في هذه القضية المهمة والتي تتعلق بقراءة القرآن. وقوله :"**أَنْ يَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ**"، فـ"الغُدوَة، بالضَّم: البُكرةُ ما بين صلاة الغَدَاة وطلوع الشمس"[٤]، وهذا الوقت هو وقت طلب الرِّزق والسَّعي في اكتسابه. وقوله:"**كُلَّ يَوْمٍ**"، فلفظة "كل" أفادت التأكيد بالإضافة إلى أنَّها أعطت معنى الزيادة والشمول، أي أنَّ ما تحبونه سيكون في جميع الأيام وليس في يوم واحد، وهذا يعني زيادة الخير واستمراره، ولهذا جاءت الجملة اسمية "**أن يغدو كلَّ يومٍ**" حتى يفهم منها الصحابة رضي الله عنهم أنَّ هذه الزيادة لن تنقطع فهي ثابتة. وقوله: "**إِلَى بَطْحَانَ أَوْ إِلِىَ العَقِيقِ**"، فـ"بطحان"[٥]و"العقيق"[٦]: "موضعان بقرب المدينة"[١]، أي يخرج من بيته إلى أحد هذين الموضعين: بطحان أو العقيق. وقوله: "**فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كُومَاوَيْنِ**"، فحرف الفاء هنا أوحى بالجائزة والمكسب من الخروج إلى هذين الموضعين وهو الرجوع بناقتين كوماوين ،فـ"**كُومَاوَين**": "الكَوَمُ :العظيم في كلِّ شيءٍ،

---

[١] عقبة بن عامر الجهني، صحابي مشهور، اختلف في كنيته على سبعة أقوال أشهرها أبو حمَّاد، ولي إمرة مصر لمعاوية ثلاث سنين، وكان فقيهاً فاضلاً، مات في قرب الستين. (الإصابة، جـ٧،:٢٠٥).

[٢] صحيح مسلم، مصدر سابق، جـ١،:٥٥٢-٥٥٣، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وسورة البقرة، حديث رقم:٨٠٣.

[٣] سبق تعريفه،:١٢٦.

[٤] لسان العرب، مصدر سابق،جـ١٥،(باب الواو، فصل الغين)،:١١٦.

[٥] بطحان، بفتح أوله وسكون ثانيه: هو وادٍ بالمدينة. (انظر:معجم البلدان،جـ١،باب الباء والطاء،:٤٤٦).

[٦] العقيق، بفتح أوله وكسر آخره: الأودية ومنها العقيق بناحية المدينة وفيه عيون ونخل. (انظر:معجم البلدان، جـ٤، باب العين والقاف، :١٣٨).

[١] صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق جـ٣، :٨٩.

وقد غَلَبَ على السَّنام، سَنَامٌ أَكْوَم: عظيمٌ"[٢]، إذ ليستا أي ناقتين، بل هما عظيمتا السنام وهذا يدل على أنهما ليستا بهزيلتين؛ لأنَّ عِظَمَ السنام يدل على سِمَن الناقة وعِظَمها. وقوله: "**فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ**" هذا استدراكٌ منه عليه الصلاة والسلام حتى لا يفهم الصحابة أنَّ الحصول على هاتين الناقتين كان بطريقٍ غير مشروع.

وبعد أن اكتملت الصورة في الأذهان بما تحمله من الرغبة في الحصول على هاتين الناقتين أجاب الصحابة ﷺ بالإيجاب مباشرة ومن غير أيِّ ترددٍ بقولهم: "**نُحِبُّ ذَلِكَ**" وقولهم هذا يدل على الرغبة الشديدة في تحقق هذه الصورة لكلٍّ منهم. وهنا يشعر عليه الصلاة والسلام بصدق جوابهم ورغبتهم العارمة في تحقق هذه الصورة على أرض الواقع فيدلهم ﷺ إلى ما هو خير لهم من ذلك بقوله: "**أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**"، فالاستفهام في قوله: "**أفلا**" أراد به عليه الصلاة والسلام التحضيض والحث على تعلم القرآن وقراءته، وبقوله: "**يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ**" أراد عليه الصلاة والسلام الحث على البكور في الذهاب إلى المسجد حتى يتعلم المؤمن، ويقرأ في كتاب الله ما يعود عليه بالنفع قبل أداء الصلاة. وقوله: "**فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**" فيعلم أي يتعلم قراءتها على الوجه الصحيح وما فيها من أحكام شرعية. وقوله "**آيتين**" لم يكن يقصد العدد لذاته إنما أراد التقليل، بمعنى أنَّ المؤمن لو قرأ آيتين وفهمهما حق الفهم لكان قد حصل على أجر عظيم وفائدة أعظم فكيف إذا قرأ وتعلم وفهم كتاب الله عزَّ وجلَّ، وقوله : "**خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ**" أي أنَّ الآيتين عند قراءتهما وتعلمهما خير من الناقتين وقوله: "**وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ**" أي أنَّ الآيات كلما زادت كانت خيراً من مثلها من الإبل وهذا يدل على عظيم الأجر والثواب، وقوله: "**وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**" أي حتى لو وجد على عدد الآيات في كتاب الله من الإبل وذلك عدد ضخم كبير فإنَّ هذه الآيات خيرٌ من هذا الكمِّ الهائل من الإبل.

لقد عرف المصطفى ﷺ كيف يقنع الصحابة ويرغبهم في هذا العمل عن طريق الصورة التشبيهية، فأثارت هذه الصورة بما فيها من مفاضلة الخيرية في نفوس الصحابة مما جعلهم

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق،ج١٢،(باب الميم، فصل الكاف)،:٥٢٩.**

يتسابقون في هذا الميدان العظيم الذي تتضاعف فيه الحسنات أضعافًا مضاعفة، وكان ذلك داعيًا لهم للإقبال على القرآن وقراءته وتدبره.

وقد علم الرسول ﷺ ما تمثله الإبل للعربي فعمد إلى التشبيه بها لمكانتها عنده فهي"من أشرف الحيوانات وسادتها وكبارها ورؤسائها، ففيها خصال الشرف والمنافع ومنافعها في الحرب والسلم وفي الزينة والبهاء وفي العدة والعتاد ما ليس في غيرها من الحيوانات"[١]، لذا عمد عليه الصلاة والسلام إلى تجسيد أمرٍ معنويٍّ بهذه الصورة المحببة إلى أنفسهم والتي كانت الناقة أغلى ما فيها وأهمها حيث استغل عليه الصلاة والسلام هذه الأهمية في ترغيبهم في أمرٍ دينيٍّ مهمٍّ.

- ثم يقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: عن أبي هريرة رضي الله عنه[٢] قال: قال رسول الله ﷺ : {**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**}[٣].

يقول عليه الصلاة والسلام: "**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**"، هكذا بدأ عليه الصلاة و السلام رسْمَ صورته التشبيهية بالاستفهام في قوله "**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ**" وكان الغرض من هذا الاستفهام التشويق والترغيب في القضية التي سيطرحها على أصحابه، وقد أراد عليه الصلاة والسلام بهذا الاستفهام مشاركة أصحابه في رسم هذه الصورة حتى تكتمل كما أراد لها فتتغلغل في أذهانهم، وتتمكَّن في نفوسهم، وقوله: "**إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ**" هذه الجملة تكشف لنا عن جانبٍ خفيٍّ من جوانب هذه الصورة فكأنَّ هذا الشخص كان غائبًا عن أهله وبيته إما لسفرٍ أو لطلب رزقٍ أو غيره، لأنَّ لفظة (رَجَعَ) تدلُّ على أنَّه عاد إلى بيته و أهله بعدما خرج لأمرٍ ما. وقوله: "**أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**" في جواب الشرط هذا تكمن المفاجأة العظيمة وقت عودة هذا الشخص، إذ يجد في بيته وعند أهله ما يسره ويثلج صدره حين يرى ثلاث خلفات عظامٍ سمانٍ، ونلاحظ في قوله "**أَنْ يَجِدَ فِيهِ**" أنَّه حصل هذه الخلفات دون تعب، فلم يكبد نفسه عناء البحث عنها حتى

---

[١] **الحيوان، مصدر سابق،ج٧،:١١٩-١٢٠.**

[٢] **تقدمت ترجمته،:١٢٦.**

[٣] **صحيح مسلم، مصدر سابق، ج١،:٥٥٢، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وسورة البقرة، حديث رقم:٨٠٢.**

يحصل عليها، أو أنَّه بذل ما لديه من مالٍ في شرائها، وهذا أدعى لسروره وفرحه بها، فقد حصل عليها وكأنَّها هدية له من خالق السماء، والجار والمجرور فيه يؤكد على أنَّ هذه الخلفات قد أتت إلى أهله وبيته بمحض إرادتها، دون أن يبذل أي مجهودٍ في الحصول عليها. وقوله: "**ثَلَاثَ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**" العدد هنا لم يقصد به عليه الصلاة والسلام الرمز العددي بحد ذاته إنما قصد منه التكثير، وخاصة إذا علمنا أنَّ "الخَلِفَةُ: النَّاقةُ الحامل"[١]، وهذا يعني أنَّ هذه الخلفات سوف يتضاعف عددها بالإضافة إلى أنَّها خلفات سمان عظام الجسم وهذا يدل على أنَّهنَّ غير هزيلات، وذكره لصفة السمنة في الخلفات دليل على أنَّها كثيرة اللحم واللبن.

وقد عمد الرسول ﷺ إلى التشبيه بأنثى الإبل دون غيرها من الحيوانات لعلمه عليه الصلاة والسلام بأهمية هذا الحيوان في حياة العرب، لذا كان التشبيه بها أوقع في النفس بحيث تشتاق إلى معرفة الكيفية التي تمكنها من ذلك، وهنا يبادر الصحابة في شوق وتلهف "**نَعَمْ**"، أي كلنا يريد ذلك.

وبعد أن علم عليه الصلاة والسلام من جوابهم تمكن الصورة في أنفسهم وأذهانهم بادر بقوله: "**فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**"، فـ"الفاء" في لفظة "**فثلاث**" استئنافية مثَّلت العمل الأفضل والخيار الأمثل الذي هو أفضل من اقتناء ثلاث خلفات، وهنا نلاحظ بروز جانب المفاضلة بين المشبه الذي لم يكن مقدار فضله معلومًا على المشبه به الذي له مكانته العالية الرفيعة عند الصحابة ﷺ فقوله: "**فَثَلَاثُ آيَاتٍ**" لم يقصد منها عليه الصلاة والسلام الرمز العددي، بل أراد بها التقليل وذلك أنَّه ذكر بعد العدد (آية) ولم يقل (سورة) أو (جزء من القرآن) لأنَّ أقل ما يقرأ من القرآن هو آية واحدة، فأراد أن يبين أنَّ هذا العدد القليل من الآيات خير للمؤمن من ثلاث خلفات عظام سمان لما فيهن من الأجر والثواب الذي يعود على المؤمن بالخير في الدنيا قبل الآخرة، فكيف إذا زاد المؤمن عدد الآيات التي يقرأ بها في الصلاة، فمعنى هذا أنَّ الأجر سيكون أكبر وأعظم، لأنَّ كل حرف يقرأ به بعشر حسنات وهكذا كلما زادت الآيات زاد الأجر، وقوله عليه الصلاة والسلام :"**يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ**" دليل على أنَّ الفضل بقراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة، وإن كان في قراءة القرآن أجرٌ وفضلٌ عظيم إلا

---

[١] **لسان العرب، مصدر سابق،ج٩،(باب الفاء، فصل الخاء)،:٩٤.**

أنَّ المؤمن في قراءة القرآن في الصلاة يجمع بين فضل قراءة القرآن والصلاة في آنٍ واحدٍ فيكون الأجر أعظم، وقوله: "**خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثِ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**"، فقوله: "**خيرٌ له**" أي فيه فضلٌ وثوابٌ وأجرٌ عظيمٌ، وقوله: "**مِنْ ثَلاَثِ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**" نلاحظ أنَّه عليه الصلاة والسلام قد كرر المشبه به في نهاية حديثه مع أنَّه لو قال "**خير له**" واكتفى بذلك لكان كافيًا مفهومًا، لكنَّ هذا التكرار للمشبه به كان الغرض منه الترغيب والتذكير والتنبيه؛ فالترغيب في الاستزادة من الأعمال التي ترفع الدرجات، والتذكير بحجم الأجر والفضل في قراءة القرآن في الصلاة، والتنبيه على عدم الاشتغال بالدنيا عن الآخرة، فالعمل للآخرة هو ما يبقى والعمل للدنيا زائل.

ولعل اختياره للناقة دون الجمل لأنَّ الناقة تنتج وتنجب، ما يدل على أنَّ قراءة هذه الآيات تنجب الحسنات، فكلما قرأها الإنسان تضاعف أجره، ولما تمثله الناقة عند العربي من مكانة عالية مهمة في حياته، وقد وضعها مشبهًا به ليبين للصحابة ما هو خير من تلك الخلفات، وحثهم من خلال هذه الصورة ورغبهم في الاهتمام بالمشبه الذي يمثل عقيدة وشريعة الأمة الإسلامية وهو كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

من الحديثين السابقين يتضح لنا أنَّ الرسول ﷺ في قوله: "**خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ**"، وقوله في الحديث الآخر: "**خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثِ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**"، قد استخدم في الصورة التشبيهية لفظة "خير" للمفاضلة، وهي طريقة موجودة في التشبيه على قلتها وعدم شهرتها، لكنَّها مشهورة في أحاديثه عليه الصلاة والسلام في التشبيه وغيره، وهي في الصورة التشبيهية تجعل المعنى قريبًا واضحًا راسخًا في الذهن ، فاستخدمها المصطفى عليه الصلاة والسلام في تشبيهاته، كقوله عليه الصلاة والسلام: "**لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتَحْرِقَ ثِيَابَهُ حَتَّى تَخْلُصَ إِلَى جَسَدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ**[١]"،رواه أبو هريرة[٢]، وقوله: "**لَأَنْ**

---

[١] **صحيح مسلم، مصدر سابق، جـ٢،:٦٦٧. كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه. رقم الحديث: ٩٧١.**

[٢] **سبقت ترجمته،:١٢٦.**

يَمَتَلِئَ جَوْفُ الرَّجُلِ قَيْحًا يُرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا[١]"،رواه أبو هريرة[٢]، وغير هذه الأحاديث كثير لا يتسع المجال لذكرها.

بالإضافة إلى استخدامه ﷺ لصيغة التفضيل (أفعل) في تشبيهاته مثل: "أشد، أبعد، أحلى، أكثر"، وذلك للمبالغة في التشبيه، فالتشبيه لا يعمد إليه إلا لنوع من المبالغة، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد فيه من تقدير لفظة "أفعل" إذا قصد بها بلاغة التشبيه[٣].

من الصور التشبيهية السابقة للإبل في أحاديثه ﷺ نلاحظ أنَّه عليه الصلاة والسلام استخدم الإبل في مواضع عديدة جاءت في الحث على عمل تعبدي كحثه على تلاوة القرآن وتعهده في قوله: **{تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَوَ الذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا}**[٤]، أو كقوله ﷺ في الحث على التوبة: **{لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ ثُمَّ سَارَ حَتَّى كَانَ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرضِ فَأَدْرَكَتْهُ القَائِلَةُ فَنزَلَ فَقَالَ تَحت شَجَرَةٍ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ وَانْسَلَّ بَعِيرُهُ فَاستَيْقَظَ فَسَعَى شَرَفًا، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَانِيًا، فَلَمْ يرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَالِثًا، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الذِي قَالَ فِيهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بَعِيرُهُ يَمْشِي حَتَّى وَضَعَ خُطَامَهُ فِي يَدِهِ، فَلَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ}**[٥]. أو قوله عليه الصلاة والسلام في الحث على التبكير لصلاة الجمعة: **{مَنِ اغْتَسَلَ يومَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلاَئِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ}**[٦]، وقوله ﷺ في الحث على تعلم القرآن الكريم وقراءته: **{أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى**

---

[١] **المصدر السابق، ج٤،:١٧٦٩. كتاب الشعر، باب الشعر. رقم الحديث:٢٢٥٨.**

[٢] **سبقت ترجمته،:١٢٦.**

[٣] **المثل السائر، مرجع سابق، ج١،:٣٨٠.**

[٤] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٢٩.**

[٥] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٥٣.**

[٦] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٤٦.**

أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثِ خَلْفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ}[١]. أو قد يكون التشبيه لإيضاح أمر خفيٍّ أراد ﷺ إيضاحه والتنبيه عليه كقوله: **{إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا فَشَرَعَتْ فِيهِ فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ وَتَرَكَتْ كَدَرَهُ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدَرُهُ عَلَيْهِمْ}**[٢]، أو أنَّه عليه الصلاة والسلام أراد من التشبيه بالإبل أن يحث أصحابه على صفة أخلاقية حميدة، كقوله ﷺ: **{إِنَّمَا النَّاسُ كَإِبِلِ المِائَةِ لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً}**[٣].

وقد يريد عليه الصلاة والسلام أن يثبت من خلال صورة الإبل قضية مهمة كقضية الفطرة في قوله عليه الصلاة والسلام: **{مَنْ يُولَدُ يُولَدُ عَلَى هَذِهِ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُونَ الإِبِلَ فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُم تَجْدَعُونَهَا؟ قَالُوا يَا رَسُولَ الله أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا، قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ}**[٤]، وقوله في إثبات قضية النسب: **{وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ}**[٥].

فنلاحظ من خلال الصور التشبيهية السابقة بالإبل أنَّ الرسول ﷺ في اختياره للإبل كان يعتمد على ما ألفه العرب من مشاهدات في بيئتهم عن هذا الحيوان، بالإضافة إلى تعلقهم الكبير به ومكانته العظيمة عندهم، فعمد إلى استخدامه في إبراز المعاني الخيرة الفضيلة، والقضايا الدينية الجليلة، فتناسبت هذه المعاني القيمة مع مكانة الإبل العظيمة عندهم.

وقد عمد عليه الصلاة والسلام إلى أن تكون تشبيهاته مستقاة من بيئة الصحابة ومما ألفوه ورأوه تحت أعينهم من حيوانات وخاصة "الإبل" وذلك ليكون أوقع في نفوسهم وأبلغ، وهي تشبيهات وإن كانت من واقع بيئتهم، فإنَّها اعتمدت على مظاهر الطبيعة الحية والصامتة، بما فيها من حيوان ونبات وجماد، وهي عناصر كونية يشترك في إدراكها والإحساس بها كافة

---

[١] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٦٦.

[٢] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٤٤.

[٣] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٣٣.

[٤] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٣٥.

[٥] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٢٦.

الناس، ومن هنا ندرك السبب الخفي لبقاء تشبيهاته عليه الصلاة والسلام، وخلودها واتصافها بالقوة والوضوح والجمال، لا نسأم منها، وكأنَّ لها في كل ساعة تجديدًا.

ولم تكن الإبل هي الحيوان الوحيد الذي يختص بالمكانة العظيمة عند العرب، بل إنَّ الخيل قد نافست الإبل في ذلك، فقد "أحب العربي الخيل حبًّا عظيمًا حتى أنَّه كان يذود عنه في حومة الوغى ويضحي بنفسه من أجله، كيف لا وقد أصبح الفارس والحصان شخصًا واحدًا! ومن شدة حب العربي لفرسه وتعلقه به أنَّه لا يبيعه بثمن، لأنَّه لا يمكنه أن يشتري شيئًا أفضل منه"[١].

- وقد كان ﷺ مدركًا لهذه المنزلة للخيل عند العرب، فجاء تشبيهه به في مواضع ومعاني لها أهميتها، كنهيه عن رفع الأيدي في الصلاة، فعن جابر بن سُمرة رضي الله عنه[٢] قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **{مَالِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ، اسْكُنُوا فِي الصَّلاَةِ}**[٣].

---

[١] **الخيل في قصائد الجاهليين والإسلاميين، مرجع سابق،:٢٢-٢٣.**

[٢] **جابر بن سمرة بن جنادة، السُّوائي، صحابي ابن صحابي، نزل الكوفة ومات بها سنة سبعين. (الإصابة، جـ٢،:١٥٥).**

[٣] **صحيح مسلم، مصدر سابق، جـ١،:٣٢٢، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة، حديث رقم:٤٣٠.**

فقد رأى رسول الله ﷺ أصحابه يعملون عملًا لا يليق في الصلاة التي تقتضي الخشوع والذلَّة لله عزَّ وجلَّ، فلمَّا رأى ذلك منهم كرِهَه وأنكره عليهم بعبارته الاستفهامية "**مَالِي**"، فهذا الاستفهام[٤] الإنكاريُّ الذي وقع منه عليه الصلاة والسلام في بداية الحديث كان تنفيرًا لخطأٍ لا يُلاءِم مكانة الصلاة وهيئات المُصلِّين، فكان هذا الاستنكار الذي يحمل في مدلُولِه غايةً تعليميَّةً تتضمَّن التوجيه والإرشاد.

وقوله ﷺ: "**أراكم**" فيها دليل على تكرار هذا الفعل منهم حتى أصبح مشاهدًا معلومًا لديه لشدة تكرارهم ومبالغتهم فيه، وقوله: "**رافعي**" على وزن فاعل فيه إثبات آخر لحصول هذا الفعل منهم، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**رافعي أيديكم**" بصيغة الجمع، فيه إشارة إلى أنَّ هذه الحركة أصبحت تسري بين صفوفهم في الصلاة، ولنا أن نتخيل جموعًا غفيرة من المصلين وهي ترفع أيديها وتهزها باضطراب ما يدل على الفوضى التي تنافي الخشوع.

فبعد أن تيقَّن عليه الصلاة والسلام أنَّه لفت انتباههم، شبَّه لهم رفعَهُم أيديهم على نحوٍ معيَّنٍ في الصلاة بقوله: "**كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ**"، فجاء عليه الصلاة والسلام بـ(كأنَّ) لتدل على قوَّة المُشابهة[١]، ثم شبَّههم بـ"**أَذْنَابِ خَيْلٍ شُمْسٍ**"، "والشَّمِسُ والشَّمُوسُ من الدَّواب: الذي إذا نُخِسَ لم يستَقِر، وشَمَسَت الدَّابةُ والفرسُ: شَرَدَتْ وجَمَحَتْ ومَنَعَتْ ظَهْرَهَا، وشُمس هي جمع شَمُوس، وهو النَّفُورُ من الدَّواب الذي لا يستقرُّ لِشَغَبِهِ وحدَّتِه"[٢]، فهم أهل خيلٍ -يدركون تمامًا- قُبح هذه الصورة، فجمع عليه الصلاة والسلام بين جمال الخيل ومكانتها عند العرب، وبين أهميَّة الصلاة ومكانتها عندهم، ثم جمع بين قُبح الذَّنب وبين سوءِ تصرُّفهم في الصلاة. فمكانة الصلاة عند المسلم تستدعي مشبهًا به لَهُ مكانتُه عند العرب، فالخيل والإبل من تلك الحيوانات التي لها مكانتها عند العرب، إلا أنَّ اختيار الرسول ﷺ للخيل دون الإبل مع أنَّها أعظم مكانةً عند العربيِّ من الخيل، فذلك لتميُّزها بالذَّنَب الطَّويلِ المَكسُوِّ بالشَّعَرِ الطَّويل، بحيث يُطابق التشبيه طول أيادي المُصلِّين، بالإضافة إلى أنَّ ذَنَبَ الخيل عند حركته أكثر وضوحًا وتجسيدًا للمعنى من ذَنَبِ الإبل، وهذا ما أراده عليه الصلاة والسلام، ثم

---

[٤] **سبق تعريفه،:١٢٧.**

[١] **عروس الأفراح، مرجع سابق،جـ٢،:١٨٩.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، جـ٦،(باب السين، فصل الشين)،:١١٣.**

إنَّه لِقُبح فعلهم في الصلاة اختار جزءًا قبيحًا من ذلك المشبه به وهو الذَّنَب، وذلك تنفيرًا واستكراهًا لعملهم.

وهناك أمرٌ آخر داخل التَّشبيه وهو أنَّ الخيل عندما تُنخَس تضطربُ وتتحركُ بأقدامها وأرجلها وأذنابها ويدخلها الخوف، فتنشغل بذلك ولا تمكِّن أحدًا من ركوبها، وبتحريك المصلي يديه في الصلاة انشغالٌ عن الذكر والخشوع والسكينة في الصلاة.

ثم ختم ﷺ هذه الصورة التشبيهية التي ضمَّنَها عليه الصلاة والسلام استفهامًا[٣] إنكاريًّا ختمها بأمرٍ مُوجزٍ بليغٍ في قوله: "**اسْكُنُوا فِي الصَّلاَةِ**"، وهذه الجملة الفعلية تحمل معنى الاستمرار في السكينة و الخشوع من أوَّل الصلاة وحتى نهايتها، بل إنَّ حرف السين في كلمة (**اسكُنُوا**) ليدلَّ على الضعف والرِّقة والهمس[٤] والخشوع والطمأنينة التي يجب أن تكون في المُصلِّي، كما أنَّ الفصل[٥] بين الجملتين يوحي بغضب الرسول ﷺ واستيائه من هذا الفعل وسرعته في أمرهم بأن يتركوا هذا الفعل.

هذه الصورة التشبيهيَّة بما حوت من ألفاظٍ دقيقةٍ مُوجزةٍ منه ﷺ لتبيِّن لنا قدرته البيانيَّة العالية في إثارة الانتباه والمعالجة الهادفة والتَّوجيه السَّديد، لقد استخدم ﷺ الخيل في هذا التشبيه للنهي عن فعل مكروه في الصلاة، ونلاحظ أنَّه عليه الصلاة والسلام قد استخدم في هذا النهي أذناب الخيل لأنها أقبح ما في الخيل، ولكنَّه عليه الصلاة والسلام عندما يستخدم رأس الخيل وغرته وهو أجمل جزء وأحسنه في الخيل وذلك كقوله ﷺ في حديث الحوض: "**تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ**"[١]، فشبه أثر الوضوء في جباههم بالبياض في جبهة الفرس، فنتيجة للعلاقة المتينة بين الخيل والعربي انتزع عليه الصلاة والسلام هذه الصورة وجسدها للنهي أو الترغيب حسبما يقتضيه المقام.

---

[٣] **سبق تعريفه، :١٣٢.**

[٤] **سر الفصاحة، مرجع سابق، :٢٠.**

[٥] **سبق تعريفه، :١٤٦.**

[١] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول، :١٣٩.**

- ومن الحيوانات المهمة في البيئة الصحراوية (الكلب)، فهو الصديق الوفيُّ والحارس الأمين، ومع هذه الصفات الجميلة في (الكلب) فإنَّ له صفات وخصائص مكروهة عرفها العرب، ومن هنا ركز ﷺ على هذه الصفات والخصائص في تشبيهاته لإبراز المعاني التي يريدها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه[٢] عن النبي ﷺ قال: **{اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ وَلاَ يَبْسُطُ أَحَدُكُمْ ذِرَاعَيْهِ انْبِسَاطَ الكَلْبِ}**[٣].

يُصدر الرسول الكريم ﷺ أمرًا لكل مؤمنٍ بالاعتدال في السجود، ويعني هذا الاعتدال: "التَّوسط بين الافتراش والقبض في السجود"[٤]، بمعنى أنَّه "ينبغي للسَّاجد أن يضع كفيه على الأرض، ويرفع مرفقيه عن الأرض وعن جنبيه رفعًا بليغًا بحيث يظهر باطن إبطيه إذا لم يكن مستورًا، وهذا أدبٌ متَّفقٌ على استحبابه، فلو تركه كان مُسيئًا، والنَّهي للتَّنزيه وصلاتُه صحيحة، قال العلماء: والحكمة في هذا أنَّه أشبه بالتواضع وأبلغ في تمكين الجبهة والأنف من الأرض وأبعد من هيئات الكسالى التي تُشعر بالتَّهاون في الصلاة وقلة الاعتناء بها والإقبال عليها"[٥].

ولأهمية الصلاة بدأ عليه الصلاة والسلام توجهه من أول الحديث بفعل الأمر[١] "اعتدلوا" ما يدل على أنَّ هذا الفعل قد تكرر من الصحابة رضي الله عنهم ولكراهية النبي لهذا الفعل بدأ مباشرة بالأمر "اعتدلوا".

وقد شبه الرسول ﷺ باسط ذراعيه في الصلاة بهذا الحيوان لما فيه من البشاعة والقذارة تنفيرًا من هذا الفعل في السجود، فالانبساط من الصفات المعروفة في الكلب، قال تعالى: **{وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}**[٢]، فقال عليه الصلاة والسلام: **"وَلاَ يَبْسُطُ أَحَدُكُمْ ذِرَاعَيْهِ انْبِسَاطَ الكَلْبِ"**، فلفظة "انبساط" تتناسب في صيغتها وتركيبها مع صورة تمدد الكلب

---

(٢) **أنس بن مالك الأنصاري، خادم الرسول ﷺ، خدمه عشر سنين، مات سنة اثنتين –وقيل ثلاث– وتسعين، وقد جاوز المائة. (الإصابة، جـ١،:٢٦٤).**

(٣) **صحيح البخاري، مصدر سابق، جـ١،:٢٠٠، كتاب الأذان، باب لايفترش ذراعيه في السجود.**

(٤) **الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٧٦١.**

(٥) **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق، جـ٢،:٢٠٩.**

(١) **سبق تعريفه،:١٣٠.**

(٢) **سورة الكهف، الآية:١٨.**

وانبساطه وشرود ذهنه وتهيئه للنوم ما يعني أنَّ المصلي الذي يقوم بهذا الفعل كأنَّه يتهيَّأ للنوم وما يسبقه من خمول وكسل.

ونلاحظ الوصل[٣] بين الجملتين: "اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ" و "**وَلاَ يَبْسُطْ أَحَدُكُمْ ذِرَاعَيْهِ انْبِسَاطَ الكَلْبِ**"، وذلك أنَّ المعني بهذا الأمر والنهي هم الصحابة ﷺ، وهم بحاجة إلى توضيح ما خفي عليهم من أمور الصلاة المستحبة والمكروهة، كما أنَّ هذا التوجيه يختص بأمر الصلاة التي هي عمود الدين، فكان لا بد من التأني في وصف هذا الفعل لهم بهذه الصورة، فالنَّهي[٤] عن هذه الكيفية المكروهة في السجود بوساطة هذه الصورة المعروفة فيه تحديدٌ دقيقٌ يفوق أيَّ وصفٍ، فالكلب من الحيوانات التي تُعرف أوضاعها وحالاتها، والصورة مستقاةٌ من حياة المخاطبين مما يجعل تأثُّرهم بها وإدراكهم لها في الذَّروة من الدقة"[٥].

كما نلاحظ أنَّ التشبيه جاء عن طريق التكرار "لا يبسط، انبساط" تأكيدًا على كراهية هذا الفعل ومبالغة في ذمه والتحذير منه، لأنَّ الأمر يختص بالصلاة التي يناجي فيها العبد ملك الملوك.

- وفي حديث آخر ورد عنه ﷺ أنَّ ابن عباس ﷺ[١] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **{إِنَّمَا مَثَلُ الذِي يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ ثُمَّ يَعُودُ فِي صَدَقَتِهِ كَمَثَلِ الكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَأْكُلُ قَيْئَهُ}**[٢].

فرسول ﷺ يبدأ حديثه بأداة القصر (**إنَّما**) التي "تجيء لخبر لا يجهله المخاطب"[٣]، فالصحابة يعلمون فضل الصدقة فأراد عليه الصلاة والسلام أن يحذرهم من الرجوع فيها فبدأ

---

(٣) **سبق تعريفه،:١٤٠.**

(٤) **النهي: طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء. (انظر:المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم،:١٢٥.)**

(٥) **التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٣١٦-٣١٧.**

(١) **عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، دعا له الرسول ﷺ بالفهم في القرآن، كان يسمى بالبحر والحَبْر لسعة علمه، مات سنة ثمان وستين بالطائف. (الإصابة، جـ٦،:٢٢٨).**

(٢) **صحيح مسلم، جـ٣،:١٢٤١، كتاب الهبات، باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة بعد القبض إلا ما وهب الوالد لولده وإن سفل، حديث رقم:١٦٢٢.**

(٣) **دلائل الإعجاز، مصدر سابق،:٢٥٤.**

بالأداة (إنَّما) ليشوق سامعيه، فالمتلقي بعد أن يسمع كلمة (إنَّما) يعلم أنَّ هناك قصرًا[٤] سيأتي، إلا أنَّ رسول الله ﷺ يُتبِعها بكلمة (مثل) الموضوعة للتَّشبيه بالهيئات[٥]، ليزداد شوق السامع لمعرفة ما يُريدُه ﷺ من هذا القصر، ونلاحظ تكراره عليه الصلاة والسلام للفظة "يتصدق، صدقة، بصدقته"، وذلك مبالغة في أهمية الصدقة ومكانتها التي توجب للمؤمن الأجر العظيم، وخوفًا من أن يبطلها عمل آخر يكون موجبًا لبطلانها كالرياء أو العودة في الصدقة، ويصور حرف العطف "ثم" في قوله: "**ثُمَّ يَعُودُ فِي صَدَقَتِهِ**" نوازع التردد في نفس المتصدق، وأنَّ صدقته لم تكن عن طيب نفس وصفاء نية، إذ ظل زمنًا وهو مضطرب لقيامه بتلك الصدقة، تتردد في نفسه الرغبة العارمة في استرجاع تلك الصدقة ممن أعطاه إياها.

ثم يعمد عليه الصلاة والسلام إلى عقد تشبيه مؤثِّر بين الإنسان المُتصدِّق بمالٍ أو بضاعةٍ أو غيرها على إنسانٍ آخر، ثم يعود بعد ذلك عن الصَّدقة، أو يأخذ المُتصدَّق به أو يدَّعِيهِ، وبين الكلب الذي من عادته أن يقيء ما قد أكله، ثم يعود إلى تلك الأكلة المُتقَيَّئَة فيأكلُها، فالكلب من الحيوانات المُجترَّة التي تأكل الطعام ثم بعد فترة تقوم بسحبه من المعدة إلى المريء وتبدأ بهضمه مرة أخرى، والكلب علاوةً على ذلك قد يقوم بقيء الطعام ثم أكله مرةً أخرى، ويمثل حرف العطف "ثم" في قوله: "**ثُمَّ يَأْكُلُ قَيْئَهُ**" طول مدة تقيئه ما يزيد نفورنا من الصورة، فكثرة القيء تزيد من رائحته، ومكثه فترة بعد التقيؤ إلى أن يعود فيأكله تزيد من نتانته وتعفنه ما يزيد الصورة بشاعة وقذارة، وقد جاءت لفظة: "**يقيء**" بالمضارع لسرعة استحضارها واستمرارها فتظل ماثلة في الأذهان.

هذه الصورة المُقزِّزةُ التي رسمها عليه الصلاة والسلام حملت صورتين مُقزِّزتَينِ في آنٍ واحدٍ، "الأولى مشهد تقيُّؤ الكلب والثانية أكل القيء"[١]، "ومن المُرتكز في الطباع ألا ينظر الإنسان إلى طعام الكلب ومسلكه في تناول طعامه ونوعية طعامه، إذ يعيش على الجِيف والمأكولات النَّتِنة وبقايا الأشلاء، ثم إنَّ القيء منفِّرٌ، وإن صدر من إنسان، فكيف إذا صدر

---

[٤] **القصر: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص. (انظر: حاشية الدسوقي،ج٢،:٦٨).**

[٥] **أدوات التشبيه، مرجع سابق،:٣٦.**

[١] **الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٧١٧.**

من حيوان يُكرَه لنجاسته، وصار فمه أو رأسه مَحُوطًا بهذا القيء كما صوَّر الظرف "**في قيئه**" ممَّا يزيد الأمر شناعةً"[٢].

لقد أبدع عليه الصلاة والسلام في اختيار المشبه به، حيث إنَّ كلًّا من العائد في صدقته والكلب قد فَقَدَ الحياء، فهذا عاد في صدقته وذاك في قيئه، كما أنَّ في كلٍّ من الصدقة والقيء رابطًا يربطهما وهو أنَّ الصدقة تطهيرٌ للمال كما أنَّ القيء تطهيرٌ للمعدة من الطعام الضَّار أو المُستغنى عنه، فكيف يرضى عاقلٌ أن يعود إلى صدقته بعد هذا التشبيه؟

والأمر الآخر أنَّ المشبه به (الكلب) مثلٌ في لُؤم الأصل وخُبث الطبع، وسُوء القدر والخسَّة ومهانة النفس، فكأنَّ العائد في صدقته قد اتصف بهذه الصفات التي يتصف بها المشبه به. لقد نجحت الصورة التشبيهية في تحذيرنا وتنفيرنا من هذا الفعل.

لقد حذر عليه الصلاة والسلام من أمور مكروهة فلم يجد أفضل من (الكلب) كي يمثل هذه الصورة البغيضة في الصلاة، وذلك لتأصُّل هذه الصفات والخصائص في (الكلب)، ولعل من أبشع هذه الصفات والخصائص في (الكلب) هو عودته في قيئه، فحذر عليه الصلاة والسلام من العودة في الصدقة، وضرب لذلك صورة هي من أبشع الصور في الكلب.

ونلاحظ أنَّ (الكلب) من الحيوانات التي اجتمعت فيها صفات حميدة، وصفات سيئة قبيحة[١]، لكنه عليه الصلاة والسلام عمد إلى استخدام الصفات القبيحة فيه، الغالبة عليه والملازمة له، والمعروفة عنه، وذلك أنَّ هناك من الحيوانات ما جمع أكثر الصفات القبيحة، فيلعب ذلك دوره وأهميته عند العربي، وهذا ما يجعله ﷺ يستخدم الحيوان المناسب في المقام المناسب.

- ويعتبر الجدي من أقلِّ الحيوانات أهمية عند العرب، إذ لا يقتنيها إلا الفقراء والضعفاء، وهي من أهون الحيوانات عندهم مقارنة بالإبل والخيل، وقد أوردها عليه الصلاة والسلام في تشبيه هوان الدنيا على الله عزَّ وجلَّ مستندًا على هذه المكانة الوضيعة له،

---

[٢] **المرجع السابق،:٧١٧-٧١٨.**

[٣] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:١٠٣-١٠٤.**

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه[١] قال: إنَّ رسول الله مرَّ بِالسُّوقِ داخِلاً من بعضِ العَالِية والنَّاسُ كَنَفَتُهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قال: **{أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟ فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ. قَالَ: أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟ قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ! فَقَالَ: فَواللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ}**[٢].

لقد عمد رسول الله ﷺ إلى صورة هذا الجدي الذي رآه مع الصحابة رضي الله عنهم لإقناعهم بفكرةٍ وردت في ذهنه ﷺ، فأخذ عليه الصلاة والسلام بأُذُنِ هذا الجديِ الأَسَكِّ، والأَسَكُّ: من "السَّكَك وهو صِغَرُ الأُذُنِ وَلُزُوقُهَا بِالرَّأْسِ وَقِلَّةِ إِشْرَافِهَا"[٣]، وإمساك النبيِّ ﷺ بأُذُن هذا الجدي يدلُّ على أنَّه أراد أن ينبه الصحابة لهذا العيب في الجدي الميِّت، ثم قوله ﷺ: "**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**"، فاستفهامه عليه الصلاة والسلام كان الغرض منه تقرير الفكرة التي يريد ﷺ أن يطرحها على أصحابه بعد ذلك، ونلاحظ قوله عليه الصلاة والسلام (يُحِب) بدلًا من (يرغب)، حيث إنَّ "رَغِبَ يَرْغَبُ رَغْبَةً: إِذَا حَرِصَ عَلَى الشَّيْءِ وَطَمَعَ فِيهِ"[٤]، فرسول الله ﷺ يعلم أنهم لن يحرصوا على أخذ هذا الجدي الميت، إذًا لماذا اختار لفظة (يحب)؟ لأنَّ "الحُبَّ نَقِيضُ البُغْضِ، والحُبُّ:الوِدَادُ وَالمَحَبَّة"[٥]، والرَّغبة في الشَّيءِ معًا، والحُبَّ لا يكون عادةً إلا في الشَّيء الذي يُرغب فيه ويُحرص على امتلاكه، فالشعور بالحب وبمعنى الحب لا يمكن أن يكون مع هذا الجدي الأَسَكِّ الميت الذي انتفخ بسبب تَعفُّنِهِ ففاحت رائحته النَّتِنَة المُنفِّرة، حيث يبعث في نفوسهم القشعريرة والاشمئزاز والنُّفور من هذا الحيوان، وهو ما أراده عليه الصلاة والسلام. ثم في قوله ﷺ: "**أَنَّ هَذَا لَهُ**" إشارةٌ إلى شدَّة امتهان واحتقار ذلك الجدي وقبحه، والجار والمجرور (له) يدل على كامل الملكيَّة لمن يأخذه، وقوله: "**بِدِرْهَمٍ**" لم يقصد عليه الصلاة والسلام الدرهم الذي هو المال بحد ذاته، إنَّما غرضه من ذكر الدرهم التقليل من أهمية هذا الجدي وقيمته حتى إنَّه بدرهم.

---

[١] **جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، غزا تسع عشرة غزوة، مات بالمدينة سنة سبعين وهو ابن أربع وتسعين سنة. (الإصابة، ج٢،: ١٢٠).**

[٢] **صحيح مسلم، مصدر سابق، ج٤،: ٢٢٧٢، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم: ٢٩٥٧.**

[٣] **لسان العرب، ج١٠،(باب الكاف، فصل الشين)،: ٤٣٩.**

[٤] **المصدر السابق، ج١،(باب الباء، فصل الراء)،: ٤٢٢.**

[٥] **المصدر السابق، ج١،(باب الباء، فصل الحاء)،: ٢٨٩.**

فما كان من الصحابة ﵃ إلاَّ أن ردُّوا على رسول الله ﷺ بقولهم: "**مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ**" فنفوا رضوان الله عليهم رغبتهم فيه حتى ولو كان بأقلِّ شيءٍ، فلفظة "**بشيء**" قد جاءت في أحسن موضع وأجمله، حيث أوضحت وكشفت مكانة هذا الجدي في أنفسهم وما يشعرون به تجاهه من المهانة والوضاعة والدناءة والتحقير، ثم تساءلوا –وتساؤلهم هنا يحمل معنى التعجب من حقارة هذا الجدي– قائلين: "**وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟**" أي بماذا ننتفع به وهو على هذه الحالة؟ فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن ردَّ عليهم قائلاً: "**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**" فيكرِّر عليه الصلاة والسلام استفهامه لهم، والغرض من هذا التكرار هو تغلغُل كراهية هذا الجدي في أنفسهم، ونُلاحظ في الجملة الأولى أنَّ رسول الله ﷺ قال: "**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ**" بلفظ المفرد، وفي الجملة الثانية قال: "**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ**" بلفظ الجمع، والغرض من ذلك الإمعان في الاستهانة والتقبيح لهذا الجدي حتى إنَّه لم يعد جزءًا كاملًا، بل أصبح بالإمكان تجزئته على الكل، كما أنَّ الرسول ﷺ في الجملة الأولى جعل له قيمةً فقال: "**بِدِرْهَمٍ**"، أما في الثانية فلم يجعل له قيمةً بل جعله بدون ثمن، حتى يثبت لهم عدم فائدة هذا الجدي، والأمر الآخر هو تمكن الكراهية لهذا الجدي داخل أنفسهم، فما كان من الصحابة ﵃ إلا أنَّ أكدوا لرسول الله ﷺ عدم رغبتهم فيه بأي حال، إلى أن أقسموا بالله أنَّه لو كان حيًّا لكان عارًا عليهم أن يمتلكوا مثله فكيف وهو ميِّتٌ، وذلك بقولهم: "**وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ!**" فردَّ رسول الله ﷺ على قولهم ذلك بقوله: " **فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**"، بهذه العبارة أوجز عليه الصلاة والسلام مُرادَه من تلك الصورة العينية السابقة التي عرضها على أصحابه بما حوته من حوارٍ أدَّى إلى التأثير والإفهام في آنٍ واحدٍ.

لقد أقسم عليه الصلاة والسلام فقال: "**فَوَاللهِ**" وذلك لإزالة الشكِّ من أنفس الصحابة، وليلفت انتباههم لما سيقوله بعد ذلك القسم، ثم قال: "**لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ**" فـ(لام الابتداء) في لفظة (للدنيا) هي للتأكيد على حقارة الدنيا وهوانها على الله عزَّ وجلَّ، ثم قوله: "**أَهْوَنُ**" جاء لتحقير المشبه، وقد جاء على وزن (أفعل) التفضيل مبالغةً في الهوان، ونلاحظ دوران لفظة "يحب، نحب، أتحبون" في الحديث بين الرسول ﷺ وأصحابه، في موقف يصور الكراهية الشديدة والنفور من هذا الجدي، وذلك ليتولد بداخلهم الكره الشديد لهذا الجدي، وهو ما

قصده عليه الصلاة والسلام ليبين لهم من خلال ذلك الشعور شدة هوان الدنيا على الله عز وجل.

لقد استعان عليه الصلاة والسلام بهذا المشهد الحيِّ وجعل المشبه به صورةً حيَّةً تحت أبصارهم فهو جديٌ وليس من الحيوانات التي يتفاخر بها العرب مثل الإبل أو الخيل، ولعل هذا مما زاد هوان هذا الحيوان، بالإضافة إلى أنَّه صغير الأُذُن وهذا عيب فيه، ثم أنَّه ميِّتٌ قد تعفَّن، فلو أنَّه كان قريب عهدٍ بالموت لكان بالإمكان الإفادة من جلده ولكنه قد تعفَّن حتى لا يمكن الإفادة منه إطلاقًا، وهذا التعفُّن أدَّى إلى ظهور الرائحة النَّتِنَة، فقد جمع كل أوجه المهانة والاستحقار والقُبح فلا فائدة فيه حيًّا لأنَّه ذكرٌ وليس أنثى تلد وتتكاثر ويُستفاد من حليبها ولا فائدة فيه ميِّتًا.

لقد اتخذ عليه الصلاة والسلام من هذا المنهج "وسيلةً تربويةً غايتها التوضيح وتقرير الأفكار والتواصل، وقد تقدم المشبه به على المشبه ليستحوذ على الأذهان والأبصار، فيشغل العقل والحس، إذ يترسخ المعنى المُبتغى منه في نهاية الحديث"[١].

وذلك لم يكن ليتحقق بنفس الدرجة من القوَّة لو لم يتقدم المشبه به وما تضمَّنَه من حوار واشتمل عليه من مناقشة العقول والمشاعر في قضية واقعية واضحة مأخوذة من واقع الحياة، وما أدى إليه جميع ذلك من إقرارٍ جماعيٍّ لا خلاف عليه ولا على جانب من جوانبه متمثِّلًا في قولهم: "**وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ!**" ممَّا أدى إلى التسليم التام بالحقيقة الواردة بعده: "**فَواللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**"، فهنا اجتمع للبيان النبوي من خصائص القوة ما هيَّأ المشاعر وأقنع العقول وأفسح المجال لإثبات المعنى بدليله وحجَّته وتأثيره"[٢].

والملاحظ في هذا الحديث اعتماده ﷺ على صورةٍ حيَّةٍ ماثلة أمام أعين الصحابة ﷺ، إذ لم يعتمد فيها عليه الصلاة والسلام على إثارة خيال الصحابة، فليس بالضرورة أن يعتمد التشبيه على الخيال، كما ذكر بعض علماء البلاغة أنَّ التشبيه يكمن في "أنَّك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنَّما تقصد به إثبات الخيال في النَّفس بصورة المشبه به وذلك أوكد في طرفي

---

[١] **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،:٤٠٣.**

[٢] **من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث، مرجع سابق،:٢٤٥.**

الترغيب فيه أو التنفير منه؛ ألا ترى أنَّك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتًا في النفس خيالًا حسنًا يدعو إلى الترغيب فيها. وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتًا في النفس خيالًا قبيحًا يدعو إلى التنفير عنها"[١].

فبلاغة التشبيه تنشأ من "أنَّه من وسائل التعبير التصويرية التي تستمد قوتها من الخيال، فكما أنَّ الرسم والتصوير يعتمد على الأصباغ والأحجار التي تؤلَّف وتصقل لترمز إلى طبيعة جميلة أو فتنة ساحرة أو عبقرية نادرة، نجد التشبيه يشاركهما في الإفصاح عن الفكرة والتعبير عن العاطفة بما فيه من عنصر الخيال الذي يقابل تلك الأصباغ والأحجار"[٢]، وهناك من العلماء من يرى أهمية الخيال في الصورة التشبيهية، وأنَّها لا يمكن أن تكتمل أو أن تُؤثر دون أن تعتمد على الخيال، حيث إنَّ أهمية الخيال وتأثيره يكمن في أنَّه "ينزل المعاني العقلية في القوالب الحسية"[٣]. لقد جعل ﷺ هذا التشبيه تربية عملية حيَّة وخالف بهذه الصورة ما ذكره علماء البلاغة من أنَّ الصورة التشبيهية تعتمد في تكوينها على الخيال، لقد أوتي عليه الصلاة والسلام قدرة بيانية بلاغية أدَّت إلى هذا الإتقان في استخدام الصورة التشبيهية الحية بما فيها من إقناع للعقول وإثبات للحقائق بالحجة والدليل دون الاعتماد على إثارة الخيال.

- وتحتل الشاة المكانة نفسها التي للجدي ، وهي من الحيوانات التي لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، بل لا بد من أن يقوم الإنسان على حمايتها، وهي متى وجدت قطيعاً انضمت إليه[٤]، وقد مثَّل عليه الصلاة والسلام هذه الصفة في الشاة للمنافق، فعن ابن عمر رضي الله عنهما[١] قال: قال رسول الله ﷺ: **{مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العَائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ تُعِيرُ إِلَى هَذَا مَرَّةً وَإِلَى هَذَا مَرَّةً}**[٢].

---

[١] **المثل السائر، مرجع سابق،جـ١،:٣٧٨.**

[٢] **البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم،عبد الفتاح لاشين،ط١،(القاهرة:دار الفكر العربي، ١٤٢٤هـ)،:١٠٦.**

[٣] **الكشكول، بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، جـ٢،ط١،(بيروت–لبنان: دارالكتب العلمية، ١٤١٨هـ)،:١٧٢.**

[٤] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١٠٤.**

[١] **تقدمت ترجمته، :٢٩.**

[٢] **صحيح مسلم، مصدر سابق، جـ٤،:٢١٤٦، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم:٢٧٨٤.**

يمثِّل الرسول ﷺ في هذا الحديث بالشاة ليبيِّن حالة التمزُّق النفسي والحيرة والاضطراب التي عليها المنافق، فرسول الله ﷺ يبدأ حديثه بضرب مثلٍ من واقع حياة الصحابة ﭫ ليوضِّح لهم المعاني ويقرِّبَها إلى أفهامهم ويرسِّخها في أذهانهم، بقوله: "**مثل**" ليؤكد على "المشابهة في الهيئة والصورة"[٣]، وهو مثلٌ ضربه عليه الصلاة والسلام للمنافق فصوَّره بـ(**الشَّاة العَائِرَة**)، فـ"العَائِرَة: المُتردِّدةُ بين قطيعَيْن لا تَدْرِي أَيُّهما تَتْبَعُ"[٤]، وهذه صورةٌ معبِّرةٌ عن حال المنافق الذي يُظهِر الإيمان ويُبطِن الكفر فيكون حالُهُ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: **{مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء}**[٥].

وقد يُطلَق العرب لفظة (العَائِرَة) على الإبل التي تَخْرُج إلى إبلٍ أخرى ليضربها الفحل، ثم أُطلِق فيما بعد على الغَنَم[٦]. ولعل الرسول ﷺ لم يشبِّه بالإبِلِ العَائِرَة، لأنَّ في تشبيهه بها نوعًا من الكرامة والتَّعظيم للمُنافق، فالإبِلُ من أنفع الحيوانات للعربيِّ وأثمنِها، لكنَّ الرسول ﷺ أراد تحقير المنافق وإذلاله، لذا عمد إلى (الشَّاة العَائِرَة) لينتزع بلفظة (عَائِرَة) طباع الشَّاة الحيوانيَّة، فالبهيمة منقادةٌ إلى إشباع حاجتها الفطريَّة من طعامٍ وشرابٍ وغريزةٍ، فهذه الغرائز في الشَّاة تنطبق مع ما يفعله المنافق من الجري وراء مصالحه ومنافعه الخاصة حيث كانت، ومجيء اللفظة على وزن "فاعل" دليل على حدوث الفعل فيها.

كما نلاحظ الاختيار الدقيق للفظة (**تُعِيرُ**) حيث "تبيَّن أنَّ المنافق فَقَدَ نفسه واستهزأَ بها وذَابَ في الآخرين، وكأنَّ ذاته مجرد وعاءٍ يُعار، وإخراجُ المنافق وفق البهيميَّة يبين أنَّه يُفعل به بصمتٍ منه من قبل عددٍ كبيرٍ إيغالًا في إبراز تَدَنِّيهِ، وهذه البهيميَّة تَحَارُ بين مجموعتين من الأغنام، كما أنَّ المنافق يَحَارُ في سلوكه في ذَبذَبةٍ مُحرقةٍ لنفسه، إذ لا يُنكِر في قرارة نفسه أنَّ الأفضليَّة في جانب المؤمنين، ومع هذا يعمل في مصلحة الكفار، فلم يُؤخَذ من هذا الحيوان نَهَمُهُ أو غباؤُه، بل أُخذَت شهوته البهيميَّة الدَّنِيئَة"[١].

---

[٣] **أدوات التشبيه، مرجع سابق،: ٣٦.**

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٤، (باب الراء، فصل العين)،: ٦٢٢.**

[٥] **سورة النساء، الآية: ١٤٣.**

[٦] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٤، (باب الراء، فصل العين)،: ٦٢٣.**

[١] **الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،: ٣٢٢.**

ونرى كيف أنَّ الظَّرف (بين) جسم حركة الشَّاة حين تحتار في الذَّهاب مع أيِّ القطيعين، فقد أبرزت "حركتين: ذاتيَّة ثابتة للجمع، وحركة متحركة متغيِّرة المكان للشَّاة، ثم إنَّنا نجدُ تثنية الجمع (غنمين) وغرابة الصِّيغة تدل على غرابة موقف المنافق عن السلوك الإنسانيِّ القويم، وزيادة العدد تأكيدٌ لزيادة شناعة الموقف، وتؤكد التَّثنية حالة الضياع والتمزُّق بين الأعداد الهائلة"[٢]، ومع هذا فإنَّ الشَّاة لا يقرُّ لها قرارٌ فهي في حركةٍ دائمةٍ كما وصَفَها الحديثُ: "**تُغِيرُ إِلَى هَذَا مَرَّةً وَإِلَى هَذَا مَرَّةً**"، فالجملة الفعلية تدلُّ على استمرارها في هذا الفعل مرَّةً بعد مرَّةٍ مبالغةً في ضياعها، وهذا ما ينطبق على عمل المنافق.

لقد أظهرت الصورة التشبيهيَّة حالةً نفسيَّةً خفيَّةً مُعقَّدةً، وحولتها إلى صورةٍ حيَّةٍ مُتحركةٍ نُبصِرُها ونفهم مدلولاتِها فنأْخذَ منها العظة والعبرة.

- ويعتبر الكبش أفضل من الجدي والشاة، وهو رمز للفداء منذ أبينا إسماعيل عليه السلام، وقد وظَّف الرسول ﷺ هذا المعنى في الكبش لإبراز معنى الخلود في الآخرة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: {**يُؤْتَى بِالمَوتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ. وَكَلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا المَوْتُ. وَكَلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتٌ ويَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتٌ. ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}**[٤][٥].

يخبرنا الرسول ﷺ عن أمرٍ من أمور الآخرة، ويصوِّر لنا عليه الصلاة والسلام هذا الأمر بصورةٍ حَرَكِيَّة حتى تكون أكثر ثباتًا ورسوخًا في أنفسنا فيقول: "**يُؤْتَى بِالمَوتِ**" بصيغة الفعل المضارع المبنيِّ للمجهول مع أنَّ هذا الأمر هو أمرٌ مستقبليٌّ وذلك مبالغةً في استحضار الصورة وكأنَّ أحداثها تجري الآن أمامنا، ثم يصف ﷺ هذا الموت بقوله: "**كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ**"

---

[٢] **المرجع السابق،:٣٢٢.**

[٣] **سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري،أبو سعيد الخدري، استُصغِر بأحد ثم شهد ما بعدها، مات بالمدينة سنة ثلاث –أو أربع أو خمس– وستين. (الإصابة،ج١٢،:٢٩٦).**

[٤] **سورة مريم، الآية:٣٩.**

[٥] **صحيح البخاري، مصدر سابق، ج٥،:٢٣٦–٢٣٧، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة مريم.**

ف(الكاف) للتشبيه[١]، وقد قرنه بلفظة (هيئة) لتجعل الصور أكثر تجسيدًا ووضوحًا، وقوله: "**كَبْشٍ أَمْلَحَ**" الكبش الأملح هو "الذي فِيهِ بياضٌ وسوادٌ"[٢]، وهذا الاختيار لهذا اللَّون فيه جمالٌ ودقَّةٌ في اختيار الألفاظ، إذ إنَّ اللون الأبيض بما فيه من بهجةٍ وجمالٍ يمثِّل أهل الجنة، واللون الأسود بما فيه من الغموض وما يحمل من الضَّلال والخوف يمثِّل أهل النار. ثمَّ يقول عليه الصلاة والسلام: "**فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ**"، والنِّداء هنا للتنبيه على رُؤية الكبش، ثم يقول: "**فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ**"، ونُلاحظ استخدامه عليه الصلاة والسلام لحرف العطف (الفاء) الذي أعطى الصورة جمالًا وسلاسةً، وجعل الحوار يتلاحق بمنطقيَّةٍ في سهولةٍ ويسرٍ ودون تكلُفٍ، ثم استخدم بعد ذلك عليه الصلاة والسلام في قوله: "**فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ**" حرف العطف (الواو) وذلك أعطى المعنى وضوحًا أكثر حيث دلَّ على أنَّهم رفعوا رُءُوسهم وأظهروها معًا، فالوصل أدى إلى تأكيد حدوث الفعلين منهم تفاؤلًا واستبشارًا مما سيسمعونه، ومعنى "**يَشْرَئِبُّونَ**" "من اشْرَأَبَّ الرَّجُلُ: مَدَّ عُنُقَهُ، وقيل: هو إذا ارتفع وعَلاَ"[٣] أي يرفعون رُءُوسهم لينظروا، ثم قال عليه الصلاة والسلام: "**فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟**" والاستفهام هنا من المُنادي للتأكيد على أنهم قد رأوا الكبش وعرفوه كما كانوا يعرفونه في الدنيا، ثم يقول: "**فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا المَوْتُ**"، فقولهم: "**فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا المَوْتُ**" ولم يقولوا: (هذا الكبش) يدلُّ على معرفتهم بحقيقة الموت وأنهم قد رأوه قبل أن يجعله الله على هيئة كبشٍ، وربَّما خوفهم من الموت وكراهيتهم له هو ما جعلهم ينطقون بحقيقته، حتى وإن كان الله عزَّ وجلَّ قد حوَّله على هيئة كبشٍ، ثم قوله عليه الصلاة والسلام: "**وَكَلُّهُمْ قَدْ رَآهُ**"، تأكيد منه على أنَّ كلَّ إنسانٍ في الجنَّة قد رأى الموت وعَرَفَهُ، لأنَّه قد مرَّ على كلِّ حيٍّ في الدُّنيا، لذا كان معروفًا عندهم.

ثم ينقلنا البيان النَّبويُّ إلى الجزء الثاني من هذا الحوار في هذه الصورة الغَيْبِيَّة، والجزء الآخر كان مع أهل النار، حيث يقول عليه الصلاة والسلام: "**ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ**"، ونُلاحظ أنَّه ﷺ قد عَدَل هنا عن حرف العطف (الفاء) في قوله: "**فَيُنَادِي، فَيَشْرَئِبُّونَ، فَيَقُولُونَ**"، فالفاء هنا دلَّت على الترتيب بين الأحداث والتعقيب مباشرةً بينها، بينما استعمل

---

[١] **عروس الأفراح، مصدر سابق،ج٢،:١٨٩.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق،ج٢،(باب الحاء، فصل الميم)،:٦٠٢.**

[٣] **المصدر السابق، ج١،(باب الباء، فصل الشين)،:٤٩٣.**

ﷺ في بداية الأحداث عن أهل النَّار بحرف العطف (ثم) لأنَّه تحدث أولًا عن أهل الجنة، فأخذ ذلك فُسحةً من الوقت حتى انتقل الحديث عن أهل النار، كذلك الملك أو المنادي في الصورة التشبيهية كان في حديثه ترتيب وتراخ، لأنَّه تحدَّث أولًا مع أهل الجنة وأخذ ذلك وقتًا زمنيًّا قصيرًا ثم أعقب الحديث مع أهل النار، وهذا ما نفهمه من حرف العطف (ثم)، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ**" أي أنَّه حدث منهم ما حدث من أهل الجنة في أنَّهم رفعوا رُءُوسهم ونظروا إليه، والوصل[١] هنا أيضًا أدى إلى تأكيد حدوث الفعلين منهم، لكن خوفًا وجزعًا مما سيسمعونه.

ثم قوله: "**فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟**"، واستفهامُه[٢] هنا للتأكيد على أنَّهم جميعًا قد رأوه، ثم يقول ﷺ: "**فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ**" لأنَّهم قد عرفوه في الدنيا ومرَّ بكلِّ واحدٍ منهم، وقوله: "**وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ**"، تأكيدٌ أيضًا على أنَّ كلَّ إنسانٍ في النَّار قد رآهُ وعرفهُ، ثم يقول عليه الصلاة والسلام: "**فَيُذْبَحُ**"، وهنا تأتي خاتمة هذا الحوار ونهايته مع أهل الجنَّة والنَّار. وفي هذه الصورة الأُخرَوِيَّة يُذبَح هذا الكبش الذي هو في حقيقته شيءٌ قَهَرَ النَّاس وهَدَمَ لذَّاتِهم وفرَّق أحبَّتَهم، يُذبَح كرمزٍ للفِداء، حيث إنَّ الكبش هو الحيوان الذي فدى الله به نبيَّه إسماعيل عليه السلام[١]، فوقع الاختيار عليه دون غيره من الحيوانات، وذلك أبلغ وأوقع في النفس، وفي موت الموت ونهايته سعادةٌ وسرورٌ لأهل الجنَّة، وفي موته حزنٌ لأهل النَّار لأنَّهم سيمكثون ويخلَّدون في النَّار.

ثمَّ يقول عليه الصلاة والسلام: "**ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتٌ، ويَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتٌ**"، فالنِّداء هنا "للتَّنبيه على إعدامه وأنَّه لا يعود"[٢]، ونُلاحظ أنَّ الرسول ﷺ هنا قدَّم أهل الجنَّة على أهل النَّار، وذلك لتعجيل المسرَّة لهم وهو نوعٌ من الحَفَاوةِ بهم، كما نُلاحظ في الصورة السابقة مجيء الأفعال على صيغة المضارع: "**يُؤْتَى، فَيُنَادِي، فَيَشْرَئِبُّونَ**

---

[١] **سبق تعريفه،:١٤٠.**

[٢] **سبق تعريفه،:١٢٧.**

[٣] **انظر: الباب الأول، الفصل الأول من هذا البحث،:٥٥.**

[٤] **فتح الباري، مصدر سابق، جـ١١،:٤٢٠.**

وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ، تَعْرِفُونَ، فَيَقُولُونَ" لتقريب الصُّورة وجعلها واقعيَّةً وكأنَّها تحدث الآن[١]، وهذه الصيغة جعلت الصورة أيضًا مُتحركةً بحيث تكون أكثر وضوحًا ويقينًا في النفس.

مما سبق نلاحظ أنَّ (الجدي، والغنم، والشاة، والكبش) من أوضع الحيوانات عند العربي، حيث إنَّها لا تحتلُّ المكانة العالية التي تحتلها (الإبل)، وإن كانت ذات فائدةٍ إلا أنَّ فائدتها لا تُقارن بفائدة (الإبل) و(الخيل)، وهي حيوانات تحتاج للحماية والرعاية لضعفها وقلة حيلتها، ومن هنا كان التشبيه بها في مواضع الضعف والهوان والتضحية.

- وقد استخدم عليه الصلاة والسلام حيوانات لم تكن موجودة في البيئة العربية، لكنَّ الصحابة قد رأوها وعرفوها في البيئات المجاورة، وتعرفوا على صفاتها وخصائصها الحميدة والقبيحة، منها: (الخنزير) فمن هذا المفهوم استخدمه ﷺ في ذمِّ عملٍ قبيحٍ رآه عليه الصلاة والسلام فنهى عنه، فعن سليمان بن بريدة[٢] عن أبيه أنَّ النبي ﷺ قال: **{مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ}**[٣].

فالدقائق والثواني لها أهميتها في حياة المسلم، بل إنَّها الحياة، ومن هنا فإنَّه ﷺ يشير إلى هذه الأهمية وإلى ضرورة استغلال الأوقات بما يعود على المسلم بالفائدة، فضرب لنا هذا التشبيه لمن يضيع وقته في أصناف اللهو كـ"النَّرد" وغيره، فقال عليه الصلاة والسلام: "**مَنْ**" ومن الشرطية هنا لفتت انتباه الصحابة وشدت اهتمامهم لما سيقوله ﷺ بعدها، فبعد أن شعر عليه الصلاة والسلام بأنَّه قد استحوذ على انتباه الصحابة ﷺ أردف بعد "مَن" قوله عليه الصلاة والسلام: "**لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ**"، و(النَّرد): "اسم أعجمي مُعرَّب، و(شير) بمعنى حلو، والنَّرد شيءٌ يُلعَب به، فارسيٌّ وليس بعربيٍّ، وهو النَّردَشِير"[٤].

---

[١] المثل السائر، مرجع سابق،جـ٢،:٤١٦.

[٢] سليمان بن بريدة بن الحُصيب الأسلمي المروزي، ثقة من الثالثة، مات سنة خمس ومائة، وله تسعون سنة. (تقريب التهذيب، الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، قدم له: محمد عوَّامة، ط٢،(حلب–سوريا: دار الرشيد، ١٤٠٨هـ)،:٢٥٠). بريدة بن الحُصيب: أبوسهل الأسلمي، صحابي، أسلم قبل بدر، مات سنة ثلاث وستين،(الإصابة، جـ١،:٥٣٣).

[٣] صحيح مسلم، مصدر سابق،جـ٤،:١٧٧٠، كتاب الشعر، باب تحريم اللعب بالنردشير، حديث رقم:٢٢٦٠.

[٤] لسان العرب، مصدر سابق،جـ٣،(باب الدال، فصل النون)،:٤٢١.

ويتضح من الحديث ومن قوله ﷺ أنَّه كان يُلعب بهذه اللعبة في عهده ﷺ، والجملة الفعلية: "**مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ**"، تدلُّ على استمرارية التحريم وتجدُّد هذا التحريم متى وُجدت هذه اللعبة أو ما شابهها.

فبعد أن سمع الصحابة ﷺ هذه الجملة التي أَوحت لهم في الوهلة الأولى بأمرٍ خطير، لم يُدركوا مضمونها وما يقصده منها عليه السلام حتى أردف عليه السلام بقوله: "**فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ**". ونُلاحظ الدَّور الذي لعبه حرف (الفاء) حيث أَشْعَرَنَا وجذَبَ انتباهنا لخطورة الحكم الذي يُريد ﷺ أن يصدره، ثمَّ اختياره عليه الصلاة والسلام لأداة التشبيه (كأنَّ) التي جعلت التشبيه أكثر قوَّةً[1]، ثم بإضافته عليه الصلاة والسلام لـ(ما) إلى (كأنَّ) أشعرتنا بشدَّة التحريم والمبالغة في الحكم الذي أصدره عليه الصلاة والسلام في حق من لَعِب بالنردشير، ولكن ما هذا الحكم الذي أصدره عليه الصلاة والسلام في هيئة تشبيهٍ مُقزِّزٍ مُنَفِّرٍ؟

يقول عليه السلام "**فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ**"، فالصَّبغ في الأصل: "التَّغيير، والصَّبغُ ما يُصْبَغُ وتُلَوَّنُ به الثِّياب"[2]، فالثِّياب عندما تُصبَغُ يتغير لونها ويبقى أَثَرُ الصَّبغ فيها، أيًّا كان هذا اللَّون المصبوغ، ومن هنا نُدرِك الدِّقة في اختياره عليه السلام لكلمة "**صَبَغَ**" بدلاً من أيِّ كلمةٍ أخرى "كأَدخلَ" أو "وضَعَ" لأنَّ الصَّبغ يبقى أثَرُهُ، وهذا ما أراده عليه الصلاة والسلام، فاللعب بالنرد يبقى أثره بعد أن يُلعب به أو بما شابهه، من تضييع للأوقات يتبعها تضييع للمصالح الشخصية والعامة وما يترتب على ذلك من الخسران والضياع، ثم اختياره عليه الصلاة والسلام لحرف الجر "في" يدلُّ على تمكُّن الصَّبغِ من اليد كلِّها وليس في جزءٍ منها، أي اشتمل اللحم والدم على اليد كلها وليس على جزء منها، لأنَّ معنى (في) "الوعاء"[3] فكأنَّ اليد كلها غمست في وعاء اللحم والدم، فاللَّعب بالنَّرد واللَّهو به يبقى أثرُهُ وتأثيره وذلك يتمثل في البُعد عن ذكر الله وعن الطاعات والعبادة. ثمَّ بعد ذلك يختار عليه الصلاة والسلام (اليد) للصَّبغ دون أي جزءٍ آخر من جسم الإنسان كالرِّجل مثلاً أو الشَّعر، لأنَّ اليد هي الجزء المستخدم في الأكل والشرب وتنظيف الجسم وغيرها، فكأنَّ الرسول ﷺ أراد أن يُنفِّر من هذه اللعبة بأن خص الصبغ باليد حتى تبقى آثار هذه اللعبة ماثلة أمام أبصارنا،

---

[1] **عروس الأفراح، مرجع سابق،ج٢،:١٨٩.**

[2] **المصدر السابق، ج٨،(باب الغين، فصل الصاد)،:٤٣٧.**

[3] **معاني الحروف، مرجع سابق،:٩٦.**

ولأنَّ اليد عادة ما تشترك في أي لعبة أخرى وأن اعتمدت بعض الألعاب على أجزاء أخرى غيرها، وهنا ندرك بلاغته ﷺ في اختيار الألفاظ في أيِّ عملٍ حتى اللَّعب، وإن كانت هناك بعض الألعاب تستدعي أن يشارك الإنسان بأجزاءٍ أخرى من جسمه كالرِّجل والبصر وغيرها، إلا أنَّ النَّرد بالذَّات تكون اليد هي الجزءُ الأهمُّ في هذه اللعبة، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يُنفِّر كلَّ من لَعِب بهذه اللعبة بتشبيهه لمن لعبها بأنَّه قد صَبَغَ يده بدم ولحم الخنزير، فلحم الخنزير ودمه أكثر اللحوم احتواء للجراثيم والميكروبات في حالة أكله وطبخه، فكيف إذا كان من غير طبخ وكان متروكًا متعفنًا؟ فإنَّ كمية الجراثيم والأمراض تتكاثر في اليد وخاصة إذا كان في اليد دم من دمه، فإنَّ ذلك يساعد على تكاثر هذه الجراثيم وزيادة الأمراض، فتمرض اليد ويزداد احمرارها من تلك الجراثيم المتراكمة، فبشاعة هذه اللُّعبة "وحرمتُها كحُرمةِ المُشبَّه بِهِ"[١].

بالإضافة إلى أنَّ لون الدم الأحمر مصبوغٌ في اليد، يدلُّ على قساوة القلب وعنفه وجبروته وبُعده عن الله في إضاعة الأوقات بما يُلهي عن الطاعة وعن العبادة وما يعود على الإنسان بالفائدة، وكلما بَعُد الإنسان عن الله ازداد قلبُهُ قسوةً وخشونةً بفعل اللَّهو، وقد تؤدي هذه الخصال إلى العنف بين اللاَّعبين ممَّا يورِث في قلوبهم البغضاء والحسد الذي يؤدي عادةً إلى الشِّجار، وقد يحصل ما لا يُحمَد عقباه، فيعتدي أحدهُم على الآخر فتسيل الدِّماء، وتنزف الجراح، فمن هنا نفهم لماذا عبَّر ﷺ في تشبيهه بـ(الدم)، ويبقى أن نعرف السر وراء اختياره عليه الصلاة والسلام للَّحم ودم الخنزير دون غيره من الحيوانات؟

"لقد اكتشف الأطباء مؤخرًا أنَّ لحم الخنزير يحمل جراثيم شديدة الفتك، كما أنَّ المُتغذي من لحم الخنزير يكتسب من طباع ما يأكله، والخنزير فيه من الطباع الخبيثة الكثير، أشهرها عدم الغِيرَة والعفة، فهو من الحيوانات التي تأكل القمامة والقاذورات والنَّجاسات، بل إنَّه يترك فريسته حتى تتعفَّن ثم يأكلها، وإذا لم يجد ما يأكله فإنَّه يقوم بأكل ما يتبرَّزُه"[٢].

ومن الأمراض التي يسببها لحم الخنزير على سبيل المثال لا الحصر: "اضطرابات مختلفة في الجهاز الهضمي مع ضعفٍ عامٍّ ونُحولٍ واصفرارٍ في الوجه بسبب الدُّودة الشَّريطية الموجودة في

[١] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق، ج٥،:١٦.**

[٢] **موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي الشريف، عبد الرحيم مارديني، ط١، (دمشق: دار المحبة للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م)، :١١١-١١٢.**

لحم الخنزير، كما يحتوي لحم الخنزير على كميَّة كبيرة من حمض البوليك خلافًا لسائر الحيوانات، كما يسبب لحم الخنزير التهاب السَّحايا والمخ نتيجة الإصابة بالميكروب السيحي الكثير الشيوع في لحم الخنزير، بالإضافة إلى أمراضٍ نفسيَّة أخرى يسبِّبها لحم الخنزير مثل موت النَّخوة، وعدم الغِيرة على الأهل، والخنزير من الحيوانات آكلات اللحوم، فهو أكثرها عنفًا وشراسةً، وتنتقل هذه الصفات العُدوانية إلى آكل لحم الخنزير"[١].

مما سبق يتضح لنا أنَّه لا يوجد حيوانٌ يحمل لحمه ودمه هذا الكم الهائل من الجراثيم والميكروبات والطُّفيليات الضَّارة للإنسان غير هذا الحيوان، فحتَّى الحيوانات المُفترسة والخطيرة على حياة الإنسان قد يُستفاد من جلدها أو قُرونِها أو عظامِها أو سمِّها.

بالإضافة إلى أنَّ الخنزير يحمل الطباع الشَّرسة التي قد يكون هناك شيءٌ منها أو كلها فيمن يأكل لحمه ويقابله (النَّردشير) فإنَّه يُؤثِّر ويُورِث فيمن لَعِبه شيئًا من الطباع السيئة.

لقد أراد النبي ﷺ أن يُنفِّر ويُحرِّم هذه اللعبة وما كان على شاكلتها من الألعاب المُحرمة كالميسِر والقِمار بالتَّشبيه بهذا الحيوان الذي لا يُوجد في خَلْقِهِ أو خُلُقِهِ شيءٌ جميلٌ حسنٌ يمكن أن يُستفاد منه، بل على العكس تمامًا، وكذلك من لَعِبَ بهذه اللعبة أو ما شابهها فلا فائدة يخرج بها غير تضييع الأوقات فيما حرم الله.

ونلاحظ أنَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الصورة اعتمد على مشبه به ليس موجودًا في البيئة العربية، وخالف بذلك ما ذكره علماء البلاغة من أنَّ الصورة التشبيهية عند العرب تعتمد على ما رأوه وعرفوه في بيئتهم، يقول ابن طباطبا: "واعلم أنَّ العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عِيانها ومُدَّت به تجاربها وهم أهل وبرٍ، صحونهم البوادي، وسقوفهم السماء، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منهما وفيهما"[٢].

ونفهم من قول ابن طباطبا أنَّ التشبيه لا بد أن يكون مستمدًا من حياة وواقع وبيئة الأشخاص المعقود التشبيه لهم، وإلا فإنَّ تأثيره يكون مؤقتًا، وتصبح هذه التشبيهات غير

---

[١] **الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة، حسن ياسين عبد القادر،ط١،(القاهرة: أميرة للطباعة عابدين،١٤١٧هـ)، :٥٦.**

[٢] **عيار الشعر، أبو الحسن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع،(القاهرة: مكتبة الخانجي)،:١٥.**

صالحة للانتشار مع مرور الوقت واختلاف الأزمان، فتفقد تأثيرها عند من لم تكن هذه التشبيهات مستمدةً من بيئتهم، فهي صورة صالحة لبيئة معينة وزمان معين، وهذا ما قصده القاضي الجرجاني بقوله: "وقد يكون في هذا الباب ما تتسع له أمةٌ وتضيق عنه أخرى ويسبق له قوم دون قوم، لعادة أو عرف أو مشاهدة أو مراس، كتشبيه العرب العادة الحسناء بتريكة النعامة، ولعل من الأمم من لم يرها، وحمرة الخدود بالورود والتفاح وكثير من الأعراب من لم يعرفها، وكأوصاف الفلاة وفي الناس من لم يصحر، وسير الإبل وكثير منهم لم يركب"[١].

ولكنَّ الملاحظ أنَّ الصورة التشبيهية في حديثه عليه الصلاة والسلام لم تكن مستمدة من بيئته ﷺ ولا أصحابه ﷺ، ومع ذلك كله فقد كانت مؤثرة خالدة إلى يومنا هذا، ونحن نفهمها ونعيشها ونشعر بتأثيرها وبالمقصود منها، فما الذي جعلها خالدة إلى يومنا هذا؟ إنَّه بكل وضوح البيان النبوي وما يحويه من قوة وعمق وإحكام في اختيار الصورة التشبيهية التي تغوص في أغوار النفس الإنسانية فتلامس أبعاد هذه النفس وتؤثر فيها تأثيرًا كبيرًا، ما مكَّن لهذه التشبيهات أن تكون خالدة على مر الأزمان، وليس ذلك إلا للبيان النبوي.

- ومن الحيوانات التي استخدمها عليه الصلاة والسلام في تشبيهاته نتيجة لتربية العرب لها ووجودها في بيئتهم (البقرة) و(الثور)، وقد يكون استخدامه عليه الصلاة والسلام لهذه الحيوانات لاتصافها بصفة معينة لا توجد إلا فيها، كاستخدامه عليه الصلاة والسلام البقر للتشبيه بنوع من السياط، فعن أبي هريرة رضي الله عنه[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: **{صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا}**[٣].

---

[١] **الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني،تحقيق: هاشم الشاذلي، (دمشق–سوريا: دار إحياء الكتب العربية):١٨٦.**

[٢] **تقدمت ترجمته،:١٢٦.**

[٣] **صحيح مسلم، مصدر سابق،ج٣،:١٦٨٠، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، حديث رقم:٢١٢٨.**

في هذا الحديث معجزةٌ من معجزات الرسول ﷺ وهو إخباره عن أمرٍ غيبيٍّ ظهر في زمننا ولم يظهر في زمنه ﷺ، والحديث يشتمل على صورتين مرتبطتين بإطارٍ واحدٍ هو الحكم الذي أصدره عليه الصلاة والسلام على التشبيهين بقوله: "صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ"، فقد بدأ عليه السلام حديثه بالإجمال ثم التفصيل، حيث إنَّ كلمة (صنفان) حملت معنى العدد، إلا أنَّ هذا العدد يحمل الاختلاف في كلِّ معدودٍ، مع أنَّ الحكم على كلٍّ منهما واحدٌ وهو أنَّهما "مِنْ أَهْلِ النَّارِ"، هذه الجملة الاسمية دلَّت على ثبوت هذا الحكم واستمراره على كل من اتصف بهذه الصفة التشبيهية، بالإضافة إلى أنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: "**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**" فيه تشويق لمعرفة الأسباب التي أدت بهذين الصنفين إلى النار، وفي جملة: "**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**" حذف للمسند إليه[١] وهو المبتدأ، لأنَّ الأصل: "هما صنفان" فحذف المسند إليه "هما" لأهمية المسند "صنفان" و للتركيز عليه، لأنَّ الغرض هو توضيح أنهما صنفان اثنان، كما أدى حذف المسند إليه إلى شعورنا بالاحتقار والاستهزاء لهذين الصنفين لما يصنعانه من المعاصي الموجبة لغضب الله عز وجل، وكلٌّ من الصورتين مرتبطتين بالمستقبل، يدل على ذلك قوله ﷺ: "**لَمْ أَرَهُمَا**"، فالنفي يدل على عدم وجودهما في زمن الرسول ﷺ، وهذا التعبير المُجمل أراد ﷺ من خلاله أن يمهِّد به ما يرد بعده من التفاصيل الموضحة لأسباب هذا الحكم الذي أصدره عليه الصلاة والسلام.

فالصورة الأولى "**قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ**"، وهذه الصورة حذف فيها المسند إليه، والأصل "هم قوم معهم سياط"، فحذف المسند إليه هنا لاحتقارهم لأنَّهم عُصاة، ولبيان وتوضيح صفتهم التي اتصفوا بها وكانت سببًا لأن يكونوا من أهل النار. فهؤلاء القوم هم أولئك القُساة الظَّلَمة الذين يسومون الناس سوء العذاب بضربهم وتعذيبهم، وهذا مُشاهد ملحوظ في هذا الزمان، فكم من مظلوم يئنُّ تحت وطأة الألم إمَّا في السُّجون بغير ذنب، يذوق أصناف العذاب وأنواعه، وإمَّا خارجها ممن أراد الله لهم أن يكونوا تحت إمْرَةِ ظَلَمَةٍ جبَّارين، لا تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلًا، فيعملون على تعذيب من تحت أيديهم بالضرب والإهانة والتعذيب والتنكيل لا لشيء بل لمجرد حبِّ التعالي وتعذيب الناس.

---

[١] **المسند إليه:هو المحكوم عليه أو المخبر عنه. (انظر:المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، :٨٨).**

وتوحي جملته ﷺ: "**قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ**" بتلازم وتلاصق كلٍّ من المشبه بالمشبه به تلازمًا وتجاورًا يدل على ثبوت ودوام هذه الصورة التي رسمها عليه الصلاة والسلام لهذا الصنف من الناس، والذي أوحى بهذا التلازم والتلاصق حرف التشبيه "الكاف" بحيث لا تنفك عنهما هذه الصفة، كما تدل على وجودهم في كل زمنٍ يأتي بعد زمن النبي ﷺ، وقد صورهم عليه الصلاة والسلام وكأنَّه يشاهدهم ويراهم يحملون في أيديهم سياطًا يضربون بها الناس. والسياط: جمع سوطٍ "وهو الذي يُجلد به، ويكون مصنوعًا من الجلد المظفور فإذا ضُرب به كان أكثر ألَمًا من العصا، وسمي سوطًا لأنه إذا سِيط به إنسانٌ أودى به خلط الدم باللحم، فينتج عن ذلك ألمٌ شديدٌ"[١].

وهذه السِّياط شبهها عليه الصلاة والسلام بأذناب البقر، حيث من الملاحظ أنَّ "أذناب البقر تكون من الأعلى غليظة مكسوَّة بجلدٍ يصل إلى نهاية الذَّنَب حيث يوجد به قليلٌ من الشعر الطويل، وذنب البقر يتميَّز بالطُّول نسبيًّا، وهو عريضٌ من الأعلى يتدرج في النُّحف حتى يصل إلى أسفل الذَّنَب"[٢]، وهذا ما جعل الرسول ﷺ يختار أذناب البقر لصورته التشبيهية حيث إنَّها متشابهة تمامًا مع هذه السِّياط، وقد لا نجد ما يشبِه هذه السياط من أذناب الحيوانات الأخرى كالخيل والحمير وغيرها، وقد كان عليه الصلاة والسلام دقيقًا في اختيار المشبه به الذي يتطابق مع المشبه من حيث الغلظة والقوة والطول، وقوة الضرب وشدته الذي ينتج من هذه الهيئة والتركيبة للذنب والسياط.

ولعل الأمر الآخر الذي جعله ﷺ يشبِّه بالذَّنَب دون غيره من أجزاء جسم الحيوان هو بغضه عليه الصلاة والسلام للظُّلم وأهله، فالذَّنب أهون وأقذر ما في الحيوان، حيث إنَّه يقوم بتغطية عورة الحيوان، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يربط بين قذارة هذا الذَّنب وخسَّة نُفُوس هؤلاء الظَّلمة ودناءتهم، ونلاحظ أنَّه ﷺ قد ربط بين الصورة الأولى والصورة الثانية بحرف العطف(الواو)[٣] لكي يدخل الصورة الثَّانية وهي قوله:"**وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ**" في حكم الصورة الأولى وهو أنَّهما من أهل النَّار معًا، وقد نعت عليه الصلاة والسلام هذا الصنف من

---

[١] **لسان العرب**، مصدر سابق، (باب الطاء، فصل السين)،:٣٢٦.

[٢] **موسوعة الحيوان**، مرجع سابق،:٥٥.

[٣] **حاشية الدسوقي**، مصدر سابق،ج١،:٩٧.

أهل النار بعدَّة أوصاف في قوله: "**وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ**" ونُلاحظ أنَّه ﷺ قد نكَّر كلمة (نساء) احتقارًا وازدراءً لهنَّ على هذا الفعل .

فأوَّل هذه الأوصاف أنهنَّ كاسياتٌ عارياتٌ، "قِيل معناه كاسياتٌ من نعمة الله عارياتٌ من شكرها، وقيل معناه تستر بعض بَدَنِها وتكشف بعضه إظهارًا لجمالها ونحوه، وقيل معناه تلبس ثوبًا رقيقًا يصف لون بدنها"[٤]، وقد تكون تلبس ثيابًا ضيِّقةً بحيث تصف كلَّ بدنها بحيث تبدو وكأنَّها عارية. ونلاحظ أنَّ الطباق[٥] هنا في قوله: "**كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ**"، لا بد منه؛ إذ إنَّ اجتماع الضدين "كاسيات" و"عاريات"، أديا إلى اكتمال الصورة والمعنى، فلو ذكرت إحدى اللفظتين كلفظة "كاسيات" وحدها دون ذكر ضدها "عاريات" لأدى إلى خلاف المعنى ولتوُهم أنَّهنَّ كاسياتٌ فقط، ولكنَّ ذكره للفظة "عاريات" أوصل المعنى والصورة كاملة لأنَّ الغرض هو بيان أنَّهنَّ كاسيات، ولكنَّ هذه الكسوة غير ساترة لمفاتنهنَّ فكأنَّهنَّ عاريات، وهذا هو الغرض من الطباق وهو مقصده ﷺ.

والصفة الثانية أنَّهنَّ مائلاتٌ مُميلاتٌ، "وأمَّا مائلاتٌ فقيل معناه عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه، مُميلاتٌ أي يعلِّمن غيرهن فعلهنَّ المذموم، وقيل: مائلاتٌ يمشِينَ متبختراتٍ مُميلات لأكتافهنَّ، وقيل: مائلاتٌ يمشطن المشطة المائلة وهي مشطة البغايا، مُميلاتٌ يمشطن غيرهن هذه المشطة"[١]، وفي قوله: "**مائلاتٌ مُميلاتٌ**" جناس اشتقاق[٢]، لأنَّ الأصل اللغوي واحد، وهذا الجناس أوضح أنَّ هذا الصنف من النساء لا يكتفين بغواية أنفسهنَّ، بل إنَّهنَّ يُغوين غيرهنَّ من النساء بالتشبه بهنَّ، والرجال في جذبهم إليهنَّ، وقد جاءت الأوصاف السابقة لهذا الصنف من النساء "**كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مائلاتٌ مُميلاتٌ**"، على وزن (فاعل) وبدون عطف بين الجمل ما يصور الغنج والعوج والخلاعة ويجسد صورة الغواية وسرعة التأثر والجذب للنفوس الضعيفة.

---

[٤] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق، ج٧، :١١٠.**

[٥] **الطباق:الجمع بين المتضادين في الجملة. (انظر:الإيضاح في علوم البلاغة،مصدر سابق،:٢٨٨).**

[١] **صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق، ج٧، جزء١٤،:١١٠.**

[٢] **جناس الاشتقاق: أن يجمع الاشتقاق اللفظين، بمعنى أن يجمعهما أصلٌ واحد في اللغة. (انظر:البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، مرجع سابق،:١٦٥).**

"ليس هناك أوجز من هذا التصوير للنِّساء اللاتي يمشينَ في الشوارع لابساتٍ ثيابًا قصيرةً جدًّا دون أكمامٍ، وربَّما يكون ثوب إحداهنَّ مفتوحًا من موضع الصدر والظهر والجانبين فمن تلبسه تكون كاسيةً لأنَّ عليها كساءً، ومن تلبسه تكون عاريةً لأنَّها لا تستر من جسمها ومفاتنها شيئًا بل لا تكاد تخفي إلا القبيح المُنفِّر"[٣]، وهذا النوع من النساء لا يوجد في الشوارع فقط بل في وسائل الإعلام المقروءة والمرئية .

وبعد هذه الأوصاف لهذا الصنف من النساء أردف عليه الصلاة والسلام بصورة تشبيهية في قوله: "**رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ**" فالبُخت "نوعٌ من الجمال طويلة الأعناق عظيمة السَّنام"[٤]، فوصف مشطتهنَّ في ضخامتها وارتفاعها فوق رءوسهنَّ بأسنمة الجمال البختية، واختارها من بين أنواع الجمال لطول عنقها وعظم سنامها، ولنتأمل جمال هذا التصوير، فالشيء الثقيل حين يكون فوق مرتفع نحيل وطويل يزيد ميلانه، ولكن لتصوير شدة الحركة والاضطراب، جاء رسول الله ﷺ بلفظة "**مائلة**".

"ولنا أن نتصوَّر كيف ضُخِّمَ التَّشوُّه في تصوير النساء، إذ تربع كائنٌ ضخمٌ على الكاسيات العاريات المُميلات المائلات وهو بحجم سنام الجمل فوق قاعدةٍ ترتَجُّ وتتقلقل وتتذبذب بين هذه الناحية وتلك، وقد آلت صورة النساء إلى لقطة مكبَّرة تملأ الأبصار وتحتويها لكونها حركة تشدُّ الانتباه لغرابتها، ويتجلَّى فيها مشهد الرأس وحده بعد مشهد الجسد كله، وقبح هؤلاء النسوة يناسب البدء من الجسد لاتصافهن بالشهوة الحيوانية، وإغراء الناس واستفزاز الغرائز المريضة، إذ بدأ التصوير بالتدرُّج من الشكل الجسدي إلى الحركة في الرأس"[١].

ونلاحظ البراعة والدقة في التشبيه، فالسَّنام أعلى شيء في الجمل، والشعر أعلى شيء في جسد المرأة، والجمل عندما يمشي يتمايل السنام والمرأة عندما تضع شعرها بهذه الطريقة فوق رأسها فإنَّها تشعر بالخُيلاء وبأنَّها قد جذبت أنظار الآخرين ما يجعلها تمشي وتتبختر في مشيتها وتتمايل.

---

[٣] **التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق،: ١٨٠.**

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق،(باب التاء، فصل الباء)،: ٩.**

[١] **الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،: ٧٢٢-٧٢٣.**

وقد ختم عليه الصلاة والسلام حديثه بما يفزع له قلب كل إنسانٍ وهو قوله: "**لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا**"، فأكَّد عليه الصلاة والسلام عدم دخول هذا الصنف الجنة بتكرار النفي في قوله: "**لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا**"، مبالغة منه ﷺ في عدم دخولهنَّ الجنة، ولنتأمَّل لفظة "**يجدن**" ولماذا اختارها عليه الصلاة والسلام بدلاً من "يشممن ريحها"؟ فالمعلوم أنَّ الشيء إذا وجد كان بالإمكان شمه ولكن إذا لم يوجد أساسًا فلا يمكن شمُّه إطلاقًا، وهذا ما قصده عليه الصلاة والسلام من اللفظة "**يَجِدْنَ رِيحَهَا**"، فكيف يشممن ريح الجنة إذا لم يكنَّ من أهلها أصلا؟

هذه هي الخاتمة التي أكَّد بها على ما بدأ به حديثه حين قال عليه الصلاة والسلام "**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا**" فهذه الخاتمة تأكيد للحكم الصادر في بداية الحديث وهي قوله: "**لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا**".

لقد احتوى الحديث على عددٍ من الجمل الاسمية التي تدلُّ على الثبوت والاستمرار وذلك تخويفًا وتحذيرًا منه ﷺ لأمته، والحديث من معجزات الرسول ﷺ، فقد أخبر عن أمورٍ لم يَرَها ثم كانت وتحقَّقت نبوءته ﷺ .

- أما الثور فيوجد حيث يوجد البقر، وهو من الحيوانات الأليفة الكبيرة، وقد اعتمد عليه العرب في مزارعهم لحرث الأرض، وقد يستخدم للأكل، وقد أدرك عليه الصلاة والسلام كل ذلك فأورده في تشبيهاته لصفةٍ وُجدت به دون غيره من الحيوانات، فعن عَمرو بن مَيمُون[1] عن عبدِ اللهِ[2] قَال: قَالَ لَنَا رسُولُ الله ﷺ: **{أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ. قَالَ: فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ. قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثمَّ قَالَ: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ**

---

[1] **عمرو بن ميمون بن مهران، سبط سعيد بن جبير، ثقة فاضل، مات سنة سبع وأربعين. (الإصابة،ج٨، :١٢٢).**

[2] **عبد الله بن مسعود بن غافل، من السابقين الأولين ومن كبار الصحابة، أمره عمر على الكوفة، مات سنة اثنتين وثلاثين بالمدينة. (الإصابة، ج٦،:٣٧٣).**

عَنْ ذَلِكَ، مَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلاَّ كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ، أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ}[٣].

قوله ﷺ: **"أَمَا تَرْضَوْنَ؟"** فيه تقريرٌ لأصحابه رضوان الله عليهم في شيءٍ عظيمٍ، يعلم أنَّ الجميع يرغبون فيه، ولكنه يقررهم ترغيبًا وتشويقًا لهم إليه، وتكريره للسؤال فيه زيادة تشويقٌ لهم لما سيأتي بعده، "أما تكبيرهم فلسرورهم لهذه البشارة العظيمة، وأما قوله ﷺ ربع أهل الجنة ثم ثلث أهل الجنة ثم الشطر ولم يقل أولاً شطر أهل الجنة "- والشطر النصف"[٤]- فلفائدة حسنة وهي أنَّ ذلك أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم، فإنَّ إعطاء الإنسان مرةً بعد أخرى دليلٌ على الاعتناء به ودوام ملاحظته، وفيه فائدةٌ أخرى هي تكريره البشارة مرةً بعد أخرى، وفيه أيضًا حملهم على تجديد شكر الله تعالى وتكبيره وحمده على كثرة نعمه"[٥].

ثم يدلّل لهم ﷺ على صدق كلامه بصورةٍ تشبيهيةٍ يراها الناس كثيرًا فقال: **"مَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلاَّ كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ، أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ"**، فالشعرة البيضاء تمثل المسلمين وكيف أنَّهم قليلون بالنسبة للمشركين وللأمم الأخرى، وقد اختار الرسول ﷺ للتشبيه بالمسلمين اللون الأبيض حيث يوحي بالنُّور والإيمان والصفاء والخير، وهو ما يتصف به المسلمون، وفي المقابل نلاحظ اختيار اللون الأسود للكفر وأهله وهو ما يوحي لنا بالظُّلمة والضلال والكفر، وقوله: **"أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ"**: قال مسلم في شرح النَّووي: قوله: **"كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ"** هذا شكٌّ من الراوي"[١]، يدل على ذلك وجود الحرف (أو)، وهذا دليل على شكِّ الراوي في أصل التشبيه"[٢]، إذ إنَّ المسلمون يُكرمون باللون الأبيض لا الأسود فيكون اختيار الرسول ﷺ في تشبيهه لهم باللون الأبيض فيه تكريمٌ لهم.

---

[٣] صحيح مسلم، مصدر سابق، جـ١،:٢٠٠، كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، حديث رقم:٢٢١.

[٤] لسان العرب، مصدر سابق، جـ٤، (باب الراء، فصل الشين)،:٤٠٦.

[٥] صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق،جـ٢، :٩٥.

[١] المصدر السابق، جـ٢، جزء٣،:٩٥.

[٢] الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٦١٨.

وقد أجاد الرسول ﷺ في اختيار اللونين حيث إنَّ كلًّا منهما يؤدي إلى تمييز الآخر وهذا ما قصده عليه الصلاة والسلام، فالمسلمون على الرَّغم من قلتهم فإنَّهم مميَّزون واضحون في شئون حياتهم فاعلين في هذه الحياة لأنفسهم ولغيرهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنَّ هذا التميز بين اللونين أدَّى إلى وضوح قلة عدد المسلمين بالنسبة لغيرهم من المشركين، كما أنَّ في قوله عليه الصلاة والسلام **"كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ"** طباق تضادٍّ[٣] بين لفظتي "بيضاء، أسود"، وهذا التضاد خدم الصورة البيانية وجعلها أكثر وضوحًا وتميزًا لكل من اللونين، إذ أنَّ صورة اللون الأبيض تكون أكثر تميزًا ووضوحًا مع الأسود، وكذلك اللون الأسود وهو الغرض من الطباق حيث أدى إلى تميز المسلمين ووضوح قلة عددهم بالنسبة للأمم الأخرى.

وقد عمد عليه الصلاة والسلام إلى تركيب صورة التشبيه بأسلوب القصر[٤] عن طريق النفي والاستثناء لإثبات تميُّز وخيرية الأمة الإسلامية لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فهم أفضل الأمم، اختار لهم أفضل القِبل وأفضل الرُّسل وأفضل الكتب، وخصهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، فاستحقوا بذلك أن يؤكد لهم عليه الصلاة والسلام عن الطريق النفي والاستثناء بأنَّهم نصف أهل الجنة، وعلى الرغم من قلتهم فإنَّهم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، فمجيء الصورة التشبيهية بالنفي والاستثناء كان لإزالة الشك من نفوسهم والتأكيد لهم على أنَّهم نصف أهل الجنة.

ولعل اختيار الرسول ﷺ للثَّور دون غيره من الحيوانات كالإبل مثلًا، يرجع أولًا إلى أنَّه أكبر الحيوانات الأليفة التي عرفها العربيُّ بعد الإبل، وثانيًا أنَّ الثور يميز بالجلد ذو الشعر أو الوَبَر ثُنائِي اللون، أي أنَّ شعره عادةً يتكون من لونين على عكس الإبل حيث يتصف وَبَره "بصفاء اللون"[١].

لقد كان تشبيه النَّبي ﷺ في غاية الدِّقة حيث إنَّه "كشف بطريقة محسوسة عن قلَّة عدد المسلمين، وفي نفس الوقت أوضح أنَّهم ظاهرون متميِّزون وسط هذا الغُثَاء من الناس، فالشعرة البيضاء في ثورٍ أسود لا شك في أنَّها تكون ظاهرةً واضحةً تلفت الأنظار، فالتشبيه يُبرز دقة

---

[٣] **سبق تعريفه،: ١٩١.**

[٤] **سبق تعريفه،: ١٧٥.**

[١] **موسوعة الحيوان، مرجع سابق،: ١٠.**

اختيار المصطفى ﷺ للألفاظ المناسبة ووضعها في مكانها المناسب، فاختياره ﷺ للشَّعرة ووصفها بأنَّها بيضاء ثم إخباره بأنَّها في ثورٍ أسود لهو تشبيه يُظهِر أنَّ المسلمين رغم قلتهم فإنَّهم يمثلون نصف أهل الجنة، هذا التشبيه أفهم السامعين المراد وأعطاهم صورةً واضحةً عن فضل الله على هذه الأمة"[٢].

لقد لاحظنا أنَّه عليه الصلاة والسلام يعمد إلى التشبيه بحيوان معين لاتصافه بصفة معينة قد لا توجد في غيره، فعندما شبه ﷺ السياط بأذناب البقر لاحظنا أنَّه لا يوجد من الحيوانات من يشبه ذيله السياط إلى درجة كبيرة جدًّا مثل (البقر)، وهنا ندرك الغرض من اختياره دون غيره.

وإذا نظرنا إلى الثور في التشبيه الآخر، وجدنا أنَّ الثور يعد الحيوان الوحيد الأكبر جسمًا الذي يحتوي جلده على لونين، من هنا نفهم السر وراء اختيار حيوانات بعينها دون أخرى، وهذا من بلاغته ﷺ البيانية.

- ويستخدم عليه الصلاة والسلام (الحمار) الذي عُرف عند العرب بالذُّلِّ والهوان وبشاعة المنظر في التنفير والتحذير من فعلٍ قام به أحد الصحابة رضي الله عنهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه[١] قال: قال محمَّدٌ ﷺ :**{أَمَا يَخْشَى الذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ؟}**[٢]

فلعظم مكانة الصلاة في الدين الإسلامي، ولأنَّها الرابط الذي يصل العبد بربه، فقد نهى عليه الصلاة والسلام عن أمورٍ قد تقع في العبادة حرصًا منه ﷺ على أن تكون عبادتنا صحيحة خالية من المخالفات والبدع، من ذلك هذا الحديث الشريف الذي بدأه ﷺ بهذا الاستفهام[٣] الذي قصد منه عليه الصلاة والسلام التوبيخ، ونلاحظ أنَّ الرسول ﷺ قد بدأ حديثه بهمزة الاستفهام ثم قرنها بـ(ما)، "فهمزة الاستفهام إذا قُرنت بـ(ما) دلت على التقرير

---

[٢] **أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق،:٦٥-٦٦.**

[١] **تقدمت ترجمته،١٢٦.**

[٢] **صحيح مسلم، مصدر سابق،ج١،:٣٢٠، كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما، حديث رقم:٤٢٧.**

[٣] **سبق تعريفه،:١٢٧.**

والتحقيق"[٤] فرسول الله ﷺ قد علم أنَّ هناك من أصحابه من يقوم بهذا العمل، فجاء استفهامه استفهامًا شديدًا توبيخًا منه ﷺ لمن يقوم بهذا العمل في صلاته.

"إنَّه تهديدٌ شديدٌ مُخيفٌ يُوجَّه إلى أولئك الذين يُسابقون الإمام فيرفع أحدهم رأسه قبل الإمام سواءً في الركوع أو السجود"[٥].

ثم إنَّه عليه الصلاة والسلام بعد هذا الاستفهام عمد إلى "تخصيص هذا الفعل بالفاعل باستخدام الاسم الموصول (الذي)"[٦] حتى يوحي لنا بشناعة هذا الفعل وبشاعته فيُنفِّر من هذا الفعل في الصلاة، كما أنَّه يدل على علمه ﷺ مسبقا بأنَّ هناك من يقوم بهذا الفعل في الصلاة فيشعر السامع لهذا الحديث بالخجل من هذا الفعل مما يجعله يبادر إلى التوبة وإلى متابعة الإمام في الصلاة.

ثم يصور ﷺ في حديثه حال من يرفع رأسه قبل الإمام بصورةٍ بشعةٍ مقزِّزةٍ، وهذه الصورة هي عقاب من الله لمن يقوم بهذا الفعل، فيقول عليه الصلاة والسلام: "**أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ؟**" صورة تشبيهية بدأها عليه الصلاة والسلام بالتأكيد على قدرة الله عز وجل على مسخ رأس هذا المُذنب إلى رأس حمار، ويزيد التشبيه تأكيدًا حذف أداة التشبيه فتصبح الصورة التشبيهية حقيقة أكيدة ماثلة للعيان، ونلاحظ أنَّ رسول الله ﷺ عمد إلى اختيار الرأس الذي يوجد به جميع ملامح الإنسان التي تعني له ذاته وما يتعلق بها، وهذه الذات بكل ما فيها من ملامح هي محل اعتزاز الإنسان وفخره بنفسه، وأي شيء يصيبها يسبب له الحزن والألم، فكيف إذا حُولت هذه الرأس بكل ما فيها من ملامح إلى رأس حمار! لذلك كرر عليه الصلاة والسلام لفظة "الرأس" في قوله "**رَأْسَهُ رَأْسَ**" للتهكم والسخرية والتركيز على هذا الجزء من الجسم، ثم التأكيد على بشاعته وتشوهه.

هذه الصورة ترسم في مخيلتنا ذلك الرأس الكبير مع الأذنين الطويلتين بالإضافة إلى الصوت القبيح وصفات الغباء والبلادة التي يتصف بها الحمار، ويزيد الصورة التشبيهية بشاعةً

---

[٤] **معاني الحروف، علي بن عيسى الرماني،حققه: عبد الفتاح إسماعيل شلبي،ط٣،(جدة: دار الشروق، ١٤٠٤ هـ)،:٣٢-٣٣.**

[٥] **التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٣١٩.**

[٦] **دلائل الإعجاز، مصدر سابق،:١٥٩.**

أن يكون الرأس رأس حمار والجسد جسد إنسان، إنَّ هذه الصورة المقززة التي تحمل كل صفات ومعاني البشاعة لتدعو كل من سَابَقَ الإمام فَرَفَعَ قبله في الصلاة تدعوه إلى التفكير في الحال والمآل الذي ينتظره عندما يقوم بهذا الفعل في صلاته، فيُسارع إلى التوبة وتركه.

- وفي موضع آخر يحذِّر أيضًا عليه الصلاة والسلام من عاقبة الذي يُظهر غير ما يُبطن بصورة تشبيهية مخيفة تحدث في الآخرة يكون حال المشبه كحال هذا الحمار الذي أخبر عنه عليه الصلاة والسلام، فعن أسامة بن زيد ﵁[1] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **{يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقَ أَقْتَابُهُ فِي النَّار فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ، أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ}**[2].

فيصوِّر لنا عليه الصلاة والسلام صورةً من صُورِ الآخرة، ومنظرًا من مناظر العذاب أعاذنا الله منه، وهذا المنظر لرجلٍ كان يأمُرُ بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه، وذلك تحذيرًا لأن نكون من هذا الصنف من أهل النار، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يَمْقُتُ صاحب هذا الفعل ويتوعَّدُهُ بِالعذاب الشَّدِيدِ، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}**[1]، وقوله عزَّ وجلَّ: **{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}**[2].

يقول ﷺ: **"يُجَاءُ بِالرَّجُلِ"**، فالفعل مبنيٌّ للمجهول، والفعل يوحي لنا بحقارة هذا الرجل وكراهيته حتى أنَّ ملائكة العذاب تكره هذا الرجل وتكره فعله الذي قام به، فهي مُستحقِرة له كارهة لعمله، وكأنَّه قطعةٌ من جمادٍ أو خشبٍ تُلقَى في النَّار.

---

[1] أسامة بن زيد بن حارثة، صحابي مشهور، مات سنة أربع وخمسين وهو ابن خمس وسبعين بالمدينة. (الإصابة، جـ١، :١٠٢).

[2] صحيح البخاري، مصدر سابق،جـ٤،:٩٠، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنَّها مخلوقة.

[1] سورة الصف، الآيات:٢-٣.

[2] سورة البقرة، الآية:٤٤.

ونرى أنَّه عليه الصلاة والسلام قد قدَّم الجار والمجرور (بالرجل) على الظرف (يوم القيامة) وذلك للتَّنبيه على ما خُصِّصَ "لهذا الرجل من العذاب، ثم ذكره ﷺ للظرف (يوم القيامة) له أهميته البالغة إذ أنَّه يومٌ فيه من المَشاقِّ والأهوال الشيء الكثير، فكيف إذا أُضيف إلى ذلك الفضيحة أمام الناس والعذاب الشديد، فالتذكير به يحمل في طيَّاتِه الخوف والفزع في هذا اليوم، لكن ما الذي يحدث لهذا الرجل في هذا اليوم؟ يقول عليه الصلاة والسلام: "فَيُلْقَى فِي النَّارِ" ف(الفاء) في (فيلقى) تشعرنا ببداية رحلة العذاب لهذا الرجل، ونلاحظ أنَّ الفعل (فيلقى) أيضًا مبنيٌّ للمجهول وذلك إمعان في استحقار هذا الرجل، "كما نجد صفة الإكراه في صيغة الفعلين (يُجاء)،(فيُلقى)، والبناء للمجهول هنا له ميزتان: إيماءٌ إلى القوة الخارجية العظيمة التي تصنع ما تصنع، ولفتٌ لنظر المُتلقي إلى الحدث نفسه لأهميته التصويرية"[٣].

ثم هل هذا هو حدُّ العذاب أن يُؤخذ فيلقى في النار؟ كلا إنها فقط بداية العذاب، فبعد أن يوضع في النار "**فَتَنْدَلِقَ أَقْتَابُهُ فِي النَّار**"، والاندلاق و"الدَّلْقُ: خروجُ الشَّيءِ من مَخرجِهِ سريعًا، يُقَالُ: دَلَقَ السَّيفُ من غِمْدِهِ إذا سَقَطَ وخرج من غيرِ أن يُسَلَّ"[٤]، و"القَتَبُ: المِعَى، وقيل القَتَبُ: ما حوى من البَطنِ واستَدَارَ"[٥]، ومن هنا نفهم أنَّ أمعاءهُ وأجَاوِيفَهُ تخرج بسرعةٍ دون إرادته، لذا نُلاحظ الدِّقة في اختيار لفظة (تَنْدَلِقُ) دون غيرها من الألفاظ ك(خرجت) أو (ظهرت)، لأنَّ مثل هذه الكلمات لا تحمل معنى السرعة كما في لفظة (تَنْدَلِق) فالكلمة توحي لنا برغبة هذه الأعضاء في سرعة فضح هذا الرجل بظهورها وتعلُّقها به، وليت الأمر يقتصر على هذه الصورة فحسب، بل إنَّ هذا الرجل بهذه الصورة المفجعة يدور على أهل النار جميعهم لتزداد مُعانَاتُهُ وعذابُه ويُفتضح أمرُه على رأس الملأ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ في ذلك اليوم يختم على أفواه المُذنبين فتتحدث أعضاؤُهم وتشهد عليهم بما كانوا يصنعون في الدنيا، وذلك يتمثَّل في قوله تعالى: **{الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**[١]

---

[٣] **الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٦٦٣.**

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق،ج١٠،(باب القاف، فصل الدال)،:١٠٢.**

[٥] **المصدر السابق، ج١،(باب الباء، فصل القاف)،:١٦١.**

[١] **سورة يس، الآية:٦٥.**

"ويتجلَّى الرُّعب في مشهدٍ لا يُعهدُ في الدنيا، إذ يدور الرجل بأمعائه وكأنه أُصِيبَ بِصرَعٍ، إذ يَحَارُ إلى أين يذهب بما رأى من أمعائه، والدَّورانُ حركةٌ متكررةٌ توحي باليأس الشَّديد، والشعور بالاختناق في إطار الحركة الدَّائرية، ومما يزيد في تصوير العذاب، الجمالية الصوتية، إذ انتُقِيت أصواتٌ شديدةٌ للتعبير، "تندلق، أقتاب بطنه"، وكأنَّما يصوِّر الكسر بعد الفتح في "**تندلق**" خروج الأمعاء بعد تجمُّعها في الجوف وهو خروجٌ إلى الأسفل كالكسرة"[٢].

وهذه الصورة البشعة المُقزِّزة من العذاب شبهها عليه الصلاة والسلام بقوله "**كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ**" فاختار ﷺ الحمار دون غيره من الحيوانات التي تدور بالرَّحى تحقيرًا وإذلالًا لهذا الرجل، فالحمار عند العرب: "مثلٌ في الذَّمِّ الشَّنيع والشَّتيمة، ومن استحيائهم لذكر اسمه أنهم يُكنُّون عنه كما يُكنُّون عن الشيء المُستقذر"[٣]، وصوت الحمار أنكر الأصوات وأقبحها، قال تعالى: **{إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}**[٤] وقد علم عليه الصلاة والسلام كل ذلك فعمد إلى ذكر الحمار في صورته التشبيهية، ثم يكمل ﷺ رسم تلك الصورة البشعة الفظيعة بقوله: "**فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ**" على الرغم مما هم فيه من العذاب، ويبدو أنَّ عذابه كان أليمًا شديدًا مثيرًا للانتباه مما جعل أهل النار يجتمعون عليه وينادونه باسمه: "**أَيْ فُلاَنُ! مَا شَأْنُكَ**؟" أي ما الذي حصل منك حتى أصبحت في هذا العذاب؟ وسؤالهم هذا فيه استنكار واستغراب، ويذكِّرونه بماضيه في الدنيا "**أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ**" فيذكر لهم السبب الذي من أجله أصبح في هذا العذاب الشديد بقوله: "**كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**" جوابٌ يبيِّن السبب الذي من أجله صار هذا الرجل في هذه الصورة البشعة وهذا المنظر، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقتضي من صاحبه أن يأتَمِر بما يأمُرُ غيرَه بهِ، وأن ينتهي عما ينهى الناس عنه، وإلا تعرض للوعيد الشديد.

ونلاحظ أنَّ المقابلة[١] في قوله: "**كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**" قد جعلت الصورة مكتملة الأجزاء واضحة المعنى، فجملة "**كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ**" لو ذُكرت منفردة لاعتقدنا أنَّ أمره بالمعروف وعدم العمل به هي التي أوجبت العقاب

---

[٢] **الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٦٦٢-٦٦٣.**

[٣] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:١٠٨.**

[٤] **سورة لقمان، الآية:١٩.**

[١] **سبق تعريفها،:١٤٦.**

الذي وقع عليه، ولكنَّ جملة "**وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**" قد أوضحت الصورة التي من أجلها استحق هذا الرجل العقاب الشديد في الآخرة، كما أنَّها أوضحت وأوصلت المعنى الذي قصده عليه الصلاة والسلام وهو عقاب المُرائي الذي يظهر للناس خلاف ما يبطن من المعاصي والوعيد الشديد الذي ينتظر هذا النوع من الناس.

ولكن "ما هي المُناسبة بين الجريمة والعقاب، وإنَّما يكون الجزاء من جنس العمل، ألم يكن الرجل يُبطِن الجرائم، ويسر المنكرات، وهو ظاهر الصلاح والتقى؟ فاليوم يُفتضح ويكتشف الداخل حتى يعجب لافتضاحه من لا يحق له أن يعجب، ويتساءل عن ذنبه من لا وجه له أن يتساءل، إذ هم شركاؤُه في الدار وقرناؤه في النار"[٢].

ونلاحظ في هذه الصورة البيانيَّة أنَّها "حوت على أفعالٍ مضارعة لم تقترن بالتَّسويف مع أنها أمورٌ أُخرويَّةٌ مستقبلة، وذلك لاستحضارها في الحال، كأنَّها تُدرك وتُحس، كما يُدرك ويُحس دورانُ الحمار بالرحى"[٣].

بالإضافة إلى الجمال في حرف العطف (الفاء) في قوله ﷺ "فيُلقى، فتَنْدَلِق، فيدُور، فيُجتمع، فيقُولُون، فيقُول" حيث جعل الصورة تتسلسل بشكلٍ جميلٍ مُحببٍ إلى النفس رغم كثرة تكرارها في الحديث، ثم هذا التتابع السريع للأفعال يتناسب مع صورة الحركة للاندلاق ودوران الأقتاب، وهذا يدل على قدرته عليه الصلاة والسلام البيانيَّة في اختيار الألفاظ والحروف بدقَّةٍ فائقةٍ يشعر المتلقي بجمالها وعذوبتها.

- ويعمد عليه الصلاة والسلام إلى (الحمار) في التشبيه لإبراز أهمية الذكر والبعد عن لهو الحديث، ولكنَّه في هذه المرة يقرن الحمار بصفةٍ بشعة مقززة حيث يصف ذلك بجيفة الحمار إمعانًا في التنفير والتحذير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه[١] قال : قال رسول الله ﷺ: **{مَا**

---

[٢] **الحديث النبوي من الوجهة البلاغية،مرجع سابق،: ١٦٤.**

[٣] **المرجع السابق،: ١٦٤.**

[١] **تقدمت ترجمته،: ١٢٦.**

مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً}[٢].

فمن الحيوانات المكروهة ما يُجدَّد من خلالها خلقٌ قبيحٌ، كما وصف الرسول ﷺ في هذا الحديث من يُلهيهم لهْوُ الحديث عن ذِكْرِ الله بقوله: "**مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ**"، فالنَّفي ب(ما من) أدَّى إلى ثبوت الجزاء لمن حدث منه هذا الصنيع وهو أنَّهم يقومون عن مثل جيفة حمار، فالتشبيه بالنفي والاستثناء فيه تأكيد وإزالة الشك لكل من يعتقد خلاف ذلك، وقوله: "**يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ**"، فالفعل المضارع (يقومون) أفاد أنَّهم كانوا جلوسًا قبل القيام يتحدَّثون بما يُلهي عن ذكر الله عزَّ وجلَّ، وقوله: "**مِنْ مَجْلِسٍ**" الجار والمجرور هنا يدل على أنَّهم كانوا مجتمعين لغرض الحديث، ثمَّ قوله عليه الصلاة والسلام: "**لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ**"، فالنَّفي هنا دليلٌ يحمل التأكيد على أنَّ حديثهم كان حديثًا لا يحمل فائدةً بل فيه انتهاكٌ لحُرُمات الله.

وقوله عليه الصلاة والسلام: "**إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ**"، فأداة الحصر (إلاَّ)، حملت أيضًا معنى التأكيد والإثبات، وقوله: "**عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ**"، فالجِيفَةُ: "جُثَّةُ المَيِّتِ إذا أَنْتَنتْ وتَعَفَّنَتْ"، وتعبيرُه: "**عَنْ مِثْلِ**"، "يُفسح المجال للاحتمالات والتَّوقعات، فهي ليست الرائحة تمامًا، ولكن أشياء متحركة شبيهة بهذه الرائحة التي ما تكلم عنها إلا بواسطة اللَّحم المُقَزِّز، ثمَّ تقترب هذه الرائحة من حافَّة الذِّهنيَّة حينما تُقرَنُ بالحسرة الواسعة العميقة التي لم تتحدد بالتَّنكِير، هذه الحسرة عُبِّر عنها بالمُضِيِّ "كَانَ لَهُمْ حَسْرَةً" مِمَّا يشير إلى سرعة وقوع الحسرة وسرعة زوال الدُّنيا"[٣]، فقوله: "**كَانَ لَهُمْ حَسْرَةً**" أي كان عليهم حسرة يوم القيامة وندامةً مُلازِمةً لهم، بسبب ما فرَّطُوا في مجلسهم ذلك من ذكر الله.

"لقد جاء الجسد الفنِّي الذي يحمل هذه الصورة الشَّمِّية المُروِّعة يجسم وجود رائحتها الذَّميمة، وذلك بصيغة التأكيد "مَا مِنْ...إلاَّ" حيث النفي والحصر، وهكذا أحاط التشبيه بالحدث من كل جانب وأبرزه إلى العين والأنف، ومِمَّا يزيد في جمال تصوير قُبح الحمار أنَّهُ

---

[٢] **سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث،ج٥، ط١،(بيروت–لبنان: دار الحديث،١٣٩٣هـ)،:١٨٠–١٨١، كتاب الآداب، باب في كفارة المجلس، حديث رقم: ٤٨٥٥. (حديث صحيح، صححه الألباني وأخرجه أحمد في المسند:حديث رقم:٩٠٥٢، ورقم:١٠٤١٣، ورقم:١٠٦٨٠).**

[٣] **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،:٥٢٤.**

حيوانٌ مُستَهْجَنٌ في الأصل، ولحمُهُ مُستهجُنٌ، فإذا صار جيفًا ازداد قُبحًا وشناعةً وتنفيرًا، فالصورة الأولى المُنفِّرة هي ارتباط التشبيه بالحمار، والصورة الثانية احتواء الصورة على جزئيَّةٍ منه مُنفِّرة، وهذه الصورة كالنقش مع ما يُتصوَّر من قَتَامةِ اللَّون وما يُحيط بهذه الجِيفةِ من أَدْرانٍ"[١].

وقد جاء التشبيه في الحديث عن طريق القصر[٢] بالنفي والاستثناء للتأكيد والمبالغة في أنَّ من يجتمعون في مجلس لا يذكرون الله فيه كان لهم ذلك المجلس وبالًا وخسرانًا في الدنيا والآخرة، فأسلوب القصر هنا فيه تحذير عن مثل هذه الأمور التي تحدث في كثير من المجالس التي يُجتمع فيها.

والحِمارُ من الحيوانات المُستهجَنَة المُحتقرة، فمن طباعه المذمومة أنَّه "يَنْزُو على غيرِ جنسِهِ"[٣] وهذا ما يُقرِّب لنا صورة التشبيه به، إذ إنَّ هؤلاء الناس يعتدون على أعراض غيرهم وينتَهِكُونها كما يفعل الحمار بالاعتداء على أُنثَى غيرِهِ، ومن صفاته أنَّ صوتَه "أنكرُ الأصواتِ"[٤]، فحديث هؤلاء القوم وارتفاع أصواتهم في غَيْبَة غيرهم هي أنكر الأصوات، فهم بفعلهم هذا قد "**قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ**"، إذ إنَّهم "كانوا مُحيطين مُعايشين لكثافة هذه الرائحة في منظرٍ مُقزِّزٍ يحسم من خلاله ﷺ بشاعة الكلام اللاَّهي وشناعتِهِ، والصورة تومئ إلى أنَّ الجمال قَابِعٌ مُتَجَلٍّ في الذِّكر الخيِّر، وأنَّ القُبح في الكلام السَّاقط البَذِيءِ، بل يُومِئُ إلى أنَّ ذِكرَ الله هو الحياة ما دام قد قُرن الكلام الساقط اللاَّهي بموت الحمار، فالذِّكر جَمالٌ وحياةٌ"[٥].

لقد ركّز الرسول عليه الصلاة والسلام في الأحاديث السابقة التي شبه فيها بالحمار على صفات القبح والبشاعة في هذا الحيوان بناءً على علم العرب بما يحمله هذا الحيوان من صفات منفِّرة ومكانة متدنِّية مهينة عندهم، فوظَّف ذلك أجمل توظيف.

---

(١) **المرجع السابق،:٥٢٤.**

(٢) **سبق تعريفه،:١٧٥**

(٣) **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:١٠٨.**

(٤) **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:١٠٨.**

(٥) **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،:٥٢٤.**

- ولم يكن اعتماد الرسول ﷺ على الحيوانات الأليفة وحدها، بل إنَّه وظَّف الحيوانات المفترسة مع ما يناسب المعنى الذي يريده عليه الصلاة والسلام، فمن أبرز هذه الحيوانات المفترسة (الأسد)، حيث إنَّه من أشد الحيوانات المفترسة فتكًا بالفريسة، وهذه الخاصية في (الأسد) استخدمها عليه الصلاة والسلام في التحذير من الجذام، فعن أبي هريرة ﷺ[١] قال: قال رسول الله ﷺ: **{لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ وَلاَ هَامَةَ وَلاَ صَفَرَ وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ}**[٢].

يقول عليه الصلاة والسلام: **"لاَ عَدْوَى"**، و(العَدْوَى): "اسمٌ منْ أَعْدَى يُعْدِي، فَهُو مُعْدٍ، وأصلُهُ من عَدَا يَعْدُو إِذَا جَاوَزَ الحَدَّ"، وتعادى القومُ أي أصاب هذا مثلُ داءِ هذَا، فقد كان العرب في الجاهليَّة يظنُّون أنَّ المرَضَ بنفسه يَتَعَدَّى"[٣]، فقد كانوا يعتقدون أنَّ المريض إذا دخل على الأصِحَّاء أمرَضَهُم، فنفى رسول الله ﷺ ذلك، وأخبرهم أنَّ الأمر كلَّه بيد الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ أردف عليه الصلاة والسلام بقوله: **"وَلاَ طِيَرَةَ"**، فـ"الواو" أفادت الجمع في الحكم على الكلمة الأولى والتي تليها، و"الطِّيرة" هي "التَّشَاؤُم"[٤].

"وأصل التَّطيُّر أنَّهم كانُوا في الجاهليَّة يعتمدون على الطَّير، فإذا خرج أحدهم لأمرٍ فإن رأَى الطَّير طار يَمْنَةً تيمَّن به، وإن رآه طارَ يَسْرَةً تشاءَمَ به ورجع"[٥].

وقد نفى رسول الله ﷺ ذلك لأنَّه يدخلهم في الشرك لاعتقادهم بأنَّه يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر، فكأنَّهم أشركوا مع الله من لا حول له ولا قوة، بل هو من مخلوقات الله عزَّ وجلَّ. ثم ينفي عليه الصلاة والسلام أمرًا آخر كان موجودًا في الجاهليَّة وهو (الهَامَة)، وأصلها

---

(١) تقدمت ترجمته،:١٢٦.

(٢) صحيح البخاري، مصدر سابق، ج٧،:١٧، كتاب الطب، باب الجذام.

(٣) لسان العرب، مصدر سابق، ج١٥،(باب الواو، فصل العين)،:٣٩.

(٤) المصدر السابق، ج٤،(باب الراء، فصل الطاء)،:٥١٢.

(٥) فتح الباري، مصدر سابق،ج١٠،:٢١٢.

"أنَّ العرب كانت في الجاهلية تقول إذا قُتِل الرَّجل ولم يُؤخَذ بثأره خرجت من رأسِهِ هامَةٌ وهي دُودةٌ فتدور حول قبره فتقول: اسقوني اسقوني، فإن أُدرك بثأره ذهبت وإلا بقيت"[١]

فأبطل رسول الله ﷺ هذا الاعتقاد ونفى صحته، والأمر الآخر الذي نفاه عليه الصلاة والسلام هو (الصَّفَر)، وهو "داءٌ يكون في البطن يُصِيبُ الماشية والناس، وهو أعْدى من الجَرَب عند العرب، فعلى هذا يكون المراد بنفي (الصَّفَر) ما كانوا يعتقدونه فيه من العدوى"[٢]، فردَّ ذلك عليه الصلاة والسلام بأنَّ الموت لا يكون إلا إذا جاء الأجل.

"وقيل في (الصَّفَر) قولٌ آخر، وهو أنَّ المراد به شهر صفر، وذلك أنَّ العرب كانت تحرِّم (صفر) وتستحِلُّ (المحرم)، فجاء الإسلام يردُّ ما كانوا يفعلونه من ذلك، فلذلك قال ﷺ: **"وَلاَ صَفَرَ"**[٣].

ونلاحظ في حديث رسول الله ﷺ تكرار النفي مع كل فعلٍ، وهذا التكرار أفاد حصول الفعل منهم واستقراره في أذهانهم، بل إنَّها تحولت إلى اعتقادات شركية، فأراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يلفت انتباههم بهذا النفي لما بعده، ثمَّ بعد ذلك يكون هذا النفي تأكيدًا لهم على حرمة من اعتقد مثل هذه الأفعال، فلجأ عليه الصلاة والسلام إلى تكرار النفي لبيان شدَّة الحرمة، كما أنَّ استخدامه ﷺ للجملة الاسمية المنفيَّة **"لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ وَلاَ هَامَةَ وَلاَ صَفَرَ"** دليلٌ آخر على رغبته عليه الصلاة والسلام في انتزاع هذه المعتقدات من عقولهم وإبطالها، وتثبيت العقيدة الصحيحة في أذهانهم التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

كما أنَّه عليه الصلاة والسلام حذف الخبر هنا والتقدير"موجود" لأنَّ الأمر الذي يدور حوله هذا الحديث هو أمر العدوى، فكان التنبيه والتركيز والاهتمام والتوضيح بالمسند إليه[٤] "لاعدوى"، فحذف الخبر والتقدير "موجودة" وركز على المبتدأ "لاعدوى" لأهميته.

ثم بعد هذا النفي من رسول الله ﷺ حول أمورٍ جرت في الجاهليَّة أردف بقوله: **"وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ"**. فرسول الله ﷺ يأمرنا بالفرار من المجذوم، و(الجُذام) "علَّةٌ رَدِيئةٌ

---

[١] **انظر: الباب الأول،الفصل الأول من هذا البحث،:٤٩.**

[٢] **فتح الباري، مصدر سابق، جـ١٠،:١٧١.**

[٣] **المصدر السابق، جـ١٠،:١٧١.**

[٤] **سبق تعريفه،:١٩٠.**

تحدث من انتشار المُرَّة السَّوداء في البدن كلِّه فتفسد الأعضاء، سُمِّي بذلك لتَجَذُّم الأَصابع وتُقَطُّعها"[١].

ففي بداية الحديث الشريف ينفي عليه الصلاة والسلام العدوى، وفي نهايته يأمر بالفرار من المجذوم، وهذا الأمر يُفهم منه أنَّه قد تحدث العدوى، بالإضافة إلى أنَّ هذه الجملة فعلية بمعنى أنَّها تُفيد تجدُّدَ العدوى واستمرارها في أيِّ زمانٍ ومكانٍ متى وُجِد المرض، حيث إنَّ هذه الجملة أوحت لنا أنَّ الأمر (فِرَّ) ليس مخصوصًا بزمن الصحابة وحدهم، بل يُفهم منه أنَّه يحمل معنى الأمر المستمر المتجدد بتجدد الأزمنة المتتالية، والأمر الأجمل أنَّ الرسول ﷺ استخدم فعل الأمر(فرَّ) بدلاً من (اهرب) لأنَّ فعل الأمر (فرَّ) يعني "الرَّوَغَان والهُرُوب"[٢] بسرعة، وهذا يتناسب مع الصُّورة التشبيهيَّة التي أوردها الرسول ﷺ في الحديث وهي قوله: **"فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ"**، لأنَّ من يُفاجأ بحيوانٍ مفترسٍ فإنَّ أوَّل ما يقوم به هو مُحاولة الرَّوَغان من الحيوان حتى يتجه الشخص مباشرة إلى الطريق الذي يؤدي إلى النَّجاة، ومن ثمة يبدأ في التَّحرك بأقصى سرعة للفرار من هذا الحيوان، فكيف إذا كان هذا الحيوان هو أقوى الحيوانات المفترسة وهو الأسد كما في الحديث الشريف؟

بالإضافة إلى ما سبق نجد أنَّ رسول الله ﷺ لديه دقةٌ في اختيار الألفاظ التي يوجِّهها لمستمعيه، والتي يستطيع من خلالها أن يُوصل الفكرة التي يُريد أن يوصلها إلى مستمعيه، من تلك الألفاظ كلمة (فرارك) في الحديث الشريف، فالمفعول المطلق أعطى الصورة التشبيهية عُمقًا وحَرَكة سريعَة، هذه السرعة أضافت للمعنى جمالاً أكثر بكثيرٍ من أن لو استخدم عليه الصلاة والسلام كلمةً أخرى مثل (كمَا تفِرُّ)، لأنَّ حذف كاف التشبيه مع الفعل المضارع أعطى التشبيه قوَّةً أكثر وسرعةً وحركةً، وهذا ما قصده عليه الصلاة والسلام من اختياره لكلمة (فرارك) لأنَّها تتناسب مع قوَّة الأسد وبطشه في الحديث، ولننظر إلى جمال الوصل في قوله: **"لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ.."**، وقوله: **"وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ"**، فالجملة الأولى تحمل النفي وهي قوله: "لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ"، والجملة الثانية تحمل معنى الأمر، **"وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ"**، والجملتان تحملان هدفًا ومعنًى واحدًا وهو الاهتمام بصحة الفرد والبعد عن

[١] **المصدر السابق، ج١، :١٥٨.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٥، (باب الراء، فصل الكاف)، : ٥٠.**

كل ما يوقعها في المرض، مع الاعتماد والتوكل على الله عزَّ وجلَّ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

والأمر الآخر اللاَّفت للانتباه هو لماذا اختار ﷺ لفظة (الأسد) للتَّشبيه بمرض الجُذام؟

"لقد لُوحظ أنَّ أكثر أنواع الجُذام شُيوعًا تتغيَّر فيه ملامح المريض فيسقط شعر الحواجب، ويغلُظ جلد الوَجه، فترتفع الجَبهة، وكان أول وصفٍ لوجه مريضِ الجُذام سنة ١٨٤٧م، وصَفَهُ طبِيبَان هما دانيال وبويك. وقالا في وصفهما بالنَّص: "إنَّ وجه مريض الجُذام يشبه وجه الأسد"، leanine face أي وجه الأسد، ولم يُوصف وجه المريض بالجُذام بذلك الوصف العلمي قبل سنة ١٨٤٧م، إلا أنَّ الحديث النبوي الشريف وصَفَهُ بذلك حين قال ﷺ: **"وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ"**، ونعجب من الحديث النبويِّ في اختيار لفظ "الأسد"، ولماذا لم يقل : "وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَفعَى"، أو "فِرَارَكَ مِنَ الوَحشِ" مثلًا؟ ولكنَّ الحديث النبوي اختار لفظ (الأسد) ليجمع الصورة والمعنى والقصد في كلمةٍ واحدةٍ وهذا إعجازٌ علمِيٌّ مبينٌ"[1].

ولكن بقي في الحديث أمرٌ أكثر أهمية، وهو كيف نجمع بين النفي في أول الحديث والإثبات في آخره؟ إنَّ في الجمع بين النفي والإثبات عدة مسالك، "أحدها: نفيُ العدوى جملةً وحمل الأمر بالفرار من المجذوم على رعاية خاطر المجذوم، لأنَّه إذا رأى الصحيح البدن السليم من الآفة تَعظُمُ مصيبته وتزداد حسرتُه.

ثانيها: حمل الخطاب بالنفي والإثبات على حالتين مختلفتين، فحيث جاء "لاَ عَدْوَى" كانَ المُخاطب بذلك من قَوِيَ يقينُه وصحَّ توكُّلهُ بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى، كما يستطيع أن يدفع التَّطيُّر الذي يَقَعُ في نَفْسِ كلِّ أَحَدٍ، لكنَّ القويَّ اليقين لا يتأثَّرُ به، وحيث جاء"**فِرَّ من المَجْذُوم**" كان المخاطب بذلك من ضَعُفَ يقينُه، ولم يتمكن من تمام التوكُّل فلا يكون له قوةٌ على دفع اعتقاد العدوى، فأُريدَ بذلك سد باب اعتقاد العدوى بأن لا يباشر ما يكون سببًا لإثباتها.

---

[1] **موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي،أحمد شوقي إبراهيم،ج١،ط١،(نهضة مصر للطباعة والنشر)، :٧٥.**

ثالثها: إثبات العدوى في الجُذام ونحوه مخصوصٌ من عموم نفي العدوى، فيكون معنى قوله: "لاَ عَدْوَى" أي إلا من الجذام، فكأنَّه قال : لا يُعدِي شيءٌ شيئًا إلا ما تبين له أنَّ فيه العدوى.

رابعها: إنَّ الأمر بالفرار من المجذوم ليس من باب العدوى في شيء، بل هو لأمرٍ طبيعي وهو انتقال الدَّاء من جسدٍ لجسدٍ بواسطة المُلامسة والمُخالطة وشمِّ الرَّائحة، ولذلك يقع في كثيرٍ من الأمراض في العادة انتقالُ الدَّاء من المَريض إلى الصحيح بكثرة المخالطة.

خامسها: إنَّ المراد بنفي العدوى أنَّ شيئًا لا يُعدي بطبعِهِ نفيًا لِمَا كانت الجاهلية تعتقده أنَّ الأمراض تُعدي بطبعها من غير إضافةٍ إلى الله، فأبطل النبيُّ ﷺ اعتقادهم ذلك وأكَلَ مع المجذوم ليبين لهم أنَّ الله هو الذي يُمرض ويشفي، ونهاهم عن الدُّنوِّ منه ليبين لهم أنَّ هذا من الأسباب التي أجرى الله العادة بأنَّها تُفضي إلى مسبباتها، ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله إشارةٌ إلى أنَّها لا تستقبل، بل الله هو الذي إن شاء سلبَهَا قُواها فلا تؤثِّر شيئًا، وإن شاء أبقاها فأثَّرت، ويحتمل أيضًا أن يكون أكلُه ﷺ مع المجذوم، أنَّه كان به أمرٌ يسيرٌ لا يُعدي مثله في العادة، إذ ليس الجُذامى كلهم سواء، ولا تحصل العدوى من جميعهم بل لا يحصل منه في العادة عدوى أصلاً، كالذي أصابه شيءٌ من ذلك ووقف فلم يعد بقية جسمه فلا يعدي"[1].

ولكي نوفِّق بين الحديث وبين ما سَبَق "لا بُدَّ لنا من ذكر بعض الحقائق العِلميَّة للعدوى وخطوط المناعة في جسم الإنسان، بطريقةٍ مبسَّطةٍ بعيدة عن أيِّ تفصيلٍ علميٍّ، فكلُّ إنسانٍ يعيش في بيئةٍ مزدحمةٍ بالميكروبات، لذلك جعل الله تعالى خطوطَ دفاعٍ في الجسم تصدُّ تلك الميكروبات عنه. وخطُّ الدفاع الأول: هو الجلد الذي يفرز مواد تقتل الميكروبات، ويحمي الجسم منها، وخطُّ الدفاع الثاني إذا كان بهواءِ الشَّهيق ميكروبات، فإنَّ بالرئتين خطوط دفاعٍ تقابل تلك الميكروبات وتقضي عليها، منها المُخاط والسُّعال، وخطُّ الدفاع الثالث: إذا وصل ميكروب إلى الدم تلتهمه الخلايا البيضاء في الدم، وإذا وصل ميكروبٌ إلى القنوات الليمفاويَّة، تلتهمه خلايا خاصة بالعُقَد الليمفاوية، وإذا وصل إلى المعدة قتل في الوسط الحامضي فيها. وخطُّ الدفاع الرابع: هو في جهاز المناعة في الجسم، وهو جهازٌ يعمل في منتهى الدِّقة والإبداع، ويقتل الميكروبات التي تهاجم الجسم، والتي تكون قد تغلبت على كل خطوط الدفاع السابقة،

---

[1] **فتح الباري، مصدر سابق،ج١٠،:١٦٠-١٦١.**

ويفرز جهاز المناعة مواد مضادة لتلك الميكروبات فتقتلها. والعجيب أنَّ جهاز المناعة يتعرف على أي ميكروب يدخل الجسم فيقاومه ويفرز مواد مضادَّة تقتله في الحال وفي المستقبل، وتظل تلك المواد المضادة بالدم زمنًا قد يطول، حتى إذا عاودت الميكروبات هجومها على الجسم وجدت نفسها مُحاصرةً بتلك الأجسام المضادة فتقتلها، وهناك عوامل معينة تُغير من جهاز المناعة فتزيده قوة وتضعفه حينًا آخر، والأمر نفسه بالنسبة لجراثيم الأمراض، فهناك عوامل تساعدها على أن تكون قوية، وعوامل أخرى تزيدها ضعفًا وخمولًا حتى لا تستطيع أن تسبب مرضًا.

وهكذا فنحن أمام حقيقةٍ علميَّةٍ وهي أنَّ العدوى بجراثيم الأمراض قد تصيب الجسم بالمرض حينًا، وهي نفسها قد لا تقوى على إصابة الجسم بالمرض حينًا آخر، وبمعنى آخر العدوى بالجراثيم قد تسبب مرضًا للإنسان السليم، وقد لا تسبب مرضًا له حينًا آخر، وبذلك تصير العدوى وكأنَّها لا عدوى، وليس السبب في كل ذلك بيد الإنسان، و لا دخل للجراثيم فيه أيضًا، لأنَّ كلاًّ من الجراثيم وخطوط الدفاع تعملان بقدر الله تعالى وأمره، إن شاء الله تعالى جعل العدوى سببًا للمرض، وإن شاء جعل العدوى لا عدوى، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**[١].

ومن هنا يمكننا أن ندرك الإعجاز العلمي في الحديث النبوي الشريف، في قوله ﷺ: "**لاَ عَدْوَى**" وفي نفس الحديث قوله: "**وَفِرَّ مِنَ الـمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ**"، ونفهم أيضًا المغزى العلمي في تجنبه مصافحة المجذوم، وفي مناسبةٍ أخرى أَكَلَ مع المجذوم في قصْعَةٍ واحدةٍ، فالعدوى قد تكون عدوى حينًا، وقد لا تكون عدوى حينًا آخر، والأمر معلَّقٌ بقدر الله تعالى وأمره، وإنَّما أمرنا الله تعالى بالأخذ بالأسباب في بعض الأحاديث، كما قال ﷺ: **{لاَ يُورِدَنْ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ}**[٢]. من هذا المنطلق الصحيح من الفهم العلمي، يمكننا أن ندرك الإعجاز العلمي في حديث رسول الله ﷺ"[٣].

---

[١] **سورة يس، الآية: ٨٢.**

[٢] **صحيح البخاري، مصدر سابق،جـ٧،: ٣١، كتاب الطب، باب لا هامة.**

[٣] **موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي، مرجع سابق،: ٧٤-٧٥.**

- لقد كانت البيئة العربية مليئة بالحيوانات المفترسة التي عرفها العرب وربما عانوا منها في أسفارهم، وتعرفوا على أدق خصالها من خلال هذه الأسفار، ومن هذه الحيوانات ما كان يُغير على حيواناتهم ومواشيهم فيفتك بها كالذئب، الذي كان كثيرًا ما يقض مضاجعهم ويسلب عليهم أنفس مواشيهم وأغنامهم، فكانت هذه الصورة معهودة لديهم مما جعله عليه الصلاة والسلام يوظفها في الحث على صلاة الجماعة في الحضر والسفر، فعن أبي الدَّردَاءِ ﷺ[١] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **{مَا مِنْ ثَلاَثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاَةُ إِلاَّ قَدِ اسْتَحْوذَ عَلَيهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ القَاصِيَةَ}**[٢].

فقد أراد الرسول ﷺ أن يُبيِّن لأصحابه أهميَّة الصلاة في جماعةٍ فقال عليه الصلاة والسلام: "**مَا مِنْ ثَلاَثَةٍ**"، "فتقْيِيدُهُ بالثلاثة نظرًا إلى أقَلِّ أهل القرية غالبًا، ولأنَّهُ أقلُّ الجمع، وإن كان يُتصوَّر باثنين"[٣]، للمُبالغة منه ﷺ في أهمية صلاة الجماعة حتى وإن كانوا ثلاثةً أو أقل، ثم قوله ﷺ: "**فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ**"، فالتَّنكير في (القرية والبادية) أراد به عليه الصلاة والسلام التَّكثير والتعميم بمعنى كل القُرى وكل البَوادِي في أيِّ مكانٍ كانَ، و(الواو) في (القرية والبادية) أفادت الجمع في الحكم، والنَّفي بعد الواو أفاد تأكيد الحكم.

ثم قوله ﷺ: "**لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاَةُ**"، فمجيء النَّفي بـ(لا) قبل الفعل المضارع (تُقَام) جعل الحكم واقعًا يتجدَّدُ في المستقبل متى وُجِد الفعل. وقوله عليه الصلاة والسلام: "**إِلاَّ قَدِ اسْتَحْوذَ عَلَيهِمُ الشَّيْطَانُ**"، فـ(إلاَّ) أفادت توكيد الحكم، فهو خطابٌ موجَّهٌ إلى الصحابة، وهم يعتقدون أنَّ صلاة الجماعة لا تجب على الأفراد القليلي العدد، فكان من المناسب –وتلك حالهم– أن ياتي بالقصر[٤] بـ"ما" و"إلا" أي النفي والاستثناء ليزيل هذا الاعتقاد في أنفسهم،

---

[١] **عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، أبو الدرداء، صحابي جليل، شهد أحداً وكان عابداً، مات في أواخر خلافة عثمان ﷺ. (الإصابة، جـ١٢،:٢٠٨).**

[٢] **سنن أبي داود، مصدر سابق،جـ١،:٣٧١، كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، حديث رقم:٢٥٤٧. (وهو حديث صحيح، رواه النسائي،جـ٢،:١٠٦، حديث رقم:١٨٤٧. ؛ وابن حبان في صحيحه، جـ٥،:٤٥٧، حديث رقم:٢١٠١. ؛ وأحمد في مسنده، رقم: ١٧١٠).**

[٣] **عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، مع شرح الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية، ط٢،(دار الكتب العلمية،١٤١٥هـ)،،جـ١، ،:١٧٦.**

[٤] **سبق تعريفه،:١٧٥.**

ونلاحظ أنَّ (قد) أفادت حصول الفعل وتحقُّقه، أي حصول استحواذ الشَّيطان على الإنسان، "واستحوذ عليهم الشَّيطانُ أي غَلَبَ واستولى عليهم وحواهُم إليه"[١].

وقوله :"**فَعَلَيْكَ بِالجَمَاعَةِ**" فـ(الفاء) أفادت ترتيب الأحداث السابقة عليها، أي بعد أن علمت ما سبق فالتزِمْ بالجماعة، والمقصود بالجماعة: صلاة الجماعة بدليل ذِكْرِ الصلاة قبلها، والمراد هو لُزُومُ الجماعة، فإنَّ الشيطان بعيدٌ عن الجماعة ويستولِي على من فَارَقَها، ولعلَّ الرسول ﷺ في ذِكْرِ (الجماعة) دون الصلاة، لعله كان يرمي إلى مقصدٍ آخرَ بالإضافة إلى ما سبق وهو التَّحذير من الفُرقَةِ بين الجماعة والخُروجِ عنهُم، لأنَّ خُروجَ الفرد على الجماعة يجعله مدعَاةً إلى تَكَالُبِ الأعداء وتسلُّطهم عليه لأنَّه أصبح في موطن ضَعْفٍ.

وقوله ﷺ : "**فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ القَاصِيَةَ**" هذا التشبيه أكَّده عليه الصلاة والسلام بـ(إنَّما) حيث دلَّت على علم الصحابة بكل ما سبق وتمكُّنه من نفوسهم[٢]، فأكد لهم صحَّة قوله بهذا التشبيه، وقوله: "**يَأْكُلُ الذِّئْبُ القَاصِيَةَ**"، فـ"الذئب" جاء مُعرَّفًا حتى يفيد تخصيص الذئب بأكل الشاة، وهذا يؤدي إلى استحضار مدلول الافتراس في الذئب، فيكون ذلك أوقع في التحذير من الانفراد عن الجماعة، وقوله: "**القَاصِيَةَ**"، أيْ: "الشَّاة البَعِيدة عن الأغنام لبُعدِهَا عن رَاعِيهَا[٣]"،فـ"**قَاصِية**": من: "القَصِيُّ، والقَاصِي: البعيد، وكلُّ شيءٍ تنحَّى عن شيءٍ فقد قَصَا"[٤] أي:بَعُدَ، ونفهم من هذا أنَّ القاصية هي التي ابتعدت بنفسها ولم يبعدها أحدٌ، أي أنَّ الابتعاد كان من فعلها هي، يدلُّ على ذلك مجيء اللفظة على وزن فاعل: (قاصية)، أي أنَّها هي من قامت بفعل الابتعاد عن بقية الجماعة، أي أنَّ الشيطان يَتَسَلَّطُ على تارك صلاة الجماعة فيَشْغَلهُ عن التدبُّر والتفكُّر كما يتسلَّطُ على الخارج عن الجماعة فيُغْرِي به الأَعداء ليتربصُّوا به.

---

[١] **لسان العرب**، مصدر سابق، جـ٣،(باب الذال، فصل الحاء)،:٤٨٧.

[٢] **دلائل الإعجاز**،مصدر سابق،:٢٥٤.

[٣] **عون المعبود**، مصدر سابق،:١٧٦.

[٤] **لسان العرب**، مصدر سابق، جـ١٥،(باب الباء، فصل القاف)،:١٨٣.

ولنتأمل مجيء الصورة عن طريق التشبيه الضمني[٥]، حيث بُنيت العبارة عليه وطُوي التشبيه بداخله، وهذا أبلغ وآكد في التحذير، فليس الغرض من الحديث تشبيه المنفرد عن الجماعة بهذه الشاة، إنَّما الغرض أكبر من ذلك وأقوى، إذ أنَّ التشبيه بهذه الطريقة أراد من خلاله أن يبين ﷺ خطورة انفراد المسلم عن غيره من المسلمين سواءً في الصلاة أو في غيرها من أمور الدين والدنيا.

إنَّ هذه الصورة "تهديدٌ شديدٌ لأولئك الذين يتهاونُونَ في إقامة صلاة الجماعة، وإنَّه لتهديدٌ مُخيفٌ، صورتان رائعتان: صورة الذين استحوذ عليهم الشيطان بسبب تركِهِم صلاة الجماعة، وصورةُ الشَّاة القَاصِيةِ التي انفردت عن الجماعة فمكّنَت بذلك الذِّئب من نفسها فأَكَلَهَا، والرَّبطُ بين صلاة الجماعة والتزام الجماعة يُشير إلى أنَّ الحرص على صلاة الجماعة مِمَّا يحفظ وحدة الأمَّة ويضمن سلامتها من كيد الأعداء، وأمَّا الصورة الثانية فمُتأثِّرة بالبيئة العربية التي فيها المرعى والغنم والذئب"[١]، حيث عُرف عن الذِّئب حُبُّه الشديدُ للغنم دون غيرها من الحيوانات، وأكثر ما يتعرَّض للغنم في الصُّبح، وإنَّما يتوقع فترة الكلب ونومه لعلمه بأنَّه يظلُّ طول ليلِهِ حارسًا مُتيقِّظًا، والذِّئب موصوف بالانفراد والوحدة فإذا أراد العدو فإنَّما هو الوثب والقفز، فإذا تفرقت الغنم عَدَى على أبعدِها عن الغنم[٢]، من هنا نُلاحظ دِقَّة النبيِّ ﷺ في اختيار المشبه به، ممَّا أعطى التشبيه حركةً حيَّةً مليئةً بالسُّرعةِ والمُباغتةِ في آنٍ واحدٍ.

لقد أوضح الرسول ﷺ في تشبيهه بالحيوانات المفترسة أهم خصائص هذه الحيوانات من افتراس وشجاعة ومكر وخديعة، ثم تناول هذه الصفات وخصائصها بما يتناسب مع المعنى المطروح في التشبيه ليكون أكثر تجسيدًا له وأكثر إيضاحًا وترسيخًا.

مما سبق يتضح لنا أنَّ البيئة العربية زاخرة بالحيوانات المختلفة، منها ما هو أليف ومنها ما هو مفترس، منها الثمين الذي لا يُقدَّر عند العربي بثمن كالإبل والخيل، ومنها ما هو دون تلك

---

[٥] التشبيه الضمني: هو التشبيه الذي يُفهم ضمنًا لا صراحة ويُؤتى به عادة للبرهان على صحة حكم، والتدليل على دعوى بأنَّها ممكنة صحيحة. (انظر: البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم، مرجع سابق،: ١٠٣).

[١] التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق،: ٣٠٣-٣٠٤.

[٢] انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،: ١١١.

المنزلة كالكلب والحمار، ومنها ما هو مُستهجن وضيع كالجدي والغنم والشاة والكبش وغيرها، ولكل حيوان من هذه الحيوانات ما يميزه عن غيره من صفات وخصائص قد تكون بارزة فيه حتى إنَّه يُعرف بهذه الصفة المميزة، ولاختلاف تلك السمات في كل حيوان جاء التشبيه النبوي بحيوانات مختلفة في تشبيهاته تتفق مع مقام الحديث وغرضه ليبرز المعنى الذي قصده عليه الصلاة والسلام من خلال استخدام ذلك الحيوان في ذلك التشبيه، وهذا يؤدي إلى التخييل وتوليد الصورة في الذهن، ثم إلى تجديد البيان وتنوعه بتنوع كل حيوان يستخدمه عليه الصلاة والسلام في التشبيه فيؤدي ذلك إلى اختراع الصورة التي لا وجود لها.

وقد لاحظنا في هذا المبحث كثرة التشبيهات بالإبل، حيث استخدمها الرسول ﷺ في التشبيهات الخاصة بالعبادة والحث على الأخلاق الحميدة، ثم استخدم الحيوانات الأخرى في التحذير أو التخويف أو التهوين والتحقير في أمور معنوية تتعلق بأمور تحذيرية في الدين أو غيرها مما يتناسب مع صفات هذه الحيوانات.

المبحث الثاني

التَّشْبِيهُ بِالزَّوَاحِفِ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، خصَائِصُهُ وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة

كثيرة هي الحيوانات الزاحفة في البيئة العربية، إلا أنَّ الحية هي الحيوان الزاحف الوحيد الذي يعيش في البادية والحاضرة، وخاصة في المزارع وبيوت المزارعين، لذلك كان الناس كثيرًا ما يشاهدونها في بيوتهم وفي مزارعهم، ومن هنا عمدوا إلى الإفادة منها في صناعة أدويتهم، كما استخدموها في العصور القديمة في السحر والكهانة، بل إنَّ بعض الأمم القديمة كانوا يؤلهونها ويقربون لها القرابين[1]، وما ذاك إلا لقربها منهم ومشاركتها لهم في بيئتهم.

- والحية حيوان خطيرٌ سامٌّ ومُؤذٍ، إلا أنَّ الرسول ﷺ يعمد إلى التشبيه بحركة من حركاتها في وصف رجوع الإيمان إلى المدينة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه[2] أنَّ رسول الله ﷺ قال: **{إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا}**[3]

---

[1] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،: ١١٤.**

[2] **سبقت ترجمته،: ١٢٦.**

[3] **صحيح البخاري، مصدر سابق، جـ٢،: ٢٢٢، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة.**

لقد خرج الإيمان من المدينة وانتشر في جميع أنحاء العالم، ثم يعود ويتقلَّص إلى أن يصبح فيها دون غيرها، ويؤكِّد هذا ما بدأ به الرسول ﷺ حديثه، فالجملة الاسمية المكونة من (إنَّ) واسمها وخبرها، ثم تأكيد ذلك بـ(لام الابتداء) ليدل على استمرار هذا الأمر إلى أن تقوم الساعة، فالملاحظ أنَّ قلوب المسلمين تهفو دومًا إلى هذه البقعة الطاهرة "لمحبتهم للنبي ﷺ، فيشمل ذلك جميع الأزمنة، إلا أنَّه في زمن النبي ﷺ كان للتعلُّم منه، وفي زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم للاقتداء بهديهم، ومن بعد ذلك لزيارة قبره ﷺ والصلاة في مسجده"[٤]، وقد يفرُّ بعض المسلمين بدينهم ويلجأون إلى المدينة لعلمهم أنَّها مصدر الإيمان والأمان والطمأنينة هربًا بدينهم وبحثًا عن النبع الصافي الذي يروي عطشهم الدِّيني الصحيح، هذه الحقيقة صوَّرَها لنا رسول الله ﷺ بقوله :"**كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّة إِلَى جُحْرِهَا**"، فقد شبه عليه الصلاة والسلام الإيمان وهو يلوذ بالمدينة بالحيَّة التي تلوذ بجحرها.

ورسول الله ﷺ حين يرسم لنا هذه الصورة يعي تمامًا أنَّ العرب قد أَلِفُوا هذه الصورة في بيئتهم، إلا أنَّ الجميل في هذا التشبيه اختياره ﷺ لكلمة (**تأرز**) التي تعني "تَقَبَّضَ وَتَجَمَّعَ وثَبَتَ"[٥]، وهي كلمةٌ تطلق على الحية إذا "لاَذَت بجُحرها ورجعت إليه وثبتت فيه"[٦]، هذه الكلمة حركت الصورة التشبيهية وجعلتنا نتخيَّل انقباض الحيَّة وتجمُّعها في حركةٍ دائريةٍ حول جحرها حتى تدخل فيه وتطمئنَّ وتثبُت، وسبب هذه الحركة يرجع إلى الحراشف الممطولة الموجودة في البطن وبأطراف الضلوع، ويرجع ذلك إلى بديع صنعة الباري عزَّ وجلَّ، إذ إنَّ قلوب الثعابين وأجهزتها الدموية تتوافق وتتكيف مع الجاذبية الأرضية[١]، كذلك المدينة تجذب قلوب أهل الإيمان من كل أقطار الدنيا، فنرى الإيمان يأتي من جميع أنحاء الأرض ويجتمع حول المدينة إلى أن يستقرَّ فيها، وخاصة في آخر الزمان حين تكثر الفتن والمعاصي فيفرُّ كثير من الناس بدينهم إلى المدينة التي خرج منها نور الإسلام.

(٤) **فتح الباري، مصدر سابق، جـ٤،:٩٣-٩٤.**

(٥) **لسان العرب، مصدر سابق، جـ٥،(باب الزاء،فصل الألف)،:٣٠٥.**

(٦) **المصدر السابق، جـ٥،(باب الزاء، فصل الألف)،:٣٠٥.**

(١) **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:١١٤.**

ولنتأمل بلاغة كلمة (**تأرز**) ودورها في نمو الصورة حيث تُطلق هذه الكلمة على الحية عندما "تدخل جُحرها على ذَنَبِها فآخر ما يبقى منها رأسُها فيدخل بعد"[٢]، "وإنَّما تأرز الحية على هذه الصفة إذا كانت خائفة، أما إذا كانت آمنة فهي تبدأ برأسها فتدخله وهذا هو الانجحار"[٣]، فالإيمان بدأ من المدينة وخرج منها قويًّا عظيمًا، إلا أنَّه في آخر الزمان سيعود إليها وأتباعه قلَّةٌ مستضعفون يلوذون بالمدينة طلبًا للطمأنينة وفرارًا بدينهم، فكلمة (تأرز) تدل على خوف الحية وضعفها، وقد ناسبت تشبيه الإيمان في آخر الزمان حين يضعف أتباعه ويلوذون بالمدينة.

لقد كان من بلاغته عليه الصلاة والسلام في اختياره للتشبيه بالزواحف أن عمد إلى التشبيه بحيوان زاحف كثير المشاهدة في البيئة العربية، حيث إنَّ الحية تعد الحيوان الزاحف الوحيد الذي يعيش في بيئة العربي سواء في الحاضرة أو البادية، حيث وظَّفها ﷺ في إبراز أمر معنوي جعله من خلال التشبيه بالحية في صورة حركية حية مشاهدة.

المبحث الثالث

التَّشْبِيهُ بِالطَّيْرِ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، خصَائِصُهُ وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة

---

[٢] **لسان العرب ،مصدر سابق، جـ٥،(باب الزاء،فصل الألف)،:٣٠٥.**

[٣] **المصدر السابق، جـ٥،(باب الزاء، فصل الألف)،:٣٠٦.**

تميزت الطيور برقتها وجمالها وضعف بنيتها، واختلفت أنواعها ومسمياتها، وتبعًا لهذا الاختلاف اختلفت صفاتها وخصائصها بل إنَّها اختلفت في بيئاتها وأشكالها.

وقد وُجد عددٌ كبير منها في البيئات العربية المختلفة، وكانت إما أن تعيش مع الإنسان في بيئته كالدجاج والديك والبط والإوز وغيرها، أو كانت تعيش بالقرب من منزله كالحمام والعصافير، ولهذا القرب كان الناس يتفاءلون بها أو يتشاءمون منها كما كان في العصر الجاهلي، بل إنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ الميت إذا مات ولم يُؤخذ بثأره خرج من رأسه طائر يُدعى (الهامة) يصيح حتى يُؤخذ بثأره[١]، وقد أبطل الإسلام كل ذلك.

ومن هنا نلاحظ أنَّ الطير قد احتل مكانة عند العربي من خلال معايشته له وقربه منه.

- وقد لاحظ عليه الصلاة والسلام وجود الطير وتميزه بصفات معينة، فاستخدمه بناءً على ما فيه من تلك الخصائص والمميزات، فوصفه في التشبيه ليجسد من خلاله المعنى الذي يريده كما في هذا التشبيه، فعن أبي أمامة الباهلي[٢] ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **{اقْرَءُوا القُرآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهرَاوَيْنِ البَقَرَة وسورة آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا**

---

[١] **انظر: الباب الأول، الفصل الأول من هذا البحث،:٤٩.**

[٢] **أبو أمامة الباهلي: صحابي مشهور، سكن الشام، ومات بها سنة ست وثمانين، (الإصابة،ج١٢،:٣١).**

غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ}[٣].

فقوله عليه الصلاة والسلام: "**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ**"، ففي قوله: "**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ**" أمرٌ[٤] منه ﷺ لأصحابه وأمته بقراءة القرآن الكريم، وهذا الأمر أمر ترغيبٍ واستحباب وشحذٍ للهمم للإقبال على كتاب الله عزَّ وجلَّ عن حبٍّ وشوقٍ ورغبةٍ في قراءته وتدبُّر آياته بما فيها من معانٍ سامية تحمل في طياتها خير الدنيا قبل الآخرة، وفي اختياره ﷺ للفظة (اقرءوا) بدلاً من (اتلوا) أو (احفظوا) تذكيرٌ للصحابة ولنا بأنَّ هذا القرآن إنَّما أُنزل لِيُقرأ على الدوام، فلفظة "اتلوا" تعني قراءة القرآن ودراسته إما بشرحٍ أو تفسيرٍ[١]، وفي الأمة من لا يستطيع ذلك، والأمر يقتصر على فئة معينة من الناس، ولفظة "احفظوا" فيها أمرٌ أيضًا بحفظ القرآن، وفي الأمة من لا يطيق ذلك، فكانت لفظة "**اقرأوا**" هي الأنسب لجميع أفراد الأمة الإسلامية إذ يتيسر لأكثر الناس قراءته.

وفي اختياره لمسمى (القرآن) -مع أنَّ له أسماءً كثيرة- دليل على أنَّ هذا الكتاب إنما أنزل للقراءة والتدبر، ففي هذه اللفظة "القرآن" تذكيرٌ ودليلٌ، فالتذكير بقراءته، والدليل على أنَّه لم ينزل إلا لقراءته وتدبره، فـ"قَرَأَ: يقْرأُ قِرَاءَةً وقُرآنًا، والاقتراء على وزن (افتعال) من القراءة[٢]"، وقوله: "**فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**"، فـ(إنَّ) جاءت لتأكيد الخبر بعدها، وتحديد الظرف (يوم القيامة) فيه إخبارٌ عن أمرٍ غيبيٍّ دليل على معجزته عليه السلام، كما أنَّ في ذكر يوم القيامة ترغيبٌ منه عليه الصلاة والسلام لأصحابه في الاستزادة من القراءة والتدبُّر والمداومة على ذلك استعدادًا لهذا اليوم العظيم.

ثم أخبر عليه الصلاة والسلام بالجزاء العظيم الذي ينتظر من قرأ القرآن واستمر على ذلك بقوله: "**فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**"، فالقرآن يُدافع عن من كان على اتصالٍ به ويتعهَّده بالقراءة، فـ"شَفِيعًا" من: "شَفَعَ إليه: في معنى طَلَبَ إليه، والشَّفاعةُ: كلام الشَّفيع

---

[٣] **صحيح مسلم ، مصدر سابق،:ج١،:٥٥٣، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم:٨٠٤.**

[٤] **سبق تعريفه،:١٣٠.**

[١] **لسان العرب، مصدر سابق،ج١٤،(باب الواو، فصل التاء)،:١٠٤.**

[٢] **المصدر السابق،ج١،(باب الهمزة، فصل القاف)،:١٢٩.**

للمَلِكِ في حاجةٍ يسألُها لغيرِهِ، والشَّافع: الطالب لغيره يتشفَّع به إلى المطلوب"[٣]، فلفظة "**يأتي**" صورت القرآن كأنَّه شخص يطلب ويدافع عن صاحبه ويقف إلى جانبه في وقت هو في أشدِّ الحاجة إليه، والجار والمجرور "لأصحابه" دليلٌ على أنَّ القرآن لا يشفع إلا لمن قرَأَهُ وداوم على قراءته حتى أصبح القرآن كالصاحب المُخلص في توجُّهاته ونصائحه وأوامره ونواهيه التي هي من عند الله عزَّ وجلَّ، فهنا القرآن لا ينسى صاحبه، بل يَقِف إلى جانبه، لأنَّ هذا المؤمن لم ينس قراءة القرآن وتدبره فكان جزاءه أن يدافع عنه القرآن في هذا الوقت الصعب.

وقوله عليه السلام :"**اقْرَءُوا الزَّهرَاوَيْنِ البَقَرَة وسورة آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهَا**"، **فقوله: "اقْرَءُوا الزَّهرَاوَيْنِ البَقَرَة وسورة آلِ عِمْرَانَ"** فقوله: "**اقرءوا**" فعل أمرٍ أراد به عليه الصلاة والسلام التأكيد على القراءة، وقوله: "الزَّهراوين" فـ"الزَّهر: البياضُ المُنير، والزَّهراوين أي المُنيرتان المُضيئتان، واحدتهما زَهرَاء"[١]. فوصفها ﷺ بالنُّور المضيء الذي يضيء لصاحبه حياته وطريقه لما فيها من الهداية والإرشاد، ثم قوله: "**البَقَرَة وسورة آلِ عِمْرَانَ**"، بدل كلٍّ من كلٍّ، فـ"سورة البقرة وآل عمران" بدل مساوٍ "**الزهراوين**"، وهذا البدل أفاد التوكيد، ووصفه ﷺ لسورتي البقرة وآل عمران بـ"الزهراوين" يبعث الأمل والتفاؤل والطمأنينة ويشيع الراحة النفسية، فهنا حدَّد سورتين وهما البقرة وآل عمران، لأنَّه لو لم يحددهما لكان هناك نوعٌ من الإيهام وذلك لتعدد سور القرآن وكثرتها، فكان لا بد من تحديد السورتين باسمهما، حتى لا يُشكل ذلك على أحد، وقوله: "**فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ**"، فـ"إنَّهما" هنا لتأكيد الخبر بعدها، و "تَأْتِيَان" فعل مضارع صوَّر السورتين على هيئة شخصين، وتحديده لظرف الزمان "**يوم القيامة**" الغرض منه الترغيب في قراءة هاتين السورتين استعدادًا لهذا اليوم، وقوله: "**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ**" فاستخدامه عليه الصلاة والسلام لأداة التشبيه "كأنَّ" ليقوى التشبيه[٢] بين المشبه (سورتي البقرة وآل عمران) والمشبه به (غمامتان)، فـ"**غَمَامَتَانِ**" هما: "السَّحابُ: وهو أن لا ترَى شمسًا من شدَّة الدَّجَن"[٣] فكأنَّ السحابتين مثل

---

[٣] **المصدر السابق،ج٤،(باب العين، فصل الشين)،:١٨٤.**

[١] **المصدر السابق،ج٤،(باب الراء، فصل الزاء)،:٢٣٢.**

[٢] **عروس الأفراح، مرجع سابق،ج٢،:١٩٨.**

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق،ج١٢،(باب الميم، فصل الغين)،:٤٤٦.**

الغيمة التي تحجب عن صاحبهما شدة الشمس والحرارة والمطر والأذى، والسورتان تحجبان عن صاحبها الخوف والفزع والعذاب يوم القيامة، وقوله: "**أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ**"، فـ"كأنَّ" قوَّت التشبيه بين المشبه والمشبه به، وأما "**غَيَايَتَانِ**"، فـ"الغَيَايَةِ: السحابة المنفردة، وكل ما أظلَّك غَيَايَة"[٤]، فهذه السحابة تظل صاحبها وتحميه من أي شيء يؤذيه، كذلك السورتان تحميان من يقرؤهما من ما يخيفه ويفزعه، وقوله: "**أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عن أَصْحَابِهِمَا**" فـ"كأنَّ" هنا لتقوية التشبيه، وقوله: "**مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ**"، فـ"فِرْقَانِ": "الفِرقُ والفِرقَةُ والفَرِيقُ: الطَّائفة من الشيء المُتفرِّق"[٥]، فالمعروف أنَّ الطير يتفرق في السماء في كل مكان، فإذا اجتمع في مكانٍ واحدٍ سواء على الأرض أو السماء كوَّن مجموعة أطلق عليها اسم (فِرقة) أي مجموعة من أشياء متفرقة.

وقوله: "**صَوَافَّ**"، فـ"الطَّير الصَّوافُّ: التي تَصُفُّ أجنحتها فلا تحركها"[١]، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت على ارتفاعٍ عالٍ في السماء، حينها تبسط جناحيها ولا ترفرف بهما. فشبه الرسول ﷺ الأجر والثواب من قراءة هاتين السورتين حين يجتمع هذا الأجر من كلِّ سورة بل من كلِّ حرف من حروف هاتين السورتين بعضهما إلى بعض، شبههما بالطير حين يجتمع بعضه إلى بعض مؤلفًا صفًّا وفريقًا من الطير يُرى وهو يحلق على علوٍّ شاهقٍ في السماء، وكأنَّ هذا الصَّف أو الفرقة من الطير هي الأجر والمثوبة لقارئ إحدى هاتين السورتين قد بلغت لكثرتها وعظمها عنان السماء، وقد استخدم عليه الصلاة والسلام صيغة التثنية "**فِرقَانِ**" لأنَّ حديثه كان عن سورتين لا سورة واحدة، فكل سورة كان أجرها وثوابها يمثل فِرقًا من الطير، فاستخدم التشبيه في قوله (فِرقَانِ) للتكثير في الأجر والثواب وزيادة في الترغيب.

وقوله: "**تُحَاجَّانِ عن أصحابِهمَا**" أي أنَّ هؤلاء الطير يكون فوق صاحبه يحميه مِمَّا يؤذيه أو يخيفه على الأرض أو في السماء من حيواناتٍ وطيورٍ مفترسة، وكذلك قراءة سورتي البقرة وآل عمران تحميان صاحبهما مما يؤذيه على الأرض من سحرٍ أو حسدٍ أو عينٍ، وتحميه من الفزع والخوف والعذاب يوم القيامة.

---

[٤] **المصدر السابق،ج٥،(باب الياء، فصل الغين)،: ١٤٤.**

[٥] **المصدر السابق،ج١٠،(باب القاف، فصل الفاء)،: ٣٠٠.**

[١] **المصدر السابق،ج٩،(باب الفاء، فصل الصاد)،: ١٩٤.**

ولعل السبب في اختياره ﷺ للطير في هذا التشبيه أنَّ الطيور تُحلِّق إلى مسافاتٍ عاليةٍ في السماء، فكأنَّ في ذلك إشارةً حسيَّةً في ظاهرها ومعنوية ونفسية في باطنها تشير إلى أنَّ هذا الثواب يرتفع ويعلو ويصعد في السماء إلى الله عزَّ وجلَّ، فيجزل لصاحبه الأجر العظيم مما يدفع كلَّ مؤمن إلى الاستزادة من قراءة سورتي البقرة وآل عمران رغبة في الثواب.

وقوله ﷺ: "**اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وتَرْكُهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**"، فقوله: "**اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ**" أمرٌ منه ﷺ يحمل معنى الحثِّ والرَّغبة الشديدة والحرص منه ﷺ في التنبيه على فضل وعِظَم الأجر لمن قرأ سورة البقرة. وقوله: "**فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وتَرْكُهَا حَسْرَةٌ**"، فقوله: "**فَإِنَّ أَخْذَهَا**" يشعرنا عليه الصلاة والسلام في هذا القول بأنَّ سورة البقرة شيءٌ عينيٌّ له وزنُهُ وحجمه وقيمتُه، فـ(الأخذ) لا يكون إلا في الأشياء المحسوسة، وقوله: "**بَرَكَةٌ**"، فـ"البَرَكةُ: النَّمَاء والزِّيادة"[١]، فشبه فضل قراءتها والأجر والثواب من ذلك بشيءٍ حسيٍّ ينمو ويزيد باستمرار، وقوله: "**وتَرْكُهَا حَسْرَةٌ**" أيضًا (التَّرك) لا يكون إلا في أشياء محسوسة كأنَّنا تركنا شيئًا محسوسًا له قيمته وأهميته. و(الحَسرةُ) تقال: "لأشدِّ النَّدم حتى يبقى النَّادم كَالحَسِيرِ من الدَّوابِّ الذي لا منفعة فيه"[٢].

وقوله: "**وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**"، فـ"البَطَلَةُ: السَّحَرَةُ"[٣]، أي لا تستطيع السَّحرةُ مقاومتها في إبطال سحرهم، ونلاحظ في حديثه عليه الصلاة والسلام تكرارٌ لفعل الأمر "اقرءوا" وذلك للتأكيد والمبالغة في فضل قراءة القرآن، ثم بدأ عليه الصلاة والسلام في التدرُّج من الكل إلى الجزء؛ فحث أولاً على قراءة القرآن، ثم تدرَّج إلى الحثِّ على قراءة سورتي البقرة وآل عمران، ثم ركَّز عليه الصلاة والسلام في التنبيه على قراءة سورة البقرة، وقد تبع هذا التدرج تدرج آخر في الثواب والأجر؛ فكان ثواب من قرأ القرآن أن يكون له شفيعًا يوم القيامة، ولا يشفع إلا للصاحب الصادق المخلص الخائف على صاحبه، ثم نلاحظ بعد ذلك اختلاف المشبه به وتعدده في قوله ﷺ: "**اقْرَءُوا الزَّهرَاوَيْنِ الْبَقَرَة وسورة آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ**

---

[١] **المصدر السابق،ج١٠،(باب الكاف، فصل الباء)،:٣٩٥.**

[٢] **المصدر السابق،ج٤،(باب الراء، فصل الحاء)،:١٨٩.**

[٣] **المصدر السابق،ج١١،(باب اللام، فصل الباء)،:٥٦.**

أَصْحَابِهِمَا"، فالمشبه به: (غمامتان، ثم غيايتان، ثم فرقان من طير صواف) يختلف من حيث الحجم ومن حيث المنفعة، فـ"الغمامتان" هما السحاب العظيم المتراكم، وعادة يكون السحاب على ارتفاع عالٍ جدًّا وهذا السحاب قد يكون يحمل المطر بداخله، وإذا لم يكن كذلك فيكفي أنَّه يُظل من أشعة الشمس الحارقة، بالإضافة إلى جمال منظره وروعته، فهذا المشبه به الأول، وأما المشبه به الثاني فهو (**غيايتان**)، والغياية هي السحابة الواحدة المنفردة، فهذه السحابة قد تكون محملة بالمطر وقد تكون غير محملة، وهي بالإضافة إلى ذلك تكون ظلاً لما تحتها.

أما المشبه به الثالث فهو (**فرقان من طير صواف**) والفِرق من الطير هي الطائفة المجتمعة في مكانٍ واحدٍ، وهذه الطير تكون في حالة طيرانها عالية فتشكل تحتها مثل الظل الذي يُستظلُّ به، إلا أنَّه مهما كان عدد هذه الفِرق من الطير فإنَّه لا يصل إلى حجم السحاب المتراكم أو حتى السحابة الواحدة لا من حيث الحجم ولا من حيث العلو، إذ إنَّ السحاب يكون عادة أعلى من الطير، فالطير يطير على علوٍّ قريبٍ لا يتعدَّى السحاب، ومنفعة الطير أقل من منفعة وفائدة السحاب، فالطير إذا كان ممَّا يُؤكل فإنَّ عدد الأشخاص الذين يستفيدون من أكله أقلُّ من الناس الذين يستفيدون من ظلِّ السحاب، وخاصة إذا كان مُحمَّلًا بالمطر، فمن المعروف أنَّ السحابة الواحدة إذا أمطرت فإنَّ مطرها يعمُّ منطقة واسعة من الأرض ويستفيد منه عددٌ كبير من العباد والحيوانات والطيور وحتى النبات.

ونلاحظ تكرار لفظة "اقرءوا" في ثلاثة مواضع من الحديث، وذلك في قوله: "**اقْرَءُوا الْقُرآنَ**"، وفي قوله: "**اقْرَءُوا الزَّهرَاوَيْن**"، وقوله: "**اقْرَءُوا سُورَةَ البَقَرَةِ**"، وفي هذا التكرار لهذه اللفظة "**اقرءوا**"، تأكيد ومبالغة شديدة منه ﷺ، ورغبة قوية صادقة مُلحَّة في ترغيبنا وتحبيبنا وتوجيهنا إلى قراءة القرآن وتدبُّره، وقد أمرنا عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن كله، وذلك في قوله: "**اقْرَءُوا الْقُرآنَ**"، وذلك لإفادة العموم، ثم أمر بعد ذلك بقراءة سورتي البقرة وآل عمران في قوله: "**اقْرَءُوا الزَّهرَاوَيْن**"، وذلك للعناية الخاصة بهما، ثم أمر بعد ذلك بقراءة سورة البقرة في قوله: "**اقْرَءُوا سُورَةَ البَقَرَةِ**"، وفي ذلك مبالغة في العناية الخاصة بهذه السورة لما فيها من الفوائد العظيمة.

ولكن لماذا هذا التعدد والتفاوت والاختلاف في المشبه به على الرغم من أنَّ المشبه واحد؟

إنَّ التعدد والتفاوت والاختلاف في المشبه به ليدل دلالة واضحة على أهمية المشبه وهو القرآن وسورتا البقرة وآل عمران، "وليس من شك في أنَّ ضرب أمثال ثلاثة لأمرٍ واحدٍ يدل على غزارة الخيال المُصوِّر كما يدل على أهمية هذا الذي تضرب له هذه الأمثال"[(١)]، "ولعلَّ تعدد المشبه به مع أنَّ المشبه واحدٌ جاء لاختلاف حال القراء، فطائفة تكون السورتان لها غمامتين، وثانية تكون لها غيايتين، وثالثة تكون لها فرقين من طير، فالناس ليسوا على درجة سواء في القراءة والتدبر، فحال السورتين مع كلٍ مختلف"[(١)]، "وفهم القرآن وتدبره هو الذي يثمر الإيمان، وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر فيفعلها البرُّ والفاجر والمؤمن والمنافق"[(٢)]، "ولعل في اختصاص هاتين السورتين "البقرة وآل عمران" بهذه الصور إشارةً إلى ما فيهما من حمايةٍ للعقيدة من الزيغ والضلال وبناء الإنسان المسلم على أساسٍ سليم، وأنَّ دورهما في هذا يشبه دور الغمامة في التظليل والحماية من وقع سهام الشمس الحارقة"[(٣)].

- وفي تشبيه آخر يصور لنا عليه الصلاة والسلام ضعف الطير، ومع ذلك فإنَّه يتوكل على الله ويسعى ليحصل على رزقه، فيصوره لنا في صورة تشبيهية رائعة تحثنا على السعي والتوكل على الله عزَّ وجلَّ، فعن عمرَ بن الخطَّابِ ﷺ[(٤)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **{لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا}**[(٥)].

فرسول الله ﷺ يحثنا على التَّوكلِ على الله وبذلِ الأسبابِ في الحصول على الرِّزق فيقول: "**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ**"، فبدأ ﷺ حديثهُ بجملةٍ شرطيةٍ الغرضُ منها الترغيب في الحثِّ

---

(١) **التصوير الفني في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،:٤١١.**

(١) **أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق،:١١٥-١١٦.**

(٢) **زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق: شعيب الأرناؤوط،عبد القادر الأرناؤوط، جـ١،ط٢، (مؤسسة الرسالة،١٤٠٥هـ)،:٣٣٨.**

(٣) **أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق،:١١٦.**

(٤) **عمر بن الخطاب بن نفيل، أمير المؤمنين، كان جمَّ المناقب، استشهد في ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين، ولي الخلافة عشر سنين ونصفًا. (الإصابة، جـ٧،:٣١٢).**

(٥) **سنن الترمذي،مصدر سابق، جـ٤،:٤٩٥،كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، حديث رقم:٢٣٤٤. (وهو حديث صحيح، رواه ابن ماجه، جـ٢،:١٣٩٤،حديث رقم:٤١٦٤. ؛وابن حبان، جـ٢،:٩٠٥، حديث رقم:٧٣٠).**

على طلب الرِّزق، فبدأ بـ(لو) التي تدل على انتفاء الرزق بسبب انتفاء التوكل، لأنَّها تحمل "معنى الشرط، ومعناه امتناع الشيء لامتناع غيره"[٦]، وقد أوحت في بداية الحديث بضرورة التوكل على الله حق توكله في السعي لطلب الرزق ليحصل من الله عزَّ وجلَّ الرزق الكريم، وقوله: "**تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ**"، أي تعتمدون عليه في طلب الرِّزق، فالرسول عليه الصلاة والسلام عمد إلى لفظة "توكَّلون" بدلاً من "تواكلون" لأنَّ "التوكُّل" من قولهم "توكَّل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلتُ أمري إلى فلان أي ألجأتُه إليه واعتمدتُ فيه عليه، ووكَّل فلانٌ فلانًا إذا استكفاه أمره ثقةً بكفايته أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه"[١]، أما "التواكُل" فهو من قولهم: "تَوَاكَلَ القومُ مُوَاكَلَةً ووكالًا: اتَّكل بعضهم على بعض"[٢].

ويتضح من معنى اللفظتين أنَّ كلًّا منهما تحمل معنىً مختلفًا؛ فـ"التوكُّل" يعني أن تُوكل الأمر إلى من يقوم به مع حرصك عليه واهتمامك به، وإلا لما اخترت له من هو ثقة للقيام به، بينما لفظة "التَّواكل" تعني عكس ذلك، فأنت لا تهتم بالأمر، بل تُحيله إلى أي شخص لعدم أهميته عندك، فلا تختار له من هو ثقة، بل ربما يرجعه هذا الشخص إليك وتظلُّ أنت وهو في حالة تداول لهذا الأمر، مرةً تتكل عليه وأخرى يتكل عليك وهكذا، وهذا ما أوحت به لفظة "التواكل"، فمن هنا نلاحظ دقة التعبير في لفظة "تتوكلون".

ثم قوله عليه الصلاة والسلام: "**حَقَّ تَوَكُّلِهِ**"، فالمصدر (توكله) دلَّ على التأكيد في الاعتماد على الله، "بأن تعلمُوا يقينًا أن لا فاعلَ إلا اللهُ، وأن لا مُعطِي ولاَ مَانِع إلا هُوَ، ثمَّ تسعَون في الطَّلب بوجهٍ جميلٍ وتوكُّلٍ"[٣]، ثمَّ قولُه ﷺ: "**لَرَزَقَكُمْ**"، فـ(اللام) هنا تأكيدٌ على فعلِ الرِّزقِ من اللهِ عزَّ وجلَّ.

ثمَّ قولُه عليه الصلاة والسلام: "**كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ**"، أي مثلمَا يرزُقُ الطَّير، "**تَغْدُو**"، فالغُدُوُّ بالضمِّ: "البُكْرَةُ ما بينَ صلاَةِ الغَدَاةِ وطُلُوعِ الشَّمسِ، والغُدُوُّ والاغْتِدَاءُ: التَّبْكِيرُ"[٤]،

---

[٦] **معاني الحروف، مصدر سابق،:١٠١.**

[١] **لسان العرب، مصدر سابق،ج١١،(باب اللام، فصل الواو)،:٧٣٤.**

[٢] **المصدر السابق،ج١١،(باب اللام، فصل الواو)،:٧٣٥.**

[٣] **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري،ج٧، (بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية)،:٧.**

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق، ج١٥،(باب الهمزة، فصل الغين)،:١١٦–١١٨.**

أي أنَّها تَذهبُ في أول النَّهار مع بُزوغِ الشَّمس مُعتمدةً على الله بَاذِلةً كلَّ جهدها في الحصول على الرزق، ووصفُهُ ﷺ لهذا الطير بقوله: "**تَغْدُو خِمَاصًا**" فـ"الخِمْصُ: الجُوعُ"[٥]، أي أنَّها تذهبُ وهي جائعةٌ بُطونُها فارغةٌ من الطعام، فـ"الخِمص" يطلق على "الجائع الضَّامر البطن"[٦] الذي التصقت بطنه بجوفه لشدة جوعه، ثم قوله ﷺ: "**وَتَرُوحُ بِطَانًا**"، فالرَّواحُ: "نَقِيضُ الصَّبَاح، وهو من زَوَالِ الشَّمسِ إلى اللَّيلِ، والرَّواحُ: العَودةُ إلى البَيتِ"[١]، فهي تعودُ إلى البَيت بِطانًا، و"البِطْنَةُ: امتلاءُ البَطْنِ من الطَّعامِ"[٢]، أي أنَّها قد حصلَت على طعامها وأكلت حتى امتلأَتْ بُطُونُهَا وشبعت، فعطَفَ بـ(الواو) بين جملة: "**تَغْدُو خِمَاصًا**" وبين "**تَرُوحُ بِطَانًا**" التي أفادت الجمع بين الصفتين: الجوع والشِّبع، الجوع في أوَّل النَّهار والشِّبع في آخره، أي أنَّ الحالين حال الجوع وحال الشِّبع كان في يومٍ واحدٍ، فهذه الطير على صِغَرِ حجمها، "تغدُو مبكِّرةً وهي جياعٌ وترُوح عشاءً وهي مُمتلِئَة الأجواف، فالكسب ليس برَازِقٍ، بل الرَّازقُ هو الله تعالى، فأشار بذلك إلى أنَّ التوكُّل ليس التبطُّل والتعطُّل، بل لا بدَّ من التَّوصُّل بنوعٍ من السَّبب، لأنَّ الطير ترزق بالسَّعي والطلب، وإنَّما أراد لو توكلوا على الله في ذهابهم ومجيئِهم وتصرُّفهم، وعلموا أنَّ الخير بيدِهِ لم ينصرفوا إلاَّ غانِمِين سالِمِين كالطَّير"[٣].

ونلاحظ أنَّ المقابلة[٤] في قوله: {**تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**} أدت إلى وضوح الصورة وكمالها، حيث إنَّ طرف المقابلة أدى إلى بيان الطرف الآخر، فجملة: "**تَغْدُو خِمَاصًا**" لو ذُكرت بدون الطرف الآخر أو الجملة الأخرى: "**وَتَرُوحُ بِطَانًا**" لأدَّى ذلك إلى اللبس ونقصان الصورة، ولفهمنا أنَّها ربما عادت وهي جائعة، ولكن عندما ذُكرت جملة "**وَتَرُوحُ بِطَانًا**" أدت إلى اكتمال الصورة وفهمها بالإضافة إلى وصول المعنى المقصود من هذه المقابلة وهو حسن التوكُّل على الله في طلب الرزق وعدم التواكل، بل السعي والحركة مع صدق التوكل على الله.

---

[٥] **مختار الصحاح، مصدر سابق، (باب الخاء، مادة(خ م ص)،: ١٩٠.**

[٦] **لسان العرب، مصدر سابق، ج١٣،(باب ، فصل)،: ٢٣٨.**

[١] **المصدر السابق، ج٢،(باب الحاء، فصل الراء)،: ٤٦٤.**

[٢] **المصدر السابق، ج١٣،(باب النون، فصل الباء)،: ٥٢.**

[٣] **تحفة الأحوذي، مصدر سابق، ج٧،: ٧.**

[٤] **سبق تعريفها،: ١٤٦.**

وقد شبَّه الرسول ﷺ بالطير لعظم سعيه في طلب الرزق، فالطَّيرُ يختلف بأنواعه وأشكاله، وهذه الصورة كثيرًا ما نراها في حياتنا، وخاصة في الطِّيور الأليفة التي كثيرًا ما نراها من حولنا مثل الحمام والعصافير، وإن كانت الطيور تختلف بأنواعها وأشكالها، فمنها الوحشيُّ ومنها الأَلِيف ومنها الوحشيُّ والأَليف معًا، إلاَّ أنَّهم جميعًا يدخلُون في الصورة التشبيهية التي أرادها ﷺ، وهذه الطُّيور مثل النَّاس في اختلاف طِباعِهم ومذاهبهم وأشكالهم، إلاَّ أنَّه يجمعهم شيءٌ واحدٌ هو البحث عن أرزاقهم أينَمَا كانت، لهذا عَمَدَ عليه الصلاة والسلام إلى عدم التَّخصيص بطيرٍ مُعيَّنٍ، إنَّمَا كان تشبِيهُهُ بالطَّير عامةً دون تحديدٍ لطائرٍ مُعيَّن حتى تنطبق الصُّورة في الأذهان، وتظلُّ ماثِلَةً عندما نَرى الطُّيور في السماء حين تُشرِق الشمس وتترك الطُّيورُ صِغارَها في أعشاشها، وتبدأُ رحلتها في البحث عن رزقها، فتَبعث في دَاخِلِنا الأمل والجِدَّ في السعي وراء الرِّزق وحسن التَّوكُّل على الله عزَّ وجلَّ.

- وقلوب الطير أضعف القلوب وأخوفها، تفزع لأي شيء يخيفها، ومن هنا فقد مثل عليه الصلاة والسلام بقلوب الطير لأناس كانت قلوبهم في رقة قلوب الطير وخوفها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه[١] عن النَّبي ﷺ قال: **{يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ}**[٢].

فرسول الله ﷺ يخبرنا عن صفاتٍ أوجَبَت دُخول أصحابها الجنَّة، فيقول عليه الصلاة والسلام: "**يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوَامٌ**"،فمَجِيء الفعل المضارع (يدخل) دليلٌ على أنَّه أمرٌ مُستقبَلِيٌّ من أمور الآخرة، وجعله كأنَّه أمرٌ مشاهَدٌ أمام أعيننا ونحن نقرأ الحديث، وقوله: " **أَقْوَامٌ**" يدلُّ على كثرة هؤلاء الناس، فهؤلاء الناس تميَّزوا بجملةٍ من الصِّفات، جعلتهم من أهل الجنة، وهذه الصِّفات أضمَرَها ﷺ في أفئِدَة الطير، وهذا أبلغ مِمَّا لو صرَّح بها، إذ لو أظهرها وعدَّدَها لاقتصر على تلك الصفات، ولكنَّه عليه الصلاة والسلام أراد جميع صفات الطير الحسنة، من "رِقَّةٍ وضعفٍ وخوفٍ وهيْبَةٍ، وتوكُّلٍ على اللهِ"[٣].

---

[١] **تقدمت ترجمته،:١٢٦.**

[٢] **صحيح مسلم، مصدر سابق،ج٤،:٢١٨٣، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، حديث رقم: ٢٨٤٠.**

[٣] **صحيح مسلم بشرح النووي،مصدر سابق،ج٩،:١٧٧.**

ثم قوله ﷺ: "**أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ**"، فقال: (أفئِدتهم) بدلًا من أن يقول: (قلوبُهم) لأنَّ "التَّفَؤُّد: التَّوقُّد، والفُؤادُ: القلبُ، لتَفَؤُّدِهِ وتَوَقُّدِهِ"[٤]، فـ(الفُؤادُ) هو القلبُ المُتَّصِف بالتَّوقُّد، ولو خَلَى من هذه الصفة لأُطلق عليه (القلبُ)، وقوله: "**مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ**"،"مثَّل النبي ﷺ القلوب الرَّقِيقَة النَّقِيَّة بقلوبِ الطَّير في رِقَّتِها وضعفِها، أو قيل في الخَوفِ والهَيبَة، فالطير أكثر الحيوان خوفًا وفزعًا، فإنَّ هذه الدَّلالاتِ جميعُهَا تَتَضَافَرُ في بيانِ حال هذه القُلوب، إذ لا يُوجد ما يغلِّبُ خاصيَّةً على أخرى، ويقطع بأنَّها المُراد من المثل، وينفي ما سواها، ومن ثمَّ نجد المَثل يُنتج ظلالًا كثيفةً من الدّلالات والإيحَاءَات تتشعَّب في الغاية والمُقتضى وتُوسع دائرته"[١].

"وثمَّة شيءٌ آخر هو ضآلةُ هذه القلوب عند الطيور ممَّا يُفيد تواضع العبد المؤمن أمام خالقه، فهي ضعيفةٌ لا تكاد تُرى لكونها صورةً بعيدةً، كما أنَّ هذه الصورة داخليَّةٌ تدعو إلى التَّأمل في باطن الطيور، لفَهْمِ رهافة الشُّعور العالية عند المؤمنين الخاشعين، ممَّا جعلهم يطلقون بحريَّة في جنان النعيم، في حركةٍ آخذةٍ في الامتداد في الفضاء الواسع الذي يُثير هنا مشاعر الراحة والانبساط، خصوصًا أنَّ إطار هذه الصورة غير محدودٍ لكونه مفهومًا غيْبيًّا"[٢].

ثم إنَّ هذه الطيور "هي من أشدِّ الحيوان خوفًا وفزعًا"[٣]، لذا عمد الرسول ﷺ إلى تشبيه قلوبهم بقلوب الطير، أي أنَّ هؤلاء القوم هم أشدُّ النَّاس خوفًا وفزعًا من عذاب الله وعقابه، وإذا كان هذا حالهُم فهُم من أبعد الناس عمَّا يُغضب الله عليهم، فقُلوبهم رقيقةٌ وجِلَةٌ خاشعةٌ ترجو ما عند الله على ما في هذه الدنيا، لذا جاء التَّشبيه في أسلوبٍ خبريٍّ يحمل معنى الترغيب والحثِّ على التَّخلُّق بالأخلاق الحميدة الفاضلة، ففيه دعوةٌ ضِمْنِيَّةٌ إلى رقَّةِ القُلوب وتطهير النَّفس من الغِلظةِ والجفوةِ والقَسوةِ، والتَّمسُّك بصفة الرِّقةِ واللِّين والطهارة وما يتبعها من الوَرَع والتُّقى وخشية الله عزَّ وجلَّ، والبعد عمَّا يتنافى مع هذه الصفات من القسوة والغِلظةِ والتَّكبُّر، إذ يرى الإنسان عواقب هذه الصفات جميعها وما بينها من تفاوتٍ في النتائج المُترتِّبة

---

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق،ج٣،(باب الدال، فصل الفاء)،:٣٢٨.**

[١] **السياق وتوجيه دلالة النص، مرجع سابق،:٦١٩.**

[٢] **الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٣٢٦.**

[٣] **حياة الحيوان، مرجع سابق،:١٢٦.**

عليها، فيكون ذلك أدعى للامتثال والتَّمسك بما يُقرب من الجنَّة تبشيرًا للمسلم رقيق القلب خاشعه بعاقبة الجنَّة وهي غاية الغايات"[٤].

- ومن الطيور الأليفة (الدجاجة)، وهي من الطيور التي تعيش في كنف الإنسان وفي منزله، وقد ذكرها عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث عن الكهان كنوع من الاستهجان والتقبيح لهم، فعن عائشة رضي الله عنها[٥] قالت: **{سأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَيْسُوا بِشَيْءٍ. قَالُوا يَا رَسُولَ الله فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: تِلكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطِفُهَا الجِنِّيُّ فَيُقِرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائةِ كِذْبَةٍ}**[١].

سأل الصحابة ﷺ رسول الله ﷺ عن أمر الكُهَّان، فقال عليه الصلاة والسلام: "**لَيْسُوا بِشَيْءٍ**" أي: "فيما يتَعَاطَونه من علم الغيب، أي ليس قولهم بشيء صحيح يُعتمد كما يُعتمد قول النبي ﷺ الذي يخبر عن الوحي"[٢]، وهذا القول منه ﷺ: "**لَيْسُوا بِشَيْءٍ**" فيه تنبيهٌ على أنَّهم مهما بلغوا من القوة، فإنَّ ذلك لا يعدل شيئًا بجانب قوة الله عز وجل وقدرته، وكون الرسول ﷺ لم يَزِد على هاتين الكلمتين بأيِّ شيءٍ آخرَ فيه دليلٌ على ضعفهم الشَّديد، فالجار والمجرور"**بشيءٍ**" في العبارة أوحت بما أراده عليه الصلاة والسلام من المبالغة في احتقارهم واحتقار قوتهم بجانب قوة الله عزَّ وجلَّ، حتى أنَّهم لم يستحقوا من رسول الله أكثر من وصفهم بهاتين الكلمتين: "**لَيْسُوا بِشَيْءٍ**"، التي تعني العدم، فلم يأت لهم بشبه من شيء، ولكنَّه نفاهم وأبطل وجودهم وقدرتهم[٣]، ونلاحظ أنَّ لفظة "**شيء**" جاءت نكرة مما زاد من حقارتهم وإنكار النفوس لهم.

---

[٤] **السياق وتوجيه دلالة النص، مرجع سابق،:٦١٩.**

[٥] **تقدمت ترجمتها،:١٥٧.**

[١] **صحيح البخاري، مصدر سابق،ج٧،:١٢٢، كتاب الآداب، باب قول الرجل للشيء ليس بشيء وهو ينوي أنَّه ليس بحق.**

[٢] **فتح الباري، مصدر سابق ج٧،:١٢٢.**

[٣] **أسرار البلاغة، مصدر سابق،:٦٧.**

إلا أنَّ الصحابة ﷺ أرادوا تفسيرًا يوضِّح حقيقة أمر هؤلاء الكُهَّان، فقالوا: "**فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا!**" أي أنَّهم على علمٍ بأنَّ حديثهم لا يُصدَّق دائمًا، لكنهم يريدون تفسيرًا لما يكون حقًّا من أحاديثهم، فيردُّ عليهم ﷺ بما يُزيل دهشتهم وتعجُّبهم ويوضح لهم الأمر بقوله: "**تلكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطِفُهَا الجِنِّيُّ فَيُقِرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائةِ كِذْبَةٍ**" فقد "كان الجنُّ يصعدون إلى جهة السماء، فيركب بعضهم بعضًا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه في أُذُن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن، حُرست السماء من الشياطين وأُرسلت عليهم الشُّهب، فبقي من استراقهم ما يتخطَّفه الأعلى فيُلقيه إلى الأسفل قبل أن يُصيبَه الشِّهاب.

وإلى ذلك جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}**"[(١)][(٢)].

فرسول الله ﷺ بيَّن لهم بقوله: "**تِلكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ**" فاستخدم عليه الصلاة والسلام اسم الإشارة (تلك) التي يُشار بها للبعيد، ليؤكِّد للصحابة أنَّها كلمة استرقها الجنيُّ من مكانٍ بعيدٍ في السماء ثم أطْلَع الكاهن عليها، ثم إنَّ استخدامه وإفراده لكلمة (الكلمة) دون جمعها كأن يقول (كلمات) أو (جُمل) تدل على ضعف الجني حتى أنَّه لضعفه لم يستطع أن يسترق غير كلمةٍ واحدةٍ فقط، ولذلك حدَّد عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله:"الكلمة" دون سواها، وأمَّا قوله عليه الصلاة والسلام "**مِنَ الحَقِّ**" فـ"من" للتبعيض، وقد أوحت بأنَّه لا يستطيع أن يخطف إلا القليل، وأقلُّ القليل هو كلمة واحدة، وذلك لخوفه واضطرابه وعجزه، وكل ذلك يمثِّل ضعفه وحقارته أمام قدرة الله عزَّ وجلَّ، ثم يحدد ﷺ صِفَة هذه الكلمة أنَّها كلمة حقٍّ جاءت من عند الرحمن خالصةً نقيَّةً، فيخطفُها الجنيُّ ويسرع بها إلى وليِّه، وهنا نرى براعةً أخرى في اختياره ﷺ للفعل "**يخطفها**" وذلك أنَّ الفعل يدل على استمرار هذا الفعل في كل زمانٍ، وتجدده -أي في كل زمنٍ يظهر فيه كاهنٍ-، والأمر الآخر الأكثر روعةً هو أنَّه ﷺ اختار كلمة (يخطفها) التي تدل على "الأخذِ بسرعةٍ وحذَرٍ وخِفْيَةٍ"[(٣)]، وذلك يعني أنَّ الخاطف دائمًا في

---

(١) **سورة الصافات، الآية: ١٠.**

(٢) **فتح الباري، مصدر سابق، جـ١٠،: ٢١٧.**

(٣) **لسان العرب، مصدر سابق، جـ٩،(باب الفاء، فصل الخاء)،: ٧٥.**

حذرٍ لعلمه أنَّ عمله قد ينكشف في أي لحظةٍ لأنَّه دون تخطيطٍ مُسبَقٍ، فالخاطف في الحديث لا يعلم شيئًا عمَّا يُريدُ خطفَهُ، أي لا يعلم مُسبَقًا شيئًا عن الكلمة التي يُريدُ خطفَهَا، وفي أيِّ وقتٍ يمكن أن يخطفها، فعمله ينصَبُّ على السُّرعة في الخَطفِ والحذر من العقاب، ولو استخدم عليه الصلاة والسلام كلمة (يستَرِقها) التي تدل على "أخذِ الشَّيء في خِفْية"[٤] لفهمنا أنَّه يقصد أنَّ الجنيَّ خطَّط ودبَّر لسرقة كلمةٍ مُعينةٍ وهذا التخطيط المُسبق قد يكفل له عدم العقاب الذي سيصيبه على عكس ما يُفهم من كلمة (يخطفها) التي في الحديث الشريف، إذًا فما الذي يحدث لهذه الكلمة التي يخطفها الجني؟

يقول عليه الصلاة والسلام:"**يَخْطِفُهَا الجِنِّيُّ فَيُقِرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ**"، وقد ذكر الحديث لفظة "الجنِّي" ولم يقل "الشيطان" لأنَّ الشيطان يطلق على "كل متمرد عاتٍ من الجنِّ" فالجنِّي لم يتمرد على إبليس بل هو في طاعته، يسترق السمع ويخطف الكلمة ويقرها في أذن وليه، فبعد أن يخطفها الجني يذهب بها إلى وليِّه وهو الكاهن فيُقِرُّها، و"القَرُّ": "ترديد الكلام في أُذُنِ الأبكم حتى يفهمه"[١]، فاختياره عليه الصلاة والسلام لهذه الكلمة يصوِّر لنا عجز الكاهن وشدَّة غبائه وضعفه، إذ إنَّ الجني يظل يردد على الكاهن الكلمة حتى يفهمها ويستوعب معناها، بالإضافة إلى أنَّ حرف (الراء) المشدد[٢] في المفعول المطلق (قرَّ) عند النطق به يظل يرتعد ويتكرَّر على اللسان حيث يوحي بالتكرار من الجنيِّ على الكاهن فيما يخبره به، وهذا من بلاغته ﷺ، بالإضافة إلى أنَّ (القرَّ) "يُطلق على صوت الدَّجاجة إذا قَطَعَته"[٣]، وهذا تشبيهٌ منه ﷺ لهذا الجنيِّ الذي يخطف الكلمة حيث يظلُّ يردِّدُها في أُذُنِ الكاهن حتى يستوعبها، فتشبيهه ﷺ لهذا الجنيِّ بالدجاجة دون الدِّيك فيه سخريةٌ شديدةٌ بهذا الجنيِّ، لأنَّ المعروف عن الدَّجاجة خوفها وضعفها الشديد مقارنةً بالديك، وفي هذا مُبالغة في شدَّة ضعف هذا الجني مقارنةً مع قوَّة الله عزَّ وجلَّ وقدرته.

ثم يواصل عليه الصلاة والسلام ما يحدث لهذه الكلمة من الحقِّ عندما يُقِرُّها الجنيُّ في أُذُن الكاهن بقوله:"**فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِذْبَةٍ**"، إنَّ هذه الكلمة التي يتلقَّاها الكاهن

---

[٤] **المصدر السابق، ج١٠، (باب القاف، فصل السين)،:١٥٦.**

[١] **المصدر السابق، ج٥، (باب الراء، فصل القاف)،:٨٤.**

[٢] **سر الفصاحة، مرجع سابق،:٢٠.**

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٥، (باب الراء، فصل القاف)،:٨٤.**

من الجنيّ لا يَدَعُها كما هي بل يخلطها بمائة كذبة، وهنا نلاحظ دور الكاهن وهو كما قال عليه الصلاة والسلام يخلطها بمائة كذبة، لقد وضَّح لنا عليه الصلاة والسلام صِفةً من صفات الكاهن وهي الكذب والدَّجل على النَّاس، ونلاحظ الدور الذي لعبه حرف العطف (الفاء) في قوله عليه الصلاة والسلام "فيقرها، فيخلطون" حيث مثَّلت سرعة الاختطاف والخلط والكذب، وكل ذلك يتناسب مع فعل الدَّجل الذي يقوم به الكهان. وقوله ﷺ: "**بمائة كذبة**" لم يقصد الرسول ﷺ من ذكره لمائة كذبة العدد بالتحديد إنما قصد عليه الصلاة والسلام (الكثرة) إذ رُبما خلطها الكاهن بأكثر من ذلك العدد.

وهذا الحديث بما حوى من صورة تشبيهية جميلة تمثِّل حال الكهنة لا يتنافى مع قول الله عزَّ وجلَّ: **{وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا}**[١]، إذ إنَّ هناك من الجنِّ من يصعد إلى السماء فيسرق الكلمة الواحدة لعجزه أن يأخذ أكثر من ذلك ولضعفه وخوفه من أن تصيبه الشهب، عقابًا لما يفعل، ويؤكد ذلك قوله عليه الصلاة والسلام "**يخطفها الجنِّي**" دليل على عدم السماح لهم بالاستماع.

لقد عبَّرت هذه الصورة عن حال الكُهَّان والسحرة والمشعوذين أصدق تعبيرٍ، ووصفتهم وصفًا دقيقًا، وبيَّنت أن لا حول لهم ولا قوَّة بجانب قدرة الله وقوته، وأنَّ سيطرتهم لا تكون إلا على ضعفاء النفوس ممن يبتعدون عن الله وعن ذكره.

- وتميز الحمام من بين الطيور بألوانه المختلفة الرائعة التي يكون السواد جزءًا منها، فيرد هذا اللون في تشبيهه ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: **{يَكُونُ قَوْمٌ يَخْضِبُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بِالسَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الحَمَامِ لاَ يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ}**[٣].

فرسول الله ﷺ يخبرنا عن أمرٍ مستقبليٍّ فيأتي بالفعل "يَكُونُ" ليدلَّ على أنَّ هؤلاء القوم ليسوا في زمن النبيِّ ﷺ، فدلَّ الفعل على أمرٍ غيبيٍّ أخبر عنه ﷺ فهو من معجزاته عليه الصلاة

---

[١] **سورة الجن، الآية:٩.**

[٢] **تقدمت ترجمته،:١٧٥.**

[٣] **سنن أبي داود، مصدر سابق،ج٤،:٤١٨-٤١٩، كتاب الترجل، باب ما جاء في خضاب السواد. (وهو حديث صحيح، رواه النسائي، ج٨،:١٣٨. ؛ وأحمد في مسنده، ج٤،:٢٧٦، حديث رقم:٢٤٧٩).**

والسلام، بالإضافة إلى أنَّ هذا الفعل "يكون" فيه نفيٌ لهذه المعصية في زمنه عليه الصلاة والسلام وبين أصحابه فكأنَّه عليه الصلاة والسلام ينزه أصحابه عن مثل هذا الفعل، ويرجع هذا الفعل إلى المستقبل، ثم يقول عليه الصلاة والسلام: "**قَوْمٌ يَخْضِبُونَ**"، فهؤلاء القوم يخضبون. والخِضَابُ : "مَا يُخْتَضَبُ بِهِ مِنْ حِنَّاءٍ وَكَتَمٍ وَنَحْوِهِ، وخَضَبَ الشَّيءَ يَخْضِبُهُ: غَيَّرَ لَونَهُ بِحُمْرَةٍ أو صُفْرَةٍ أو غَيرِهِمَا"[٤]، والمعنى أنَّهم "يُغَيِّرونَ الشَّعرَ الأَبْيَضَ من الشَّيبِ الواقعِ في الرَّأسِ واللِّحيةِ بِالسَّوادِ أيْ بِاللَّونِ الأَسودِ"[٥]، وقوله : "**فِي آخِرِ الزَّمَانِ**" توضيحٌ إلى أنَّهم ليسوا من الصحابة ﷺ، كما أنَّهم ليسوا من التَّابعين وغيرهم بل هم قومٌ من أواخر أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**بِالسَّوَادِ**" أفاد الجار والمجرور تحديد اللون وأنَّه اللون الأسود دون غيره كالأحمر مثلاً، وهذا أدَّى إلى توضيح اللون المُحرَّم، والجملة الفعلية في بداية الحديث من قوله ﷺ: "**يَكُونُ قَوْمٌ يَخْضِبُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بِالسَّوَادِ**" دلَّت على إثبات فعلهم هذا.

ثمَّ شبَّههم عليه الصلاة والسلام بقوله: "**كَحَوَاصِلِ الحَمَامِ**"، فـ(الكاف) للتشبيه[١]، والحَوَاصِلُ هي "فِي الطَّائر، وهي بمنزلة المَعِدَةِ من الإنسانِ"[٢]، "أيْ كصُدُورِها فَإنَّها سُودٌ غَالبًا"[٣]، فشبَّه ﷺ هؤلاء القوم الذين يخضِبُون لحاهم بالسواد شبههم بحواصل الحمام، لكن ما الذي جعل النبي ﷺ يشبه بالحمام دون غيره من الطيور على الرغم من أنَّ "جميع الطيور تكون لهم حوصلةٌ لتخزين الطعام"[٤] بداخلها؟

إنَّه ذلك الطوق الذي تتميز به الحمامة دون غيرها من الطيور والذي يتصف غالبًا بالسواد، يقول الدميري: "إنَّ كلَّ ذات طوقٍ حمام"[٥]، وهذا ما يدل على أنَّ هذا الطوق الملون لا يكون إلا في الحمام على اختلاف أنواعه وأشكاله، فهذه الحوصلة عندما تمتلئ بالطعام تنتفخ وتبرز، وبروزها وعليها هذا اللون الأسود يجسِّم ويجسِّد شكل اللحية السوداء، إذ أنَّها

---

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق، جـ١،(باب الباء، فصل الخاء)،:٣٥٧.**

[٥] **عون المعبود، مصدر سابق،جـ٦،:١٧٨.**

[١] **عروس الأفراح، مصدر سابق، جـ٢،:١٨٩.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق،جـ١١،(باب اللام، فصل الحاء)،:١٥٤.**

[٣] **عون المعبود، مصدر سابق، جـ٦،جزء١١،:١٧٨**

[٤] **موسوعة مملكة الحيوانات، مرجع سابق، جـ٦،:٣٤٠.**

[٥] **حياة الحيوان الكبرى، مرجع سابق،جـ١،:٣٦٤.**

تنتفخ على شكل طوليٍّ في صدر الحمامة ثم يكون الطوق الأسود في نهايتها، والشيءُ الآخر الذي يعود إلى سبب التَّشبيه به دون غيرِهِ من الطيور هو أنَّ الحمام من أشدِّ الطُّيور شبَهًا بِطِباعِ الإنسان، "فلا يوجد شيءٌ قطُّ من رجلٍ أو امرأةٍ إلا وهو في الحمام"[٦].

وقوله ﷺ : "**لاَ يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**" فالنَّفي هنا دلَّ على المبالغة في التحريم أي "لا يشمُّون ولا يجدون رائحة الجنَّة فالمُراد به التَّهديد"[٧] لمن يقوم بهذا العمل.

وقد أدى جناس الاشتقاق[١] في قوله: "**لا يريحون رائحة**" إلى التركيز على الرائحة التي تُشم وليس على حاسة الشم نفسها مما جعلنا نشتاق لهذه الرائحة ونتمناها، ولفظة "لا يريحون" التي استخدمها عليه الصلاة والسلام من "رَاحَ الشيءُ يراحُه ويَريحُه إذا وجد ريحه"[٢]، وكأنَّ في هذه اللفظة إخبارًا منه ﷺ بأنَّ رائحة الجنة تسبق دخولها، وفي ذلك تشريفٌ وتبشيرٌ للمؤمنين البعيدين عن أصغر المعاصي فضلاً عن أكبرها، كما فيها زجرٌ وإهانةٌ وإذلالٌ للعاصين بأنَّهم يحرمون أقل ما يكون وهو شمهم رائحة الجنة، وتحمل تأكيدًا مطلقًا على عدم دخولهم إياها وذلك بحرمانهم حتى أقل ما يكون منها وهي رائحتها، وعادةً ما تكون رائحة الشيء الحسن تبشيرًا يبعث السرور والفرح، على عكس ما يكون في رائحة الشيء المُنفِّر، ولا أدلَّ على ذلك من قول يعقوب عليه السلام: **{إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ}**[٣]، فكانت هذه الرائحة بشير خيرٍ وفرح وسرور من الله عزَّ وجلَّ على يعقوب عليه السلام، ونلاحظ دقة اللفظ القرآني في قوله: **{فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ}**، فلفظة "البشير" وهو الرسول الذي حمل قميص يوسف، أو بالأصح حمل رائحة يوسف الموجودة في القميص، هذا الرسول أطلق عليه القرآن لفظة "البشير" لأنَّه يحمل البشارة ليعقوب عليه السلام.

لهذا جاء عليه الصلاة والسلام بلفظة "رائحة الجنة" ليثير المشاعر ويرغبنا في الابتعاد عن المعاصي وعما نهى عنه عليه الصلاة والسلام، وقد اعتمد عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث على "حاسة الشم لما لها من تأثير على النفس والعواطف، فالروائح الطيبة تزيد من الشعور

---

[٦] **المرجع السابق،:٣٦٥.**

[٧] **عون المعبود، مصدر سابق،:١٧٨.**

[١] **سبق تعريفه،:١٩٢.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق،ج٢،(باب الحاء، فصل الراء)،:٤٥٦.**

[٣] **سورة يوسف، الآية:٩٤.**

بالسرور والانتعاش والثقة بالنفس والإحساس بجمال الحياة والكون"[٤]، بل إنّها تثري الخيال وتحركه في جلب صورٍ جميلةٍ عاشها الإنسان أو يعيشها.

لقد وردت جملة من الطيور في تشبيهاته عليه الصلاة والسلام حيث أبرز من خلالها أمورًا لها أهميتها فصورها صورًا رائعة تناسبت مع مقام الحديث وموضوعه، فحين يرغِّب في أمرٍ من أمور الدين أو فضيلة أو خلقٍ حميدٍ فإنَّه يذكر في تشبيهه صفات عامة في الطير، ولا يحدد طيرًا معيَّنًا كما في قوله: "**اقْرَءُوا القُرآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي...**"[١]، وقوله: "**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ...**"[٢] وقوله: "**يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ**"[٣]، إلا أنَّه حين يريد التحذير أو التخويف أو إيضاح أمرٍ من أمور الدنيا فإنَّه يعمد إلى اختيار طيرٍ بعينه كالدجاجة في حديث: "**سأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الكُهَّانِ...**"[٤]، أو كالحمام في قوله : "**يَكُونُ قَوْمٌ يَخْضِبُونَ فِي...**"[٥]، وذلك الاختيار منه عليه الصلاة والسلام لهذه الطيور يكون بما يناسب المعنى الذي يريده بما يحقق وضوح الصورة والمعنى المراد.

---

[٤] المجلة العلمية للتمريض، تصدرها كلية التمريض جامعة بغداد، العدد١، السنة٢٠٠٨م:٢١، د.نهى عناية الحسناوي، د.عائد صباح النصيري.

[١] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الثالث،:٢١٨.

[٢] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الثالث،:٢٢٤.

[٣] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الثالث،:٢٢٧.

[٤] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الثالث،:٢٢٩.

[٥] تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الثالث،:٢٣٢.

المبحث الرابع

التَّشْبِيهُ بِالحَشَرَاتِ فِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، خصَائِصُهُ وأَسرَارُهُ البَلاَغِيَّة

زخرت البيئة العربية بكثير من الحشرات، النَّافع منها والضَّار، وقد ألِف العربيُّ كثيرًا من هذه الحشرات، وبهر بأنواعها وأشكالها وتعايش معها، وظهر ذلك جليًّا في أوصافهم، وقد استخدم الرسول ﷺ ذلك في تشبيهاته لأصحابه؛ فعمد إلى استخدام الحشرات الصغيرة الضئيلة لإيضاح معنى من المعاني، لا يقل أهمية عما ورد في التشبيهات السابقة بالدواب والزواحف والطيور.

- فأول هذه الحشرات التي افتتن العربي بصنيعها وعجب من دقة عملها (النحلة)، وهي ذات مكانة عالية عنده، فهي غذاؤه وعلاجه، وقد أوردها عليه الصلاة والسلام في تشبيهاته مع ما يتناسب وهذه المكانة، فقد ذكرها في تشبيهه في أمور العبادة وفي خصال المدح كما في قوله ﷺ في الحث على الذكر، فعن النُّعمان بن بَشِير رضي الله عنه[1] قال: قال رسولُ الله ﷺ: **{إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلاَلِ اللهِ التَّسْبِيحُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّحْمِيدُ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ العَرْشِ لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ تُذْكَرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ لَا يَزَالُ لَهُ مَنْ يُذْكَرُ بِهِ}**[2].

فرسول الله ﷺ يخبِرُنا عن فضل ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ والثَّناء عليه، بقوله ﷺ: "**إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلاَلِ اللهِ**" فـ(إنَّ) لتأكيد ما بعدها، لكنَّ الصحابة هنا ليسوا منكرين لفضل الذكر ولكنَّ ذهنهم وتصوُّرهم خالٍ من أهمية هذا الذكر وفضله وعظمته وجزيل ثوابه عند الله

---

[1] **تقدمت ترجمته،:٢٧.**

[2] **سنن ابن ماجة، أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه وعلق عليه:محمد فؤاد عبد الباقي،ج٢،(دار البيان للتراث)،:١٢٥٢، كتاب الآداب، باب فضل التسبيح، حديث رقم:٣٨٠٩. (وهو حديث صحيح، وصححه محمد بن عبد الله النيسابوري في كتابه: المستدرك على الصحيحين،تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج١،ط١،(بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية :٦٧٨،حديث رقم:١٨٤١). ؛وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند،تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ج٣،ط٢،(مؤسسة الرسالة،١٤٢٠هـ)، :٣٣٧، حديث رقم:١٨٣٨٨.**

عزَّ وجلَّ بدليل مجيء لفظة "**ممَّا تذكرون**"، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يوضح لهم مقدار هذا الفضل وعظمه، فأراد أن يقرِّبه لأذهانهم ويؤكده لهم ويجعله شاخصًا ماثلًا أمام أعينهم.

وقوله: "**مِمَّا تَذْكُرُونَ**"، فالفعل يدلُّ على كثرةِ أنواع الذِّكر التِّي يُتقرَّب بِها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإن كان "**التَّسْبِيحُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّحْمِيدُ**" بعضًا منها، ومَجيء الفعل بالمضارع يدلُّ على أنَّ هذه الأذكار من العبادات التي يجب أن تكونُ على لسانِ المُؤمن بصفةٍ مستمرَّةٍ، وأن لا يفتُر عن ذكر الله بل لا يزال لسانُه رطبًا بذكر الله عزَّ وجلَّ بعد كل حينٍ، فـ"الذكر هو الذي له المنزلة الزَّائدةُ على بذلِ الأموَالِ والأَنفُسِ، لأنَّه عملٌ نفسيٌّ، وفعل القلب هو أشقُّ من عمل الجوارح، بل هو الجهادُ الأكبرِ"[١].

وقوله ﷺ: "**مِنْ جَلاَلِ اللهِ**"، أي "عَظَمَتهِ"[٢] وتقديسه وتبجيله، أي أنَّ من أفضل الأشياء التي تستخدمونها وتفعلونها لتعظيم الله التسبيح والتهليل والتحميد، وقد تقدَّم الفعل "**تَذْكُرُونَ**" على الجار والمجرور "**مِنْ جَلاَلِ اللهِ**" لأهميَّة المُقدَّم ومكانتِهِ في العبادة والطاعة، وما يجلبُه على المُؤمن من الأجر والخير.

وقوله: "**التَّسْبِيحُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّحْمِيدُ**"، فـ"**التسبيح**: هو التَّنزِيهُ للهِ سبحانهُ وتعالَى، وتبريءُ للهِ من السُّوءِ براءةً"[٣]، والتَّسبيح فيه تعظيمٌ للهِ عزَّ وجلَّ وإجلالٌ له عن كلِّ شيءٍ، و"**التَّهليلُ**: هو قولُ المُؤمن لا إله إلا الله، وهي أفضلُ الذكر لأنَّ لها تأثيرًا في تطهيرِ الباطنِ عن الأَوصافِ الذَّمِيمَة التِّي هي معبوداتٌ في باطن الذَّاكرِ، فيُفيدُ عُمومَ نَفي الإلَهِ بقوله: (لاَ إلَه)، ويثبتُ الواحدُ بقولِهِ (إلاَّ الله)، فيَعُودُ الذِّكر من ظاهر لِسَانِهِ إلى بَاطنِ قلبِهِ، فيتَمَكَّنُ فيهِ ويستَوِي على جَوَارِحِهِ"[٤]، ففِيهِ إثباتٌ لِوحدانيَّة الله عزَّ وجلَّ، وأمَّا "**التَّحْمِيدُ**" فـ"الحمدُ أفضلُ الدُّعاءِ، لأنَّ الدعاءَ عبارةٌ عن ذِكرِ الله وأن يطلُبَ حاجتَهُ والحمد يشمَلُها، فإنَّ من حَمِدَ الله إنَّمَا يَحْمَدُهُ على نِعَمِهِ، والحمد على النَّعمةِ طلبٌ للمَزِيدِ، قال تعالى: **{لَئِن شَكَرْتُمْ**

---

[١] شرح سنن ابن ماجة، السيوطي عبد الغني فخر الحسن الدهلوي، جـ١،(كراتشي: قديمي كتب خانة)،: ٢٧٠.
[٢] لسان العرب، مصدر سابق، جـ١١،(باب اللام، فصل الجيم)،: ١١٦.
[٣] مختار الصحاح، مصدر سابق، (باب السين، مادة (س ب ح)،: ٢٨٢.
[٤] شرح سنن ابن ماجة، جـ١،: ٢٧٠.

لأَزِيدَنَّكُمْ}[٥][٦]، فالحمد ثَنَاءٌ على الله وشكرٌ لهُ، وهذه الأنواع الثَّلاثة "**التَّسْبِيحُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّحْمِيدُ**" قد عُطِفَ فيها بـ(الواو)، لأنَّها تدخُلُ جميعها تحت أنواعِ الذِّكرِ، وقد يتلفَّظُ بها العبدُ في آنٍ واحدٍ، لذا كان العطف فيها بـ(الواو).

وقوله ﷺ: "**يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ العَرْشِ**"، فـ"**يَنْعَطِفْنَ**": "أي يَنْحَنِينَ ويَدُرْنَ"[٧]، فاللَّفظة أخرجت الصورة من السُّكونِ إلى الحركة الدَّائرِيَّة، وهذا يدلُّ على أنَّها في حركةٍ دائمةٍ، إذ إنَّ الحركةَ الدَّائرية تعني عدم الانتهاء إلى حدٍّ مُعيَّنٍ في الحركة، وذلك أكثر مبالغةً في أنَّها لا تفتُرُ عن التَّذكير بِصاحبِها، فركّزت الصُّورة على حاسَّة البصرِ في تَجْسيدِ الصُّورة.

وقوله: "**لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ**"، فقوله: "**لَهُنَّ دَوِيٌّ**" أي: "لهُنَّ صوتٌ، وهو شدَّةُ الصوت وعلُوّه وبُعدُهُ في الهَواءِ"[١]، أي أنَّ صوت هؤلاء النَّحل قويٌّ جدًّا وعالٍ ويظلُّ يُسمَع في الهواء، فهنا أصبحت الصورة أكثر تنبيهًا وجذبًا لحاسَّة السمع، فالمُؤمن إذا ذَكَرَ ربَّهُ واستحضرهُ دائمًا وأثنى عليه وظلَّ لسانُهُ رطباً بِذِكرِ الله، لا يغفَلُ ولا ينسى الله، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد سخَّر له هذه الأذكار فهي تدُور حول العرشِ لها صوتٌ قويٌّ عالٍ تُذكَر بصاحِبِها وبعَمَلِه الصَّالح، فكما أنَّه ذَكَر الله، فهي تُذكَر بِهِ عند الله، فالجزاء من جنس العمل. وقوله: "**تُذْكَرُ**" لا يعني ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد نَسيَ عبدَه وعملَه، تعالى الله عن ذلك، أو أنَّه لا يعلم ما قام به من العِبادة والذِّكر، إنَّما هو ترغيبٌ منه ﷺ يحثُّ فيه أصحابه وأمَّته على مُلازمةِ الذِّكر وعدم الغفلة عنهُ. وقوله ﷺ: "**تُذْكَرُ بِصَاحِبِهَا**" فبناء الفعل للمجهول في لفظة "**تُذكر**" دليلٌ على كثرة واستمرار ذكر هذا الصاحب عند الله عزَّ وجلَّ، ممَّا يزيده تشريفًا وترغيبًا في الاستمرار في الذكر والطاعة والعبادة، فكأنَّها شواهد عليه، وشُفعاءُ لهُ لأنَّها من العمل الصَّالح. وقوله: "**أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ لَا يَزَالُ لَهُ مَنْ يُذْكَرُ بِهِ**"، فالغرض من الاستفهام[٢] التَّرغيب والحثُّ على مُلازمةِ الذِّكر، فكأنَّه قال: إنَّه مع هذه الفضيلة كيف ينسى أحدكم أو يغفل عن هذا الذِّكر؟ حيث إنَّ صورة الذِّكر الذي يُدوّي عند العرش يُذكَر بصاحبه

---

[٥] **سورة إبراهيم، الآية:٧.**

[٦] **شرح سنن ابن ماجة، مرجع سابق، جـ١،:٢٧٠.**

[٧] **لسان العرب، مصدر سابق، جـ٩،(باب الفاء، فصل العين)،:٢٥٠.**

[١] **عون المعبود، مصدر سابق،جـ٢،:٣٩.**

[٢] **سبق تعريفه،:١٢٧.**

كالنَّحلة عندما تجتمع حول الخليَّة وتُدَوِّي بصوتها تظلُّ هذه الصورة حاضِرةً في الذِّهن كلما سبَّحْنا أو هلَّلْنا أو حَمِدْنا اللهَ تعَالى، إنَّ عذُوبة العِبادةِ وحلاوتَها في النفس لتدفعُنا إلى الاستزادة من الطَّاعات والقُرُباتِ.

بالإضافة إلى أنَّ بين المُؤمن والنَّحلة شبهًا كبيرًا، قال رسول الله ﷺ: **"إنَّ مَثَلَ المُؤمنِ كَمَثَل النَّحلةِ أَكَلَت طَيِّبًا وَوَضَعت طَيِّبًا ووَقَعَت فلم تُكَسِّر ولم تُفْسِد"**[٣]، "لقد أشبهَ المُؤمنُ النَّحلة في حَدَقتِها وفِطْنَتِها، وقِلَّةِ أَذَاهَا وخَفَارَتِها، ومنفعتها، وقُنُوعِها وسَعيِها في النَّهار، وتَنَزُّهُهَا عن الأَقْذَار، وطِيبِ أَكْلِها، فإنَّها لا تأكُلُ من كَسْبِ غيرِهَا"[١]. فالسِّياقُ في الحديث يدلُّ على ما ينفعُ المُؤمنَ من خَيْرٍ في الدُّنيا والآخرة، ولا يوجد أَنْسَبُ من النَّحلةِ للتَّشبيه بِها في هذا الحديث، فالنَّحل "حيوانٌ فهيمٌ كيِّسٌ شُجَاعٌ فَطِنٌ لهُ نظرٌ في عواقِبِ الأُمورِ، وهي من الحيوان الذي يقطعُهُ عن عملِهِ آفاتٌ منها الظُّلمةُ والغَيمُ والرِّيح والدُّخانُ والمَاءُ والنَّار، وكذلك المُؤمنُ له آفاتٌ تفتُرُ به عن عملِهِ منها: ظُلمةُ الغفلةِ وغيْمُ الشَّكِّ وريح الفِتْنةِ ودُخانُ الحَرَامِ وماءُ السَّعَةِ ونَار الهوى"[٢].

فرسول الله ﷺ يريد من المؤمن أن يكون مثل النحلة دائم العمل في الطاعات في نشاطٍ مستمرٍ وعملٍ دءوب، فطن كيِّس له نظر في عواقب الأمور، لقد نبَّهنا عليه الصلاة والسلام إلى أهمِّية التَّسبيحِ والتَّهليلِ والتَّحمِيدِ وهي أمورٌ معنويَّةٌ، لكنَّه جسَّدَها لنا في صُورةٍ حيَّةٍ جميلَةٍ.

- وتأتي الفراشة في المكانة الثانية بعد النحلة، وذكرها عليه الصلاة والسلام في أحاديث منها حديثه في وصف حاله مع أمته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه[٣]، أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: **{إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُ التِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا،**

---

[٣] **السلسلة الصحيحة للألباني،محمد ناصر الدين الألباني،ج٥،(الرياض:مكتبة المعارف)،:٢٨٧، رقم ٢٢٨٨.**

[١] **حياة الحيوان، مرجع سابق، ج٢،:٤٦٦.**

[٢] **المرجع السابق، ج٢،:٤٦٦.**

[٣] **تقدمت ترجمته،:١٢٦.**

فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجُزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا}[٤].

يقول ﷺ: "**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ**"، استخدم ﷺ في بداية كلامه أداة القصر (إنَّما) التي "تجيء لخبر لا يجهله المخاطب"[٥]، فقد أثبتت أمرًا معلومًا ثابتًا لدى الصحابة وهو أنَّه عليه الصلاة والسلام إنَّما بُعث لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وحملت "**إنَّما**" في بداية الحديث معنى التأكيد في فضل الرسول ﷺ وحقه على أمته، كما أفادت اختصاص الرسول ﷺ بالهداية دون غيره من البشر، ثم أردف بقوله: "**مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ**"، حيث أنَّ (مثل) "تدل على المشابهة في الهيئة والصورة"[١]، وتكرارها عبارة عن تنبيه يستحوذ على الذهن ويشده لسماع الصورة التشبيهية التي ستكون بديلًا عن المعاني المجردة، ويعني هذا اهتمامًا بالمشبه به الذي يُؤخذ منه العظة والعبرة، وفي تكرارها "**مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ**" مبالغة في صدق الصورة وتطابقها، فالصحابة يعلمون خوف الرسول ﷺ وشفقته عليهم، فيزدادوا بذلك شوقًا وإثارةً لما سيقوله، ثم لـمَّا جاءت كلمة (مَثَلِي) ازداد تشوُّق الصحابة ﷺ وتلهُّفهم لمعرفة التَّشبيه الذي سيعقده عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث، وقوله: "**ومثل الناس**" قصد به ﷺ عموم الجنس، وقوله: "**كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا**" "فجمع بين (الكاف) التي للتَّشبيه[٢] وبين (مَثَل) للدلالة على تشبيه الهَيَئَاتِ والأحوال، إذ لو دخلت (الكاف) على (رجل) لاتهم بادي الرأي أنَّه مشبَّهٌ به إفرادًا"[٣]، وهذا ما لا يقصده عليه الصلاة والسلام، وتنكير لفظة "رجل" في هذه الصورة المليئة بالجهد والمعاناة دليلٌ على كثرة هذه الصورة في البيئة العربية وكثرة مشاهدة الصحابة لها، فهذا الرَّجل "**اسْتَوْقَدَ نَارًا**"، وتدلُّ لفظة (استوقد) على الشِّدة والمُعاناة التي لاَقاها حتى أوقد هذه النار، والوقت الطويل الذي أنفقه في الإيقاد، وهذا ما تدل عليه بنية الكلمة بزيادة "الألف والسين والتاء"، "**فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ**"، فـ"الفاء" في قوله: "فلما أضاءت" أوحت بعنصر المفاجأة والفرحة والسرور بعد شدة الجهد والمعاناة، فاشتعلت هذه

---

[٤] صحيح البخاري، مصدر سابق،ج٧،:١٨٦، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي.

[٥] دلائل الإعجاز، مصدر سابق،:٢٥٤.

[١] أدوات التشبيه، مرجع سابق،:٣٦.

[٢] عروس الأفراح،مرجع سابق،ج٢،:١٨٩.

[٣] الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق،:١٥٧.

النَّار وأضاءت، "والضَّوءُ فَرطُ الإِنَارَة"[٤]، "**جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُ التِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا**"، فلفظة (جعل) تدل على سُرعة تَهَافُتِ هذا الفراش وهذه الدَّواب في النَّار بدون رَوِيَّةٍ.

ونُلاحظ في الجملة السابقة تتابُع الأفعال "جعل، تقع، يقعن"، للدلالة على تجدُّد الفعل، "**فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْزَعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا**" حاول الرجل أن يُنقذهنَّ ويصدَّهنَّ، يدل على ذلك لفظة (**ينزعهُنَّ**) التي تدل على "الاقتلاعِ والإِزَالَة بشدَّةٍ"[٥]، فهو مُصرٌّ على إنقاذهنَّ ولم ييئس بل إنَّه يجدد فعله بعد كلِّ مرَّةٍ "**وَيَغْلِبْنَهُ**" وتدلُّ اللفظة على أنَّه بذل كلَّ ما في وُسعِهِ لإنقاذهنَّ، وأنَّه لم تحترق واحدةٌ منهن إلاَّ بعد أن أفلتت منه.

هنا تنتهي الصُّورة التي رسمها ﷺ لأصحابه والتي مثَّل بها على نفسه مع أمَّته، ثم يقول عليه الصلاة والسلام: "**فَأَنَا آخُذُ بِحُجُزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا**"، فتقديم الاسم "أنا" على الخبر أدى إلى أن يكون الفعل خاصًّا بالرسول ﷺ دون أحدٍ غيره، كما أدى إلى زوال شك السامعين في أنَّ يكون غير الرسول ﷺ هو من يقوم بهذا الفعل.

ونلاحظ أهمية (الفاء) في كلمة (فأنا) حيث ربطت بين الصورة في أول الحديث وبين آخره، ونُحسُّ بأنَّ الضمير (أنا) هو النَّجاة، والفعل (آخُذُ) يدل على استمرارية الرَّسول ﷺ في زجر أمَّتِهِ وردِّها عن طريق الغِوَاية حتى بعد أن لَحِق بربِّه لا يزال يردُّ أمَّته بالقرآن الكريم الذي أُنزِل وبسنَّتِهِ النَّبويَّة، فرسول الله أخذ بحُجُزِ الأمة، والحجز هنا هو "مَجْمَعُ الإِزارِ وموضع شِدَّتِهِ"[١]، ويدل اختياره ﷺ للفظة (الحُجُز) على الرغبة الشديدة منه ﷺ في إنقاذ أمته، ورغم ذلك كلِّه، يقول عليه الصلاة والسلام "**وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ**"، فلفظة (تقتحمون) تدل على "إِقْحَامِ النَّفس في الشَّيءِ من غيرِ رَوِيَّةٍ"[٢]، فهم مصرُّون على الدخول فيها يتدافعون نحوها لاعتقادهم بمنفعتها، لا لأنَّهم لا يعون كثيرًا من أمور الحياة ويعتقدون في بعضها الخير اعتزازًا بظاهرها خاصة وأنَّ مغريات الحياة كثيرة فينخدعون بزخرفها ويتدافعون نحوها، فكانت دعوة

---

[٤] **فتح الباري، مصدر سابق،:٣١٧-٣١٨.**

[٥] **لسان العرب، مصدر سابق،ج٨،(باب العين، فصل النون)،:٣٤٩.**

[١] **المصدر السابق، ج٥،(باب الزاي، فصل الحاء)،:٣٣٢.**

[٢] **المصدر السابق، ج١٢،(باب الميم، فصل القاف)،:٤٦٢.**

المصطفى ﷺ رحمة للعالمين وهداية تنير لهم الطريق وتوضح لهم الأمور وتبيِّن لهم الحلال والحرام في جلِّ الأمور ودقيقها، كل ذلك ليدفعهم عن النار، كما تدل على تجدُّد الفعل من النَّاس مرَّةً بعد مرَّةٍ وفي كلِّ زمانٍ.

إنَّ الألفاظ التي جاء بها عليه الصلاة والسلام في ضرب هذه الصورة لتحمل في طيَّاتها شدَّة المُعاناة التي يلاقيها ﷺ في دعوته لأمته، ففي قوله (استوقد) الهمزة والسين والتاء تدل على الكدِّ وطلب إيقَادِ النار، وفي قوله (**ينزعهُنَّ**) معنى الجذب والنَّزع والقلع، وقوله (**يَغْلِبْنَهُ**) و(**يَقْتَحِمْنَ**) جميعها تروي لنا ما لاقاهُ عليه الصلاة والسلام في سبيل هداية أمَّتِهِ.

إنَّ هذه الصورة الحسيَّة قد حملت بداخلها حركاتٍ حيَّةً مُتلاحقةً سريعةً اعتنى فيها رسول الله ﷺ في اختيار المشبَّه به الذي يُوصِل المعنى الذي يريده حين قال: "**جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُ**" فـ(الفراش) "تَطِيرُ وتَتَهَافَتُ في السِّراج لضعف إبصارِهَا، فهي تطلب ضوءَ النَّهار، فإذا رأتْ فَتِيلَة السِّراج بالليل ظنَّت أنَّها في بيتٍ مُظلمٍ وأنَّ السِّراج في البيت المُظلم الموضع المُضيء، فلا تزال تطلب الضَّوء وترمي بنفسها في النَّار مرَّةً بعد مرَّةٍ حتى تَحْتَرق"[1]، فكذلك النَّاس ممَّن ارتكبوا الذنوب والآثام يرمون بأنفسهم إلى التَّهلُكة وإلى النَّار، وما ذاك لضعف بصرهم بل لضعف بصيرتهم التي أعمتهم عن الهدى، أمَّا تشبيهه عليه الصلاة والسلام بـ(الدَّواب) وهي "كلُّ ما دَبَّ على الأرضِ"[2]، ويغلبُ على الحيوانات، فكان ذلك لتحقيرهم.

وهذه الصورة كانت أوجز وأبلغ في إيصال مُرادِ رسول الله ﷺ لأصحابه ولأمَّته، فهي تحمل "صراعًا ومغالبةً بين الهوى والهدى، وحرارةً ولهيبًا وأشعةً وظُلمةً، فنتمثَّل ما وراءها من نوازع الخير المُنجي، والشرِّ المُردِي، فينتقل إحساسنا إلى حالِنا وحالِ النَّبي ﷺ فنرى أنفسنا في صراع الهوى الغالب للهدى، وهنا نحاول أن نفهم هذه المُفارقات، وأن نقيس حركاتنا وأنفاسنا مع هذا السَّاهر الحريص، فنرى كلَّ كبيرةٍ ومعصيةٍ نارًا تُغرينا بالبريقِ يصرعُنا فيها الهوى، ويجذبُنا منها الرَّءوف الرحيم يأخذ بحُجُزنَا مُكرِّرًا الزَّجر، مُقرِّرًا الحرمة، مُؤكدًا النِّداء، ما أشقانا وما أتعسنا حين نغلِبُهُ فنقْتَحِم في النَّار"[3].

---

[1] انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:١١٩.

[2] مختار الصحاح، مصدر سابق،(باب الدال، مادة (د ب ب)،:١٩٧.

[3] الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق،:١٥٦.

- ومن الحشرات التي آذت الإنسان في قوته وقضت عليه أحيانًا (الجراد)، حيث شبه بها عليه الصلاة والسلام في وصف قوم يأتون في آخر الزمان لقتال المسلمين، وتلك الحرب هي من علامات قرب الساعة، فعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: **{لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا صِغَارَ الأَعْيُنِ عِرَاضَ الوُجُوهِ، كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ حَدَقُ الجَرَادِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ المِجَانُّ المُطْرِقَةُ، يَنْتَعِلُونَ الشَّعَرَ، وَيَتَّخِذُونَ الدَّرَقَ، يَرْبِطُونَ خَيْلَهُمْ بِالنَّخْلِ}**[٥].

فرسول الله ﷺ يحدِّثُنا عن أمرٍ غيبيٍّ من الأُمورِ المُستقبليَّة وهو من العَلامات التي تحدث قبل قيام السَّاعة ولن تقُومَ السَّاعة حتى يحدث هذا الأمر، وهو قتالُ قومٍ صِغَار الأَعْيُنِ عِرَاضُ الوُجُوهِ، وهذا "فيهِ علامةٌ لنُبُوءتِهِ ﷺ، وأنَّهُ سيبلُغُ مُلْكُ أُمَّتِهِ غَايَةَ المشارق التي فيها هؤلاء القوم"[١]، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقولُ: "**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ**"، فـ(النَّفي) أفاد تأكيد الأمر الذي يليه وهو قيام الساعة، و"**السَّاعَةُ**" أراد بها ﷺ يوم القيامة لأنَّ من أسمائها الساعة، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**حَتَّى تُقَاتِلُوا**"، فحرف العطف (حتى) أفاد أنَّ أجزاء ما قبلها مترتبة على ما بعدها[٢]، فـ"حتى" أفادت أنَّ الجملة التي قبلها وهي قيام الساعة مترتبة على الجملة التي بعدها وهي ظهور هؤلاء القوم بهذه الصفات المخيفة، وقد حملت معنى الشرط فلا تقوم الساعة إلا بظهور هؤلاء القوم، وقد أوحت لنا بأنَّ هذا الأمر مستقبلي يكون في آخر الزمان كما أخبر عليه الصلاة والسلام، وقوله: "**تُقَاتِلُوا**"، فمجيء اللَّفظة بالمضارع دلَّ على أنَّه أمرٌ واقعٌ مستقبلاً لا محالة من وقوعه، وأنَّه علامةٌ على قُربِ قِيامِ السَّاعة.

ثمَّ قوله ﷺ: "**قَوْمًا صِغَارَ الأَعْيُنِ**"، فمن صفات هؤلاء القوم أنَّهم صِغَار الأعيُنِ، "**عِرَاض الوُجُوهِ**"، وهذه الصفة الثانية لهم أنَّ وُجوهَهُم مُستدِيرةٌ عريضةٌ، فرسول الله ﷺ

---

[٤] تقدمت ترجمته،:١٨٢.

[٥] سنن ابن ماجة،مرجع سابق، جـ٢،:١٣٧٢، كتاب الفتن، باب الترك، حديث رقم:٤٠٩٩. (أخرجه أحمد،جـ٣، :٣١، رقم:١١٢٧٩. ؛وابن حبان،جـ١٥،:١٤٧،رقم:٦٧٤٧.

[١] شرح صحيح البخاري، ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، جـ٥،ط٢،(دار الرشد السعودية)،:١٠٨.

[٢] حاشية الدسوقي، مصدر سابق،جـ١،:٩٧.

يَصِفهم لنا وكأنَّه قد رآهم، وقد جاء وصفهم بالإضافة لتخصيصهم بهذه الصفات التي ذكرها عليه الصلاة والسلام، وهذه الصفات: "صغار، عراض" جاءت على وزن "فِعَال" مبالغة في اتصافهم بهذه الصفات، ثم يفصِّل لنا في هاتين الصفتين بقوله: "**كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ حَدَقُ الجَرَادِ**"، وقصد ﷺ بـ"الحَدَق: السَّوَادُ المُسْتَدِير أيْ حَدَقَةُ العَيْنِ سَوَادُهَا الأعظم"[٣]، فنعَتَهم عليه الصلاة والسلام بِشدَّة صِغَرِ العَينِ حتى أنَّها لِصِغرِها تُشبهُ حَدَقَ أَعيُنِ الجَرَاد، "وأعين الجراد كبيرة مقارنة بصغر حدقتها، وذلك يمكِّنها من رؤية النباتات وأغصان الأشجار من مسافات بعيدة"[٤]، وهذا الوصف الدقيق منه عليه الصلاة والسلام أظهر عِظم صغر أعين أولئك القوم.

وحدقتا الجرادة حمراوان، وعيناها لامعتان، كما ذكر علي بن أبي طالب في وصفه للجراد[١] فكأن هؤلاء القوم وحقدهم على المسلمين قد استشاطوا غضبًا واحمرت أعينهم غيظًا، ولنا أن نتخيل تلك الأعين بهذه الحمرة لنشعر بالخوف والفزع من مجرد تخيلهم.

ثم يَقُول ﷺ: "**كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ المِجَانُّ المُطْرَقَةُ**"، فاستخدم عليه الصلاة والسلام أداة التشبيه (كأنَّ) التي تُوحِي بِقوَّةِ التَّشبيهِ بين المُشبَّه والمُشبه به[٢]، فوجوههم شديدة الشبه بهذه المجان من خلال استدارة هذه الوجوه التي تشبه هذه المجان المستديرة.

ثم إنَّ قوله: "**المِجَانُّ المُطْرِقَةُ**"، فـ"المِجَانُّ: من مَجَنَ الشَّيءُ يَمْجُنُ مُجُوناً إذا صَلُبَ وغَلُظَ، والمَجَنُ: التَّرسُ"[٣]، وأمَّا "**المُطْرِقَةُ**": "أصلُ الطَّرْقِ: الضَّربُ، ومنه سُمِّيَتْ مِطْرَقَةُ الصَّائِغ والحَدَّاد لأنَّه يُطرَقُ بِها أي يُضْرَبُ بِها"[٤]، وهذا كنايةٌ عن استدارة وجوههم فكأنَّها تِرسٌ طُرِقت أي ضُرِبتْ فَاستدَارتْ.

ثم قوله ﷺ: "**يَنْتَعِلُونَ الشَّعَرَ**"، "فالنَّعلُ: هي التي تُلبَس في الرِّجْل، وقوله "**يَنْتَعِلُونَ الشَّعَرَ**" أي أنَّ نِعالَهُم مضْفُورَةٌ من الشَّعر، وهذا يوحي لنا بأنَّهم قومٌ يعتمدون في غذائهم على

---

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق،ج١٠،(باب القاف، فصل الحاء)،:٣٩.**

[٤] **موسوعة مملكة الحيوانات، مرجع سابق،ج٢،:٩٤.**

[١] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:٩٣.**

[٢] **عروس الأفراح، مرجع سابق،ج٢،:١٩٨.**

[٣] **المصدر السابق، ج١٣،(باب النون، فصل الميم)،:٤٠٠.**

[٤] **المصدر السابق،ج،(باب القاف، فصل الطاء)،:٢١٥.**

الحيوانات، وأنَّ هذه الحيوانات تكثر في بيئتهم، وهذا يدل على أنَّهم قومٌ فيهم من الوحشية الشيء الكثير، بالإضافة إلى خشونتهم وهمجيتهم، وقد يحتمل أنَّ مُرادَهُ كمالُ شُعُورهم ووُفُورِها حتى يطئونها بِأقدَامِهم"[٥]، وقوله: "**وَيَتَّخِذُونَ الدَّرَقَ**"، ف(الواو) في الجملة السابقة أفادت الجمع بين انْتِعالِهِم بالشَّعر واتّخاذِهم الدَّرق، أي أنَّهم أثناء القتال حين يتَّخِذُون الدَّرَق يكونون مُنتَعِلِين بِنِعَالٍ من شَعَرٍ، و"الدَّرَقُ: ضربٌ من التَّرسة تُتَّخَذُ من الجُلُود، وهي تِرسٌ من جُلودٍ ليس فيه خَشَبٍ ولا عَقِبٍ"[٦]، ويبدو من وصف رسول الله ﷺ لهم حيث ينتَعلُون الشَّعر ويتَّخذُون تُروسًا من الجلد، يبدو أنَّهم يتَّخذُون الحيوانات ذات الشَّعر الكثيف التي تكثُرُ في بلادهم، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّه يكونُ لباسُهُم أيضًا من الشَّعر، كما أنَّ نِعَالهُم تكون من الشَّعر، وهو الظَّاهر لِمَا في بِلادِهِم"[١].

ثم يأتي قوله ﷺ: "**يَرْبِطُونَ خَيْلَهُمْ بِالنَّخْلِ**"، يحتمل أمرين: أولُهما إثباتٌ وتأكيدٌ منه ﷺ في أنَّهم سوف يدخلون بلاد المسلمين –العرب منهم–، والأمر الثاني: أنَّه أراد عليه الصلاة والسلام أن يُخبِر عن كِبَر أجسامِهِم، حتى إنَّ أحدَهُم لِعِظَمِ جِسمِهِ يستطيع أن يربِط خيلَه في النَّخل، وقد يكون الأمران معًا، "فالصورة تشتَمِل على قومٍ مُتوحِّشين شُعُورُهم طويلةٌ تُسدَل حتَّى تَصل إلى أرجلُهم، فتكون كالنِّعال لها، وُوجوهُهم عريضةٌ تُشبه التُّروس، وقد شبّه الوجه بالتُّرس لبسط الوجه واستدارته، وشبّه بالـمِطرقَة من التُّروس أي المُغطَّاة بجلدةٍ لها مُعيَّنةٍ، وذلك لِغِلَظِ هذه الوُجوه، وكثرة لَحمِها ونُتُوء وَجَنَاتِها، وبُعدها عن التَّناسُقِ الشَّكلي. والذي يدعو إلى تحسُّس هذه الوجوه هو الشعور بأنها نافرة القسمات وأنها تشبه الجلود في خشونة الملمس"[٢]، وهذا يدل كثرة خوضهم للمعارك وتمرسهم فيها.

إنَّ هؤلاء القوم الذين وَصَفهُم عليه الصلاة والسلام قد "وُجِدُوا بهذه الصفات كلِّها في زماننا وقاتلَهُم المُسلمون مرَّاتٍ عديدةٍ"[٣]، وهذا يعني اقتراب الساعة، لأنَّه ﷺ نفى أن تقوم الساعة إلا بعد مُقاتلَةِ هؤلاء القوم، وهذا الحديث بما حوى هو من معجزاته ﷺ، إذ يُخبرنا عن

---

[٥] **فتح الباري، مصدر سابق،ج١،:١٩٦.**

[٦] **لسان العرب، مصدر سابق،ج١٠،(باب القاف، فصل الدال)،:٩٥.**

[١] **عون المعبود، مصدر سابق، ج١١،:٢٧٧.**

[٢] **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،:٥٢٩.**

[٣] **عون المعبود، مرجع سابق،ج١١،:٢٧٧**

أحداثٍ مُستقبليَّةٍ ويَصِفُ لنا قومًا لم يرَهُم كأنَّه ينظرُ إليهم، فيُجِيدُ عليه الصلاة والسلام وَصَفَهم لنا وصفًا دقيقًا مُعتمدًا على الإيجاز ثم التَّفصيل، وذلك عندما أَوْجز في وصفهم بقوله: "**قَوْمًا صِغَارَ الأَعْيُنِ عِرَاضَ الوُجُوهِ**"، ثمَّ تفصيلُهُ وتشبيهُهُ لهذه الأعيُنِ وهذه الوُجُوه حينَما قال: "**كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ حَدَقُ الجَرَادِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ المِجَانُّ المُطْرِقَةُ**"، وهذا الإيجاز ثم التَّفصيل أدَّى إلى ترتيب الصُّورة في أذهاننا، حيث بدَأَ بِالجُزءِ ثمَّ بالكُلِّ، أي بالعين ثمَّ بالوجه حتَّى تكتمل الصُّورة والرُّؤية، لأنَّه لو ذكر الكُل وهو الوجه ثمَّ الجزء وهو العين لتشتَّت الصُّورة في مُخيِّلَتِنا وأصبحت ترتَكِزُ على العين فقط، ولكنَّ ذِكر العين وهي الجُزء ثمَّ الوَجه وهو الكل يُساعدُنا بِالاحِتِفَاظ بالصورة كاملةً بأجزائها أي بالعين داخل الوجه، وهذا من بلاغته ﷺ في جَذبِ الانتباه ثمَّ إيصال الصورة كما أرادها إلى سامعيه.

والشَّيءُ الآخر الذي يدلُّ على دِقَّة تعبيره ﷺ هو اختياره للمشبه به، فالمشبه به الأوَّل هو: "**حَدَقُ الجَرَادِ**" حينما شبَّه صِغَر أعينهم بِحدق الجراد، إذ إنَّ الجراد هو الحشرة الوحيدة التي يستطيع المرءُ أن يشاهد صِغَرَ أعيُنِها بوضوحٍ، لأنَّ الجراد أصناف مختلفة، فبعضه كبير الجثة وبعضه صغير[1]، ثم إنَّ الجراد "من الحيوانِ الذي ينْقَادُ لرئيسه، فيجتمع كالعسكر إذا ظَعَنَ أوَّله تَتَابَعَ جميعُه، وإذا نَزَل أوَّله نَزَل جميعُه"[2]، كما أنَّ الجراد إذا هاجم المزارع فإنَّه يُبيد كل شيءٍ فيها، ويترك الأرض جرداء خاوية بدون حياة، وكذلك العدو العسكري فإنَّه إذا هاجم قتل وأسر وشرَّد ودمَّر، فيترك البلاد التي دخلها مدمرة بدون حياة، فالمَقَام الذي ذكره الرسول ﷺ في الحديث هو مَقَامُ حربٍ وقتالٍ بين المُسلمين وغيرهم، ولا يوجد أنسبُ من هذه الحشرة التي تعيش حياتها أشبَهَ بِمُستعمرةٍ عسكريَّةٍ كي يُشبِّه بها عليه الصلاة والسلام.

والمشبه به الثاني هو: "**المِجَانُّ المُطْرِقَةُ**"، وهي نوعٌ من التُّرُوس أُلْبِست الأَطْرِقَة من الجِلْد وذلك في تشبيهه عليه الصَّلاة والسلام لوُجُوهِهِم، فاستخدم في التَّشبيه أداةً حربيَّةً لتَتَناسب مع مَقَامِ الحَدِيثِ وغَرَضِهِ، وكل هذه الصفات التي ذكرها ﷺ لهؤلاء القوم تثير الفزع والخوف، فهم أولاً محاربون قد اعتادوا على الخشونة والشدة وخلت قلوبهم من الرحمة، يظهر ذلك من وصفهم

---

[1] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١١٩.**

[2] **حياة الحيوان الكبرى، مصدر سابق،ج١،:٢٦٩.**

الذي ذكره عليه الصلاة والسلام، فهذا الوصف بالإضافة إلى أنَّه إخبارٌ باقتراب الساعة فإنَّ فيه تحذيرًا من هؤلاء القوم وحثًّا منه عليه الصلاة والسلام على محاربتهم.

لقد جسَّد لنا الرسول ﷺ صفاتٍ لم يَرَهَا وجعلها بارزةً أمامنا وكأنَّنا نرَاها ونُشاهدها كما أراد.

- ويعرض النبي ﷺ لحشرة تواجدت في محيطنا ليظهر من خلالها صغر الشيطان وتخاذله عن ذكر الله عزَّ وجلَّ، وتلك الحشرة هي الذبابة، فعن أبي المليح[٣] عن رجلٍ قال: كنتُ رَدِيفَ النَّبيِّ ﷺ فَعَثَرَتْ دَابَّةٌ فقُلتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ: **{لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ البَيْتِ، وَيَقُولُ بِقُوَّتِي. وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللهِ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ}**[١].

فرسول الله ﷺ يستلهم المواقف اليوميَّة التي تحدث للصحابة في توجيههِم وتعليمهم أمُورَ دينهم ودنياهم، من ذلك ما أورده الصحابيُّ ﷺ من أنَّه كان "رَدِيفَ النَّبيِّ ﷺ" ومعنى رَدِفَ الرَّجُل وأَرْدَفَهُ: رَكِبَ خَلْفَهُ وارْتَدَفَهُ خَلْفَهُ"[٢]، أي أنَّه كان خلف رسول الله ﷺ، "**فَعَثَرَتْ دَابَّةٌ**"، والعَثْرَةُ: "الزَّلَّةُ، ويُقَالُ: عَثَرَ بِهِ فَرَسُهُ فَسَقَطَ"[٣]، أيْ أنَّه زَلَّ فَرسُهُ فَسَقَطَ، فقال الصحابيُّ: "**تَعِسَ الشَّيْطَانُ**"، والتَّعْسُ: "الهَلاَكُ والشَّرُّ والبُعْدُ والانْحِطَاطُ، والتَّعْسُ أيضاً أن يخِرَّ على وَجْهِهِ"[٤]، أيْ أنَّ الصحابيَّ دَعَا على هذا الشيطان، فنهاه الرسول ﷺ عن ذلك وقال: "**لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ**"، فـ(اللام) أفادت توكيد النَّهي[٥] منه عليه الصلاة والسلام، ثمَّ بيَّن ﷺ السبب في ذلك النَّهي بقوله: "**فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ البَيْتِ، وَيَقُولُ بِقُوَّتِي**"، فـ(الفاء) في (فإنَّك) أشعَرَتْنَا بتفسير وتوضيح النَّهي السابق عليها، و(إنَّك)

---

[٣] **أبو المليح بن أسامة بن عمير، أو عامر بن بن عمير الهذلي، اسمه عامر، وقيل زيد أو زياد، ثقة من الثالثة، مات سنة ثمان وتسعين، وقيل ثمان ومائة. (الإصابة،ج١٢،:٦٢٢).**

[١] **سنن أبي داود، مصدر سابق،ج٥،:٢٦٠، كتاب الآداب، باب لا يقال خبُثت نفسي، حديث رقم:٤٩٨٢. (حديث صحيح، صححه الألباني، وأخرجه أحمد في مسنده،رقم:٢٠٥٩١، ورقم:٢٠٥٩٢، ورقم:٢٠٦٩٠).**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق،ج٩،(باب الفاء، فصل الراء)،:١١٥.**

[٣] **المصدر السابق، ج٤،(باب الراء، فصل العين)،:٥٣٩.**

[٤] **المصدر السابق، ج٦،(باب السين، فصل التاء)،:٣٢-٣٣.**

[٥] **سبق تعريفه،:١٧٤.**

جاءت لتوكيد الحكم بعدها، ثمَّ قوله: "**إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ**"، فـ(إذا) دلَّت على تأكيد الحكم في حال حُدُوثه، ثم صورت المفاجأة التي أحدثها ذلك القول، وقوله: "**تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ**"، فـ(تعاظم) تدل على التَّفاعُل، أي أنَّ الشيطان يتأثَّرُ بالكلمة فيتفاعل بها ويزهُو بها حتَّى يصبح كالبيت.

وتصوِّر لنا هذه اللَّفظة (تعاظم) الشيطان وهو ينتفِخُ ويكبرُ ويتيهُ اختيالًا وافتخارًا، وليته يكتفي بذلك وحسب، بل إنَّه لفرط زهوه وغروره يقول: "**بِقُوَّتِي**"، أي حدث ذلك الأمر بقوَّتِي وعظَمَتِي، والجملة الشرطية في قوله: "**فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ**" تصور الحجم الذي بلغه الشيطان متأثِّرًا بقوله: "**تَعِسَ الشَّيْطَانُ**"، وقد استخدم ﷺ في التشبيه "مثل" بدلاً من "الكاف" و"كأنَّ"؛ لأنَّه أراد عليه الصلاة والسلام أن يصور حجم وهيئة الشيطان عندما يتعاظم أو يتصاغر، ولم يكن الغرض تقريب الشبه بين الشيطان والبيت، أو بين الشيطان والذباب، إنَّما ركَّز عليه الصلاة والسلام على هيئة وحجم البيت والذباب، أي الضخامة والكبر، وعكسها الضآلة والصغر.

وهنا يوجه الرسول ﷺ أصحابه إلى القول الصحيح في مثل هذه الأمور بقوله: "**وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللهِ**"، فـ(الواو مقرونةً بلكن) أفادت الاستدراك وتأكيد الحكم الذي يأتي بعدها، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**قُلْ: بِسْمِ اللهِ**"، ففعل الأمر هنا أراد به ﷺ تعليم الصحابة العمل الصحيح والقول الصحيح في مثل هذه الأمور، وقوله: "**فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**"، فقوله: "فَإِنَّكَ" جاءت لتوكيد قوله ﷺ، وقوله: "**إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**"، فلفظة (تصاغر) تصوِّر لنا الشيطان وهو يتضَاءَل ويصغُرُ شيئًا فشيئًا حتى يُصبِحَ مثل الذُّباب.

وصورة الذُّباب "تعبِّر عن قُبْح الشيطان وضآلته وخسَّتِهِ ودناءتِهِ"[1]، فليس في الحشرات من تجتمع فيه هذه الصفات كالذُّباب، ومن صفاته "أنَّه كُلَّما ذُبَّ آبَ"[2]، أي كلما دُفِعَ رَجَعَ، وكذلك الشيطان كلما استُعِيذَ منه ذَهَبَ ولكنَّه يعودُ و لا ييئس من ابن آدم، ومن

---

[1] **الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق،: ٤٣٥.**

[2] **حياة الحيوان الكبرى، مرجع سابق،جـ١،: ٤٨٨.**

صفاته –أي الذُّباب– "أنَّه أجهل الخلق لأنَّه يُلقِي نفسه في الهَلَكَةِ"[٣]، وكذلك الشيطان فهو أجهل الخلق لأنَّه أغضَبَ اللهَ حين خلق آدم وما زال يُغضِبُهُ ويعصِيهِ، من هنا نُلاحظُ الدِّقة البيانيَّة للرسول ﷺ في اختيار المشبه به الذي يتطابق تمامًا مع المشبه.

"فسِبابُ الشيطان يجعله يتَعَاظَمُ حتى يكون مثل البيت، وذِكْرُ الله يجعله يتَصَاغَرُ حتى يكون مثل الذُّباب، وفي هذا تأديبٌ عظيمٌ للمسلمين لينتبهوا إلى أنَّ الأمور السلبيَّة لا تصنع شيئًا، وأنَّ الأمور الإيجابية مهما كانت يسيرةً تستطيع أن تُفيد صاحبها فائدةً كبيرةً"[٤].

"وثمَّةَ تضَادٌّ[٥] بين (تعاظم وتصاغر)، فالصورة آيلَةٌ إلى التضاؤُل من قطعةٍ كبيرةٍ إلى نقطةٍ، فثمَّة تحوُّلٌ من البيت إلى الذُّباب، فإذا دلَّ البيت على الرِّفعة والأمان والتَّحضُّر والكبر، فإنَّ الذُّباب يدلُّ على الضَّعة والتَّفاهة والضَّآلةِ، وقد نهى عن كلمة (تعس) لأنَّها تزيدُ الشَّيطانَ لُصوقًا بالشَّر الذي جُبِلت عليه ذَاتُهُ. والشيطان كائنٌ لا مفهومٌ رمزيٌّ مُجرَّدٌ، فهو موجودٌ غائبٌ عن الحَواسِّ كما تدلُّ على كينُونَتِهِ العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة، ولكنه غيرُ مرئِيٍّ، ولا تناله الحواس، وتبعًا لهذا صار التعبير عنه بالبيت عندما يتعاظم تجسيمًا، وكذلك عندما يتضاءَل ليصير ذُبَابًا، وقد شبهه بالبيت هنا لأنَّه أجوف، أو هو كبر يُقضَى عليه، وتشبيهُهُ بالذباب الجمع دون الذُّبابة المفردة، لأنَّ الجمع من هذه الحشرات يدلُّ على صِغَر الواحدة بالنَّظر، في حين يدل ذِكْرُ الواحدة على تفرُّدِها بالمكان واحتمال كِبَر حجمِهَا.

وصيغة (تَفَاعَلَ) في (تَعاظَمَ وتَصَاغَرَ) تُفيد منح الشيطان صفةً جديدةً لم تكن فيه قبل هذا الحين، وثمة تدرُّجٌ في استحواذِهِ على مساحةٍ كبيرةٍ من الصُّورة، ثمَّ على مساحة صغيرة الحجم والمعنى، تذكِّرُنا هذه البُقعة بالنَّجاساتِ والأوبِئَة والنزق من تحرُّكاتِ الذُّباب وإزعاجه، والتَّعاسة والهلع أن يُصبح الشيطان أكبر من حجم الإنسان، والسعادة أن يَصغُر، ليصبح ذبابًا مكروهًا"[١].

---

[٣] المصدر السابق،ج١،:٤٨٨.

[٤] التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٢٤٢.

[٥] التَّضاد: الجمع بين الشيء وضده. (انظر: البديع في ضوء أساليب القرآن، مرجع سابق،:٢٥٧).

[١] التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق،:٤٣٥-٤٣٦.

- وتحتل (البعوضة) الدرجة الأولى في إيذاء الإنسان ومرضه، ومع هذا الصغر المتناهي فإنَّه ﷺ يضرب بها المثل في هوان الدنيا على الله عزَّ وجلَّ، بل إنَّه يضرب بأخف جزءِ منها وهو الجناح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: **{إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ}**[٣].

فرسول الله ﷺ يضرب لنا هذا التشبيه ليبين أنَّ التقوى والعمل الصالح هما أساس المفاضلة عند الله عزَّ وجلَّ، فيقول: "**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ**"، فهنا بدأ عليه الصلاة والسلام بأداة التوكيد (إنَّ) ثم أردف بـ(لام الابتداء) زيادةً في التأكيد، ثم قرن (اللام) بالفعل المضارع ليدلِّل على صدق حقيقة ما سيقول واستمراره، فأكَّد ﷺ بكل هذه المؤكِّدات مع علمه أنَّ الصحابة رضي الله عنهم لا ينكرون حديثه، بل هم مصدقون لكل ما يقول، إلا أنَّ غرابة الصورة التشبيهية وشدة خوفه عليه الصلاة والسلام على أصحابه من أن يقعوا فيما حذَّرهم منه جعلته يؤكِّد بكل هذه المؤكدات، ثم إنَّ رسول الله ﷺ قد نعت هذا الرجل بصفتين أوَّلهما أنَّه عظيمٌ، وهذه العَظَمَة هي عَظَمَة مَنصِبٍ أو مكانةٍ أو سيادةٍ أو رئاسةٍ، بالإضافة إلى ضخامة الجسم والبِنْية، أي أنَّه صاحب مكانةٍ عاليةٍ وصاحب جسمٍ ضخم الهيكل، وضخامة الهيكل لا تعني أنَّه سمينٌ، فقد يكون ضخم الجسم من ناحية الطول والحجم، وليس بالضرورة أن يكون سمينًا وهذا ما قصده ﷺ، بدليل أنَّه أردف بـ(الواو) ليجمع بين ضخامة الجسم وسمنته، ولو أراد أنَّه صاحب مكانةٍ عظيمةٍ دون ضخامةٍ في جسمه لكان عليه الصلاة والسلام قال: "**العظيم السمين**" دون ذكر الواو في قوله: "**العَظِيمُ وَالسَّمِينُ**"، فهذه الواو جعلت هذا الرجل يحمل عدة صفات هي عِظَمُ المكانة وعِظَمُ الخِلْقَةِ وعِظَمُ السِّمْنَة.

لكن ما مصير هذا الرجل يوم القيامة؟ يقول ﷺ إنَّه "**لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**"، فالنَّفي في بداية الجملة أراد منه ﷺ أن يُجَسد صِغَر حجم هذا الرجل، حتى إنَّه أصغر بكثيرٍ من جناح بعوضة، ولو حذف النفي لكان فُهِم من التشبيه أنَّ الرجل يَزِن جناح بعوضة، وهذا ما لا يريده عليه الصلاة والسلام، فالنفي والفعل المضارع يؤكدان ضآلة هذا الرجل وصِغَره، ثم ذِكْرُه ﷺ للظرف (عند) له أهميته البالغة إذ إنَّ فيه تهويلًا وتخويفًا وتذكيرًا بالعرض أمام الله عزَّ

---

[٢] تقدمت ترجمته،: ١٢٦.

[٣] صحيح البخاري، مصدر سابق،ج٥،: ٢٣٦،كتاب تفسير القرآن، باب تفسير قوله: "**أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**".

وجلَّ، فيزداد المرءُ محاسبةً لنفسه ويستزيد من الأعمال الصالحة حتى لا يكون في الدنيا عظيمًا سمينًا وداخله خاوٍ من الطاعات.

لقد اختار الرسول ﷺ (جناح البعوضة) ليدلِّل على الصِّغَر المُتناهي لهذا الرجل تحقيرًا وإهانةً وإذلالًا له، بالإضافة إلى أنَّه ﷺ قد حذف أداة التشبيه في قوله "جَنَاحَ بَعُوضَة" ولم يقل "كجناح بعوضة" أو "مثل جناح بعوضة" وذلك حتى يطابق المشبه المشبه به تمامًا، فيصبح ذلك الرجل الضَّخم السَّمين في حجم جناح بعوضة، فحذفه عليه الصلاة والسلام للأداة أدَّى إلى تقوية الشَّبه بين المشبه الرجل وبين المشبه به جناح البعوضة.

لقد حوت هذه الصورة التشبيهية جملةً من المؤكدات كـ(إنَّ) و(لام الابتداء) و(اسمية الجملة)، ثم النفي بـ(لا)، ثم حذفه عليه الصلاة والسلام لأداة التشبيه من الصورة، كل ذلك لينبه ويحذر من الاغترار بالدنيا والجري وراء ملهياتها من مكانةٍ ومالٍ وصحةٍ، وعدم الاغترار بأشكال الناس ومناصبهم، بل البحث عن ما تحمله قلوبهم من تقوى وإيمان، وأنَّ التقوى والإيمان هما المقياسان الحقيقيان اللذان يقاس بهما الناس سواء في الدنيا أو يوم القيامة.

لقد وصف عليه الصلاة والسلام (الحجم) في صورته التشبيهية وأبدع أيَّما إبداع حيث إنَّ جناح البعوضة على صغره فإنَّ وزنه لا يُعَدُّ شيئًا يُذكَر مقارنةً مع بقية أعضائها الأخرى، والأجمل أن نعرف أنَّ في البعوضة شراهةً عندما تَمُصُّ دم الإنسان، فإذا لم تمنع نفسها عنه وتأخذ كفايتها منه فقط فإنَّها تمصه حتى تنشقَّ وتموت[1] ويكون في ذلك هلاكها ونهايتها، وهكذا حال الإنسان الذي يجري خلف ملذَّات الدنيا، ولا همَّ له إلاَّ التَّلذُّذ بمتعها، فيظل كذلك حتى يدركه الموت أو يموت بأحد أسباب تلك الملذات.

من هنا نلاحظ الدِّقة الفائقة في اختياره ﷺ لجناح البعوضة بالذات دون غيرها من الحشرات كالذباب وغيرها مثلاً، لأنَّ خفة جناح البعوضة يمثل عمل هذا الرجل السَّمين العظيم، إذ إنَّه يأتي يوم القيامة بأعمالٍ خفيفةٍ في الميزان، فلم يتزوَّد بالأعمال الصالحة التي تثقل ميزان العبد يوم القيامة فيكون في ذلك هلاكه، كما أنَّ البعوضة تتصف بصفةٍ مُشابهةٍ لصفة هذا الرجل فهي تستلِذُّ بالدم، و لا تمنع نفسها عنه حتى يؤدي إلى هلاكها، كذلك ذلك

---

[1] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،: ١٢٢.**

الرجل يجري وراء الدنيا وزينتها ولا يمنع نفسه منها، بل يظلُّ يلهث وراء الدنيا حتى تكون سببًا في هلاكه والعياذ بالله.

لقد أبدع الرسول ﷺ في استغلال الحجم وفي اختيار نوع الحشرة حينما أراد أن يصور لنا حقيقةً معنويةً اغترَّ بها كثيرٌ من الناس فوضعها في هذه الصورة التشبيهية الموجزة التي عبَّرت عما أراده عليه الصلاة والسلام أدقَّ تعبيرٍ وأوجزه.

- وفي حديث آخر عن سهل بن سعد رضي الله عنه[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: **{لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ}**[٣].

يظهر هذا الحديث هوان شأن الدنيا فهي لا تساوي عند الله شيئًا، واللهُ عزَّ وجلَّ لم يجعل الدُّنيا مقصودةً لذاتها بل جعلها طريقًا وسبيلًا مُوصِلًا إلى الجنة فهي دارُ ابتلاءٍ وجزاءٍ، أعطاها للجَهَلَةِ والكَفَرَةِ، ومنعها الصَّالِحِين الخَيِّرِين، لحقارتها ودناءتها، وحسبنا بها هوانًا على الله أنَّه صغَّرها وحقَّرها وقلَّل من شأنها كما في هذا الحديث، حيث قال ﷺ: "**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا**"، فبدأ عليه الصلاة والسلام بالأداة (لو) التي تعني انتفاء عدم سقيا الكافر بسبب انتفاء مكانة الدنيا عند الله عز وجل، فقد دلت على "أنَّ علة انتفاء مضمون الجزاء هي انتفاء مضمون الشرط"[١]، وقد جاء الفعل هنا بصيغة الماضي ليدلَّ على أنَّ الدُّنيا عند الله منذ خلقها لا تُساوي شيئاً، فأفاد هنا معنى أنَّ الحكم صادرٌ مُنذ القِدَم على الدُّنيا بالحقارة والهوان، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ**"، فلفظة (تعدل) تدلُّ على المُوازنَة أي تَزِنُ وتُسَاوِي، وهذه اللفظة أبرزت الصورة التي يرتكز عليها التَّشبيه، وقوله: "**عِنْدَ اللهِ**"، فذِكر الظَّرف هنا له أهميته إذ إنَّ الذي هانت عليه الدنيا هو الله عزَّ وجلَّ وليس أيُّ أحدٍ، بل هو الذي خَلَقَ الدنيا وأنشَأَهَا من عدمٍ، وقوله: "**جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**"، المشبه به هنا هو جزءٌ صغيرٌ خفيفُ الوزن بالنسبة إلى جسم البعوضة، فعلى الرغم من صِغَر البعوضة وضآلتها فإنَّ الله عزَّ وجلَّ اختار أصغر وأخفَّ ما فيها تحقيراً وازدراءً لهذه الدنيا، وهو مثَلٌ للقلَّة والحقارة، وربَّما تناسب اختيار البعوضة وجناحها مع مقام التَّحقير في الحديث، حيث إنَّ البعوضة من الحشرات الحقيرة

---

[٢] **سبقت ترجمته، :٣٢.**

[٣] **سنن الترمذي، مصدر سابق، ج٤، :٤٨٥. كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله، حديث رقم٢٣٢٠. (صححه الألباني بمجموع طرقه، حديث رقم:٦٨٦).**

[١] **حاشية الدسوقي، مصدر سابق، ج٢، :٥٠.**

والحشرات التي جعلها الله مع حقارتها وصغرها عذابًا لأقوامٍ جَبَابِرةٍ كفروا بالله وأشركوا، كالنَّمرود في زمن إبراهيم عليه السلام.

"فإذا بجناح البعوضة سقفٌ عالٍ للدنيا بكل ما فيها من مباهجَ ولذائذَ زائلةٍ، فباتت الدُّنيا بهذا التشبيه دَنِيئةً أقصى الدَّناءة وتافهةً أقصى التَّفاهة، وأحقر من جناح بعوضة مُقزِّزٍ يَدُوسُهُ المؤمن ويمضي، كما أشار التَّشبيه بجناح البعوضة إلى سُخف من يشتغل قلبُهُ بالدنيا، وشبَّهه بمن يجلس أمام جناح بعوضة ويقلِّبه لعله يجد فيه كنزًا، وفي ذِكر الجناح قهرٌ لأنَّ البعوضة تُسلَبُ قوتها من جناحها، فتُمسِي فاقدة القُوى فضلاً عن كونه جمادًا حين يُنتَزع من جسم البعوضة"[٢].

وقوله ﷺ: "**مَا سَقَىَ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**"، فالنفي أفاد المبالغة في التأكيد، وقوله: "**سَقَى**" يُقال "للمَاء خاصَّةً"[٣]، وقوله: "**كَافِرًا**" بالتَّنكير لتدل على التَّعميم والتَّكثير، أي الكفار على كثرتهم أيًّا كانوا في بقاع الدُّنيا، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**مِنْهَا**"، فتقدُّم الجار والمجرور هنا للتَّذكير بحقارة الدُّنيا في أوَّل الحديث، وقوله ﷺ: "**شَرْبَةَ مَاءٍ**"، فـ(الشَّربة) تدلُّ على "ما يُشرَب من الماء مرَّةً واحدةً"[٤]، وخصَّ عليه الصلاة والسلام الماء دون غيره من المَطعَمِ والمأكل، لأنَّ الماء عصَبُ الحياة وأساسُها، قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}**[١]، والإنسان لا يتحمَّل العيش بدون الماء، لكنه قد يتحمَّل العيش بدون الطعام، مُعتمدًا على الماء، ولعلمه عليه الصلاة والسلام بأهمِّية الماء عند الإنسان خصَّه بالذِّكر في هذه الصورة التشبيهية دون غيره، "والمعنى أنَّه لو كان لها أدنى قدرٍ ما سَقَى كافرًا منها -أي من مياه الدُّنيا- شربة ماء، أي يُمَتَّع الكافر منها أدنى تَمَتُّع، فإنَّ الكافر عدوُّ الله، والعدوُّ لا يُعطَى شيئًا ممَّا لهُ قدرٌ عند المُعطِي، فمن حقارتها عنده لا يُعطِيها لأوليائِهِ"[٢].

---

[٢] **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،:١٨٣-١٨٤.**

[٣] **مختار الصحاح، مصدر سابق، (باب السين، مادة (س ق ى)،:٣٠٥.**

[٤] **المصدر السابق،(باب الشين، مادة(ش ر ب)،:٣٣٣**

[١] **سورة الأنبياء، الآية:٣٠.**

[٢] **تحفة الأحوذي، مصدر سابق،ج٦،:٥٠٣.**

لقد استخدم ﷺ "أسلوب الشَّرط المُتضمِّن معنى النَّفي وتجوُّز المُشابهة وعلو المشبه، ممَّا يُفيدُ الإيغَالَ في التَّأثيرِ وتنشيطِ الهِمِم"[٣]، وأبرز لنا معنًى معنويًّا وجسَّدهُ بصورةٍ مألوفةٍ من واقع حياتنا، وقَرَنَها بالإقنَاعِ والدَّليلِ الوَاضِحِ.

- ويذكر الرسول ﷺ جناح البعوضة في موضع آخر، فعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: **{إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ الشِّرْكَ بِاللهِ وَعُقُوقَ الوَالِدَيْنِ وَاليَمِينَ الغَمُوسُ، وَمَا حَلَفَ حَالِفٌ يَمِينَ صَبْرٍ فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ إِلَّا جُعِلَتْ نَكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ}**[٥].

فرسول الله ﷺ يحذِّرنا من أمورٍ عظيمةٍ تُوجِب غضبَ الله وعقابه فقال: "**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ**"، فـ(إنَّ) دلت على التَّوكيد، و(من) دلت على أنَّ هناك كثرةً لهذه الكبائر وإنَّما الشرك والعُقوقُ واليَمينُ الغَمُوسُ بعضًا منها، فدلَّ ذلك على المبالغة في التحريم، و(أكبر) جاءت على وزن (أفعل) لتدلَّ أيضاً على المبالغة، وهي بمعنى أعظم الكبائر، وقوله: "الكَبَائِرِ"، فـ(الكبائر): "جمع كَبيرةٍ، وهي السَّيئةُ العظيمة التي خطيئتها في نفسها كبيرةٌ وعقوبةُ فاعلها عظيمةٌ، وقيل الكبيرة: ما أوعد عليه الشَّارعُ وعيَّن لهُ حدًّا"[١].

ثم حدَّد عليه الصلاة والسلام أوَّل الكبائر بقوله: "**الشِّرْكُ بِاللهِ**"، والشركُ هو "أن تجعلَ أحدًا شريكًا للآخر، والمُراد به ها هنا اتِّخاذ إلهٍ غير الله، وأراد به الكفر"[٢]، واختار لفظ الإشراك لأنَّه كان الغالب في العرب وفي الكَفَرة، ثم قال ﷺ: "**وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**"، فعطف عليه الصلاة والسلام بـ(الواو) التي دلَّت على الجمع مع ما قبلها في الحكم، وهو أنَّها من الكبائر،

---

[٣] **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،:١٨٣.**

[٤] **عبد الله بن أنيس الجهني، صحابي شهد العقبة وأحداً، مات بالشام في خلافة معاوية سنة أربع وخمسين. (الإصابة، ج٦، :٢٥).**

[٥] **سنن الترمذي، مرجع سابق،ج٥،:٢٢٠، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة النساء، رقم٣٠٢٠. (أخرجه الترمذي وحسنه. ؛ وابن حبان في صحيحه، الإحسان،ج١٢،:٣٧٤، رقم:٥٥٦٣. ؛ والحاكم في المستدرك، ج٤، :٣٢٩، رقم:٧٨٠٨. وقال صحيح، وقال الشيخ الألباني: حسن).**

[١] **تحفة الأحوذي، مصدر سابق،ج٦،:٢٣.**

[٢] **المصدر السابق، ج٦،:٤٨٠.**

وقوله: "عُقُوقُ" مأخوذٌ من "عقَّه عقًّا أي شَقَّهُ"[٣]، ومعنى ذلك قَطعُ وصلِهِمَا، وإيذاؤهمَا بما لا يحتملان من المعصية لهما، ومُخالفة أمرِهِمَا فيما لم يكن فيه معصيةٌ للهِ عزَّ وجلَّ، وعدم الحُنُوِّ والعطف عليهما، ولِعظَم هذا الأمر عند الله تعالى قَرَنَه بالشرك بالله عزَّ وجلَّ، فقال: **{وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}**[٤].

ثم قوله ﷺ: "**وَاليَمِينُ الغَمُوسُ**"، فـ"الغَمْسُ: إِرْسَابُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، واليمين الغَمُوسُ هي الكاذبة التي تُقطَع بِهَا الحُقوقُ"[٥]، و"اليمين الغَمُوسُ هي اليمينُ الكاذبةُ الفَاجرةُ التي يَقطعُ بها الحالفُ مالَ غيرِهِ، وسُمِّيت غَمُوس لأنَّها تَغْمِسُ صاحبَها في الإِثمِ ثم في النَّار"[٦]، ولفظة (غَمُوس) على وزن فَعُول وذلك مبالغةً في عِظَم هذه المعصية، ثم ذكَر عليه الصلاة والسلام بعد قوله: "**وَاليَمِينُ الغَمُوسُ**" تفصيلاً لهذه اليمين بعد أن أجملها بقوله: "**وَاليَمِينُ الغَمُوسُ**" بقوله: "**وَمَا حَلَفَ حَالِفٌ يَمِينَ صَبْرٍ فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ إِلَّا جُعِلَتْ نَكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**"، هذا التفصيل والتوضيح منه ﷺ أفاد أنَّ (اليمين الغَمُوس) من المعاصي التي تكثُرُ وتنتشرُ بين الناس ويُتَهَاون بها، فاحتاجت إلى مَزِيدٍ من التَّفصيل والتحذير، وهذا أدَّى إلى المبالغة في تحريم هذه الكبيرة على عكس الكبيرتين السَّابقتين لهما وهما (الشرك بالله، وعقوق الوالدين)، فلا تَكثُران ولا تنتشران انتشار (اليمين الغموس) بين الناس.

ثم قوله: "**وَمَا حَلَفَ حَالِفٌ يَمِينَ صَبْرٍ**"، فـ(الحَلِفُ) هو اليمين ولكنَّه نوعٌ بين اللَّفظتين تأكيدًا، وقوله: "**حَلَفَ حَالِفٌ**"، فـ(حالفٌ بالله) تذكيرٌ بأنَّ اليمينَ ما كانت إلا بالله لا بغيرِهِ وإبعادًا للتَّوهُّم في أنَّ الحلف بغير الله عزَّ وجلَّ يكون يمينًا، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**يَمِين صَبْرٍ**"، فأصل الصَّبْر: "الحَبسُ، وكلُّ من حَبَسَ شيئًا فقدْ صَبَرَهُ"[١]، واليمين الصبر هي التي أُلزِمَ بِهاَ وحُبِس عليها صاحبُهُا وكانت لازِمةً لصاحبها من جهةِ الحُكم، وقيل لها مَصْبُورةٌ، وإن كان صاحبُها في الحقيقة هو المَصبُورُ لأنَّه إنَّما صَبَرَ من أجلها، أي حُبِسَ فوُصفَت بالصَّبر وأُضيفَت إليه، والمراد بِيَمين الصَّبر أن يحبس السُّلطان الرجل حتى يحلف بها، وهي لازمةٌ

---

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق، ج١٠،(باب القاف، فصل العين)،:٢٢٥.**

[٤] **سورة النساء، الآية:٣٦.**

[٥] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٦،(باب السين، فصل الغين)،:١٥٦.**

[٦] **تحفة الأحوذي، مصدر سابق، ج٨،:٢٩٥.**

[١] **لسان العرب، مصدر سابق،ج٤،(باب الراء، فصل الصاد)،:٤٣٨.**

لصاحبها من جهةِ الحكم، وقيل يمين الصبر هي التي يكون مُتعمِّدًا فيها للكذب قاصدًا لإذهابِ مالِ المسلم كأنَّه يصبِّر النَّفس على تلك اليمين أي يحبسُها عليها"[٢].

وقوله: "**فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**"، فقوله: "فَأَدْخَلَ" أي الحالف (فيها) الجار والمجرور يعود على (اليمين)، "**مِثْلَ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**"، أي أدخل فيها مثل جناح البعوضة في صِغَرِهِ وخفَّتِهِ، فجناح البعوضة هو أصغرُ جزءٍ وأخفُّه وهو جزءٌ شفافٌ جدًّا حتى إنَّه يكادُ لا يُرى، فكذلك (يمين الصبر) قد يكذِبُ فيها صاحبها كذبةً صغيرةً قد يحتقرها لِصِغَرِها، وقد لا يُلاحظ هذه الكذبة أحدٌ غير الحالف، فمن هنا شبَّهها عليه الصلاة والسلام بمثل جناح البعوضة.

وقوله: "**إِلَّا جُعِلَتْ نَكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**"، فبناء الفعل للمجهول في لفظة (جُعِلَتْ) أفاد التَّعظيم لشأن (الكذب في يمين الصَّبر)، وأنَّها من أكبر المعاصي، واستخدم عليه الصلاة والسلام "جعل" في قوله "جُعِلَت" ليدلل على أنَّ هذه النكتة لم تكن موجودة من قبل، بل إنَّها بدأت ونشأت وتكوَّنت بسبب هذه اليمين الغموس. وقوله: "نُكتة" فـ"النَّكتُ: أن تَنكُتَ بِقَضِيبٍ في الأرض فتؤثِّر بِطَرَفِهِ فيها، والنُّكتة: كالنُّقطة، وهي أيضًا نقطةٌ سوداءَ في شَيءٍ صافٍ"[٣]، ومعنى ذلك أنَّ النَّكت هو بقاءُ الأَثَرِ في الشَّيءِ، ومن هنا فإنَّ "أَثَرَ تلك النُّكتةِ التي هي من الرَّيْن والكذب يبقى أَثَرُها إلى يوم القيامة، ثم بعد ذلك يترتَّب عليها وَبَالُها والعقاب عليها فكيف إذا كان كذبًا محْضًا"[١]، ولننظر إلى جمال الوصل بين الجمل في قوله ﷺ: "**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ الشِّرْكَ بِاللهِ وَعُقُوقَ الوَالِدَيْنِ وَاليَمِينَ الغَمُوسُ**"، حيث أدى هذا الوصل إلى جمع هذه المعاصي تحت مظلة الكبائر الموجبة للعقاب والوعيد.

لقد حذر ﷺ من هذه الكبائر أشدَّ تحذيرٍ، نُلاحظ ذلك فيما حَوَاهُ الحديث من صِيغٍ تدلُّ على المبالغة والتأكيد في حُرمتها، مثل قوله ﷺ: "**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ**"، فـ(إنَّ) جاءت مؤكدة لما بعدها، واسمية الجملة "**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ**"، وأفعل التفضيل في قوله (أكبر)، وصيغة فعول في لفظة (الغَمُوس)، والصورة التشبيهية "**مِثْلَ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**" دلَّت على المبالغة، وبناء الفعل

---

[٢] **تحفة الأحوذي، مصدر سابق،جـ٨،:٢٩٥.**

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق، جـ٢،(باب التاء، فصل النون)،:١٠٠-١٠١.**

[١] **تحفة الأحوذي، مصدر سابق، جـ٨،:٢٩٥.**

للمجهول في (جُعلت) للمبالغة في تعظيم شأن الكذب في اليمين، وأيضا جملة الاستثناء "**مَا حَلَفَ حَالِفٌ...إِلَّا جُعِلَتْ**"، فجملة الاستثناء دلَّت على المبالغة في التحريم، كلُّ هذا لينبهنا ﷺ لِعِظَم هذه الكبائر فنبتعد عنها ولا نقع فيها.

وهكذا نلاحظ مما سبق أنَّ الحشرات في تشبيهاته ﷺ لم تقل أهمية عن غيرها، فقد وظَّفها عليه الصلاة والسلام توظيفًا بليغًا لإبراز أهم المعاني التي تضمنها التشبيه، فجسدت هذه الحشرات المعاني في صورة حية مشاهدة واضحة، فثبتت من خلالها القيم والمبادئ والمفاهيم التي أرادها عليه الصلاة والسلام، فقد استخدم ﷺ (النَّحلة) في المواقف التي فيها حثٌّ على العبادة والطاعة والذكر، كما في قوله: "**إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلاَلِ اللهِ ... لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ**"، أما المواقف التي تجسد معاناته ﷺ في هداية أمته فيستخدم فيها عليه الصلاة والسلام (الفراشة) لما في هذه الحشرة من جهلٍ، وعندما يريد عليه الصلاة والسلام أن يحذِّر أمته من دخول قوم بلادهم ومقاتلتهم إياهم فإنَّه يستخدم (الجرادة) لما لها من صفات مميزة، فهي تعيش في بيئتها أشبه ما تكون بمستعمرة عسكرية كما في قوله عليه الصلاة و السلام: "**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا ......، كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ حَدَقُ الجَرَادِ**"، وعندما يتحدث ﷺ عن الذُّلِّ والاستصغار، يردُ الذباب في تشبيهه كما في قوله: "**لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ ......، تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**".

كما استخدم عليه الصلاة والسلام (البعوض) في ثلاثة مواضع، كل موضعٍ حمل معنى من المعاني وأراد به ﷺ تجسيد الفكرة أو المعنى الذي يدور في فكره عليه الصلاة والسلام، ففي بيان أهمية العمل الصالح وأنَّه الأساس في رفع الدرجات ومجال التفاضل يحذر ﷺ من أن يأتي الإنسان يوم القيامة بأعمالٍ قليلة لا تزن عند الله شيئًا، فيشبه بجناح البعوضة ليوضح خفة وشفافية هذه الأعمال، كما في قوله: "**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**"[1]، ويستخدم ﷺ جناح البعوضة مرة أخرى لتجسيد معنى الاستصغار والهوان مع انعدام الرؤية لشدة الصغر المتناهي للشيء المحرم كما في قوله: "**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ .... فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ**"[2].

---

[1] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الرابع،:٢٥٠.**

[2] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الرابع،:٢٥٤.**

لقد تنوعت أساليب التشبيه النبوي تنوعًا واسع المجال، مرتبطة في ذلك بما استخدمه عليه الصلاة والسلام من الحيوانات التي شبه بها، حيث دلت هذه الحيوانات على المعاني وارتبطت بها لاشتمالها على خصائص وصفات ناسبت هذه المعاني.

ومن هنا ندرك قيمة هذا التشبيه والعناصر التي أسهمت في بيان قيمته من خلال خصائص هذه الحيوانات التي منحت التشبيه أسباب القوة والتأثير.

والمتأمل للتشبيه بالحيوان في أحاديثه ﷺ يجد صورًا بيانية متنوعة المجالات تقرب الحقائق وتوضح القضايا وتبرز الكامن من المعاني وتتجاوز الواقع إلى ما وراءه من الأمور إيضاحًا لما يرتبط بمضامينها من القضايا ويتعلق بها من المواقف الهامة.

وكشفًا للحقائق وتقريبًا للغوامض البعيدة يجد المتأمل في هذه التشبيهات عناية بالغة بدقائق كل حيوان من حيث بيئته وحياته وطريقة عيشه وصفاته وخصائصه.

فمنها التشبيه بالحيوان الذي يشتمل عليه الأسلوب المفصل القائم على الإطناب والاعتناء بالجزئيات والعناصر المبرزة دلالته، ومن أمثلته قوله ﷺ: "**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ**..."[٣]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ بِاللَّبَنِ**..."[٤]، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره، ففي هذه التشبيهات البيانية تتوالى التفاصيل المتعلقة بها إيضاحًا للمعاني الكامنة وبيانًا لما تشير إليه من دلالات حتى تكتمل الصورة التشبيهية بالحيوان، فتتضح القضية التي يدور حولها التشبيه.

وإيضاحًا للمزيد من التشبيهات النبوية في الحديث النبوي نجد تنوعًا في التشبيه بالحيوان بين الإطناب كما سبق، والإيجاز وهو الاكتفاء بما يدل على المذكور من المعاني والدلالات الواضحة، أو التي يمكن إيضاحها في ضوء فهم التشبيه وتأمل جوانبه، وذلك كما هو الحال

---

[٣] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٥٣.**

[٤] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٣٩.**

فيما ورد عنه ﷺ في قوله: "**إِنَّمَا النَّاسُ كَإِبِلِ المِائَةِ لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**"[1]، وفضلاً عن ذلك فإنَّ التشبيه النبوي بالحيوان جمع بين قوة الإيجاز الدال، ودقة البيان المفصل في آنٍ واحدٍ، كما في قوله ﷺ في تشبيهه بالإبل: "**مَنِ اغْتَسَلَ يَومَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ**..."[2]، فكل صورة من هذا التشبيه موجزة واضحة، وكل هذه الصور المتتالية تجتمع في آنٍ واحدٍ موضحة المغزى من إيراد التشبيه.

وهكذا يمكن القول بأنَّ التشبيهات التي وردت بالحيوان في الحديث النبوي الشريف ترد متنوعة تنوعًا يتناسب مع اختيار المشبه به (الحيوان)، وما يقتضيه كلٌّ منها من معانٍ ودلالاتٍ تضمنتها الصورة التشبيهية.

---

[1] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٣٣.**

[2] **تقدم تخريجه، الباب الثاني، الفصل الأول،:١٤٦.**

المبحث الخامس

المَوْضُوعَاتُ والعَنَاصِرُ المُشْتَرَكَةُ بَيْنَ التَّشْبِيهِ بِالحَيَوانِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، والحَدِيثِ النَّبويِّ

اختار الله نبيه محمدًا ﷺ من بين آلاف الفصحاء، وجعله أفصحهم، وأيَّده بالقرآن الكريم معجزةً تبهر قومه فصاحةً وبيانًا، وجاءت سنَّته مبيِّنةً لتلك المعجزة وشارحةً لمعانيها ومفصِّلةً لتلك الآيات التي ترقى بهم من مستنقع الجاهلية إلى قمم الأخلاق الفاضلة. قال تعالى: **{لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}**(١).

فهو عليه الصلاة والسلام المبلِّغ عن ربه المبيِّن لما في القرآن، فالمعاني جميعها من عند الله، والقرآن مُعجزٌ والحديث مبدعٌ، وقد اشتركت الموضوعات والمعاني بين الحديث النبوي والقرآن لأنَّهما توضيحٌ لمنهجٍ ربانيٍّ واحد ورسالة سماوية واحدة.

وهذا ما سوف نلاحظه من خلال هذا المبحث -إن شاء الله- وستحاول الباحثة جاهدة استقصاء المعاني والموضوعات المشتركة بين التشبيهات بالحيوان الواردة في كلٍّ من القرآن الكريم

---

(١) **سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.**

والسنة النبوية الشريفة، وسوف تورد الباحثة جميع التشبيهات التي وردت عن الحيوان في القرآن الكريم، وذلك لقلتها ثم استنباط ما بينها وبين بعض التشبيهات بالحيوان في الحديث النبوي وذلك لكثرة هذه التشبيهات في الحديث النبوي الشريف.

فعلى سبيل المثال ورد في القرآن الكريم التشبيه بـ"الإبل" في موضعين: في قوله تعالى: **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}**[٢]، وفي قوله تعالى: **{وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}**[٣]، بينما ورد في الحديث الشريف في أكثر من عشرة مواضع، لذا ستكتفي الباحثة بالمواضع التي وردت في القرآن الكريم لقلتها مع موضع واحدٍ أو موضعين من الحديث الشريف لكثرة هذه المواضع، ثم تقوم بالمقارنة فيما بينها، وذلك كما أسلفت سابقًا من حيث الأسلوب والخصائص والسمات ولا نقصد من ذلك المفاضلة.

لقد كان من التقاليد المعروفة لدى العرب أنَّهم كانوا يعهدون بأبنائهم الصغار إلى مرضعات البوداي لتصح أبدانهم ولتستقيم ألسنتهم على طريق البيان الفصيح، والخلفاء على عرش الدولة الإسلامية كانوا يحافظون على هذه العادة، لكن في صور متطورة.

وما كان هذا أو ذاك إلا إدراكًا لقيمة السماع والمشافهة والرواية في تطبيع الناشئة على فصاحة الأسلوب وبلاغة الكلام، وقد كان معظم النابهين من الشعراء رواة لغيرهم إلى أن تتأصل ملكة البيان في نفوسهم فيقبلون على قرض الشعر وينبغون فيه، لهذا لا يمكن أن نتجاهل أثر القرآن الكريم على بيانه ﷺ، فالقرآن الكريم سمعه الرسول ﷺ من جبريل، **{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}**[١]، وكان جبريل يقرأه عليه، ومحمد ﷺ يعلمه لأصحابه، وكان ﷺ يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، **{وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ}**[٢].

---

[٢] **سورة المرسلات، الآيات: ٣٢-٣٣.**

[٣] **سورة الأعراف، الآية: ٤٠.**

[١] **سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢-١٩٤.**

[٢] **سورة النمل، الآيات: ٩١-٩٢.**

فالرسول ﷺ قد تأثر بالقرآن وبلاغته لذا جاءت تشبيهاته تالية للتشبيهات القرآنية مع بعد ما بين التشبيهين، فالتشبيه النبوي وإن كان قد ارتقى في سلم البيان والبلاغة إلى درجة عالية فإنَّه جاء على طريقة العرب، أمَّا التشبيه القرآني فعلى غير ذلك؛ فقد جاء بما تتقطع دونه نياط القلوب[٣]، فالتشبيه النَّبويُّ ليس في درجة الإعجاز القرآني، ولكنه في أعلى مراتب البلاغة البشرية.

وحتى ندرك ما بين التشبيهين من خصائص مشتركة، وأثر التشبيه القرآني في التشبيه النبوي، فلنأخذ قوله تعالى واصفًا حال الكفار المكذبين بآيات الله عزَّ وجلَّ في قوله: **{انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ. انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ. لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ. إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}**[٤].

ف"الجِمَالاَت: واحدُها :جِمَال، وقد يجوز أن يكون واحدُ الجِمَالات جِمَالة"[٥]، وهي بصيغة الجمع (للجمل) في قوله تعالى: **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}**، فوردت في هذه الآية في مجال ذكر الحساب والجزاء للكافرين حيث يساق المجرمون إلى جهنم: **{انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ. لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ. إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ}**، انطلقوا أيها المكذبون بالله وبالرسل وبآيات الله إلى ما كنتم تكذبون به فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود[١]، **{انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ}** يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أنَّ له ثلاث شعب، **{لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ}** أي أنَّ ظل الدخان المقابل للَّهب لا ظليل هو في نفسه، **{وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ}** يعني ولا يقيهم حر اللهب"[٢]، "إنَّه ظلٌّ خانقٌ لافحٌ، وتسميته بالظل ليست إلا امتدادًا للتهكم، وتمنيه بالظل تكشف عن حر جهنم! انطلقوا وإنكم لتعرفون إلى أين! وتعرفونها هذه التي تنطلقون إليها، فلا حاجة لذكر

---

[٣] **أضواء على البلاغة النبوية، مرجع سابق،:٥٧-٥٨.**

[٤] **سورة المرسلات، الآيات: ٣٠-٣٣ .**

[٥] **لسان العرب، مصدر سابق،ج١١،(باب اللام، فصل الجيم)،:١٢٣.**

[١] **الحيوان في القرآن، مرجع سابق،:٥١٤.**

[٢] **تفسير ابن كثير، مصدر سابق،ج٤،:٤١٩.**

اسمها"[٣]. {إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}، و"القَصَر: بالتحريك: أصل العنق، وهو ما غلظ من أسفل أعناق الإبل"[٤]، أي يتطاير الشرر من لهبها في غلاظة أعناق الإبل وطولها، {كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} أي كالجمال في ضخامتها وكبرها.

ففي هذه الآية الكريمة تشبيهان، الأول: تشبيه الشَّرر بالقصر، في غلظته ومقدار طوله، والثاني: تشبيه الشرر بالجمالات في قتامة لونها وكبر حجمها، حيث إنَّ "صفر" هو "السواد، فالصفر سود الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة، ولذلك سمَّت العرب سود الإبل صُفرًا"[٥].

وقد اختلف المفسرون في معنى التشبيهين لاختلاف القراءات[٦]، إلا أنَّ الذي يهمنا قراءة من قرأها: {بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}، فمن قرأها (كالقَصَر)، بفتحتين، قصد بها أعناق الإبل، وتميل الباحثة إلى تفسير (القَصَر) بالفتح على أنَّها أعناق الإبل، وذلك أنَّ شرر النار عادةً عندما يتطاير يكون طويلًا نوعًا ما وذلك بحسب قوة دفعه من النار فإذا وقع على الأرض أو على أيِّ شيءٍ أصبح له بقعة ومساحة معينة على الجسم الذي وقع فيه، وتكون هذه المساحة أكبر بكثير ممَّا خرجت وهي عليه من النار وذلك نتيجة اصطدامها بالجسم الذي وقعت عليه.

فإذا كان سياق الآية بهذه الصورة –حيث شبَّه أولًا بأعناق الإبل ثم بأحجامها– كان في التشبيه تدرج من الجزء وهو رقبة الإبل إلى الكل وهو حجمها وضخامتها، وذلك التدرج أدى إلى ترتيب الصورة في أذهاننا لتكتمل الصورة والرؤية، والتشبيه بال(الجمالات) لمن قرأها بالكسر حيث تعني أنَّها جمع (الجمال).

---

[٣] **في ظلال القرآن، مصدر سابق،ج٢٩،:٤١٥.**

[٤] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٥،(باب الراء، فصل القاف)،:١٠١.**

[٥] **المصدر السابق، ج٤،(باب الراء، فصل الصاد)،:٤٦٠.**

[٦] **تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ج٤،:٤٩١.؛ الكشاف، مصدر سابق،ج٤،:٢٠٤. ؛ تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ط١،(بيروت–لبنان: دارالكتب العلمية،١٤٢٣هـ)،:١٩٤. ؛ مفاتيح الغيب من القرآن الكريم، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي،ج٣٠،(دار إحياء التراث العربي)، :٧٧٩. ؛ التحرير والتنوير،محمد الطاهر بن محمد الطاهر عاشور التونسي ج٢٩،(باب سورة المرسلات، الآيات :٣٢–٣٣)،ط٤،(تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤م)، :٤٣٦–٤٣٧.**

فإذا كانت القراءات على هذا النحو كان التشبيه مسايرًا لمألوفات البيئة ولِمَا نحن بصدده من التشبيه بالحيوان في القرآن والسنة، وكان ذلك موافقًا لمألوف العرب في تشبيهاتهم حيث "يستعيرون للنيران أعناقًا فيقولون: (برزت أعناق النار) كما يستعيرون لها ذوائب وألسنة فيقولون: (برزت ذوائبها وألسنتها) بحسب ما تقتضيه الصفة والحال"[١].

فشبه تعالى "الشَّرر" وهو "ما تطاير من النَّار"[٢] بـ"القَصَر"، وهو "بالتحريك: أصل العُنُق إذا غَلُظتْ، وهي تطلق على أعناق الإبل"[٣]، فالتشبيه في الآية الكريمة يصف هذا "الشرر" حين خروجه حيث يكون طويلًا غليظًا كأعناق الإبل، فجمع بين الطول والسماكة مبالغةً في عِظَمِه، وقد جاءت لفظة "شرر" بالتنكير، وفي تنكيرها ما يوحي بكثرته وأنَّه "شرر" عظيم يتناسب مع عقيدتهم وكفرهم وأعمالهم الفاسدة.

ثم شبه الشرر بـ"جمالات صفر" أي أنَّها مثل الإبل في حجمها العظيم ولونها الداكن، وإنَّما كرر تشبيه "الشرر" بـ"القصر" ثم بـ"الجمالات الصفر"، تأكيدًا منه على عظم هذه النار التي ترمي بها، وتخويفًا منها وإرهابًا للكافرين من سطوتها، والتشبيه على هذا النحو بغير حرف العطف آكد في صفة الموصوف وأبلغ في نعته من التشبيه المعطوف"[١]، من هنا نلاحظ السبب وراء اختيار (الجمل) للتشبيه في الآية الكريمة، وذلك أنَّ (الجمال) أكبر الحيوانات التي عرفها العربي واستفاد منها وأكثرها ملازمةً له من غيرها[٢].

ولَمَّا كانت الإبل أعظم الأشياء في نفوس العرب لصبرها على الأهوال واحتمال الأثقال، كانوا يضربون بها الأمثال ويشبهون بها[٣].

يقول أبو خراش الهذلي مُخاطبًا أخاه عُروة[٤]: (الوافر)

---

[١] **الجمان في تشبيهات القرآن، أبو القاسم عبد الله بن محمد ابن ناقيا،حققه وشرحه: محمد بن رضوان الداية، ط١،(دمشق: دار الفكر، ١٤٢٣هـ)، :٤٢٠.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٤،(باب الراء، فصل الشين)،:٤٠١.**

[٣] **المصدر السابق، ج٥،(باب الراء، فصل القاف)،:١٠١. ؛ مختار الصحاح، مصدر سابق،(باب العين، مادة (ق ص ر)، :٥٣٧.**

[١] **الجمان في تشبيهات القرآن، مصدر سابق،:٤١٧.**

[٢] **انظر: الباب الأول، الفصل الثاني من هذا البحث،:٧٠.**

[٣] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث من هذا البحث،:١٠٥.**

لَعَلَّكَ نَافِعِي يَا عُرْوَ يَوْمًا إِذَا جَاوَرْتُ مِنْ تَحْتِ القُبُورِ
إِذَا رَاحُوا سِوَايَ وَأَسْلَمُونِي لِخَشْنَاءِ الحِجَارَةِ كَالبَعِيرِ[٥]

من هنا عمدت الآية الكريمة إلى التشبيه بها.

وقد اقترن التشبيه الأول في الآية الكريمة في قوله تعالى: **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}** بأداة التوكيد المشددة (إنَّ) وذلك مبالغةً وتأكيدًا على عظم هذا الشرر وهوله.

ومجيء الفعل المضارع يوحي بكثرة هذا الشرر وتعاقبه الواحد تلو الآخر يدل على ذلك مجيئه على صيغة الجمع (شرر) وليس المفرد (شرارة) وذلك إمعانًا في تخويفهم وبيانًا لقدر العذاب الذي ينتظرهم.

وقد صِيغ كلا التَّشبيهين في جُملٍ مُوجزةٍ في قوله تعالى: **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}** ثم قوله تعالى: **{كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}**، لأنَّ المقام مقام تخويف وعذاب وهو حديثٌ مُوجَّهٌ للكفار فاستلزم الأمر عدم التطويل في الحديث معهم، وذلك احتقارًا لشأنهم وإذلالًا لهم في هذا الموقف العسير، كما نلاحظ استخدام التشبيه الأول في قوله تعالى: **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}**، استخدم فيه المولى أداة التشبيه (الكاف) وذلك لأنَّ (الكاف) تدلُّ على مطلق التشبيه[١]، فـ(الكاف) في التشبيه تعود على كل "الشرر" الذي ترمي به جهنم، ففيها نوعٌ من العموم، لأنَّ التشبيه يتحدث عن نار جهنم، فالضمير المتصل في (إنَّها) عائدٌ على جهنم، أما التشبيه الثاني في قوله تعالى: **{كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}** فقد استخدم فيه المولى عزَّ وجلَّ أداة التشبيه (كأنَّ) لقوة التشبيه بين المشبه "الشرر" والمشبه به "جمالات صفر"، فـ(كأنَّ) تستخدم حيث يقوى التشبيه[٢]، وهي عائدةٌ على تشبيه "الشرر" لأنَّ الضمير المتصل في أداة التشبيه "كأنَّه" عائدٌ على "الشرر" ففيها نوعٌ من الخصوصية، وقد جاء التعبير عن هذه الصُّور البيانية

---

[٤] **خويلد بن هذيل بن مرة، من شعراء هذيل، نهشته حية فمات في زمن عمر بن الخطاب ﷺ. (الشعر والشعراء، جـ٢، :٦٦٣).**

[٥] **ديوان الهذليين،مصدر سابق،جـ٢،:١٣٦.**

[١] **عروس الأفراح، مصدر سابق،جـ٢،:١٨٩.؛أدوات التشبيه، مصدر سابق،:١١٦.**

[٢] **عروس الأفراح، مصدر سابق،جـ٢،:١٨٩.**

بهذه الألفاظ الصاخبة القويَّة الأداء "شرر، القصر، جمالات، صفر"، فلاءمت هذه الألفاظ هذه الفئة الكافرة، فكأنَّ قوة التعبير هنا تابعٌ لقوة العذاب وشدته.

كما حوت الآيات الكريمة صورًا موجزة لعذاب هؤلاء المكذبين المعرضين بدايةً من قوله تعالى: **{انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ. لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ. إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}**(٣)، هذه الصور البيانية حملت أجواء حارة شديدة الحرارة تتناسب مع قسوة قلوب هؤلاء المكذبين وشدة كفرهم وعنادهم، فكأنَّ هذه النار الشديدة الحرارة أُعدَّت لهؤلاء المكذبين كي تصهر عنادهم وكذبهم وشدة إعراضهم عن آيات الله عزَّ وجلَّ، بالإضافة إلى أنَّ المولى عزَّ وجلَّ عمد إلى التشبيه بـ"الشرر" وهو أمرٌ معروفٌ محسوسٌ مشاهدٌ بغلظ أعناق الإبل وحجمها ولونها وهي أمورٌ محسوسةٌ أيضًا، وذلك أوقع في النفس وأبلغ للتهويل والتخويف من هذا العذاب الذي ينتظرهم.

ويرد ذكر الجمل في قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}**(٤)، في هذه الآية الكريمة تقريرٌ وتوكيدٌ للمصير الذي لن يتبدل، المصير الذي ينتظر كل من كفر بالله وكذَّب برسالاته وخرج عن عبادته وعمَّا خُلق لأجله إلى عبادة غيره وافترى عليه الكذب وتكبَّر على آياته، ذلك المصير هو أسوأ مصيرٍ يواجه الإنسان منذ ولادته وبعد وفاته، ذلك المصير –والعياذ بالله– هو نار جهنم، التي لا تُبقي ولا تذر، لواحة للبشر عليها تسعة عشر، سيخلد فيها بعد موته وبعد ما يُلاقي من أهوال وعذاب وتعذيب، **{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا}**(١)، ذلك أنَّ مصير كلَّ إنسانٍ إمَّا إلى جنَّةٍ وإمَّا إلى نارٍ، فما دام هؤلاء لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة فحتمًا سيكون مصيرهم –والعياذ بالله– النار يخلدون فيها(٢).

---

(٣) **سورة المرسلات، الآيات: ٣٠-٣٣.**

(٤) **سورة الأعراف، الآية: ٤٠.**

(١) **سورة الإنسان، الآية: ٤.**

(٢) **الحيوان في القرآن الكريم، فوزية البغدادي، رسالة ماجستير،: ٥٣٦.**

وقوله تعالى: **{لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء}**، أي: لا يصعد لهم عملٌ صالحٌ، وقيل: إنَّ الجنة في السماء، فالمعنى: لا يُؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة، وقيل لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كَمَا تصعد أرواح المؤمنين، وقيل لا تنزل عليهم البركة ولا يُغاثون[٣].

"وقد يقول قائلٌ مادام أنَّ الجنة في السماء فقد تكون النار أيضًا في السماء، فكيف يدخلون النار وأبواب السماء لا تُفتَّح لهم؟

والجواب على ذلك: –والله أعلم– أنَّه قد يكون المراد من قوله سبحانه وتعالى: **{لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء}**، أي لا يرون ما في السماء من ملكوتٍ وجنانٍ ونعيمٍ، ولا يتمتعون بما فيها، وكل شيء مغلقٌ في وجوههم، وليس أمامهم إلا طريقٌ واحدٌ لا مَحيدَ عنه وهو جهنم يساقون إليها في أبشع صورة وأفظع منظر **{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا}**"[٤][٥].

وقوله: **{وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ}** أُعطيت حكم الخبر لأنَّ قوله **{لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء}** خبرٌ فعُطفت على الأولى لأنَّ للأولى محلًا من الإعراب وهو الخبرية، وأريد إعطاء هذا الحكم للجملة الثانية فعطفت عليها، و(الواو) هنا أعطت معنى الترتيب، إذ إنَّ إغلاق السماء أمامهم حادثٌ قبل الموت –فيما نميل إليه– وعدم دخولهم الجنة بعد الموت، ومهما اختلفت الأقوال في قوله: **{لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء}** فإنَّها جميعًا كناية عن الحرمان والطرد من رحمة الله، أما عدم دخولهم الجنة فكان هذا الجزاء صريحًا واضحًا في قوله تعالى: **{وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ}**[١].

إذًا فقد حُرمت عليهم الجنة لأنَّهم كذبوا بآيات الله ودخولهم إياها مستحيل (استحالة دخول الجمل في سمِّ الخياط)، فالجمل: هو الحيوان المعروف عند العرب، وهو "الذَّكر من الإبل

---

[٣] **تفسير ابن كثير،مصدر سابق، ج٢،:٢٢٣.؛الكشاف، مصدر سابق،ج٢،:٧٨.؛ مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج١٤، :٢١٤.؛ التحرير والتنوير، مصدر سابق،ج٨،(باب سورة الأعراف، الآية٤٠-٤١)،:١٢٥-١٢٧.**

[٤] **سورة الإنسان، الآية: ٤.**

[٥] **الحيوان في القرآن الكريم، مرجع سابق،:٥٣٧.**

[١] **المرجع السابق،:٥٣٨.**

وزوج الناقة"[٢]، و"السَّم: الثقب"[٣]، و"الخياط: الإبرة"[٤]، حيث شبَّه سبحانه وتعالى استحالة افتتاح أبواب الجنة ودخول الكافرين الجنة باستحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة، حتى لا يتبادر إلى أذهانهم مجرد التفكير في دخول الجنة، ونلاحظ أنَّ هذه الصورة عندما ترتسم في الخيال فأول ما يلفت الانتباه فيها هو الكبر والضخامة يقابله الصغر والضآلة، إنَّها صورةٌ توحي بالحسرة وفقدان الأمل، وهي ردٌّ قويٌّ غاضبٌ وصريحٌ لمن اعتقد من الكفار أنَّه سيدخل الجنة، فـ(الجمل) في هذه الآية فُسِّر عدة تفسيرات، فمنهم من قال: "إنَّه الجبل، ومنهم من قال: إنَّه (الجمل) الحيوان المعروف عند العرب، وعن ابن مسعود ﷺ أنَّه سُئِل عن الجمل فقال: زوج الناقة، استجهالاً للسائل وإشارةً إلى أنَّ طلب معنى آخر تكلف"[٥]، وفي كلا الحالين فإنَّ الآية القرآنية قصدت بـ(الجمل) الكبر والضخامة، وبـ(ثقب الإبرة) الصِّغر والضَّآلة، فثقب الإبرة معروفٌ لديهم، واستعمال الإبرة هو إدخال الخيط في ثقبها، فالخيط وحده هو الذي يمكن أن يدخل في ثقب الإبرة، أما أن يدخل شيء غيره فمستحيل، وإما أن يكون ذلك الذي يدخل ثقب الإبرة شيءٌ ضخمٌ كالجمل مثلًا أو الجبل فدونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب: مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة -فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير، فانتظر حينئذ -وحينئذ فقط- أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين فيقبل دعاؤهم أو توبتهم- وقد فات الأوان- وأن يدخلوا إلى جنات النعيم! أما الآن وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط، فهم هنا في النار، التي تداركوا فيها جميعًا وتلاحقوا وتلاوموا وتلاعنوا وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء"[١].

إنَّ ألفاظ التشبيه في الآية الكريمة تمثل "يلج، الجمل، سم، الخياط"، فإذا تأملنا لفظة "يلج" ولماذا اختارها القرآن الكريم في التشبيه بدلًا من "دخل: التي هي نقيض الخروج"[٢]، نجد أنَّ لفظة "يلج: الدخول"[٣] أيضًا، وهي "مأخوذةٌ من: ولجَ يَلِجُ ولوجًا وهي كلُّ شيءٍ أولجته

---

[٢] **حياة الحيوان الكبرى، مرجع سابق،جـ١،:٢٨٤.**

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق، جـ١٢،(باب الميم، فصل السين)،:٣٠٣.**

[٤] **المصدر السابق، جـ٧،(باب الطاء، فصل الخاء)،:٢٩٨.**

[٥] **الكشاف، مصدر سابق،جـ٢،:٧٨.**

[١] **الحيوان في القرآن الكريم، مرجع سابق،:٥٣٧.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، جـ١١،(باب اللام، فصل الدال)،:٢٣٩.**

[٣] **المصدر السابق، جـ٢،(باب الجيم، فصل الواو)،:٣٩٩.**

فيه وليس منه"[٤]، وهنا نقف أمام روعة البيان القرآني ودقته إذ استخدم مع "الجمل" لفظة "يلج" لأنَّ الجمل ليس من أجزاء الحياكة وليس من الأدوات التي تستخدم عادةً مع "الإبرة" كالخيط مثلًا، وهذا يزيد في استحالة دخول "الجمل" في ثقب الإبرة ومن ثمَّ استحالة دخول الكافرين الجنة.

وهي توحي بالصعوبة أيضًا، وخاصة في لفظة "سم" إذ إنَّ ضم الشفتين عند النطق بالميم يمثِّل ضيق ثقب الإبرة، وقد حذفت أداة التشبيه من هذه الصورة التشبيهية مبالغة في استحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة الذي يمثِّل في الحقيقة استحالة دخول الكافر الجنة.

إنَّ هذا التشبيه مُوجَّهٌ إلى فئةٍ كافرةٍ مكذبةٍ فكان التشبيه موجزًا إلا أنَّه يحمل معنى التهديد والوعيد واليأس من رحمة الله عزَّ وجلَّ، وقد استخدم القرآن صورةً تشبيهيةً لحيوان معروف في البيئة العربية بحجمه الضخم الكبير لتوضيح أمرٍ هو من الغيبيات ومن الأمور الأخروية التي توعد الله بها الكافرين.

لقد كان التشبيه في السورتين الكريمتين **{حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}**، وقوله: **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}** يحمل التهديد والوعيد والعذاب الشديد لفئةٍ كفرت وكذبت بالله وآياته.

لقد تدرجت الآيات الكريمة في بيان العذاب الذي أعدَّه المولى عزَّ وجلَّ للمكذبين بآياته بعد تذكيره لهم بنعمة الله عليهم، فكانت العاقبة والنتيجة الحتمية لعصيانهم توعدهم بأشد العذاب ووصف بعض منه تخويفًا لهم، ولقد استخدم القرآن الكريم "الجمل" في تصوير بيانيٍّ للعذاب الذي ينتظر المعرضين عن آيات الله عزَّ وجلَّ، وذلك كما قلنا سابقًا لعلمه بمكانة هذا الحيوان عند العربيِّ بالإضافة إلى أنَّه أكبر الحيوانات الأليفة والمتوحشة التي عرفها العربي.

لقد استخدم القرآن الكريم (الإبل) في التشبيه، وذلك تخويفًا وتهديدًا وتهويلًا للمكذبين المشركين، والقرآن الكريم في تشبيهه بـ"الإبل" يقرُّ قضيةً عقدية، وكان هذا التشبيه في جملٍ موجزة وبألفاظٍ قويةٍ صارخةٍ شديدةٍ، ركَّز فيها القرآن على الشكل الخارجي للإبل من ناحية الحجم والطول باعتبار أنَّ الإبل من أكبر الحيوانات الأليفة وأعظمها نفعًا للعربيِّ.

---

[٤] **المصدر السابق، جـ٢،(باب الجيم، فصل الواو)،: ٤٠٠.**

فإذا انتقلنا إلى الحديث النبوي وجدنا أنَّ الأحاديث التي تناولت الإبل بالتشبيه ليست بالقليلة على عكس ما ورد في القرآن الكريم، ويرجع ذلك لعدة أسباب سنعرضها من خلال عرض هذه الأحاديث لنعرف أوجه التشابه والاختلاف من حيث الموضوع والعناصر المشتركة في كلٍّ من القرآن الكريم والحديث الشريف.

فأول هذه الأحاديث ما رُوي عن أبي هريرة أنَّ أعرابيًّا أتى رسول الله ﷺ فقال: **{إنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ حُمْرٌ. قَالَ: فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ : إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا قَالَ: فَأَنَّى تَرَى ذَلِكَ جَاءَهَا؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ عِرْقٌ نَزَعَهَا. قَالَ: وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ}**[1].

فهذا الحديث يمثل قضيَّة مهمة من قضايا المجتمع المسلم، وهي قضية الشَّرف والنَّسب، وهذه القضية من أهم القضايا في المجتمع العربي، ولا بد من التعامل معها بأسلوب مُقنِعٍ يعتمد على الحوار بين الرسول ﷺ وبين الأعرابي، معتمدًا فيه ﷺ على أسلوبٍ تشبيهيٍّ رائع استدرج فيه الأعرابي نحو وضع الحل بنفسه، ومساعدته على الخلاص من تردُّده وشكِّه، ليأتي حكم رسول الله ﷺ في نهاية هذا الحوار مُقنعًا له تمام الإقناع حين قال عليه الصلاة والسلام: "**وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ**".

لقد اعتمد عليه الصلاة والسلام في هذه القضيَّة على (الإبل) في تقريب الصورة البيانية معتمدًا على ما يعرفه هذا الأعرابي من الإبل وهو الخبير بأحوالها، كما اعتمد عليه الصلاة والسلام في هذا التشبيه على التفصيل الذي يتخلله عددٌ من أساليب الاستفهام، (هل، فما، فهل، فأنى)، وذلك ليقرِّب الحقيقة لهذا الأعرابي ممَّا جعله يستنتج الحكم العقلي المقنع بنفسه.

كما نلاحظ أنَّ الألفاظ التي بُني منها التشبيه تدور حول اختلاف الألوان في الإبل الذي يرجع إلى أصلٍ واحدٍ، بالإضافة إلى بساطتها لتحصل السرعة في استنتاج الحكم الذي يريده ﷺ، بالإضافة إلى أنَّ الرسول ﷺ في هذا التشبيه يُعالج فيه قضية اجتماعية أخلاقية، يوجه الخطاب فيها إلى مجتمع مسلم، فكان لا بدَّ من التفصيل فيها، ونلاحظ أنَّ الصورة التشبيهية في الحديث جاءت مُناسبة لأسلوب الحديث ومقامه؛ إذ يتحدث عن أمرٍ يتعلق بالنَّسب

---

[1] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٢٦.**

وانتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء، فكان التشبيه بالإبل وصفاتها وأحوالها مناسبًا لمقام الحديث، وقد شبه الحديث النبوي أمرًا محسوسًا وهو اختلاف اللون في ابن الأعرابي بأمرٍ آخر محسوس وهو اختلاف الألوان في نتاج الإبل، وذلك أبلغ في الإقناع.

ويشبه الرسول ﷺ بالإبل في موضع آخر في قوله ﷺ: **"تَعَاهَدُوا القُرْآنَ فَوَ الذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا"**[1]، ففي هذا التشبيه النبوي يحث عليه الصلاة والسلام أمته على تعهد القرآن وملازمته وتلاوته، ولأهمية هذا الكتاب كان لا بد أن يكون المشبه به ذا أهمية في حياة العربي، من حيث الأهمية والمنفعة، فكان اختياره ﷺ للإبل؛ إذ إنَّ لها مكانة عظيمة في حياته.

من هنا نلاحظ أنَّ التشبيه النبوي يمثل الحقَّ الذي نزل من السَّماء على قلب رسول الله ﷺ، فكان لزامًا أن يحتوي التشبيه على جملة من المؤكدات: (القسم، لام الابتداء، أشد) التي تحمل معنى التفصيل لبيان أهمية هذا الكتاب في حياة المؤمن. لقد مثَّلت ألفاظ التشبيه النبوي السياق الذي وردت فيه فكانت موجزة سهلة تحمل بداخلها صراعًا ومعاناة يدل على ذلك لفظة: "أشد، تفصيًا"، حيث تبيَّن حركةً وصراعًا بين الإبل وعقالها، والتي هي في الحقيقة تمثل المؤمن وحرصه على القرآن وبين تفلُّت القرآن منه إن هو تهاون في تلاوته وملازمته.

ومن هنا نلاحظ أنَّ التشبيه النبوي قد جاء بما يتلاءم مع القضية التي يطرحها، من حيث الألفاظ التي تتناسب مع سياق التشبيه ومن حيث المشبه به الذي تتناسب خصائصه وصفاته مع المشبه لتكتمل الصورة التشبيهية كما ينبغي أن تكون.

ويشبه الرسول ﷺ بالإبل في تقرير قضية من القضايا المهمة في الدين وهي الفطرة التي فطر الله جميع الناس عليها، فيقول عليه الصلاة والسلام: **{مَنْ يُولَدُ يُولَدُ عَلَى هَذِهِ الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ كَمَا تُنْتِجُونَ الإِبِلَ فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُم تَجْدَعُونَهَا، قَالُوا يَا رَسُولَ الله أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ}**[1].

---

[1] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٢٩.**

[1] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٣٥.**

يؤكد عليه السلام في هذا التشبيه على مبدأ الفطرة في الإنسان، ويشير فيه إلى الدور المهم الذي يلعبه الوالدان في تغيير عقيدة أبنائهما، ومع أنَّ هذا التشبيه كان مُوجهًا إلى المؤمنين فإنَّه اقترن بالجملة الشرطية التي تحمل معنى التأكيد الشديد، وذلك أنَّ التشبيه يتعلق بأمرٍ عقديٍّ يتصل بمعرفة الله والإقرار به.

وألفاظ التشبيه النَّبوي هنا تدور حول: "يهودانه، ينصرانه، تجدعونها، جدعاء"، وهي تشترك في تصوير معنى واحدٍ وهو فعل التغيير الذي حدث على كل من المشبه والمشبه به، وقد آثر عليه الصلاة والسلام استخدام لفظة "الجدع"، وهي "القطع البائن في الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها[٢]" في قوله: "تجدعونها" آثرها على لفظة "الوسم" وهي: "أثر الكي"[٣] مع أنَّها كانت موجودة في عهده ﷺ، وذلك أنَّ الجدع وهو "القطع" أثره أبقى وأوضح في رسم الصورة.

بالإضافة إلى أنَّ النتيجة الحاصلة لفعل "الجدع" قد تناسبت بما فيها من تغييرٍ وألمٍ لهذه الإبل التي هي من أحبِّ وأثمن ما يملك العربي، قد تناسبت مع النتيجة الحاصلة للفعل "يهودانه" و"ينصرانه"؛ إذ إنَّ المولود هو أحبُّ شيء إلى أبويه ومع ذلك فإنَّ هذين الأبوين يكونان السبب في تهويده وتنصيره، فيكون مآله إلى ما يؤلمه ويسوءه وهو عذاب النار، فهذا التغيير يصحبه ألمٌ لهذه الإبل، كما يصحبه ألمٌ لهذا المولود في آخرته.

وقد أراد الرسول ﷺ من اختياره للفظة "الجدع" في قوله: "حتى تكونوا أنتم تجدعونها" أن يوضح لنا بغضه لهذا الفعل الذي يصنع بالحيوان سواءً الجدع أو الوسم، فكلاهما فيه إيذاءٌ للحيوان الضعيف الذي لا يملك من أمره شيئًا.

إذًا من الألفاظ السابقة للتشبيه النبوي يتضح أنَّ ألفاظ التشبيه النبوي سهلة وجمله بسيطة التركيب اعتمد فيها عليه الصلاة والسلام على وصف ما يحدث للإنسان بعد ولادته حتى يخرج عن فطرته ويغيرها، وذلك لأنَّها موجهة لأصحابه وأمته، بالإضافة إلى أنَّ التشبيه النبوي قد شبه أمرًا معنويًّا وهو الفطرة بأمرٍ حسيٍّ يشاهده ويعرفه العرب، وذلك أدعى إلى توضيح الصورة وبيانها ورسوخها في أذهانهم، إذ أنَّها مسألة تتعلق بالعقيدة.

---

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، ج،(باب العين، فصل الجيم)،:٤١.**

[٣] **المصدر السابق، ج١٢،(باب الميم، فصل الواو)،:٦٣٥.**

إنَّ المشبه به الذي دار حوله التشبيه النبوي هو نفسه الذي استخدم في التشبيه القرآني وهو الإبل، مما يؤكد على تمكُّن هذا الحيوان في حياة العرب فهو موجودٌ في حياتهم أينما اتجهوا.

ويدل على ذلك استخدامه ﷺ لهذا الحيوان في وصف حوضه عليه الصلاة والسلام في قوله : **{إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ قَالَ: نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الوُضُوءِ}**(1).

لقد احتوت هذه الصورة التشبيهية على عدة تشبيهات، هذه التشبيهات وإن كانت قد اشتركت في معنى عام وهو تشبيه حوض الرسول ﷺ ووصفه للناس الذين يردون عليه، فإنَّ لكل تشبيهٍ معرِضًا ومعنى يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه، وذلك مبالغةً في وصف الحوض وذلك لتقريب الصورة والإلمام بحال المشبه من حيث المسافة، والحجم، واللون، والكثرة، والطعم، وما ذلك إلا لتمكُّن الصورة في النفس وجذبًا وتشويقًا لهذا الحوض.

ونلاحظ أنَّ ألفاظ التشبيه النبوي سهلة وبسيطة على الرغم من أنَّها تتحدث عن أمرٍ من أمور الآخرة، وذلك لأنَّها موجهةٌ إلى أمَّة مؤمنة، بالإضافة إلى أنَّها مبنيّة على التفصيل لبيان صفة المشبه الذي يعني للصحابة رضوان الله عليهم الشيء الكثير.

ويستخدم الرسول ﷺ (الإبل) بكثرة في تشبيهاته ومن ذلك هذه القضية التعبدية المهمة لكل مؤمنٍ عاصٍ، يقول عليه الصلاة والسلام: **{لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ ثُمَّ سَارَ حَتَّى كَانَ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرضِ فَأَدْرَكَتْهُ القَائِلَةُ فَنَزَلَ فَقَالَ تَحتَ شَجَرَةٍ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ وَانْسَلَّ بَعِيرُهُ فَاستَيْقَظَ فَسَعَى شَرَفًا، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَانِيًا، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَالِثًا، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الذِي قَالَ فِيهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بَعِيرُهُ يَمْشِي حَتَّى وَضَعَ خُطَامَهُ فِي يَدِهِ. فَلَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ}**(1).

---

(1) **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٣٩.**

(1) **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٥٣.**

فألفاظ هذا التشبيه النبوي سهلة متصلة مترابطة، كلُّ معنى منها يؤدي ويوصل إلى الآخر بطريقة تجعل التشبيه متكاملاً يمثل صورةً واقعيةً مشاهدة معروفة، يلعب فيها "البعير" المحور الرئيس في هذا التشبيه حيث مثلت الألفاظ مع بعضها البعض مكانة البعير المهمة في حياة هذا الرجل وفي حياة العربي بصفةٍ عامةٍ.

وإذا نظرنا إلى جمل التشبيه النبوي في هذا الحديث وجدناها سهلة التركيب تتحدث عن أمورٍ هي من واقع حياة كلِّ عربيٍّ بل من واقع كلِّ إنسانٍ.

فالتشبيه النبوي قام على التفصيل والتحليل الذي يصف مشاعر الضياع تختلط بمشاعر الحزن والفرح، تلك المشاعر التي تسيطر في حقيقتها على كل عاص، إنها مشاعر نفسية جسَّدها لنا عليه الصلاة والسلام بهذه الصورة.

لقد تعددت الموضوعات التي استخدم فيها الحديث النبوي التشبيه بالإبل وذلك على الرغم من أن من وجهت إليهم هذه التشبيهات هم من المجتمع المسلم ، فكان لا بد من هذا الاختلاف والتنوع في التشبيهات النبوية لأنها تعالج قضايا مختلفة دينية واجتماعية وأخلاقية، ولكل قضية من هذه القضايا سياق خاص بها، مما استلزم أن تكون ألفاظها سهلة بسيطة سلسة في تركيبها تحمل في ثناياها تفصيلًا وتحليلًا يوصل الفكرة واضحة جلية.

ويذكر القرآن الكريم حيوانًا آخر في تشبيهاته لا يقلُّ أهمية عن (الإبل)، ذلك هو (الكلب)، حيث ورد ذكره في قوله تعالى: **{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}**[(١)].

فمن بلاغة القرآن أنَّه حين يتخذ الحيوان مادةً لأمثاله ينتقي من كلِّ نوعٍ منه الصفة التي يختص بها، ويشتهر بها أيضًا وتكون فيه أوضح ممَّا هي في سواه، بحيث إذا ضُرِب المثل به أعطاك صورةً واضحةً كل الوضوح، ودليلًا ساطعًا كفلق الصبح[(٢)].

---

(١) **سورة الأعراف، الآيات:١٧٥-١٧٦.**

(٢) **الحيوان في القرآن الكريم، مرجع سابق،:٥٧٢.**

فالكلاب مثلًا من أخسِّ الحيوانات نفسًا، وأبرز صفة فيه وأخسّها جميعًا اللهاث الدَّائم المتصل[٣]، لذا شبَّه به تعالى في قوله: **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}**، وقد اختلف المفسرون في اسم هذا الرجل الذي شبهته الآية الكريمة بـ(الكلب)، كما اختلفوا في الآيات التي آتاه الله إياها، ويمكن إيجازها في الآتي:

"قيل: هو عالمٌ من علماء بني إسرائيل، وقيل: من الكنعانيِّين اسمه بَلعمُ بن بَاعُوراء، أوتي علم بعض كتب الله فانسلخ منها، أي من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره، وقيل: هو رجلٌ من مدينة الجبَّارين يقال له بلعام، وقيل: هو أُميَّة بن أبي الصَّلت الثقفي، أما الآيات فقيل إنَّها اسم الله الأعظم، أو إنَّها كتابٌ من كتب الله عزَّ وجلَّ، أو إنَّها حجج التوحيد، أو أنَّها العلم بكتب الله عزَّ وجلَّ"[٤].

وأيًّا كان الرجل، وأيًّا كانت هذه الآيات، فإنَّ هذا التشبيه في هذه الآية الكريمة **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}**، قد ضربه الله عزَّ وجلَّ لكلِّ من عُرِض عليه الهدى فأبى أن يقبله وانسلخ وركن إلى الدنيا ولذَّاتها، "فهبط به من مكان الإنسان إلى مكان الحيوان بل مكان الكلب، ولقد كان له من آيات الله التي أوتي إياها جناح يستطيع أن يطير به إلى أعلى علِّيين، ولكنه هبط إلى أسفل سافلين، فظلَّ يلهث وراء أغراض الدنيا لهثًا قلقًا لا يطمئنُّ أبدًا"[١].

والآية الكريمة في هذا التشبيه تصوِّر لنا هذا الكلب في أسوء صورة وهي صورته في حالة لهثانه، وأصل اللَّهث: "حرُّ العطش في الجوف، ولَهَث الكلبُ إذا أَخرجَ لسانه من التَّعب أو العطش"[٢]، "واللَّهث: النَّفس الشديد الذي يلحق الإنسان من شدَّة الإعياء، وهو في الكلاب طباعٌ"[٣]، ونفهم من القول الأخير أنَّ "كلَّ شيء يلهث فإنما يلهث من إعياءٍ أو عطشٍ أو

---

[٣] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١٠٤.**

[٤] **تفسير ابن كثير، مصدر سابق، جـ٢،:٢٧٦-٢٧٧.؛ الكشاف، مصدر سابق،جـ٢،:١٣٠. ؛ الجمان في تشبيهات القرآن، مصدر سابق،:٩٠.؛ مفاتيح الغيب، مصدر سابق،جـ١٥،:٤٠٦.؛ التحرير والتنوير، مصدر سابق،جـ٩،(باب سورة الأعراف، الآية: ١٧٥-١٧٦)،:١٧٣.**

[١] **مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي،مقال:د:عبد المجيد قطامش، بتصرف، (العدد٤ ،١٤٠١هـ)،:١١.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، جـ٢،(باب الثاء، فصل اللام)،:٨٤.**

[٣] **الجمان في تشبيهات القرآن، مصدر سابق،:٩١.**

علةٍ خلا الكلبَ، فإنَّه يلهث في حال الكلل، وحال الراحة، وحال الصحة والمرض، وحال الريِّ والعطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضالٌّ، وإن لم تعظه فهو ضالٌّ، كالكلب إن طردته أو زجرته فسعى لَهَث، أو تركته على حاله أيضًا لَهَث"[٤].

وللتمثيل بالكلب في هذه الصورة التشبيهية تطابُقٌ رائعٌ، ذلك أنَّ الخارج عن طاعة الله المقبل على الدنيا لا يكاد يشبع ممَّا فيها من متاعٍ، وسعيه وراء المال دائمٌ كفعل الكلب في استمراره على التَّشمشُم والأكل، وإقبال العاصي على المعاصي وتلذُّذه بها كالكلب في تلذُّذه بالجيف، وهو في انسلاخه من آيات الله عزَّ وجلَّ واتباعه هواه لشدَّة لهفه على الدنيا وانقطاع قلبه عن الله، كالكلب في شدَّة لهثه المتصل إذ لا يصبر ولا يتحمَّل ترك اللهث.

وبهذه الصور الدَّقيقة جاءت الصفات التي توفرت في الكلب واتفقت مع ما يتصف به المنصرف عن هدي الله المقبل على الحياة الدنيا باندفاعٍ ولهفةٍ.

وإذا نظرنا إلى ألفاظ هذا التشبيه وجدناها كالآتي "الكلب، تحمل، يلهث، تتركه"، فالمشبه به (الكلب)، وهو كما قلنا آنفًا من أخسِّ الحيوانات نفسًا، بل إنَّ أبرز صفةٍ فيه وأخسها وأقبحها اللهاث الدائم المتصل، وهذه الصورة للكلب بما تحمله من قذارةٍ واشمئزازٍ وقبحٍ هي نفسها التي أراد عزَّ وجلَّ أن يرسمها ويطبعها على الذي يعرض وينسلخ عن آيات الله عزَّ وجلَّ، وتعريفه للفظة (الكلب) تفيد أنَّه ليس أيَّ كلبٍ، بل الكلب في حالة لهثانه، وهذا التعريف أفاد تخصيص الكلب في حال اللهاث، وتوحي الأفعال "تحمل، يلهث، تتركه" بالاستمرار في الفعل ونعني به فعل (اللهاث) وهذا ما أرادت الآيات أن تطبعه في مخيِّلتنا ونحن نتخيل صورة الكلب وهو يلهثُ باستمرارٍ.

ونرى أنَّ لفظة "يلهث" هي التي تفي بالمعنى الذي سِيق من أجله التشبيه وهو حالة السَّاعي بشدَّةٍ وراء مُغريات الدنيا وزينتها، فهي تصوِّر حالة الشهيق والزفير بحركةٍ سريعةٍ قد أعيت الكلب حتى أنَّه عندما يزجر لا يترك اللهث، والمنشغل عن آيات الله الساعي وراء الدنيا في حركةٍ شديدةٍ لا يكاد يرتاح ولا يمنعه شيءٌ مهما كان عن الجري والركض خلف هذه الحياة الدنيا، فهي تُصوِّر المعرض عن الله وآياته سواءً في حال وعظه ونصحه أو في حال تركه.

---

[٤] **حياة الحيوان الكبرى، مصدر سابق،ج٢،:٤١٩. ؛تأويل مشكل القرآن، مصدر سابق،:٢١٦.**

وجُمل الصورة التشبيهية في الآية الكريمة قد رُسمت بإيجازٍ جميلٍ حوى كل جزءٍ من أجزاء الصورة، بدايةً من حركة اللسان في الكلب وتدلِّيه وخروج النفس بشدَّة في الشهيق والزفير، ثمَّ الزجر وما يتبعه من استمرار الكلب في اللهث، يلي ذلك تركه بدون زجر واستمراره أيضًا في اللهاث.

وقد جاء التشبيه في الآية الكريمة **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}**، مُتلائمًا ومُتناسقًا مع السِّياق الذي ورد فيه وهو زجر وتوبيخ كل من تهالك على الدنيا وسعى وراءها، والمولى عزَّ وجلَّ يخاطب في هذا التَّشبيه من ضعُف إيمانه وعقيدته، وزعزعه متاع الحياة الدنيا وزخرفها فانجرف معها وأخلد إليها، فقضية التشبيه هنا قضية عقدية يضرب لها عزَّ وجلَّ هذا المثل ليوضح أنَّ الهلاك والعذاب سيكون على من ترك الإيمان بالله وآياته واتبع الشيطان وهواه فأرداه والعياذ بالله.

لقد عمد القرآن الكريم إلى التشبيه بصورة ألفها العرب وعايشوها، فجاء التركيز فيها على صفةٍ مكروهةٍ في الكلب لينفر من فعلٍ محرَّمٍ مكروه، فكانت الصورة موجزة لكنها عبرت عن المعنى المقصود أكمل تعبير بما حوت من حركة دائمة **{إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}**، صورت هذه الحركة المعنى المقصود ورسخته في الذِّهن.

ولننتقل إلى التشبيه النَّبوي لنرى كيف وصف الرسول ﷺ هذا الحيوان (الكلب) في تشبيهاته، يقول عليه الصلاة والسلام: "**اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ وَلاَ يَبْسُطْ أَحَدُكُمْ ذِرَاعَيْهِ انْبِسَاطَ الكَلْبِ**"[١].

لقد استخدم عليه الصلاة والسلام في هذا التشبيه صفة من صفات الكلب لتقريب الصورة، وهي بسط الكلب ذراعيه، وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ هذه الصفة للكلب في قوله تعالى: **{وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}**[٢]، ولعلَّ التشبيه النبوي جاء هنا بالكلب لعلمه ﷺ بما للكلب من صفاتٍ خسيسةٍ دنيئةٍ[٣]، فاستخدم عليه الصلاة والسلام في تشبيهه صورة موجزة

---

[١] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٧٣.**

[٢] **سورة الكهف، الآية:١٨.**

[٣] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١٠٣.**

لكنها مُعبِّرة أيَّمَا تعبيرٍ، لقد نبه ﷺ أصحابه على عملٍ مكروهٍ في صلاتهم فاستخدم حيوانًا ليس بغريبٍ عليهم بل هو معهم في بيئتهم ومحيطهم.

ويستخدم عليه الصلاة والسلام (الكلب) في موضعٍ آخر ويركِّز على صفة أخرى ذميمة فيه للتحذير من عمل وفعل يكرهه عليه الصلاة والسلام فيقول: **{إِنَّمَا مَثَلُ الذِي يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ ثُمَّ يَعُودُ فِي صَدَقَتِهِ كَمَثَلِ الكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَأْكُلُ قَيْئَهُ}**[٤].

إنَّهَا من أبشع الصور ومن أخسِّ صفات الكلب المعروفة عنه[٥]، وحتى يمنع رسول الله ﷺ هذا الفعل جاء بهذه الصورة المُقزِّزة، لينفِّر أصحابه من هذا الفعل.

فألفاظ هذا التشبيه تدور حول صورة الكلب وهو يَقِيء ثم بعد ذلك يأكل قيئه، فالصورة التشبيهية مُوجزةٌ لكنَّها حملت صورةً مليئة بالحركة بدايةً من القيء ونهايةً باسترجاعه، لقد استخدم الحديث النبوي صفات الكلب السيئة القبيحة كطريقة جلوسه وانبساطه، ورجوعه في قيئه، وما ذاك إلا لعلمه بهذه الصفات السيئة المتأصلة في الكلب، فأوردها ﷺ في تشبيهاته للتحذير من جملة أفعالٍ محرمة أو مكروهةٍ في العبادة، فجاءت هذه التشبيهات بألفاظٍ سهلة موجزة عبرت عما قصده عليه الصلاة والسلام من معانٍ أجمل تعبيرٍ وأكمله.

ويعد الحمار من الحيوانات التي لازمت العربي أيضًا وخاصة الفقير منهم، فاستخدمه القرآن الكريم في التشبيه به بقوله: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**[١].

فالله عزَّ وجلَّ يذمُّ اليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها، فحملُها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع، ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم، -وكما هي في حقيقتها- لا تدلُّ على أنَّهم قدَّروا هذه الأمانة، ولا أنَّهم فقهوا حقيقتها و لا أنَّهم عملوا بها، ومن ثمَّ كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام، وليس له منها إلى ثقلها، فهو يحملها حملًا حسيًّا ولا يدري ما عليه، فهو

---

[٤] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٧٥.**

[٥] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١٠٨.**

[١] **سورة الجمعة، الآية:٥.**

ليس صاحبها، وليس شريكًا في الغاية منها!، وهي صورة رزيَّةٌ بائسةٌ، ومثلٌ سيّءٌ شائنٌ، لكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبئس المثل[٢].

وفي هذا التشبيه صورٌ عدةٌ مُترابطة بين حامِلي التوراة والحمار الحامل للأسفار، ترابطت واتَّحدت حتى ظهرت هذه الصورة التشبيهية المعروضة، "فالشَّبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار، ثم لا يتعلق أيضًا بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار، ثم لا يتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره"[٣].

"ففي اليهود شبهٌ من الحمل من حيث هو حمل على كلِّ حال، وذلك أنَّ الحافظ للشيء بقلبه يشبه الحامل للشيء على ظهره وعلى ذلك يقال حَمَلة الحديث، وحَمَلة العلم"[٤].

ويبدو للباحثة أنَّ سبب تشبيه اليهود بالحمار من بين سائر الحيوانات في هذه الآية أمورٌ، منها أنَّ الحمار من أشهر الحيوانات بالبلادة والجهالة حتى لقد قالوا للبليد على سبيل المثال: "أجهل من حمار"[١]، ولمَّا كان المقصود إعلان بَلادَة اليهود وجهلهم للتوراة وعدم الإفادة منه وقع هذا التشبيه، ومنها اشتهاره بالذُّلِّ وحقارة الشأن، وفي هذا قال الشاعر: (البسيط)

وَمَا يُقِيمُ بِدَارِ الذُّلِّ يَعْرِفُهَا ... إلاَّ الأَذَلاَّنِ عَيْرُ الحَيِّ والوَتَدُ

هَذَا عَلَى الخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَمَا يَبْكِي لَهُ أَحَدُ[٢]

وكذلك اليهود، أذلاَّء حقيرون لا تُزيل أموالهم الذِّلة والحقارة عنهم، قال تعالى: **{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}**[٣]، كالحمار تمامًا، وهذا التشبيه بهذه الصورة أجلُّ وأدقُّ وأروع، ذلك أنَّ اليهود كالحمار يحسُّون ويشعرون، ويذهبون ويجيئون، ويتحمَّلون ويصبرون، ولكنهم في

---

[٢] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ج٢،:٣٨٩.؛ الكشاف، مصدر سابق،ج٤،:١٠٣.؛ في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٢٨، :٩٧-٩٨.؛ التحرير والتنوير، مصدر سابق،ج٢٨،(باب سورة الجمعة، الآية:٥)،:٢١٣-٢١٤.

[٣] أسرار البلاغة، مصدر سابق،:٧٨-٧٩.

[٤] المصدر السابق،:٨١.

[١] انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،: ١٠٨.

[٢] انظر: الباب الأول، الفصل الثاني، من هذا البحث،:٨١.

[٣] سورة البقرة، الآية:٦١.

غاية البلادة؛ إذ لا ينتفعون بما حُمِّلوا من علمٍ ودينٍ قويمٍ، "وهكذا كان ذكر الحمار لتوضيح بشاعة وفظاعة اليهود في عدم إدراكهم وثقتهم وفهمهم وتطبيقهم للكتاب الذي حُمِّلوه"[٤].

وإذا تأملنا هذا التشبيه وجدنا أنَّ ألفاظه "كمثل، الحمار، يحمل، أسفارًا"، واضحةٌ سهلةٌ سلسةٌ، وذلك أنَّها تخاطب المؤمنين وتحذرهم من أن يكونوا كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، بالإضافة إلى أنَّ الغرض من سهولة هذه الألفاظ وضوحها وسرعة تخيل هذه الصورة المهينة لليهود ولكل من حمل علمًا ولم يعمل به، كما نلاحظ أنَّ جُمَله بسيطة التراكيب ليحصل التنبيه والتحذير للمخاطبين وهم المؤمنون من الوقوع فيما وقع فيه اليهود.

ويشبِّه القرآن الكريم بالحمار في موضع آخر في قوله تعالى: **{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}**[٥].

فالقرآن الكريم في هذه الآية الكريمة، يتساءل مُستنكرًا موقف المكذبين من الدَّعوة إلى التذكرة والنَّجاة من هذا المصير، ويرسم لهم صورةً ساخرةً تثير الضحك فيقول: **{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ"؟ " كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}**! ويكشف عن حقيقة الغُرور الذي يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المُذكِّر النَّاصح، ثم يقول عزَّ وجلَّ مُعقِّبًا على ذلك النُّفور وسببه: **{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً}**، إنَّه الحسد للنَّبي ﷺ والرغبة في أن يؤتى كل منهم الرسالة، فكيف يختار الله عزَّ وجلَّ مُحمدًا ﷺ ويوحي إليه ، فكانت رغبتهم المُلحَّة في أن ينال كلٌّ منهم هذه المنزلة ، وأن يُؤتى كلٌّ منهم صحفًا تنشر على الناس وتُعلن، ولا بد أنَّ الإشارة هنا كانت بصدد الكُبَرَاء الذين شقَّ عليهم أن يتخطاهم الوحي إلى محمد بن عبد الله، ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم، فكان الحنق الذي يغلي في الصدور، والذي يكشف عنه القرآن وهو يعلل ذلك النُّفور والهُروب![١]

---

[٤] **الحيوان في القرآن، مرجع سابق،:٥٤٤.**

[٥] **سورة المدثر، الآيات:٤٩-٥١.**

[١] **في ظلال القرآن، مصدر سابق،ج٢٩،:٣٥٧-٣٧٢.؛ مفاتيح الغيب، مصدر سابق،ج٣٠،:٧١٧.؛ التحرير والتنوير، مصدر سابق،ج٢٩،(باب سورة المدثر، الآيات٤٩-٥١)،:٣٢٩.**

ومشهد حُمُر الوحش وهي مُستنفِرةٌ تفرُّ في كلِّ اتجاهٍ وحين تسمع زئير الأسد وتخشاه .. مشهدٌ يعرفه العرب، وهو مشهدٌ عنيفُ الحركة مُضحكٌ أشد الضحك حين يُشبَّه به الآدميُّون! حين يخافون!

فكيف إذا كانوا إنَّما ينفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حُمُر، لا لأنَّهم خائفون مُهدَّدون بل لأنَّ مُذكِّرًا يذكرهم بربهم وبمصيرهم، ويُمهد لهم الفرصة ليتَّقوا ذلك الموقف الرَّزي المهين، وذلك المصير العصيب الأليم؟!

والصفة الجامعة بين المُشركين والحمر، أنَّ كُلًّا منهما ضعيفٌ منهارٌ أمام قوى طاغية يشعر أنَّه واقعٌ لا محالة، لأنَّ الصَّائد ممَّا لا يمكن مقاومته إذن فالفرار الفرار.

فالألفاظ في هذه الصورة التشبيهية تدور حول "حمر، مستنفرة، فرت، قسورة"، فـ"حمر" جاءت بالجمع للمبالغة في استهجانهم، ولفظة "مستنفرة" أي: "مذعورة"[٢] وهي أدلُّ وأبلغ من الفرار في هذه الصورة، لأنَّ عامل المفاجأة والسرعة الخاطفة في النِّفار والاستنفار أظهرُ منه في الفرار، كما تحوي معنى الخوف ومحاولة الهرب، فألفاظ التشبيه قوية صارخة ساخرة تتناسب مع شدة عناد الكفار وهروبهم من الحق.

وجُملُهُ موجزة تحمل صورًا رائعةً مليئةً بالحركة السريعة المفاجئة، وقد لاءمت العناصر التي بُني منها التَّشبيه مع ما هو مألوفٌ لدى العرب وفي بيئتهم، إذ إنَّ كلًّا من "الحمير المتوحشة، والقسورة –الأسد– من بيئةٍ واحدة هي البيئة الصحراوية الصعبة، فهذه العناصر تناسب هذه الفئة البدوية الشديدة الخلق المتينة الطباع، فكأنَّ قوة العناصر التي تكون منها التشبيه تتبع قوة المعنى.

وقد استخدم التشبيه القرآني الصورة الحسية في إظهار تكذيب المشركين وفرارهم من الحق وذلك أوقع في النفس وأكثر ثباتًا ووضوحًا.

وإذا قارنا بين الآيتين الكريمتين في قوله تعالى: **{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}**، وبين قوله تعالى: **{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}**، وجدنا أنَّ التشبيه في الآية الأولى في قوله تعالى: **{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}** مُوجَّهٌ إلى المؤمنين، فكانت الألفاظ واضحةً سهلةً تدلُّ

---

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، جـ٥،(باب الراء، فصل النون)،:٢٢٤.**

على أنَّها تخاطب قومًا شهدوا نزول الوحي فامتلأت به قلوبهم وحفظوا منه ما حفظوا، فكأنَّ هذا التشبيه الذي يتعامل مع هؤلاء القوم وشدة حرصهم على ما ينفعهم، وانظر إلى اختياره للفظة "أسفارًا" التي هي وعاء العلم والفقه التي يحرص عليها كلٌّ من اشتاقت نفسه إلى التفقه والتعلم في أيِّ مجال، فكيف به إذا كان مُوجَّهًا لقومٍ حديثي عهد بدينٍ حمل لهم خيري الدنيا والآخرة.

بينما التشبيه في الآية الثانية في قوله تعالى: **{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}**، يخاطب فيه المولى عزَّ وجلَّ كفار قريش وهم جهلةٌ قساةُ القلوب غِلاظُ الأخلاق، حاربوا الإسلام بكلِّ قوَّةٍ جبَّارةٍ لديهم، فكان التشبيه القرآني يعاملهم بنفس الغلظة والقوة و التهديد والتخويف الذي عاملوا به الإسلام وأهله، سواءً كانت تلك المعاملة في الألفاظ القاسية الصاخبة التي استخدمها معهم "حمر، مستنفرة، قسورة"، أو في الصورة نفسها حيث حوت على صورةٍ من صُور الافتراس والوحشية، بين القوي والضعيف، ونُلاحظ أنَّ الآيتين الكريمتين قد استخدمتا "الحمار" في التَّشبيهين إلا أنَّ الآية الأولى في قوله تعالى: **{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}** قد استخدمت في التشبيه "الحمار الأهلي" الذي يتواجد في الحاضرة فناسب اختياره للتشبيه في هذا المقام.

بينما الآية الثانية استخدمت "الحمار الوحشي" الذي عادةً ما يُوجد في البيئة البدوية الصحراوية[١]، لتناسب مقام الشدَّة في التشبيه.

بالإضافة إلى أنَّ كلًّا من التشبيهين قد استخدم صورةً حسية مألوفةً مُشاهدةً في البيئة العربية إلا أنَّ الغرض منها في الآية الأولى **{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}** كان سرعة تخيل الصورة وتمكُّنها من نفوس الصحابة، بينما كان الغرض من هذه الصورة الحسية في الآية الثانية: **{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}** هو السخرية والتخويف وإذلالهم، وقد كان محور الآيتين الكريمتين يدور حول أمرٍ من أُمورِ العقيدة، فالآية الأولى: **{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}** كانت تُحذِّر المؤمنين من أن يكونوا كاليهود في عدم انتفاعهم بدينهم وكتابهم وما فيه من الأوامر والنَّواهي، أما الآية الثانية: **{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}** فهي أيضًا

---

[١] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١٠٨.**

تدور حول تكذيب المشركين بعقيدة الإسلام وكيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ سخر منهم وهدَّدهم وتوعَّدهم على تكذيبهم.

وإذا كان القرآن الكريم قد استخدم الحمار في تشبيهاته فإنَّ الحديث النبوي الشريف قد سار على نفس النَّهج فشبه به في أكثر من موضع، ولنأخذ قوله ﷺ: **{أَمَا يَخْشَى الذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ؟}**[٢]

إنَّه تهديدٌ شديدٌ مُخيفٌ يوجَّه إلى أولئك الذين يسابقون الإمام فيرفع أحدهم رأسه قبل الإمام، سواءً كان ذلك في الركوع أو السجود، لقد رسم لهم عليه الصلاة والسلام صورةً بشعةً مُخيفةً كان العنصر الأساسي فيها هو (الحمار)، ولماذا كانت بشعة؟ لأنَّها تتناول رأس الإنسان الذي يوجد به جميع ملامحه التي تُميِّزه عن غيره، إنَّه يعني ذاته ومحور اعتناءه وتميُّزه، فكيف يتحول إلى هذه البشاعة، وما السبب الذي يؤدي إلى هذا التَّحوُّل؟

إنَّ الخطاب في هذا التَّشبيه يُوجِّهه عليه الصلاة والسلام إلى فِئةٍ من المؤمنين قد بَدَرَ منهم فعلٌ كرهه ﷺ، وهذا الفعل كان في شيءٍ هو ركنٌ من أركان الإسلام ألا وهو الصلاة، فكان لابد أن يشبه عليه الصلاة والسلام بهذا التشبيه البشع والمخيف في نفس الوقت ليكون تحذيرًا لهم.

لقد وظف الرسول ﷺ كلَّ صفةٍ اتصف بها الحمار من جهلٍ وغباءٍ وبلادةٍ[١]، بالإضافة إلى بشاعة الصورة ليحذر كل من سابق الإمام في ركوعه أو سجوده فيسارع إلى التوبة، واعتمد ﷺ في توضيح هذا الفعل على صورةٍ مألوفةٍ مُشاهدةٍ لهم في بيئتهم.

وقد ورد ذكر الحمار في موضع آخر في التشبيه النبوي في قوله ﷺ: **{مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً}**[٢].

لقد جسَّدت اللفظتان "جيفة، حمار" الصورة أجمل تجسيد فأحاطت بالتشبيه من كلِّ جانبٍ، وأبرزته للعين والأنف معًا في صورةٍ قبيحةٍ منفرةٍ، وهاتان اللفظتان بما حَوَتَا من معَانٍ

---

[٢] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٩٧.**

[١] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١٠٨.**

[٢] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:٢٠٢.**

وصورٍ تتناسبان مع مقام الحديث وموضوعه، وهو الانشغال في الحديث بما لا يعود على المرء بفائدةٍ من حديثه، بل إنَّه يؤدي إلى هلاكه وخسرانه في الدارين، وقد جاء التشبيه بسيط التَّركيب ليحصل التنفير من هذا الخلق القبيح، ومن ذا الذي يرغب في أن يقوم من مجلسه عن جيفة حمار؟

وفي حديثٍ آخر يستخدم الرسول ﷺ الحمار وذلك في قوله لأصحابه ﷺ: **{يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقَ أَقْتَابُهُ فِي النَّار فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ}**[٣].

فالجزاء لهذا الرجل كان من جنس العمل، فكان يظهر منه من الهداية والصلاح عكس ما كان يُخفي من المعاصي، فكان جزاؤه أن يفضح ويكشف عما كان يخفيه عن الناس.

لقد مثَّل الحمار بما فيه من جهلٍ وغباءٍ ذلك الرجل، إذ إنَّه من أشدِّ الجهل والغباء أن ينصح المرء غيره ولا يمتثل هو لهذه النصيحة ويطبقها أولًا قبل غيره.

فإذا ما ألقينا نظرةً على كلٍّ من تشبيهات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وجدنا أنَّ القرآن الكريم والحديث الشريف عندما يوجهان تشبيهاتهما للمؤمنين تكون ألفاظ التشبيه واضحةً سهلةً مرنةً، لأنَّهما يتعاملان مع قومٍ مؤمنين مطيعين، فناسب أن يكون التشبيه واضحًا سلسًا ليِّنًا هيِّنًا يحمل التوجيهات والتعليمات السامية التي يريدانها من هذا التشبيه.

كما نلاحظ أنَّ التشبيهات في قوله ﷺ : "**أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ**"، وقوله أيضًا: "**إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ**"، كانت موجزة بسيطة، فكان هناك تناسبٌ بين الموضوع الذي سِيقَت لأجله ومع من وُجهت إليهم.

إلا أنَّنا نجد التشبيه في قوله ﷺ: "**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقَ أَقْتَابُهُ فِي النَّار فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ**"، فيه شيءٌ من التَّحليل والتَّفصيل في تركيبه، وذلك أنَّه يُحذِّر من قضيَّة خطيرةٍ يقع فيها كثيرٌ من الناس وهي قضية الرِّياء والأمر بالمعروف وتركه، والنهي عن المنكر وإتيانه، وما يدخل في ذلك من إظهارٍ للطاعة وإخفاء للمعصية

---

[٣] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٩٨.**

وخداع للمسلمين، فاستلزمت القضية شيئًا من التفصيل للتخويف والتحذير الذي يدخل في هذا التشبيه.

بينما نلاحظ أنَّ التشبيهين الآخرين في قوله ﷺ: "**أَمَا يَخْشَى الذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ**"، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ**"، كان العمل أو الفعل الحاصل من الصحابة ﷺ في التشبيهين واضحًا صريحًا لم يُداخله رياءٌ، فجاء التشبيهان مختصرين موجزين يحملان التحذير من مثل هذه الأعمال.

ويتناول القرآن الكريم (الحيَّة) فيرد التشبيه بها في قوله تعالى: {**وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**}[(١)].

فالخطاب من الله عزَّ وجلَّ مُوجَّهٌ إلى موسى عليه السلام، وهو بداية تكليفه بالرسالة، والله عزَّ وجلَّ يُريد أن يُؤيِّد موسى عليه السلام في إرساله بمعجزةٍ، فأراد أن يُرِيَهُ هذه المعجزة، فأمره بأن يُلقي عصاه فألقاها كما أمر الله عزَّ وجلَّ، فإذا هي تدِبُّ وتسعى، وتتحرك حركةً كحركة "الجان" وهو "ضربٌ من الحيَّات أكحل العينين يضرب إلى الصُّفرة لا يؤذي، وهو كثير في بيوت الناس"[(١)]، فعندما رآها موسى عليه السلام أدركته طبيعته الانفعالية، وأخذته هزَّة المفاجأة التي لم تخطر له ببالٍ، وجرى بعيدًا عن الحيَّة دون أن يفكر في الرجوع! وهي حركةٌ تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة من هول ما رأى، فيعقِّب المولى عزَّ وجلَّ عليه بقوله: { **يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**}، أي لا تخف فأنت مُكلَّفٌ بالرسالة، والرسل لا يخافون في حضرة ربهم وهم يتلقون التكليف[(٢)].

فهذه صورة من صور الإعجاز الإلهي، وهي معجزة عظيمة أرسلها الله عزَّ وجلَّ إلى فرعون وقومه.

---

(١) **سورة النمل، الآية: ١٠.**

(١) **لسان العرب، مصدر سابق، جـ١٣،(باب النون، فصل الجيم)،:٩٧.**

(٢) **تفسير ابن كثير، مصدر سابق، جـ٤،: ٥٨٠.؛ الكشاف، مصدر سابق،جـ٤،:٢٧٩.؛ في ظلال القرآن، مصدر سابق، جـ٣٠، :٦٤٦-٦٤٧.**

فألفاظ هذه الصور التشبيهية تحمل معنى القوة من جهة الخالق "ألق، عصاك، تهتز، كأنها، جان"، ثم هي تحمل معنى الضعف والخوف من جهة المخلوق "ولى، مدبرًا، لم يعقب".

فالصورة الأولى تكوَّنت بفعل الله عزَّ وجلَّ فجاءت الألفاظ قويةً تتناسب مع آية الإعجاز، فقوله: "ألق" أمرٌ، ليس من أيِّ أحدٍ بل من الله عزَّ وجلَّ القاهر في أقواله وأفعاله القادر على كل شيءٍ، ولفظة "تهتز" تُشعرنا بالارتجاف خاصةً مع تكرار حرف التاء في أول الكلمة وثالثها، ثم نُلاحظ اختيار أداة التشبيه "كأنَّ" التي تستخدم حيث يَقوى التشبيه فيكون المشبه هو عينه المشبه به[٣]، أما لفظة "جان" وهي المشبه به، فنلاحظ أنَّ المولى عزَّ وجلَّ اختارها على غيرها من الحيوانات وذلك لعدة أسباب، أولها أنَّ شكل الحية "يتناسب مع شكل العصا من حيث الطول والشكل تقريبًا، وثانيها أنَّ الحية بهذا الشكل والطول تُعد الحيوان الزَّاحف الوحيد الذي يتواجد في البيئة العربية، وثالثها أنَّ الحيَّة كانت كثيرًا ما تقترن بالسحر والكهانة، وقوم موسى اشتهروا بالسحر فكانت هذه الحية تحدِّيًا لهم[٤].

وإذا انتقلنا إلى الصورة الثانية وجدناها تمثل ردة فعل موسى عليه السلام حينما رأى هذه الحية فكانت الألفاظ في هذه الصور تتناسب والخوف والفزع من ذلك المنظر، فلفظة: "ولى" تعني "الإِدبار والهُروب"[١] وهي أبلغ من "فرَّ" إذ أنَّها تعني "الرَّوغَان والهُروب"[٢] أي أنَّ الإنسان لا يُدبِر ممَّا يخاف مباشرة بل إنَّه يُراوِغُ يَمَنةً ويسرةً ويحاول تفادي ما يخيفه، فإذا لم يَستِطع فعندها يلجأ للهرب، ولكن لفظة "ولى" أعطت المعنى المناسب حيث إنَّ موسى عليه السلام لم يُراوغ بل إنَّه لهول خوفه وفزعه أدبر على الفور وهرب مباشرة دون تفكير، وهي أبلغ في الخوف والفزع وهذا ما أرادته الآية الكريمة.

ثم قوله عزَّ وجلَّ :"ولم يعقب" أي "لم يعطف ولم ينتظر"[٣] أي أنَّه لمَّا رأى العصا حيَّةً لشدة خوفه وفزعه منها لم ينتظر ليتأكد ممَّا رأى بل إنَّه مباشرة ولَّى هاربًا، وهذا دليلٌ على

---

[٣] **عروس الأفراح، مصدر سابق،ج٢،:١٩٨.**

[٤] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١١٣.**

[١] **مختار الصحاح، مصدر سابق،(باب الواو، مادة(و ل ى)،:٧٣٦.**

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٥،(باب الراء، فصل الفاء)،:٥٠.**

[٣] **مختار الصحاح، مصدر سابق،(باب العين، مادة(ع ق ب)،:٤٤٤.**

حالة الخوف الشَّديد التي أصابته، فهذه الألفاظ كما قلنا سابقًا مثَّلت حالة الخوف والفزع الذي أصاب موسى عليه السلام، وهي تتناسب مع معنى التشبيه في الآية الكريمة.

أمَّا الصورة التشبيهية في قوله تعالى: **{فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ}** فقد احتوت على الحركة السريعة المخيفة وقد تمثلت تلك الحركة في لفظة "تهتز" إذ إنَّها أعطت التشبيه حركةً بعد سُكونٍ.

وترد "الحية" في الحديث النبوي في قوله ﷺ: **{إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى المَدِينَة كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّة إِلَى جُحْرِهَا}**[٤].

وهذه الصورة التشبيهية عقدها عليه السلام ليأكد على أنَّ الإيمان كما بدأ من المدينة فإنَّه يعود ويجتمع فيها كما تجتمع الحيَّة حول جحرها، وعلى الرغم من أنَّ الحية من الزَّواحف الخطرة على الإنسان فإنَّه ﷺ قد اختارها لأنَّه أراد أن يشبه بحركتها وهي تجتمع حول جحرها، والشيء الآخر الذي جعله ﷺ يختار الحية دون غيرها هو أنَّها الحيوان الزَّاحف الوحيد الذي يعيش في البيئة العربية ويشاهده كثيرٌ من الناس في الحاضرة والبادية.

فالصورة التشبيهية بسيطة التركيب لكنَّها حَوَتْ صورةً حيَّة نابضةً مليئةً بالحركة أدَّت إلى وُضوح المعنى ورسوخه في الأذهان، ومن هنا فإنَّ الألفاظ التشبيهية في الآية القرآنية والحديث النبوي واضحة جليَّةً لتحصل السرعة في تخيل حركة الحيَّة في كلٍّ من الآية الكريمة والحديث الشريف.

ويتناول القرآن الكريم الطير، وذلك في تعداد نعم الله تعالى على عيسى عليه السلام، قال تعالى: **{إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...}**[١]، فهذه من معجزات الله التي أيَّد بها عيسى عليه السلام، وقد تكرر ذكر هذه المعجزة (خلق الطير) في سورة أخرى في قوله تعالى: **{وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي**

[٤] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الثاني من هذا البحث،:٢١٥.**

[١] **سورة المائدة، الآية: ١١٠.**

أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ...}[٢]، فالله عزَّ وجلَّ أجرى هذه المعجزة على يد عيسى عليه السلام تأييدًا له على صدق رسالته، وكانت هذه المعجزة بإذن الله وإرادته، لذلك جاء في السياق في كلا السورتين بلفظة "**بِإِذْنِ اللّهِ**"، كما في قوله تعالى: "**فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي**"، وفي قوله تعالى: "**فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ**"، فهذا الطير تحول بإذن الله إلى طيرٍ يطير كباقي الطيور، بعد أن كان طينًا هامدًا لا حراك له ولا حياة، والطين هنا يعني: "الوحل"[٣]، أي أنَّه ترابٌ مخلوطٌ بالماء، وقد يسمى بذلك وإن زالت عنه رطوبة الماء، ولكن عند تشكيله إلى أشكال لابد وأن يكون طريًّا أي مختلطًا بالماء، وهكذا شكَّل عيسى عليه السلام قطعةً من الطين "كهيئة الطير" أي على شكل طير حينما بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل حين كانوا يتصورون –كما يتصور غيرهم من الملحدين في كل زمان– أنَّ الإنسان إذا مات وعاد لطين الأرض لم يعد هناك من يقدر على بعثه.

فالذي عرفه عيسى عليه السلام ونعرفه نحن البشر أنَّ الحياة التي تنشئ شيئًا آخر "غير التراب وغير سائر المواد الميتة في هذه الأرض شيءٌ زائد وشيءٌ مُغايِر وشيءٌ ينشئ آثارًا وظواهر لا توجد أبدًا في التراب ولا في مادة ميتة على الإطلاق"[١].

وإذا نظرنا إلى ألفاظ هذه الآية نجدها تكونت من: "إذ، تخلق، من الطين، كهيئة، الطير، بإذني، فتنفخ فيها". فـ"إذ" نجد أنَّها تكررت مع ذكر كل معجزة من المعجزات التي أيَّد بها الله عزَّ وجلَّ عيسى عليه السلام، فكأنَّها تحاكي استغراب وحيرة وإنكار قوم عيسى عليه السلام لهذه المعجزات، فكأنَّهم شعروا بالمفاجأة العظيمة والذهول الصارخ أمام هذه المعجزات، وإن كان الخطاب في الآية الكريمة موجهًا إلى عيسى عليه السلام؛ إلا أنَّ هذه المعجزات كانت موجهةً لقومه، بداية من حديثه مع الناس في المهد، إلى إبرائه الأكمه والأبرص، وإخراجه الموتى، وخلق الطير، وكل ذلك بإذن الله. وقوله تعالى في الآية الكريمة: "**تَخْلُقُ**"، حددت الزمن الذي حدثت فيه المعجزة، أي وقت خلق الطير الذي أمر الله فيه عيسى عليه السلام بالنفخ في الطين، ثم لننظر إلى جمال حرف "من" حيث يدل على أنَّ المخلوق جزء بسيط من الطين، وكأنَّ "من" هنا توحي لنا بعجز البشر وضعفهم أمام الخالق، فحتى عيسى عليه السلام لم يكن

---

[٢] **سورة آل عمران، الآية: ٤٩.**

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق، ج١٣،(باب النون، فصل الطاء)،: ٢٧٠.**

[١] **في ظلال القرآن، مرجع سابق،ج٣،: ١٩٠.**

بإمكانه إلا أن يُشكل هذا الجزء الضئيل من الطين فيصنعه على شكل وهيئة طير بدون روح. وماذا يكون هذا الصنع أمام صنع الله لهذا الكون العظيم بما فيه من مخلوقات وموجودات، فـ"من" جسدت ضعف المخلوق أمام قدرة الله عزَّ وجلَّ، ثم تأتي لفظة "الطين" التي تعني "الوحل"[٢]، تدل على أنَّه تراب مخلوط بالماء ليسهل تشكيل هيئة الطير. وقوله تعالى: "**كَهَيْئَةِ**"، فـ(الكاف) للتشبيه، و(هيئة) هنا للدلالة على شكل الطير العام، أي بدون تخصيص لجزء منه، بل هيئة كاملة، ولفظة "الطير" تدل على عموم الطير بدون تخصيص لطائر معين. وقوله تعالى: "**بِإِذْنِي**" فيها دليل على عجز عيسى عليه السلام لخلق الطير بدون أمر الله وقدرته، ثم قوله عزَّ وجلَّ: "**فَتَنفُخُ فِيهَا**"، "الضمير للكاف لأنَّها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنَّها ليست من خلقه ولا من نفخه في شيء"[٣]، ونلاحظ جمال (الفاء) في قوله تعالى : "فتنفخ، فتكون"، إذ تعطينا ترتيبًا في الأحداث، إذ جاء تشكيل الطين أولًا ثم النفخ، ثم بعد ذلك صيرورة الطين طيرًا بإذن الله.

فألفاظ الآية الكريمة واضحة سهلة التركيب خالية من المؤكدات لأنَّ الخطاب فيها موجه إلى نبي الله عيسى عليه السلام.

لقد اختار الله عزَّ وجلَّ الطير لهذه المعجزة، لأنَّ الطير –والله أعلم– يطير ويحلق في السماء فيراه القاصي والداني، يحلق في السماء ولا ينكره أحد، فحركة طيرٍ يطير في السماء لا تنشأ إلا عن طيرٍ له روحٌ وحجمٌ مناسب، وقدرة فائقة على الطيران تمكّن الناس من رؤيته.

أما الحديث النبوي فقد وظف (الطير) في أكثر من تشبيه. وذلك بما يخدم المعنى الذي يرمي إليه، فقد ورد عنه ﷺ أنَّه قال : **{يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ}**[١].

فقد ركز عليه الصلاة والسلام في هذه الصورة على صفة اختصت بها الطيور عامة وهي الرقة والخوف والضعف، فالطير أكثر الحيوان خوفًا وفزعًا، وذلك للحث على صفات الخوف والهيبة وتقوى الله وخشيته وهي الداعي إلى دخول هؤلاء القوم الجنة.

---

[٢] **لسان العرب، مصدر سابق، جـ١٣،(باب النون، فصل الطاء)،:٢٧٠.**

[٣] **الكشاف، مصدر سابق،جـ١،:٦٥٣.**

[١] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الثالث من هذا البحث،:٢٢٧.**

فألفاظ التشبيه النبوي موجزة ولكنها حملت بداخلها جملة من المعاني السامية التي توجب للمؤمن دخول الجنة، وهي مع ذلك بسيطة سلسة لأنَّها تخاطب أقوامًا مؤمنين وتحثهم على جملة من الصفات الحسنة المحببة إلى الله ورسوله ﷺ.

لقد استخدم القرآن الكريم والحديث الشريف الطير في تشبيهاتهما، حيث كان في القرآن لبيان قدرة الله على الخلق من العدم، بينما ركز الحديث الشريف على جملة من صفات الطير كقوله ﷺ: **{لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ...}**[٢]، وقوله: **{يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ}**[٣]، وقوله أيضًا: **{اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ البَقَرَة وسورة آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ...}**[١].

لقد حلَّق الطير في سماء الإنسان العربي وغيره، ورآه وألفه وهام به، وروَّض الوحشيَّ منه واستفاد من الأليف، من هنا جاء التشبيه به في القرآن الكريم والحديث الشريف، لعلمهما بصفات هذا الحيوان وطبائعه، وما يحمله من رقة وضعف وخوف وفزع وصدق في التوكُّل على الله.

ولم يقتصر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في التشبيه على الحيوان والطير فحسب، بل إنَّهما تناولا الحشرات أيضًا، ومن تلك الحشرات: الفراشة، حيث ورد ذكرها في قوله تعالى: **{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}**[٢].

تصف هذه السورة الأحوال والأهوال يوم القيامة وما يصيب الناس من الفزع والخوف من تلك المشاهد التي تطير لها القلوب، وترجف منها الأوصال ارتجافًا، ويحسُّ السامع كأنَّ كلَّ شيءٍ يتشبَّث به في هذه الأرض قد طار حوله هباءً! وبقي الناس في هذه الأهوال صغارًا ضئالًا على كثرتهم، فهم كـ"الفراش المبثوث" متطايرون مستخفون في حيرة (الفراش) الذي يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه وجهة، ولا يعرف لها هدفًا!

---

[٢] تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الثالث من هذا البحث،:٢٢٤.

[٣] تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الثالث من هذا البحث،:٢٢٧.

[١] تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الثالث من هذا البحث،:٢١٨.

[٢] سورة القارعة، الآية:٤.

فهذه صورةٌ موجزةٌ معبِّرةٌ لحال الناس في ذلك اليوم العصيب، ضعافٌ أذلاَّءُ، يجهلون مصيرهم، كالفراش في انتشاره وتفرُّقه وذهابه ومجيئه[٣].

وقد عبرت ألفاظ الآية الكريمة عن ذلك اليوم وعن تلك الأهوال، فلفظة (يوم) تكررت فأعطت غموضًا، فمهما تخيل الإنسان أحوال ذلك اليوم وأهواله، فلن يصل تخيله وتصوره إلى حقيقة ذلك اليوم وما فيه من العذاب الشديد، **{وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}**[١]، فيظلُّ ما يحدث في ذلك اليوم مُبهمًا غامضًا عن تصوُّر بني آدم، وهذا مما أوحى به التنكير في لفظة (يوم)، ثم لننظر إلى لفظة (يكون) حيث جاءت بالمضارع وذلك لسرعة استحضار الصورة فكأنَّها حادثة الآن أمام أبصارنا.

لقد اختار المولى عزَّ وجلَّ "الفراش" لتشبيه الناس، وما يحدث لهم في هذا اليوم، فحركة الناس وهم فزعون خائفون مذهولون "كالفراش المبثوث في انتشاره وتفرقه وعدم هدايته وجهله فالمعروف عن الفراش أنَّه يطير ويتهافت في السراج أو الضوء أيًّا كان مصدره، وذلك لضعف أبصارها، فلا تزال تطلب الضوء وترمي بنفسها في النار مرَّةً بعد مرَّةٍ، حتى تحترق، وهذا من فرط جهلها وضعفها[٢]، والناس كذلك في اتباعهم للمعاصي التي تهوي بهم في نار جهنم، ثم مجيء لفظة (الفراش) بالجمع يدل على الكثرة والانتشار على غير هداية منها، وهذا هو حال الناس في ذلك اليوم لشدة فزعهم وخوفهم، ثم لنتأمل لفظة (المبثوث) وما توحي به من شدة الانتشار والتفرق في كل مكان، فـ"الباء والتاء أصلٌ واحدٌ وهو تفريق الشيء وإظهاره، يُقال: بثُّوا الخيل في الغَارَةِ، والله خلق الخلق وبثَّهم في الأرض لمعاشهم، وفي القرآن: **{وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}**[٣] أي كثيرةٌ متفرِّقةٌ"[٤].

---

[٣] **تفسير ابن كثير، مصدر سابق، جـ٤،:٥٨٠.؛ الكشاف، مصدر سابق،جـ٤،:٢٧٩.؛ في ظلال القرآن، مصدر سابق، جـ٣٠، :٦٤٦-٦٤٧. ؛ مفاتيح الغيب، مصدر سابق،جـ٣٢،:٢٦٨.؛ التحرير والتنوير، مصدر سابق،جـ٣٠،(باب سورة القارعة، الآية: ٤-٥)،:٥١١-٥١٢.**

[١] **سورة الحج، الآية:٢.**

[٢] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١١٩.**

[٣] **سورة الغاشية، الآية:١٦.**

[٤] **معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،جـ١،(دار الفكر،١٣٩٩هـ)،:١٧٢.**

فالصورة التشبيهية في الآية الكريمة موجزةٌ، لكنَّها حَوَت بداخلها حركات سريعة عشوائية تصوِّر حال الناس في ذلك اليوم وتصف صورةً من صُوَرِه، فهي موجَّهةٌ للمشركين المنكرين للبعث والحساب، فأراد المولى عزَّ وجلَّ أن يقلب معتقدًا باطلًا تغلغل في قلوبهم في أمر البعث والحساب بعد موتهم.

لقد كان التشبيه بـ"الفراش" في الآية الكريمة يصوِّر لنا مشهدًا من تلك المشاهد المرعبة لنستعدَّ لذلك اليوم العظيم بما فيه من أهوالٍ ومصاعب.

ويستخدم الحديث النبوي الشريف (الفراش) أيضًا ولكن لتشبيه حال النبي ﷺ مع أمته في الحرص عليهم وهدايتهم، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: **{إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُ التِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجُزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا}**[١].

لقد رسم لنا ﷺ في هذا التشبيه صورةً حسيَّةً حملت بداخلها حركاتٍ حيةً مُتلاحقةً سريعةً اعتنى فيها رسول الله ﷺ في اختيار المشبه به الذي يُوصل المعنى الذي يُريدُه.

إنَّ جميع ألفاظ التشبيه لتروي لنا ما لاقاه عليه الصلاة والسلام في سبيل هداية أمته وانتزاعها من النار، لقد كانت الصورة التشبيهية بالفراش في الحديث النبوي مُركَّبة حَوَت الكثير من التفصيل في لوحةٍ تسلسُليَّةٍ سريعةٍ مليئةٍ بالصراع والمعاناة، فهي مُوجهةٌ للصحابة ﷺ ولأمة محمد ﷺ.

فـ"الفراش" بأنواعه المختلفة من الحشرات الجميلة التي كان العرب كثيرًا ما يشاهدونها في البادية والحاضرة، وأينما وُجد الضوء لشغفها الشديد به وانجذابها نحوه، فربما كان فيه هلاكها، ومن هنا جاء التشبيه به في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

ومن الحشرات المنتشرة في البيئة العربية (الجراد)، وقد ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: **{يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ}**[٢]، فهذا مشهدٌ من مشاهد يوم القيامة، وهو

---

[١] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الرابع من هذا البحث،: ٢٤٠.**

[٢] **سورة القمر، الآية: ٩.**

مُتقاربٌ سريعٌ، وهو مع سرعته شاخصٌ متحركٌ، مكتمل السمات والحركات، فهذه جموعٌ خارجةٌ من الأجداث "القبور"[٣] في لحظةٍ واحدةٍ كأنَّهم جرادٌ منتشرٌ لكثرتهم وتموُّجهم في بعضهم من الذُّل والهول والفزع[٤].

وهذا التشبيه يوضح الكثرة المتناهية للبشر حيث يُبعثون دفعةً واحدةً فينهضون من قُبورهم وهم يتراكضون ويتدافعون ويتصادمون، لا يعرفون إلى أين المسير، "كالجراد لا جهة له فيكون أبدًا بعضه على بعضٍ"[١].

فإذا نظرنا إلى ألفاظ التشبيه وجدنا أنَّ لفظة "يخرجون" جاءت بالمضارع مع أنَّ هذا الخروج يكون يوم القيامة وهو أمرٌ مستقبليٌّ، والغرض من ذلك هو استحضار الصورة بهذا المشهد المفزع حتى نشعر أنَّنا نعيشه ونشاهده، ثم ذكره للجار والمجرور في قوله: "من الأجداث" لينبه إلى أنَّ خروجهم ليس من أيِّ مكانٍ بل هو من قبورهم ليثبت للمكذبين المنكرين مبدأ البعث والحساب، وقوله: "كأنَّهم" حيث استخدم أداة التشبيه(كأنَّ) لتكون أكثر قوةً ومشابهةً[٢]، ثم استخدامه "الجراد المنتشر" للتشبيه به دون غيره، لأنَّه يعيش في جماعاتٍ كبيرةٍ فإذا رأى النبات تفرَّق بسرعة وكأنَّ شيئًا أصابه، بالإضافة إلى أنَّ الجراد لا جهة له فيكون أبدًا بعضه على بعض[٣]، فناسبت هذه الصورة للجراد انتشار الناس في فزع يوم القيامة.

فهذا التشبيه موجزٌ مليءٌ بالحركة يصور الناس حين خروجهم من قبورهم ويؤكد ذلك من أنكر البعث والحساب، وقد ركز القرآن الكريم على حركة الجراد في كثرته وتموجه وانتشاره ليصف حركة وحال الفزع والاضطراب الذي أصاب الناس يوم البعث، فناسبت الصورة التشبيهية مقام الحديث وأسلوبه.

---

[٣] **لسان العرب، مصدر سابق، ج٢،(باب الثاء، فصل الجيم)،:١٢٨.**

[٤] **الكشاف، مصدر سابق،ج٤،:٣٧.؛ في ظلال القرآن، مصدر سابق،ج٢٧،:٦٤٨. ؛ مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٩، :٢٩٥.؛ التحرير والتنوير، مصدر سابق،ج٢٧،(باب سورة القمر، الآية: ٦-٨)،:١٧٦.**

[١] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١١٩.**

[٢] **عروس الأفراح، مصدر سابق،ج٢،:١٩٨.**

[٣] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،: ١١٩.**

ويتناول الحديث الشريف "الجراد" في تشبيهه وذلك في قوله ﷺ: **{لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا صِغَارَ الأَعْيُنِ عِرَاضَ الوُجُوهِ، كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ حَدَقُ الجَرَادِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ المِجَانُّ المُطْرِقَةُ، يَنْتَعِلُونَ الشَّعَرَ، وَيَتَّخِذُونَ الدَّرَقَ، يَرْبِطُونَ خَيْلَهُمْ بِالنَّخْلِ}**[٤].

ففي هذا التشبيه يخبر عليه الصلاة والسلام بعلامةٍ من العلامات لا تقوم الساعة حتى تتحقق، وهي مقاتلة المسلمين لقوم صغار الأعين عراض الوجوه ينتعلون الشعر.

وإذا نظرنا إلى ألفاظ التشبيه وجمله وجدنا أنَّ ألفاظه تدور حول: "تقاتلون، مجان، المطرقة، الدَّرق"، وهذه الألفاظ تمثل الآلات الحربية، وإذا قارنا بين هذه الآلات وبين استخدامه للجراد في التشبيه وجدنا أنَّ (الجراد) من الحشرات التي تنقاد لرئيسه فيجتمع كالعسكر إذا ظعن أوله تتابع جميعه، وإذا نزل أوله نزل جميعه"[١].

فناسب استخدام "الجراد" وما فيه من الصفات والخصائص موضوع الحديث وسياقه، وقد اعتمدت الصورة التشبيهية على التفصيل والتحليل، فذكر أولًا أعينهم ووجوههم، ثم أخذ في تفصيل صفة هذه الأعين والوجوه ممَّا أدى إلى ترتيب الصورة في أذهاننا.

بينما نلاحظ أنَّ التشبيه في الحديث الشريف أبرز صفةً خَلقية في الجراد ليصف صفةً أخرى خُلُقية في القوم الذين سوف يقاتلهم المسلمون، فاستخدم الحديث النبوي الصفة الموجودة في الجراد التي تتناسب مع موضوع التشبيه وسياقه، وقد حوت هذه الصورة شيئًا من التحليل والتفصيل بألفاظٍ واضحة سهلة لأنَّ مقام الحديث يستدعي ذلك، فصوره تمثل وصفًا لأناسٍ حذَّر منهم عليه الصلاة والسلام أصحابه فكان لابد من أن تكون هذه الصورة بهذا الوضوح وهذه الدقة.

فـ(الجراد) بهذه الصفات يعد من الحشرات الضارة للإنسان، إلا أنَّ ضرره لا يكون على الإنسان مباشرة، بل على مئونة الإنسان وأرزاقه، فهو من الحشرات التي تهلك النبات وتقضي عليه، وقد كان العرب يعرفونه في جاهليتهم، يدل على ذلك وصفهم له في أشعارهم وتمثيلهم

---

[٤] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الرابع من هذا البحث،:٢٤٤.**

[١] **انظر: الباب الأول، الفصل الثالث، من هذا البحث،:١١٩-١٢٠.**

به، فقد قيل: "جاء القوم كالجراد المشعل"[٢]، من هذا المنطلق جاء ذكر (الجراد) في تشبيه القرآن الكريم والحديث الشريف.

مما سبق نلاحظ أنَّ القرآن الكريم والحديث النبوي قد اشتركا في بعض الموضوعات والعناصر لتكوين الصورة التشبيهية وكانت تلك الموضوعات والعناصر مُستقاةً من صفات وخصائص الحيوان الموجود في البيئة العربية.

وقد اختلف الحيوان باختلاف الغرض المُساق من أجله التشبيه، وكان ذلك في ثوبٍ بلاغيٍّ عالٍ وبألفاظٍ لها إيحاؤُها في خدمة الصورة التشبيهية وتنميتها.

فلكلِّ حيوانٍ صفاتٌ ومميِّزاتٌ يتميَّز بها عن غيره إمَّا في الخَلق أو الطِّباع، وقد اهتمت به جميع الأمم، فوُجد بارزًا في كلامها نثرًا وشعرًا ووُجد منقوشًا على الصُّخور وجُدران الكهوف، وقد كثُر عنصر الحيوان في تشبيه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لعلمهما بصفاتها وأغرب طباعها، فقرَّب تلك المعاني بطريق التشبيه لها بصفات الحيوانات المألوفة وأحوالها.

فالإبل -مثلاً- من الحيوانات التي جعلها القرآن الكريم والحديث الشريف عنصرًا من عناصر الصورة التشبيهية، لأنّ الإبل "من أنفس ما يمتلكه العربيُّ من الحيوانات، ولها صلةٌ وثيقةٌ وعظيمةٌ بحياته في سفره وإقامته، وقد ورد عنصر الإبل في موضعين في القرآن الكريم في قوله تعالى: **{وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}** وفي قوله تعالى: **{كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}**، وفي الآيتين الكريمتين كان القرآن يركِّز في تشبيهه على حجم ولون الإبل في بيان معانٍ أرادها المولى عزَّ وجلَّ من هذين التشبيهين.

وإذا نظرنا إلى التشبيه بالإبل في الحديث النبوي في قوله ﷺ للأعرابي الذي جاء إليه يريد أن ينتفي من ابنه: **{هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ حُمْرٌ. قَالَ: فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ : إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا قَالَ: فَأَنَّى تَرَى ذَلِكَ جَاءَهَا؟}**[١]، نلاحظ أنَّه عليه الصلاة والسلام يستخدم لون الإبل لتهيئة هذا الأعرابي عقليًّا ونفسيًّا لمعرفة حقيقة ما حدث بهذا الغلام.

---

[٢] **انظر: الباب الأول، الفصل الثاني، من هذا البحث،:٩٣.**

[١] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٢٦.**

لقد اعتمد القرآن الكريم والحديث الشريف في هذين التشبيهين على ما يعرفه العرب من الإبل وهم الخبراء بألوانها وأحوالها لتقريب معنىً من المعاني قياسًا على ما أَلِفَه العرب وشاهدوه وعايشوه في بيئتهم.

أما قوله عليه الصلاة والسلام: **{تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَوَ الذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا}**[١]. فقد استخدم حركةً من حركات الإبل أثناء ربطها بالعقال لإيضاح صورة تفلُّت القرآن من المؤمن إن لم يداوم على قراءته وتلاوته.

كما يستخدم عليه الصلاة والسلام الإبل في إثبات أنَّ الإنسان يُولد على الفطرة، وذلك في قوله ﷺ: **{كَمَا تُنْتِجُونَ الإِبِلَ فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُم تَجْدَعُونَهَا}**[٢]، فيثبت عليه الصلاة والسلام بهذه الصورة أنَّ الفطرة ثابتةٌ، وأنَّ التغيُّر الذي يحدث إنَّما يحدث بفعل الأبوين.

ونراه عليه السلام في وصف حوضه وعدد آنيته وحلاوة طعمه ونصاعة لونه نراه يؤكد على حقيقة ثابتة وهي أنَّه يصدُّ أناسًا عن هذا الحوض، ويمثِّل لهم في ذلك بصورة معروفة لديهم، وهو صدُّ إبل الناس عن حياضهم، ليحذِّرهم بهذه الصورة عن مخالفته وترك اتباع سنته من بعده.

ونراه عليه السلام يستخدم الإبل في رسم صورةٍ عظيمةٍ لفرح الله بتوبة عبده وعودته إلى حمى ربه الغفور الرحيم. امتزجت في هذه الصورة مشاعر متباينة من الحزن والخوف والفرح والسرور، اعتمد فيها عليه السلام على علاقة العربيِّ بالإبل ومكانتها عنده وقربها منه وخاصة في أهم الأوقات وأصعبها حين خروجه للسفر بلا أنيس ولا ونيس غير تلك الإبل.

لقد شدَّنا عليه السلام بتلك الصور الرائعة التي استخدم فيها الإبل في تشبيهاته، لقد استخدم عليه الصلاة والسلام في التشبيهات السابقة خصائص الإبل وصفاتها وأحوالها وحركاتها لإبراز معانٍ أرادها عليه الصلاة والسلام من هذه التشبيهات.

---

[١] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٢٩.**

[٢] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٣٥.**

ولم يقتصر القرآن الكريم والحديث الشريف على الإبل في التشبيه بل تناولا حيوانًا آخر له أهميته عند العرب وهو (الكلب)، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}**، حيث أبرز القرآن الكريم صفةً هي من أخصِّ صفات الكلب في تشبيه من يعرض عن ذكر الله ويقبل على الدنيا، ويستخدم الحديث الشريف صفةً أخرى من صفات الكلب للتَّنفير من خُلقٍ وفعلٍ قبيحٍ وهو الرجوع في الصدقة بقوله عليه الصلاة والسلام: **{إِنَّمَا مَثَلُ الذِي يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ ثُمَّ يَعُودُ فِي صَدَقَتِهِ كَمَثَلِ الكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَأْكُلُ قَيْئَهُ}**[١].

ثم يركز عليه الصلاة والسلام في حديثٍ آخرَ على صفةٍ أخرى جُبِل الكلب عليها وهي انبساطه على ذراعيه ويستخدمها عليه الصلاة والسلام في النَّهي عن انبساط الذراع في الصلاة في قوله ﷺ: **{اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ وَلاَ يَبْسُطُ أَحَدُكُمْ ذِرَاعَيْهِ انْبِسَاطَ الكَلْبِ}**[٢].

لقد استخدم كلٌّ من القرآن الكريم والحديث الشريف صفات الكلب البارزة القبيحة للتَّحذير والتَّنفير من أخلاق وأعمالٍ مكروهة، معتمدين على ما يعرفه العرب من مشاهد عن هذا الحيوان.

ولم يكن "الحمار" بأقلَّ حظًّا من الكلب، حيث ورد ذكره في القرآن الكريم والحديث الشريف في مقام الذم والتخويف من أعمال قد تُورد المؤمن النار، وذلك في قوله تعالى: **{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}** في التشبيه لمن أعرض عن ذكر الله وآياته، وقوله تعالى: **{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}**، في وصفه لليهود وتحذير المؤمنين في أن يكونوا كاليهود في حملهم للتوراة والإعراض عن العمل بها.

أما الحديث النبوي فقد استخدم الحمار في أبشع صورة، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: **{أَمَا يَخْشَى الذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ؟}**[٣] وذلك للنهي عن مسابقة الإمام في الرفع من السجود أو الركوع تحذيرًا من هذا العمل، ولم يكتف عليه الصلاة والسلام في استخدامه في هذه الصورة، بل إنَّه أورده في صورةٍ أخرى لا

---

[١] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٧٥.**

[٢] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٧٣.**

[٣] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٩٧.**

تقلُّ بشاعةً عن سابقتها، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: **{يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقَ أَقْتَابُهُ فِي النَّار فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ}**[1]، فهذه الصورة الأليمة المهينة المرعبة كانت لمن يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر فيأتيه، فكان ظاهره يخالف باطنه.

وهذه الصُّور التشبيهية "للحمار" في القرآن الكريم والحديث الشريف استخدم فيها صفات الحمار القبيحة وخصائصه المتعلقة بأعماله المهينة في إبراز وإيضاح معانٍ أرادها القرآن الكريم والحديث الشريف.

ويشبه القرآن الكريم والحديث الشريف بمملكة الحشرات، فأول ما يواجهنا هي صورةٌ من صُور الآخرة جسَّدها القرآن الكريم في قوله تعالى: **{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}**، فعمد عزَّ وجلَّ إلى حركة الفراش وانتشاره في إبراز حال النَّاس يوم القيامة، وقد استخدم الحديث النبوي الشريف نفس الحركة للفراش، ولكن لتصوير حاله عليه الصلاة والسلام مع أمته ومحاولة هدايتهم، وعدم امتثالهم لأوامر الهادي ونواهيه، وإقبالهم على الدنيا المُردية بهم إلى النار، وقد صوَّر ﷺ هذه المعاني بقوله عليه الصلاة والسلام : **{إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُ التِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجُزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا}**[2]، وهذه الصورة تمثِّل وتُبرز حرصه عليه الصلاة والسلام على أمَّته ومعاناته معهم.

لقد اعتمد كلٌّ من القرآن الكريم والحديث الشريف على خاصية الانتشار والتَّهافُت على الشيء في الفراش لتوضيح الصورة وإيصال المعنى المراد من التشبيه.

---

[1] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الأول من هذا البحث،:١٩٨.**

[2] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الرابع من هذا البحث،:٢٤٠.**

ويتناول القرآن الكريم والحديث الشريف حشرةً أخرى تتواجد في البيئة العربية وهي (الجراد)، فيستخدمها القرآن الكريم في وصف أحوال الناس حين خروجهم من القبور ليُثبت البعث ويصف هَلَع النَّاس في ذلك اليوم، فيقول عزَّ وجلَّ: **{يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ}**، فيصف حالهم بصفةٍ من صفات الجراد وهي الانتشار والتفرُّق لوصف خوفهم وفزعهم في ذلك اليوم، بينما نلاحظ أنَّ الحديث الشريف يركِّز على صفةٍ خِلقيَّة في الجراد وهي استدارة عينها وصغرها ليقرِّب صورة قومٍ لم يرهم الصحابة بعد. بل إنَّ خروج هؤلاء القوم هو علامةٌ من علامات الساعة يقول عليه الصلاة والسلام: **{لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا صِغَارَ الأَعْيُنِ عِرَاضَ الوُجُوهِ، كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ حَدَقُ الجَرَادِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ المِجَانُّ المُطْرِقَةُ، يَنْتَعِلُونَ الشَّعَرَ، وَيَتَّخِذُونَ الدَّرَقَ، يَرْبِطُونَ خَيْلَهُمْ بِالنَّخْلِ}**[(١)] فركَّز عليه الصلاة والسلام على صفةٍ أعين الجراد وهي الصِّغر لإبراز المعنى الذي يريده ﷺ.

لقد اشترك الحديث الشريف مع القرآن الكريم في التشبيه بالحيوان في مواضع عديدةٍ، بل لقد اشتركا في التشبيه بالحيوان الواحد في أكثر من موضعٍ وإن اختلف الموضوع والعناصر بما يتناسب مع بيان التشبيه وموضوعه، وكان ذلك كله في بيانٍ بلاغيٍّ راقٍ أخرج لنا صورةً تشبيهيَّةً متحركةً ناطقةً مليئةً بالمعاني والمشاعر المختلفة لتثبيت المعاني في مخيلتنا وأذهاننا.

[(١)] **تقدم تخريجه: الباب الثاني، الفصل الرابع من هذا البحث،:٢٤٤.**

خـاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على الهادي الأمين محمَّد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين. أمَّا بعد:

فهذه الدراسة قد عايشت التشبيه بالحيوان في الحديث النبوي دراسةً وتحليلًا، فيما ورد منها في الكتب الستة، وذلك للتعرف على أنواع الحيوانات التي شبه بها ﷺ في أحاديثه وأسباب اختياره لتلك الحيوانات دون غيرها، وقد حاولت الباحثة أن تكون لهذه الدراسة سماتها البارزة من خلال التحليل للحديث النبوي الشريف، بحيث توضح -قدر المستطاع- دقة اختياره عليه الصلاة والسلام لحيوان دون آخر ووضعه في المقام المناسب في التشبيه، بحيث يؤدي هذا الاختيار إلى بروز ووضوح الصورة الموحية المعبرة، مما أعطى تفردًا للبيان النبوي.

وقد توصلت الباحثة في هذه الدراسة إلى عدة نتائج يمكن تلخيصها في الآتي:

❖ملخص نتائج البحث:

١ – نتائج خاصة بأهمية الحيوان في حياة الإنسان، وهي على النحو التالي:

- لم يكن الإنسان القديم يرى الحيوان شيئًا منفصلًا عنه، بل كان يراه ركنًا رئيسًا في حياته، فاختلط به مما هيَّأ له معرفةً عميقةً بحياة الحيوان وطباعه.

- خلدت أحداثٌ تاريخية بأسماء حيواناتٍ كانت سببًا رئيسًا في هذه الأحداث كحرب البسوس وداحس والغبراء وغيرها، مما يدل على أهمية الحيوان في حياة العربي.

- لقد كانت اعتقادات العرب حول الحيوان، بما فيها من أساطير وخرافات وبما حوت من انطباعاتهم وأخيلتهم صورة صادقة لحياتهم وبيئتهم نتيجة لتعلقهم به وحاجتهم إليه.

- كان الحيوان من بين الصور المهمة لمعبودات الإنسان، إذ كانت تربطه به علاقة قوية، غير أنَّ أهم جانب في تلك العلاقة بين الإنسان والحيوان هو الجانب الديني.

- ورد ذكر الحيوان في القرآن الكريم في بيانٍ لنعمة الله عزَّ وجلَّ على عباده، أو لبيان آية من آياته، أو بيان لعظم قدرة الله عزَّ وجلَّ في الخلق من العدم كما في قصة ناقة صالح.

▪ كانت أكثر أمثال العرب مضروبة بالبهائم فلا يكادون يذمُّون أو يمدحون إلا بها، بل إنَّهم لفرط تعلقهم بها ومعرفتهم بأدق أوصافها، اشتقوا أسماء لأبنائهم من هذه الصفات.

▪ أكثر الشعراء من وصف الحيوان، فقد كانوا لا يدعون شيئًا من صفاته وطباعه وخصائصه إلا صوروه في لوحات تتسم بالحيوية والغنى بالمشاهد والعواطف التي ترتكز على الحركة والتنوع في الصورة، مما يدل على قربهم منه ووجوده الدائم في حياتهم.

٢ – نتائج خاصة بالتشبيه في الحديث النبوي، وهي كالآتي:

▪ وظيفة التشبيه الإخبار للترغيب والتشويق والتخويف والتحذير، وكل ذلك جمعه التشبيه في صور جمالية رائعة.

▪ اعتمد التشبيه على أسلوب الحوار، مما يسهم في توضيح المعنى كما في قوله ﷺ: "هل لك من إبل؟ قال: نعم...".

▪ وردت أداة التشبيه "مثل، مثلهم، كمثل، مثلكم" في التشبيه بالهيئات المركبة التي تحوي تفصيلاً وتحليلاً كقوله ﷺ: "إنَّما مثلي ومثلكم كمثل رجل..."، وقوله: "مثل المنافق..."، وقوله: "إنَّما مثلي ومثل الناس..".

▪ وردت الاستعارة في التشبيه كصورة جزئية داخل التشبيه كقوله ﷺ: "تردون علي غرّاً محجلين...".

▪ وردت الكناية في التشبيه كصورة جزئية داخل التشبيه، كقوله ﷺ: "قريب البيت من الناد...".

▪ تنوعت أدوات التشبيه في الحديث النبوي بما يتناسب مع الصورة التشبيهية، إلا أنَّ (كاف التشبيه) كانت الأكثر استخدامًا، حيث وردت في اثني عشر موضعًا، كقوله ﷺ: "إنَّما الناس كإبل مائة، كالفهدين يلعبان، كما يدور الحمار، كما تأرز الحية، كدوي النحل.."، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره، تليها أداة التشبيه (كأنَّ) حيث وردت في تسعة مواضع، كقوله: "فكأنَّما قرب بدنة، كأنَّها أذناب خيلٍ، كأنَّ أعينهم حدق الجراد."، وغيرها، ثم (مثل) حيث وردت في أربع مواضع كقوله: "حتى يكون مثل الذباب، مثل جناح بعوضة، مثل أفئدة الطير".

▪ لم يرد التوكيد في التشبيه عندما يكون متعلقًا بأمرٍ من أمور الآخرة، وذلك أنَّ المخاطب هم الصحابة ﷺ وهم مصدقون لقوله ﷺ غير شاكين أو مترددين أو منكرين، كقوله ﷺ: "يدخل الجنة.."، وقوله: "يُجاء بالرجل يوم القيامة..."، وقوله: "يُؤتى بالموت...".

▪ جاء التعبير بصيغة أفعل التفضيل في التشبيه "أشد، أبعد، أحلى، أكثر، أحب" وذلك للمبالغة في وصف المشبه والترغيب فيه، كقوله ﷺ: "إنَّ حوضي أبعد من أيلة...".

▪ جاءت الأدوات الاستفهامية في التشبيه "أنَّى، هل، فما، من أين" لتقريب حقيقة غائبة والإقناع بها كما في قوله ﷺ للرجل: "فهل فيها من أورق؟...".

▪ وردت همزة الاستفهام في التشبيه لغرض التشويق والترغيب كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "أيحب أحدكم..."، "أما ترضون أن تكونوا..."، وقد ترد للتقرير كقوله: "أيكم يحب أنَّ هذا له بدرهم...".

▪ كثرت أداة القصر (إنَّما) في التشبيه خاصة عندما يكون التشبيه موجهًا للصحابة ﷺ، إذ أنَّ كثيرًا من الأمور التي شبه بها عليه الصلاة والسلام تكون غير مجهولة لديهم.

▪ تعددت الجمل الشرطية في التشبيه بالإثبات والنفي كما في قوله ﷺ: "من يولد يولد..."، وقوله: "من اغتسل..".

▪ وردت أخبار الآخرة في التشبيه بصيغة المبني للمجهول، وذلك مبالغة في استحضار الصورة وكأنَّها تحدث الآن، كقوله ﷺ: "يُؤتى بالموت..."، وقوله: "يُجاء بالرجل يوم القيامة...".

▪ تقدم الجار والمجرور في التشبيه لأهميته، كما في قوله ﷺ: "تجد فيها راحلة..."، وقوله ﷺ: "تجدون فيها جدعاء...".

▪ استخدم التشبيه حسن التقسيم، وهذا التقسيم لم يترك قسمًا واحدًا ممَّا يقتضيه المعنى، بحيث لو ذُكر كل قسم منفردًا لقام بنفسه ولم يشارك غيره،كقوله ﷺ: "من اغتسل يوم الجمعة..".

▪ ورد أسلوب الجناس في التشبيه في قوله ﷺ: "أنطق أعلق.."، وفي "لا حر ولا قر.."، وفي "اشتف، التف..." مما زاد التشبيه جمالاً.

▪ وردت المقابلة في التشبيه كجزء من الصورة التشبيهية كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "إن دخل فهد وإن خرج أسد..".

▪ ورد التضاد في التشبيه كما في قوله: "تعاظم..تصاغر..."، مما جعل الصورة أكثر عمقًا ووضوحًا.

▪ ورد العدد في التشبيه، وهو لا يُراد به ظاهر معناه، إنَّما الغرض منه التكثير أو التقليل، كما في قوله ﷺ: "فيعلم أو يقرأ آيتين.."، وقوله: "أن يجد فيه ثلاث خلفات..."، وقوله: "ما من ثلاثة...".

▪ اعتمدت الصور التشبيهية في الحديث النبوي على الموروث الثقافي والاجتماعي للعرب، ومع ذلك فإنَّها تُعدُّ دائمة التجدد والجمال في الحديث النبوي.

٣ – نتائج خاصة بالتشبيه بالحيوان في الحديث النبوي، وهي على النحو التالي:

▪ اختيار الرسول ﷺ لأيِّ حيوان يختلف باختلاف صفات كل منها، ومن خلال هذه الصفات والخصائص في أيِّ حيوان تتخذ الصورة التشبيهية أشكالها البلاغية المختلفة والمتميزة التي تستطيع عبرها تصوير الحقائق الفكرية.

▪ اعتمد الرسول عليه الصلاة والسلام من خلال الصورة التشبيهية بالإبل على ما ألفه العرب من مشاهدات في بيئتهم عن هذا الحيوان، وتعلقهم الكبير به، ومكانته العظيمة عندهم. فعمد إلى استخدامه في إبراز المعاني الخيرة الفضيلة كما في قوله: "الناس كإبل مائة.."، وفي القضايا الدينية الجليلة كما في قوله: "تعاهدوا القرآن.."، وفي قوله: "من اغتسل يوم الجمعة..."، وفي إثبات القضايا المهمة كقوله في الفطرة: "من يولد يولد على هذه الفطرة.."، وفي قوله في قضية النسب: "ولعل هذا عرق نزعه.."، وفي الترغيب في الطاعات والبعد عن المعاصي، كما في قوله عن حوضه: "إنَّ حوضي أبعد من أيلة.."، فتناسبت هذه المعاني القيمة مع مكانة الإبل العظيمة عندهم.

▪ استخدم عليه الصلاة والسلام مقدمة "الخيل" في التشبيه للحث على الأمور المحمودة كقوله: "تردون علي غرًّا محجلين.."، وعندما يريد أن ينفر من أمر فإنه يشبه بذنب "الخيل" كما في

قوله: "كأنَّها أذناب خيل شمس.."، فينتزع من صفات الخيل الصورة التي يريدها ثم يجسدها للترغيب أو النهي حسبما يقتضيه المقام.

▪ استطاع عليه الصلاة والسلام في تشبيهه بالكلب أن يبرز صفاته وخصائصه القبيحة السيئة للتحذير والتنفير من العودة في الصدقة كما في قوله: "كمثل الكلب يقيء"، وللتحذير من فعل مكروه في الصلاة كقوله: "اعتدلوا في السجود"، فوصف عليه الصلاة والسلام هذه الصفات القبيحة في الكلب في تشبيهاته به.

▪ شبه عليه الصلاة والسلام بالجدي والغنم والشاة والكبش في مواطن الضعف كما في قوله عن الجدي الأسك: "أيكم يحب أنَّ هذا له..."، وفي مواضع الهوان كما في قوله عن المنافق: "كمثل الشاة العائرة.."، وفي مواضع التضحية كما في قوله عن الموت: "يؤتى بالموت على هيئة كبش.."، معتمدًا في كل ذلك على صفات تلك الحيوانات وخصائصها.

▪ يشبه ﷺ بحيوانات لم تكن موجودة في البيئة العربية إلا أنَّ الصحابة قد رأوها وعرفوها كالخنزير، وذلك لما وجد فيه من قبح في الخلقة والخلق وفساد في الطبع لا يوجد في غيره من الحيوانات، كما في قوله: "من لعب بالنردشير.."، تنفيرًا وتحريمًا لتضييع الأوقات واللهو واللعب بالنردشير أو غيره من الألعاب الملهية.

▪ اختار عليه الصلاة والسلام حيواناتٍ معينة في التشبيه بها كالثور في قوله: "ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود..."، وذلك لأنَّ الثور يتصف بأنَّه أكبر الحيوانات الأليفة التي يتميز وبرها بلونين مختلفين، وذلك لتبشير المسلمين بأنَّهم أكثر أهل الجنة. والبقر في قوله: "معهم سياط كأذناب البقر.."، وذلك أنَّ ذنب البقر يتميز بالطول وهو عريض من الأعلى يتدرج في النحف حتى يصل إلى الأسفل، وقد خصه عليه الصلاة والسلام في وصف قوم يكونون في آخر الزمان.

▪ ركز عليه الصلاة والسلام في تشبيهه بالحمار على صفات القبح والبشاعة في هذا الحيوان بناءً على علم العرب بما يحمله هذا الحيوان من صفات منفرة ومكانة مهينة، فحذَّر من مسابقة الإمام في الصلاة كما في قوله: "يُجاء بالرجل يوم القيامة.."، كما أبرز أهمية الذكر والبعد عن

لهو الحديث بقوله: "ما من قوم يقومون من مجلس،،"، وكل هذه الصفات للحمار وظفها عليه الصلاة والسلام في التشبيه أجمل توظيف.

▪ لم يكن اعتماد الرسول ﷺ على الحيوانات الأليفة وحدها، بل إنَّه اعتمد أيضًا على الحيوانات المفترسة كالأسد، في النهي عن العدوى والجذام في قوله: "لا عدوى ولا طيرة.."، وكالفهد في وصفه أنس وجمال وشجاعة الولدين في حديث أم زرع في قوله: "فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين.."، وكالذئب في التحذير من ترك الجماعة في قوله: "ما من ثلاثة في قرية.."، فوظف صفات هذه الحيوانات المفترسة مع ما يناسب المعنى المجرد الذي يريد تجسيده وإبرازه.

▪ كان من بلاغته ﷺ في اختياره للتشبيه بالزواحف أن عمد إلى التشبيه بحيوان زاحف كثير المشاهدة في البيئة العربية وهي (الحية)، وذلك في وصف عودة الإيمان إلى المدينة بقوله: "إنَّ الإيمان ليأرز إلى المدينة...".

▪ وردت جملة من الطيور في تشبيهاته عليه الصلاة والسلام حيث أبرز من خلالها أمورًا لها أهميتها، وذلك كالترغيب والحث على قراءة القرآن وسورتي البقرة وآل عمران في قوله: "اقرءوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة..."، وفي حسن التوكل على الله عزَّ وجلَّ في قوله: "لو أنَّكم توكلون على الله.."، وفي الحثِّ على رقة القلب والخشوع والإنابة في قوله: "يدخل الجنة أقوام..."، ويستخدم عليه الصلاة والسلام الدجاج في الاستهجان والتقبيح وبيان ضعف الكهان في قوله: "سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان.."، ويشبه عليه الصلاة والسلام بالحمام في وصف أناس يصبغون بالسواد وفي تحريم ذلك العمل بقوله: "يكون قوم يخضبون في آخر الزمان..."، وقد صور ﷺ كل ذلك بما يتناسب مع مقام الحديث وموضوعه.

▪ إنَّ الحشرات في تشبيهاته ﷺ لم تقل أهمية عن غيرها، فقد وظفها عليه الصلاة والسلام توظيفًا بليغًا لإبراز أهم المعاني التي تضمَّنها التشبيه، كبيان أهمية التسبيح والتهليل والتكبير وفضله وعظيم أجره، كما في قوله: "إنَّ مما تذكرون من جلال الله.."، حيث عمد إلى استخدام النحلة في تجسيد ذلك المعنى لمكانتها العالية عند العرب، كما يستخدم عليه الصلاة والسلام الفراش في وصف معاناته مع أمته في الحرص على هدايتهم ووصف العاصي بالفراشة في تهافته على المعاصي التي تؤدي به إلى النار، وذلك في قوله: "إنَّما مثلي ومثلكم كمثل

رجل.."، ويورد ﷺ الجراد في وصف أناس لا تقوم الساعة حتى يقاتلهم المسلمون في قوله: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا.."، حيث يحذرنا عليه الصلاة والسلام من قرب قيام الساعة فنستعد لذلك، وقد استخدم عليه الصلاة والسلام حتى جناح البعوضة في بيان هوان الدنيا عند الله عزَّ وجلَّ في قوله: "لو كانت الدنيا تعدل.."، ويذكر عليه الصلاة والسلام جناح البعوضة في قوله: "إنَّه ليأتي الرجل العظيم السمين..."، وذلك للتخويف والتهويل والتذكير بالعرض أمام الله عزَّ وجلَّ فيزداد المؤمن من الأعمال الصالحة، ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بهذا فحسب بل إنَّه استخدم الذباب أيضًا في تهذيب المسلم وتنبيهه إلى أنَّ الأمور السلبية من سباب وغيره لا تصنع شيئًا، وأنَّ الأمور الحسنة الإيجابية هي التي تفيد صاحبها وتنجيه بإذن الله كما في قوله: "لا تقل تعس الشيطان..".

▪ تأثر رسول الله ﷺ بالقرآن وبلاغته، لذا جاءت تشبيهاته تالية للتشبيهات القرآنية مع بُعد ما بين التشبيهين.

▪ استخدم القرآن الكريم (الإبل) في التشبيه، تخويفًا وتهديدًا وتهويلًا للمكذبين المشركين، والقرآن في تشبيهه بالإبل يعالج قضية عقدية، كما في قوله تعالى في وصف جهنم: "إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ"، وفي قوله: "حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ"، وكان هذا التشبيه في جمل موجزة وبألفاظ قوية صارخة شديدة، ركز فيها القرآن على الشكل الخارجي للإبل من ناحية الحجم والطول، بينما التشبيهات النبوية قد تعددت الموضوعات التي استخدم فيها الحديث النبوي التشبيه بالإبل، وذلك على الرغم من أنَّ من وُجهت إليهم هذه التشبيهات هم من المجتمع المسلم، فكان لا بد من هذا الاختلاف والتنوع لأنَّها تعالج قضايا مختلفة دينية كقوله: "تعاهدوا القرآن.."، واجتماعية كقوله في حديث أم زرع: "زوجي لحم جمل غث.."، وأخلاقية كقوله فمن جاء يريد أن ينتفي من ابنه: "ولعل هذا عرق نزعه.."، ولكل قضية من هذه القضايا سياق خاص بها.

▪ شبه كل من القرآن الكريم والحديث النبوي بالكلب، إلا أنَّ الصورة التشبيهية في القرآن الكريم كانت موجَّهة إلى كل من أعرض عن آيات الله وتبع شهوات الدنيا وزخرفها كما في قوله تعالى: "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ..."، بينما كانت الصورة التشبيهية في الحديث النبوي موجَّهة إلى المؤمنين لتحذيرهم من جملة أفعال مكروهة، كما في الصدقة كقوله: "إنَّما مثل الذي

يتصدق.."، وفي الصلاة كقوله: "اعتدلوا في السجود.."، وفي كلا التشبيهين كان المستخدم الصفات السيئة القبيحة في الكلب، وقد اعتمدا على صور موجزة، لكنها عبَّرت عن المعنى المقصود أكمل تعبير بما حوت من حركة دائمة في كل تشبيه أدى إلى وضوح المعنى ورسوخه في الذهن.

▪ عندما يشبه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بالحمار، ويكون التشبيه موجهًا إلى المؤمنين تكون ألفاظهما واضحة سهلة مرنة لأنَّهما يتعاملان مع قوم مؤمنين مطيعين كما في قوله تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ"، وفي قوله ﷺ في التحذير من مسابقة الإمام في الصلاة: "أما يخشى الذي يرفع رأسه.."، وقوله في التحذير من لهو الحديث: "ما من قوم يقومون.."، وقوله في التحذير من أن يخالف المؤمن ظاهره باطنه: "يُجاء بالرجل.."، فناسب أن يكون التشبيه واضحًا سلسًا يحمل التوجيهات والتعليمات السامية التي يريدانها من هذه التشبيهات.

▪ استخدم القرآن الكريم التشبيه ب(الحية) في قوله تعالى: "فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ..."، في وصف عصا موسى عليه السلام بعد أن حولها عزَّ وجلَّ إلى حية تسعى، بينما استخدمها التشبيه النبوي في قوله ﷺ: "إنَّ الإيمان ليأرز إلى المدينة .."، في وصف عودة الإيمان إلى المدينة في آخر الزمان، فقد استند كل من القرآن الكريم والحديث الشريف في التشبيه بالحية على وجودها وكثرة ومشاهدة الناس لها.

▪ وظف القرآن الكريم والحديث الشريف الطير في تشبيهاتهما، إلا أنَّ القرآن الكريم يستخدم الطير بصفة عامة في بيان قدرة الله على الخلق كما في قوله تعالى: "إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ..."، بينما يذكر الحديث النبوي الطير بصفة عامة في تشبيهاته لخدمة غرض يرمي إليه كقوله ﷺ: "اقرءوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه..."، وقوله: "لو أنَّكم توكلون على الله حق توكله.."، وقوله: "يدخل الجنة أقوامٌ .."، بينما يعدل عن ذلك إلى ذكر طيورٍ بعينها مثل (الدجاج) في قوله: "سأل أناسٌ رسول الله ﷺ عن الكهان.."، ومثل (الحمام) في قوله: "يكون قومٌ يخضبون.."، ذكرها عليه الصلاة والسلام في مواضع حسب ما يقتضيه سياق مقام الحديث.

▪ استخدم كلٌّ من القرآن الكريم والحديث النبوي (الفراش) في تشبيهاتهما، إلا أنَّ القرآن عندما يشبه بالفراش يوجه خطابه للمشركين المنكرين للبعث، في قوله تعالى:"يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ

كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ.."، فكان التشبيه موجزًا مختصرًا على الرغم من أنَّه مليء بالحركة السريعة العشوائية؛ لأنَّ الخطاب فيها كان موجهًا للمشركين المنكرين للبعث والحساب، فأراد المولى عزَّ وجلَّ أن يقلب معتقدًا باطلًا تغلغل في قلوبهم، بينما نلاحظ أنَّ التشبيه بالفراش في الحديث النبوي في قوله: "إنَّما مثلي ومثل الناس..، قد احتوى على صورة مركبة حوت على التفاصيل في لوحة تسلسلية سريعة مليئة بالصراع والمعاناة، وقد استلزمت ذلك، فهي موجهة إلى الصحابة رضي الله عنهم، وإلى كافة أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

- تناول التشبيه في القرآن الكريم (الجراد)، في وصف خروج الناس من قبورهم، كما تناوله في الحديث الشريف فيصف أناسًا يقاتلهم المسلمون، وكان قتالهم شرط لقيام الساعة، وذلك في قوله: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا.."، وقد ركز كل من القرآن الكريم والحديث النبوي على صفة خاصة تميز الجراد عن غيره، إلا أنَّه في الآية الكريمة استخدم حركة الجراد في كثرته وتموجه وانتشاره، ليصف حالة الفزع والاضطراب الذي يصيب الناس يوم البعث، بينما نلاحظ أنَّ التشبيه في الحديث النبوي أبرز صفة خلقية في الجراد ليصف بها صفة أخرى خلقية في قوم سيقاتلهم المسلمون.

❖ التوصيات:

يمكن تصنيف التوصيات وفق الآتي:

١ - توصيات خاصة بالعملية التربوية:

- التركيز والاهتمام بالأبناء منذ نعومة أظافرهم على تلقي اللغة العربية من أصولها الصحيحة من القرآن الكريم والحديث الشريف، مع التطبيق على ما فيهما حتى يترعرعوا على تربية سليمة مما يجعلهم قادرين على التفرقة لما يقرءون ويسمعون.

٢ - توصيات خاصة بعملية تدريس البلاغة:

- أن تُدرس البلاغة العربية في ضوء القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي الفصيح لتقوية ملكة الطلاب والطالبات في مجال الإبداع والخيال.

- أن تعتمد الجامعات في تدريس البلاغة العربية على الحفظ والفهم معًا، وذلك من أمهات الكتب البلاغية، كـ(أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والصناعتين، ونقد الشعر)، وغيرها من أمهات الكتب التي لا يتسع المقام لذكرها، وذلك ليطلع الطلاب والطالبات على أصول هذا العلم ونشأته، وعلى العلماء الذين أسهموا في نشأته وتطوره.

- الاهتمام بتنمية ذوق الطلاب والطالبات في الدرس البلاغي، وذلك عن طريق فهمهم للمصطلحات والتقسيمات البلاغية، وربطها بالتحليل، وإدراك العلاقات، وذلك لتنمية ملكة الخيال لديهم.

- الإفادة من الصور التشبيهية في القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك باتخاذها طريقةً ومنهجًا في توضيح وتجسيد وإبراز المعاني.

❖المقترحات:

يمكن للدراسة الحالية في ضوء النتائج التي انتهت إليها أن تقترح عددًا من الدراسات والبحوث التي تدعم أو تكمل بعض نتائجها، وهي:

- دراسة التشبيه بالحيوان في القرآن الكريم.

- دراسة الموضوعات والعناصر المشتركة بين التشبيه بالحيوان في القرآن الكريم والحديث النبوي.

- دراسة أحاديث التشبيه بالحيوان في الحديث النَّبوي التي اعتمدت على الجملة الشرطية، وتتبع أهمية مثل هذه الدراسة في ظهور الجملة الشرطية في الحديث النبوي.

- دراسة أحاديث التشبيه بالحيوان في الحديث النَّبوي التي اعتمدت على القصر.

- دراسة أحاديث التشبيه بالحيوان في الحديث النَّبوي التي اهتمت بإيضاح وبيان الأحكام الفقهية والتعبدية.

{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}.

الفَهَارِسُ الفَنِّيَّةُ

- **الفهرس اللغوي**
- **فهرس الأعلام**
- **فهرس الشعراء**
- **فهرس الأماكن**
- **المصادر والمراجع**

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــة	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
"أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ"	البقرة	٤٤	١٩٩
"وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ"	البقرة	٦١	٢٨٠
"وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم..."	آل عمران	٤٩	٢٨٨
"وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ"	آل عمران	١٠٣	١٣٣
"لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا..."	آل عمران	١٦٤	٢٦١
"وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا"	النساء	٣٦	٢٥٥
"مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء"	النساء	١٤٣	١٨١
"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا..."	المائدة	٢٧-٣١	٥٤-٥٥
"إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ..."	المائدة	١١٠	٢٨٨
"وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ..."	الأنعام	٣٨	٦-٦١
وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..."	الأنعام	٧٥-٧٩	٥٠
"وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا..."	الأنعام	١٣٩	٤٦
"إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا..."	الأعراف	٤٠	١٦١-٢٦٧
"وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ..."	الأعراف	٤٠	٢٦١-٢٧٧- ٢٦٧

"وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..."	الأعراف	٧٣-٧٩	٥٦
"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا..."	الأعراف	١٧٥	٢٧٤-٢٧٥
"فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ..."	الأعراف	١٧٦	٢٧٤-٢٧٥
"يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا"	هود	٦٢	٥٦
"إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ "	يوسف	٩٤	٢٣٤
"سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ"	الرعد	١٠	٣٥
"لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ"	إبراهيم	٧	٢٣٨
"وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا..."	النحل	٦٨	٩١-١١٨
"تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ..."	الإسراء	٤٤	٦٠-٦١
"وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ"	الكهف	١٨	١٧٤-٢٧٨
"وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ..."	مريم	٣٩	١٨٢
"وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى..."	طه	١٧	٦١
"وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"	الأنبياء	٣٠	٢٥٤
"وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى"	الحج	٢	٣٩٢
"وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ..."	الحج	٣٦	١٥٠
"وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء..."	النور	٤٥	١٠
"هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ"	الشعراء	١٥٥	٥٧
"وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ..."	الشعراء	١٩٢-١٩٤	٢٦٢
"وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ..."	النمل	١٠	٢٨٥
"وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ..."	النمل	١٧	٥٧-٥٨
"رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ..."	النمل	١٩	أ
"وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ..."	النمل	٢٠-٣٧	٥٨-٥٩
"وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ..."	النمل	٩١-٩٢	٢٦٢
"وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ..."	القصص	٣١	٦١
"وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ"	العنكبوت	٦٤	٨
"فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا..."	الروم	٣٠	١٣٨
"إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ"	لقمان	١٩	٢٠٠
"مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ"	فاطر	٤٥	١٠
"الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ..."	يس	٦٥	٢٠٠

"أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا..."	يس	٧١-٧٣	٤٢
"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"	يس	٨٢	٢٠٩
"إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ"	الصافات	١٠	٢٣٠
"وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ..."	الصافات	٩٩- ١١١	٥٥
"لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ..."	فصلت	٤٢	٢٤
"إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى"	النجم	٤	٢
"يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ"	القمر	٩	٢٩٣
"يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم"	الحديد	١٢	١٤٣
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ.."	الصف	٢-٣	١٩٩
"مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا..."	الجمعة	٥	٢٧٩
"وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ..."	الجن	٩	٢٣٢
"فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ..."	المدثر	٤٩-٥١	٢٨٠
"إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا"	الإنسان	٤	٢٦٧
"انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ..."	المرسلات	٣٠-٣٣	٢٦١-٢٦٢
"انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ..."	المرسلات	٣٠-٣٣	٢٦٦
"وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ"	الغاشية	١٦	٢٩٢
"أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ"	الغاشية	١٧	٦٧-١٣٢
"يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ"	القارعة	٣	٢٩١
"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ..."	الفيل	١-٥	٦٢

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس المصطلحات البلاغية

فهرس الحيوانات

فهرس الأبيات الشعرية

قدْ زُرْتِنَا مرةً في الدَّهرِ واحدةً	عودِي ولا تجعلِيهَا بيضَةَ الدِّيكِ	بشار	البسيط	٨٩
لَعَلَّــكَ نَــافِعِي يَــا عُــرْوَ يَوْمًــا	إِذَا جَــاوَرْتُ مِــنْ تَحْــتِ القُبُــورِ	أبوخراش الهذلي	الوافر	٢٦٥
لَكَلَّفْتَنِــي ذَنْــبَ امْــرِئٍ وَتَركْتَــهُ	كَذِي العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ	النابغة	الطويل	٤٧
لها أنْفُ خنزيرٍ وساقا دجَاجَةٍ	ورؤيتُهَا تَـرْحٌ من العيش تارِحُ	أعرابي	الطويل	٨٩
لَــيْسَ بِنَــوَّامٍ كَنَــوْمِ الفَهْــدِ	وَلاَ بِأَكَّــالٍ كَأَكْــلِ العَبْــدِ	راجز	الرجز	٨٦
مُلُوكُ بَنِي العَبَّاسِ فِي الكُتْبِ سَبْعَةٌ	وَلَـمْ تَأْتِنَا فِـي ثَـامِنٍ لَهُـمُ كُتْـبُ	دعبل	الطويل	٧٢
وَأَطْلَـسَ عَسَّـالٍ ومَـا كَـانَ صَـاحِبًا	دَعَــوتُ بِنَــارِي مُوهِنًــا فَأَتَانِيَــا	الفرزدق	الطويل	٦٦
وَحَنَّتْ قَلُوصِي بَعْدَ وَهنٍ وهَاجَها	مَعَ الشَّوقِ يَوْمًا بِالحِجَازِ وَمِيضُ	عبيد بن الأبرص	الطويل	٦٨
والــدَّهرُ لا يَبْقَــى عَلَــى حَدَثَانِــهِ	شَــبَبٌ أَفزَّتْــهُ الكِــلاَبُ مُــرَوِّعُ	أبوذؤيب الهذلي	الكامل	٧٩
وَمَـا يُقِيـمُ بِـدَارِ الـذُّلِّ يَعْرِفُهَـا	إِلاَّ الأَذَلاَّنِ عَيْـرُ الحَـيِّ والوَتَـدُ	المتلمس	البسيط	٨١-٢٨٠
يَــا هنــدُ لاَ تَنْكِحِــي بُوهَــةً	عَلَيــهِ عَقِيقَتُــهُ أَحسَــبَا	امرؤالقيس	المتقارب	٧٥
يَقُولُونَ مَامَا مَنْ يَلُومُ مَقَالَهُمْ	وَقَدْ غَابَ عَنْهُمْ وَجْهُهَا المُتَهَلِّلُ	محمدرجب	الطويل	٩٠

فهرس الأمثال

الفهرس اللغوي

فهرس الأعلام

فهرس الشعراء

فهرس الأماكن

المصادر والمراجع

الرسائل العلمية غير المنشورة:

١. التشبيه التمثيلي في الصحيحين، فائزة سالم صالح، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة أم القرى بمكة المكرمة،كلية اللغة العربية، قسم البلاغة والنقد، ١٤٠٥هـ-١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م- ١٩٨٦م).

٢. التشبيه في صحيح مسلم، أحمد الثقفي، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة أم القرى بمكة المكرمة،كلية اللغة العربية، قسم البلاغة والنقد، ١٤٢٣هـ).

٣. الحيوان في القرآن، دراسة بلاغية،فوزية يوسف البغدادي، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة أم القرى بمكة المكرمة،كلية اللغة العربية، قسم البلاغة والنقد، ١٤٠٥هـ.)

الرسائل العلمية المنشورة:

١. التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي، رسالة ماجستير،(منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية،١٤٠٩هـ).

الكتب:

١. أبجديات البحث في العلوم الشرعية، فريد الأنصاري، ط.١،(الدار البيضاء: منشورات الفرقان، مطبعة النجاح الجديدة،د.ت).

٢. الإبل في التراث العربي، محمد أحمد سلامة، ط.١،(دار الفكر العربي،١٤١٧هـ).

٣. أثر التشبيه في تصوير المعنى، عبد الباري طه سعيد، ط.١، (د.م،١٤١٢هـ).

٤. أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، د.سعدي ضناوي، ط١،(بيروت: دار الفكر اللبناني،١٩٩٣م).

٥. إخوان الصفا وخلاَّن الوفا، جماعة من القرن الرابع الهجري،(بيروت: دار صادر،د.ت).

٦. الأدب النبوي، محمد عبد العزيز الخولي، ط.٤،(بيروت-لبنان: دار المعرفة،١٤٢٣هـ).

٧. أدوات التشبيه، دلالاتها واستعمالاتها في القرآن، محمود موسى حمدان، ط.١،(القاهرة: مطبعة الأمانة،١٤١٣هـ).

٨. أساطير العالم، هيثم هلال، ط١، (بيروت- لبنان: دار المعرفة، ١٤٢٥هـ).

٩. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد الفاضلي، ط.٣، (بيروت-لبنان: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ).

١٠. أشهر الأساطير في التاريخ، مجدي كامل، ط.١،(القاهرة: دار الكتاب، ٢٠٠٣م).

١١. أضواء على البلاغة النبوية، إبراهيم طه الجعلي، ط.١،(مكتبة الرشد،د.ت).

١٢. الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة، حسن ياسين عبد القادر، ط.١،(القاهرة: أميرة للطباعة عابدين،١٤١٧هـ).

١٣. الإعجاز العلمي في السنة النبوية، زغلول النجار، ط.٧،(نهضة مصر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م).

١٤. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، (دار الكتاب العربي،د.ت).

١٥. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني،تحقيق: سمير جابر، ط.١،(بيروت: دار الفكر،د.ت).

١٦. أقيسة النبي، الناصح الحنبلي، تحقيق: أحمد حسن جابر،علي أحمد الخطيب، (مصر: مطبعة السعادة،١٣٩٣هـ).

١٧. الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، (بيروت-لبنان: المكتبة العصرية،د.ت).

١٨. الأنوار الجليَّة في البلاغة النبوية، وليد سعيد عيسى علي شيمي، ط.١، (حائل-المملكة العربية السعودية: دار الأندلس للنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ).

١٩. الأوائل، أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ط.١،(دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ).

٢٠. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، ط.٢، (القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،١٤٢٧هـ).

٢١. البحث العلمي أسسه ومناهجه وأساليبه وإجراءاته، ربحي مصطفى، (عمان: بيت الأفكار الدولية،د.ت).

٢٢. البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، عبد الفتاح لاشين، ط.٤، (القاهرة:دار الفكر العربي، ١٤٢٢هـ).

٢٣. البيان والتبيين، الجاحظ، ط.١(دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ).

٢٤. تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ط.١،(بيروت-لبنان: دارالكتب العلمية،١٤٢٣هـ).

٢٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد الطاهر عاشور التونسي،ط.٤،(تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤م).

٢٦. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، (بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية،د.ت).

٢٧. التصوير البياني، محمد محمد أبو موسى، ط.٦،(القاهرة: مكتبة وهبة،١٤٢٧هـ).

٢٨. التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد الصباغ، ط.١، (المكتب الإسلامي، ١٤٠٩هـ).

٢٩. التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، ط.٦،(القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م).

٣٠. تفسير ابن كثير، إسماعيل بن كثير القرشي، ط.١، (دار المعرفة، ١٤٠٦هـ).

٣١. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، ط.١،طبعة جديدة منقحة، (الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٦هـ).

٣٢. تقريب التهذيب، الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، قدم له وقابله بأصله: محمد عوامة، ط.٢،(حلب-سوريا: دار الرشيد، ١٤٠٨هـ).

٣٣. التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، شرحه: عبد الرحمن البرقوقي، ط.١،(بيروت-لبنان: دار الكتاب العربي،١٩٠٤م).

٣٤. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،(مصر: دار المعارف، ١٩٨٥م).
٣٥. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي، شمس الدين القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، (دار الحديث،د.ت).
٣٦. الجمان في تشبيهات القرآن، أبو القاسم عبد الله بن محمد ابن ناقيا،حققه وشرحه: محمد بن رضوان الداية،ط.١،(دمشق: دار الفكر،١٤٢٣هـ).
٣٧. جمهرة الأمثال، أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ط.١،(صيدا: بيروت، المكتبة العصرية،١٤٢٤هـ).
٣٨. حاشية الدسوقي، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، (دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ).
٣٩. الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، عز الدين علي السيد، (القاهرة: دار الطباعة المحمدية بالأزهر،١٣٩٢هـ-١٩٧٣م).
٤٠. الحشرات في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية والعلم الحديث، عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي،ط.١،(مكتبة الدار العربية للكتاب،د.ت).
٤١. الحصان العربي الأصيل، قبلان غلوب، جروس برس، ط.١، (طرابلس-لبنان، ١٩٨٩م).
٤٢. حوار أم جدل؟، عادل نور الدين، ط.١، (مكتبة الرشد، ١٤٢٧هـ).
٤٣. حياة الحيوان الكبرى، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدُّميري،ط.٢، (بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية،١٤٢٤هـ).
٤٤. الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (مصر: مطبعة مصطفى البابي،١٩٣٨هـ).
٤٥. الحيوان في الأدب العربي، شاكر هادي شاكر، ط.١، (بيروت-لبنان: مكتبة النهضة العربية،١٤٠٥هـ).
٤٦. الخصائص الفنية في الأدب النبوي، محمد سعد الدبل، (أشرفت على طباعته ونشره دار الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،د.ت).

٤٧. الخيل في قصائد الجاهليين والإسلاميين، أحمد إسماعيل أبو يحيى،ط.١،(بيروت-لبنان:المكتبة العصرية،١٤١٧هـ).

٤٨. دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني، شرحه وعلق عليه ووضع فهارسه: محمد التنجي، ط.٣،(بيروت-لبنان: دار الكتاب العربي،١٤٢٠هـ).

٤٩. ديوان ابن الرومي، تحقيق:حسين نصار،ط.١،(دار الكتب المصرية،د.ت).

٥٠. ديوان ابن المعتز، شرح: مجيد طراد، (دار الكتاب العربي،د.ت).

٥١. ديوان أعشى همدان، شرح وتعليق:محمد محمد حسين، ط.٧،(بيروت:مؤسسة الرسالة، د.ت).

٥٢. ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، (مصر:دار المعارف،١٩٦٣-١٩٧٨م).

٥٣. ديوان الشافعي، جمع وتحقيق:زهدي يكن،(بيروت: دار الثقافة،١٩٦٢م).

٥٤. ديوان الفرزدق، شرحه: علي فاعور، ط.١، (دار الكتب العلمية،١٤٠٧هـ).

٥٥. ديوان المتنبي، شرح العكبري، ط.١، (دار الكتب العلمية،١٤١٨هـ).

٥٦. ديوان النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، تحقيق وشرح: كرم البستاني،(دار صادر، ١٩٦٣م).

٥٧. ديوان الهذليين، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر،١٩٦٥م).

٥٨. ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط.٢،(مصر: دار المعارف، ١٩٦٤م).

٥٩. ديوان بشار بن برد، تحقيق وتكملة: محمد الطاهر عاشور،(القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،١٩٥٠-١٩٦٦).

٦٠. ديوان زياد بن معاوية، قدَّم له وبوّبه وشرحه: علي أبو ملحم، ط.١،(بيروت-لبنان: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩١م).

٦١. ديوان طرفة بن العبد،(دار بيروت للطباعة والنشر،١٣٩٩هـ).

٦٢. ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: حسين نصار،ط.١،(دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٧م).

٦٣. ديوان محمد رجب البيومي، ط.٢،(الرياض: من منشورات دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، ١٤٠٤هـ).

٦٤. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق: شعيب الأرناؤوط،عبد القادر الأرناؤوط، ط.٢، (مؤسسة الرسالة،١٤٠٥هـ).
٦٥. سر الفصاحة، عبد الله بن محمد بن سعد بن سنان، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، (مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر).
٦٦. سلوك الحيوان في الشعر الجاهلي، سعد عبد الرحمن العريفي، ط.١، (دمشق- سوريا: دار المجد للطباعة والنشر، ١٤٢٨هـ).
٦٧. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه وعلق عليه:محمد فؤاد عبد الباقي،(دار البيان للتراث،د.ت).
٦٨. سنن أبي داود،سليمان بن الأشعث، ط.١،(بيروت-لبنان: دار الحديث،١٣٩٣هـ).
٦٩. سنن الترمذي، أبو عيسى محمَّد بن عيسى بن سورة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، (لبنان-بيروت: دار الكتب العلمية،د.ت).
٧٠. السياق وتوجيه دلالة النَّص، عيد بلبع،ط.١،(بلنسية للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ).
٧١. سير أعلام النبلاء، محمد أحمد الذهبي، تحقيق:شعيب الأرناؤوط، ط.٦، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ،١٩٨٩م).
٧٢. السيرة النبوية، ابن هشام، محمد بن عبد الملك بن أيوب الحميري، حققها وضبطها وشرحها: مصطفى السقاف، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، (بيروت-لبنان: مؤسسة علوم القرآن،د.ت).
٧٣. شرح سنن ابن ماجه، السيوطي، تحقيق: عبد الغني فخر الحسن الدهلوي، (كراتشي: قديمي كتب خانة).
٧٤. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط.٢،(دار الرشد السعودية،د.ت).
٧٥. الشعر والشعراء،ابن قتيبة،تحقيق:أحمد محمد شاكر، ط٢،(القاهرة: دار الحديث،دت).
٧٦. الشفاء (الطبيعيات)، تحقيق: إبراهيم مدكور، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ).
٧٧. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بَرْدزبَه، (اسطنبول- تركيا: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر،د.ت).

٧٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (لبنان–بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ).

٧٩. صحيح مسلم بشرح النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن أشرف بن مري الحزامي الحواربي الشافعي، (بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية،د.ت).

٨٠. الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق: د.مفيد قمحة، (دار الكتب العلمية،د.ت).

٨١. الصورة البلاغية وأثرها في المتلقي، نجاح الظهار، (تحت الطبع).

٨٢. الصورة الفنية في الحديث النبوي،أحمد ياسوف،ط.١،(سوريه: دار المكتبي، ١٤٢٣هـ).

٨٣. الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، نصرت عبد الرحمن، (عمان–الأردن: مكتبة الأقصى،د.ت).

٨٤. الصيد عند العرب أدواته وطرقه، حيوانه الصائد والمصيد، عبد الرحمن رأفت الباشا، ط.٣، (بيروت–لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ).

٨٥. الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي، بهيج مجيد القنطار، (بيروت–لبنان: دار الأفق الجديدة،د.ت).

٨٦. عبقرية محمد، عباس محمود العقاد، (المكتبة العصرية،د.ت).

٨٧. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ط.١، (مكتبة الثقافة الدينية،٢٠٠٦م).

٨٨. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ط.١،(بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ).

٨٩. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، عبدالرحمن بن علي بن الجوزي،تحقيق:خليل موسى ط.١، (بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية،١٤٠٣هـ).

٩٠. عندما تبكي الفيلة "الحياة الانفعالية عند الحيوان"، جفري ماسون وسوزان مكارثي، ترجمة: نهلة بيضون،ط.١، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٠هـ).

٩١. عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، مع شرح الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية، ط.٢،(دار الكتب العلمية،١٤١٥هـ).

٩٢.عيار الشعر، أبو الحسن بن طباطبا العلوي، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، (القاهرة: مكتبة الخانجي،د.ت).

٩٣.فتح الباري، شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (المكتبة السلفية،د.ت).

٩٤.فصول ومقالات في طبيعة الحيوانات، سعد الدين محمد المكاوي، ط.١، (القاهرة: مكتبة الدار العلمية،٢٠٠٦م).

٩٥.فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر، محمد لطفي الصباغ، ط.١، (بيروت–لبنان: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ).

٩٦.الفن ومذاهبه في الشعر، شوقي ضيف، ط.١، (مصر: دار المعارف،د.ت).

٩٧.في ظلال الحديث النبوي، نور الدين عتر، ط.١،(د.م.١٤٢١هـ).

٩٨.في ظلال القرآن، سيد قطب، ط.٦.(د.م،د.ت).

٩٩.قبسات من التراث الإنساني، إلياس سعد غالي، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٣م).

١٠٠.قصة الديانات، سليمان مظهر، (مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م).

١٠١.قصص الأنبياء، أبو الفداء،إسماعيل بن كثير القرشي، تحقيق ومراجعة: الشيخ خليل الميس، (بيروت– لبنان: دار القلم،د.ت).

١٠٢.الكامل في التاريخ، ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، (دار بيروت للطباعة والنشر،د.ت).

١٠٣.الكشاف، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (بيروت– لبنان: دار المعرفة،د.ت).

١٠٤.الكشكول، بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، ط.١،(بيروت–لبنان: دارالكتب العلمية، ١٤١٨هـ).

١٠٥.كليلة ودمنة، ابن المقفع، (بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية،د.ت).

١٠٦.لسان العرب، ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، ط.١،(بيروت–لبنان: دار صادر،د.ت).

١٠٧.المثل السائر، ابن الأثير،أبو الفتح نصر الله بن محمد الشيباني، ط.١،(مطبعة نهضة مصر،د.ت).

١٠٨. مجمع الأمثال، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (طباعة عيسى البابي الحلبي وشركاه،د.م،د.ت).

١٠٩. مختار الصحاح، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ترتيب: محمود خاطر، تحقيق وضبط: حمزة فتح الله، (مكتبة طيبة،١٤٠٧هـ).

١١٠. المستدرك على الصحيحين،الحاكم، أبو عبد الله،محمد بن عبد الله النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط.١،(بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية،د.ت).

١١١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط.٢،(مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ).

١١٢. معاني الحروف، علي بن عيسى الرماني،حققه: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط.٣، (جدة: دار الشروق،١٤٠٤هـ).

١١٣. المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، عبد الفتاح لاشين، ط.٤، (القاهرة:دار الفكر العربي،١٤٢٤هـ).

١١٤. معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، ط.٤،(جدة: دار المنارة، ١٤١٨هـ).

١١٥. معجم البلدان، ياقوت الحموي، (بيروت: دار الفكر،د.ت).

١١٦. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،(دار الفكر،١٣٩٩هـ).

١١٧. مفاتيح الغيب من القرآن الكريم، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي،(دار إحياء التراث العربي،د.ت).

١١٨. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط.٢،(بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٦م).

١١٩. من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف، د.فتحية محمود فرج العقدة، ط.١،(مطبعة الأمانة،١٤١٤هـ).

١٢٠. من بلاغة الحديث الشريف،عبد الفتاح لاشين،(جدة:دار عكاظ للطباعة والنشر، د.ت).

١٢١. موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي، أحمد شوقي إبراهيم، ط.١،(نهضة مصر للطباعة والنشر،د.ت).

١٢٢. موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي الشريف، عبد الرحيم مارديني، ط.١، (دمشق: دار المحبة للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م).
١٢٣. موسوعة الحيوان، إعداد: غراتا قره بتيان،ط.١،(الدار العربية للعلوم،١٤١٨هـ).
١٢٤. الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية، أحمد مصطفى متولي، ط.١،(دار ابن الجوزي).
١٢٥. موسوعة مملكة الحيوانات، إعداد: د.حمود الغزلاني، صححها ورتبها وأشرف عليها: محمد عبد الرحيم، ط.١، (دار الراتب الجامعية، ١٤٢٤هـ).
١٢٦. الناقة في الشعر الجاهلي، حنًّا نصر الحتِّي، ط.١، (بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ).
١٢٧. النبات والإنبات والحيوانات والحشرات، خالد فائق العبيدي، ط.١، (بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ).
١٢٨. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: جماعة من العلماء والأدباء، (دار الكتب المصرية، ١٩٢٣م).
١٢٩. نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب،شرح الشيخ: محمد عبده، مراجعة وتدقيق: أحمد إبراهيم زهوه.،ط.١،(بيروت-لبنان: دار الكتاب العربي،١٤٢٥هـ).
١٣٠. الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي عبد العزيز الجرجاني،تحقيق: هاشم الشاذلي، (دمشق-سوريا: دار إحياء الكتب العربية،د.ت).

المجلات:

١. مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي،مقال:د:عبد المجيد قطامش، (ع٤ ١٤٠١هـ).
٢. المجلة العلمية للتمريض، تصدرها كلية التمريض، جامعة بغداد، مقال: د.نهى عناية الحسناوي، د.عائد صباح النصيري، (ع١، السنة: ٢٠٠٨م).

فهرس المحتويات

الموضوع..**رقم الصفحة**